الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر

باتنة

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

و العلوم الإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة التاريخ

العـــــــنوان

الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن

7-10هـ/13-16م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب :

عبد المالك بكاي

إشراف الأستاذ

أ.د مسعود مزهودي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
رشيد باقة	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
مسعود مزهودي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
علاوة عمارة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا مناقشا
كمال بن مارس	أستاذ التعليم العالي	جامعة قالمة	عضوا مناقشا
مسعود خالدي	أستاذ محاضر	جامعة قالمة	عضوا مناقشا
مسعود شباحي	استاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2013–2014

1434–1435

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــــداء

إلى من تتسابق الكلمات لتخرج معبرة عن مكنون ذاتها ، من علمتني و عانت الصعاب لأصل إلى ما أنا فيه ، و عندما تكسوني الهموم أسبح في بحر حنانها ليخفف من آلامي . . . أمي

إلى من كلل العرق جبينه ، و شققت الأيام يديه ، إلى من علمني أن الأعمال الكبيرة لا تتم إلا بالصبر و العزيمة و الإصرار ، إلى والدي أطال الله في بقاءه و ألبسه ثوب الصحة والعافية و متعني ببره و رد جميله ، أهدي ثمرة من ثمار غرسه.

إلى من شملوني بالعطف و أمدوني بالعون و حفزوني للتقدم ، أخي ، و أخواتي.

بكل حب إلى رفيقة دربي من سارت معي نحو الحلم خطوة بخطوة بذرناه معا و حصدناه معا و سنبقى معا بإذن الله . . . زوجتي .

إلى فلذأ كبدي براءة ، مصعب . . . أبنائي

إلى هؤلاء أهدي ثمرة جهدي

شـــــكر و تقـــــدير :

لا يسعني في هذا المقام إلا أن انحني تواضعا أمام أستاذي الأستاذ الدكتور مسعود مزهودي .

و أتقدم له بالشكر الجزيل على قبوله الإشراف على هذا البحث و تتبع مراحله لمّا كان إشكالا و تساؤلا ، إذ بفضل نصائحه و توجيهاته ارتسمت معالم و طرق طرحه و سبل ولوج أبواب البحث فيه ، ثم عاينه و سهر على متابعته إلى أن استوى أطروحة قابلة للمناقشة ، وكل ذلك على حساب أموره و شؤونه الخاصة ، و أشهد بالمناسبة أنه أسرني بتواضعه و حسن توجيهه فجزاه الله عني و عن باقي الباحثين خير الجزاء .

مقدمة :

شق البحث في تاريخ بوادي و أرياف المغرب الإسلامي طريقه نحو الظهور و التبلور و ذلك بفضل الدراسات التاريخية الحديثة التي قام بها مجموعة من الباحثين في أقطار المغرب ، و نحت هذه الدراسات منحى مغايرا للدراسات الكلاسيكية القديمة التي ركزت اهتمامها على التاريخ السياسي وللمدن فقط دون الاهتمام بالأرياف ، و هو ما تؤكده بدايات هذا الاتجاه الدراسي في التاريخ حيث وسم بتاريخ المسكوت عنه .

و على الرغم من أن هذه الدراسات تصنف في خانة الدراسات الهامة و الجادة إلا أنها كانت مجزأة و لم تتناول كل أقطار المغرب بل تناولت قطرا دون الآخر[1] .

و تحت هذا الإطار ارتأينا التركيز في دراستنا هذه على جزئية من تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط ، و البحث عن تاريخها السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي فكان عنوان الدراسة ب " الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-10هـ / 13-16 م .

أ / دواعي اختيار الموضوع :

يستند اختيار هذا الموضوع إلى أسباب عدة لعل من أهمها القناعة بأن لأرياف المغرب الأوسط تاريخ لا يختلف عن تاريخ المدن ، غير أنه حسب علمنا لم يحظ بدراسة مختصة شاملة إلى يومنا رغم الأهمية الكبرى للأرياف على اعتبار أنها ممول المدينة بما تحتاجه في حياتها اليومية ، ومن ثم وجب أن ينال هذا الحيز الجغرافي و العمراني حظه من التاريخ و الدراسة .

وكذلك الابتعاد عن المواضيع التي تنظر في التاريخ السياسي للمدن والحواضر ، و ما يصاحب ذلك من تأريخ للأسر الحاكمة و التي نالت نصيبها من الكتابة التاريخية سواء من قبل المصادر أو

---

[1] انظر في هذا المجال : محمد حسن : المدينة و البادية بإفريقية في العهد الحفصي ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة تونس الأولى ، تونس ، 1999 ،

محمد مزين : فاس و باديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637 ، ط1 ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط ، 1986 .

المراجع [1] ، و بذلك السعي إلى إثراء تاريخ المغرب الأوسط بالتنقيب والبحث في تاريخه المنسي و المغيب .

كما أردنا البحث أيضا عن نظم الحياة في الأرياف المغربية و ذلك بدراسة الحياة السياسية والاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية ، لأن عزوف المصادر و المراجع عن تناولها جعلنا نعتقد في البداية أن مظاهر الحياة مختلفة في الأرياف عن المدن و الحواضر .

2/ إشكالية البحث :

يحاول هذا البحث الإجابة عن مجموعة من التساؤلات منها :

1/ كيف كانت الحياة السياسية في ريف المغرب الأوسط ؟ و هل كان للوضع السياسي في مدن المغرب الأوسط دورا في رسم معالمه السياسية ؟

2/ إذا كانت مدن المغرب عبارة عن مزيج من الأجناس المتفاعلة فهل ريف المغرب الأوسط شهد هذا التمازج ؟ و ما هو تأثيره على بنية المجتمع الريفي من حيث العادات و التقاليد و الذهنيات ؟

3/ اعتبرت المرأة هي اللبنة الأساسية لبناء الأسرة و المجتمع ، فكيف كانت مكانة المرأة في أرياف المغرب الأوسط في هذه الفترة ؟

4/ كيف كان الوضع الاقتصادي في أرياف المغرب الأوسط ؟و ما هي المؤثرات التي فعلت في هذا الاقتصاد من حيث الإنتاج ؟

---

[1] يمكن القول أن المصادر التي بين يدينا تقريبا كلها كان الهدف منها التأريخ للأسر الحاكمة ، و هي بذلك تكون همشت عن قصد أو عن غير قصد الحديث عن سكان الأرياف إلا ما ورد عرضا ، إما أثناء الحديث عن سير السلطان في غزوة أو صيد ، أنظر في هذا المجال مثلا : يحي بن خلدون : بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، تقديم و تح و تعليق عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980 ، محمد بن مرزوق التلمساني : المسند الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة و تحقيق ماريا خيسوس بيفيرا ، تقديم محمود بوعياد ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح و تقديم الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس لبيا ، 1984 ، أما بالنسبة للمراجع فنذكر على سبيل المثال : عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني ، حياته و آثاره ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 ، نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي : الدولة المرينية في السلطان يوسف بن يعقوب المريني (685-706هـ /1286-1306) ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي بكلية التربية جامعة الموصل ، 2004 ، أحمد بن عامر : الدولة الحفصية صفحات خالدة من تاريخنا المجيد ، ط1 ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1974 .

5/ اعتبرت المدينة هي مركز الإشعاع الحضاري و الثقافي في تاريخ المغرب في العصر الوسيط فهل كان الريف مغيب ثقافيا في هذه الفترة أم كان له نصيب من هذا الإشعاع ؟

الدراسات السابقة :

أثناء دراستنا لهذا الموضوع كان علينا لزاما الإطلاع على الدراسات التي تناولت التأريخ لأرياف المغرب في العصر الإسلامي ، و ذلك ليسهل علينا الإحاطة بجوانبه ، و كذا الاستفادة منها في كيفية التعامل مع مصادره ،لأن هذا الموضوع لا يزال خصبا و يتطلب البحث فيه جهودا كبيرة للإلمام بجوانبه، ومن بين الدراسات التي استعنا بها تلك التي أعدها الباحث المغربي محمد مزين " فاس و باديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637م "[1] ، و رغم أن هذه الدراسة تتناول المغرب الأقصى في نهاية العصر الوسيط إلا أنها تبقى مهمة لأي باحث يتصدى البحث لتاريخ الأرياف و البوادي وخاصة في الجانب المنهجي .

و هناك دراسة أخرى أعدها الباحث المغربي محمد حجاج طويل بعنوان الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ، و هي عبارة عن رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس الرباط في السنة الجامعية 1987-1988 ، و رغم أن هذه الرسالة تناولت الفلاحة في المغرب الأقصى إلا أن إفادتنا منها كان بما يخدم الموضوع خاصة ما تعلق بالأمور العامة و التي يمكن أن تكون في المغرب الأقصى كما يمكن أن تكون في المغرب الأوسط كأدوات العمل الزراعي مثلا .

كما استعنا بالدراسة التي أعدها الباحث محمد مقر و الموسومة باللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي و خاصة في معرفة الألبسة المنتشرة في هذه الفترة و كذا طريقة تصنيع هذه الألبسة و المواد المستعملة في تصنيعها .

كما اعتمدنا على كتاب تلمسان في العهد الزياني لعبد العزيز فيلالي ، و إن كانت هذه الدراسة تعتبر عامة ، تناول فيها الباحث مدينة تلمسان و جوانب الحياة فيها ، فقد أعانتنا في كل فصول البحث تقريبا ، و رغم أن صاحبها تناول تاريخ المدينة إلا أنه في كثير من المرات كان يعرج على ذكر بعض أحواز المدينة ، و التي يمكن أن تكون أريافا ، كما أنه لا توجد اختلافات كثيرة بين ما كان موجودا في المدينة وما وجد في الريف .

---

[1] أصل هذا العمل هو رسالة جامعية تقدم به الطالب لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب و الرباط 1979.

كما اعتمدنا على كتاب القبائل العربية في المغرب في عصري المرابطين و الموحدين و بني مرين، لمصطفى أبو ضيف ، والذي استعنا به أثناء حديثنا عن الإمارات العربية التي قامت في أرياف المغرب الأوسط .

4/ الصعوبات :

أثناء دراستـــنا لهذا الموضوع واجهتنا مجموعة من الصعوبات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

1/ تنوع و توزع مصادر البحث في مثل هذه المواضيع ، ومن ثم وجب على الباحث التعامل مع هذه المصادر و منها كتب التاريخ و كتب الجغرافيا و كتب الفقه و النوازل و كتب الحسبة بالإضافة إلى ذلك كتب المناقب .

2/ صعوبة التعامل مع بعض المصادر مثل كتب الفقه و النوازل إذ أنها تذكر بعض الأمور المتعلقة بمظاهر الحياة غير أنها توردها كأسئلة فقهية و تظهر صعوبة التعامل معها في كون هل هذه الأسئلة واقعية و حدثت فعلا أم هي مجردة و مفترضة ، كما أن المصادر التاريخية تركز على الحياة السياسية و لا تورد المظاهر الأخرى إلا ما كان عرضا .

3/ صعوبة التعامل مع الموضوع في حد ذاته كونه مازال حديثا و لم ينل حقه من الكتابة التاريخية خاصة إذا تعلق الأمر بالمغرب الأوسط في فترة الدراسة .

نأمل أن نكون قد وفقنا في طرق الموضوع ، وهنا نقول أننا نحاول فتح نافذة جديدة للبحث في هذا المجال .

5/ المنهج المتبع :

يمكن القول أننا اعتمدنا في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وذلك بقراءة المادة المتاحة قراءة و صفية تحليلية ، كما اعتمدنا على المنهج المقارن من خلال عرض النصوص الموجودة بين أيدينا و المقارنة بينها ، و إذا وجد تناقض بين النصوص المعروضة للمقارنة نحاول أن نقوم بعملية البحث عن الحقيقة التاريخية و ذلك بترجيح نص على حساب النص الآخر ، و ذلك بإخضاع ما أورده كل نص للنقد التاريخي ، و هو ما وضع البحث في سياق المنهج النقدي ، كما افدنا من المنهج الإحصائي في بعض الأحيان في مواضع الحاجة إليه .

6/هيكل البحث :

قمنا بتقسيم هذه الدراسة بما اقتضته المادة الخبرية إلى مدخل و أربعة فصول بعد المقدمة و التي عرضنا فيها الخطوات التي اتبعناها في انجاز هذا البحث و دراسة لأهم المصادر و المراجع المعتمدة فيه .

وكان المدخل للتعريف بمفهوم الريف و المدينة في اللغة و الاصطلاح و كذا الحديث عن حدود ريف المغرب الأوسط و جدلية العلاقة بين الريف و المدينة .

و كان الفصل الأول مخصصا للحديث عن مساهمة الريف الحياة السياسية ، و تبرز أهمية هذا الفصل بالنسبة للدراسة أنه من خلاله عرفنا أن الوضع السياسي في أرياف المغرب الوسط في فترة الدراسة لم يكن مستقرا و ذلك بسبب الحروب التي كانت بين الزيانيين و الحفصيين من جهة و الزيانيين و المرينيين من جهة أخرى ، و كذا الصراع داخل البيت الزياني و ما كان له ن تأثير على الوضع ، و كذا قيام الإمارات المستقلة في أرياف المغرب الأوسط .

أما الفصل الثاني فتناولنا فيه مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية و التي قسمناها بدورها إلى عناصر السكان و ذلك لأن الأرياف المغرب الأوسط كانت مزيجا من العناصر ، ثم انتقلنا للحديث عن الطعام واللباس و السكن و الذي يعتبر من صلب الحياة اليومية ، ثم تكلمنا عن العادات و التقاليد و التي تعتبر من صلب الحياة الاجتماعية ، و انتقلنا بعدها للحديث عن نظرة سكان الأرياف إلى المرض وإلى الموت كون ذلك كان نابعا من ذهنيات ارتبطت بهؤلاء السكان ، ثم تحدثنا عن الأسرة الريفية و مكانة المرأة في المجتمع كون المرأة و الأسرة هما اللبنة الأساسية لبناء المجتمع .

في حين كان الفصل الثالث للحديث عن مساهمة الريف في الحياة الاقتصادية إذ بدأنا بالفلاحة و التي تنقسم إلى قسمين الزراعة و الرعي ، فتناولنا في الزراعة أدوات العمل الزراعي و أهم المنتجات الزراعية ، بينما في الرعي كان الحديث عن أهم القطعان الموجودة في أرياف المغرب و مناطق تواجدها ، ثم انتقلنا للحديث عن الصيد على اعتبار أنه كان مهنة ممارسة في أرياف المغرب الأوسط و أسباب ممارسة هذه المهنة ، ثم تطرقنا إلى الصناعة على اعتبار أنها قطعة أساسية في السلم الاقتصادي ، وتكلمنا فيها عن الصناعات الموجودة في الأرياف ، ثم عرجنا على دراسة التجارة التي وجدت في أرياف المغرب الأوسط لكن بما وجدت فيه من إمكانات.

و خصصنا الفصل الرابع للحديث عن مساهمة الريف في الحياة الثقافية و تطرقنا فيه إلى المؤسسات الثقافية الموجودة من زوايا و مساجد ومدارس و ذكر أهمها و أماكن تواجدها ، ثم تطرقنا

إلى التعليم و الحركة التعليمية ، ثم انتقلنا للحديث عن أنواع العلوم إذ هناك علوم عقيلة و علوم نقلية، ثم عرجنا إلى الحديث عن علاقة العلماء بالسلطان حيث كان للسلطان تدخل في الحياة الثقافية وكان في مرات تدخل إيجابي و مرات أخرى سلبي .

و انتهينا في بحثنا إلى خاتمة كانت عبارة عن حوصلة للنتائج المتوصل إليها من خلال دراسة هذا الموضوع .

دراسة المصادر و المراجع :

اقتضى البحث في الحياة الريفية على الاعتماد على أصناف مختلفة و متنوعة من المصادر سنحاول هنا عرض أهمها على حسب خدمتها و أهميتها بالنسبة للموضوع .

1/كتب التاريخ :

يعتبر هذا النوع من الكتب من الضروريات في البحث التاريخي ، رغم أنها في مجملها تتناول التاريخ السياسي ، لكن هذا لا يعني أنها تخلوا من بعض المعلومات الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية، وسنحاول هنا أن نقتصر على أهم المصادر التاريخية الخادمة للبحث .

1-1ابن أبي زرع :علي الفاسي (ت 726-1325م)

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس [1]

يعتبر هذا المصدر خاصا بتاريخ المغرب الأقصى ، لكن هذا لم يمنع صاحبه من التحدث عن الأحداث الهامة التي شهدها المغرب الأوسط، خاصة في الفترة الزيانية و نخص بالذكر الصراع العسكري الذي كان بينهم و بين بني مرين و هو ما اعتمدنا عليه في هذه الدراسة ، و أفادنا أيضا أثناء حديثنا عن مشاركة الريف في الحياة الاجتماعية و خاصة أثناء حديثنا عن مكانة المرأة في ريف الأوسط، واعتمدنا عليه أيضا أثناء حديثنا عن مساهمة الريف في الحياة الاقتصادية ،خاصة أثناء حديثنا على المجاعات أسبابها و تأثيراتها و طرق مواجهتا ، كما أفادنا في معرفة أسعار بعض المواد سواء في فترات الأزمات أو في الأوقات العادية .

1-2يحي بن خلدون : أبو زكريا (ت 780هـ/1378م)

[1] دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط ، 1972 .

بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد

و هو مُؤلَف يتحدث عن تاريخ الدولة الزيانية من نشأتها إلى عصر صاحب الكتاب (عصر أبو حمو موسى الثاني 760-791هـ /1359-1389م) ، وقد حرره صاحبه بطلب من السلطان الزياني من أجل تخليد أمجاده و من سبقه من سلاطين ، و يعتبر هذا كتاب من المصادر المهمة لدراسة هذه الفترة ، لكونه شاهد عيان على الفترة ، غير أن صاحبه كان في الكثير من المرات يذكر أمجاد الدولة وانتصاراتها أما هزائمها فيمر عليها مرورا سريعا ، و أفادنا هذا المصدر في جل هذه الدراسة وخاصة أثناء حديثنا عن مساهمة الريف في الحياة السياسية كون صاحبه مؤرخ للدولة الزيانية التي كانت تحكم بلاد المغرب الأوسط في فترة الدراسة ، و اعتمدنا عليه في مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية ، و ذلك أثناء حديثنا عن أهل الذمة خاصة النصارى ، كما أفادنا أثناء حديثنا عن المجاعات التي ضربت أرياف المغرب الأوسط ، و الطرق التي واجهت بها الدولة هذه المجاعات ،كما استعنا به في مساهمة الريف في الحياة الثقافية و ذلك بالحديث عن المدارس ، و عن علاقة العلماء بالسلطان .

1-3ابن خلدون :عبد الرحمن أبو زيد (ت 808هـ/1405م) :

العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر [1].

يعد كتاب العبر من أهم المصادر التاريخية ، و قد استطاع صاحبه أن يغطي أحداث و أخبار سياسية و عسكرية و حضارية لدول و مجتمعات و قبائل منذ بداية الخلق و إلى عصره ، أفادنا هذا المصدر في جزئيه السادس و السابع و ذلك في رصد الأحداث السياسية التي عرفتها أرياف المغرب الأوسط و كذا الإمارات التي قامت فيه ، و اعتمدناه أثناء دارستنا لمساهمة الريف في الحياة الاجتماعية وذلك بالحديث عن أهم العناصر السكانية وما كان لها من تأثير على مختلف مظاهر الحياة من عادات وتقاليد ، كما أفادنا أثناء الحديث عن مساهمة الريف في الحياة الاقتصادية ، و ذلك في حديثنا عن بعض المحاصيل الزراعية ، و المجاعات التي ضربت أرياف المغرب الأوسط ،و الحديث عن الأسعار،وأثناء حديثنا عن الثروة الحيوانية.

1-4التنسي : محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت 899هـ /1493م)

---

[1] مطبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط1 ، القاهرة ، 2007 .

تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدرر و العقيان في بيان شرف بني زيان [1]:

يشتمل هذا الكتاب على التأريخ للدولة الزيانية منذ نشأتها إلى عصر المؤلف (المتوكل على الله 866-873هـ /1461-1468م) ، اعتمد المؤلف في كتابه على كتاب يحي بن خلدون و كتاب زهر البستان و نلاحظ أنه في كثير من الأحيان كان ينقل نقلا حرفيا عن بغية الرواد ، غير أن أهميته تكون ما بعد مقتل يحي بن خلدون كونه يعتبر أهم من أرخ لهذه الفترة ، و استعنا بهذا الكتاب في جل الدراسة ، في الحياة السياسية أثناء الحديث عن الحروب التي كانت بين الزيانيين مع بني مرين و بني حفص و أهم الأرياف التي مستها هذه الحروب ، كما اعتمدنا عليه أثناء الحديث عن مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية ، ومن ذلك مكانة الأشراف ، و أثناء الحديث عن بعض العادات و التقاليد التي كانت في أرياف المغرب الأوسط و نخص بالذكر الاحتفال بالمولد النبوي .

2/كتب الجغرافيا :

لا تقل كتب الجغرافيا أهمية عن كتب التاريخ في دراسة مثل هذا النوع من المواضيع ،كونها تحتوي على مادة خبرية تغطي كل نواحي الحياة من سياسية و اجتماعية و اقتصادية و ثقافية .

2-1الحميري : محمد بن عبد المنعم السبتي (ت أواخر القرن 9هـ /15م)

الروض المعطار في خبر الأقطار [2].

هذا الكتاب عبارة عن معجم جغرافي تناول فيه صاحبه المناطق التي زارها كما اعتمد على المصادر الجغرافية التي سبقته كمؤلفات البكري و الإدريسي ، وقد اعتمد في تبويب كتابه على ترتيب المناطق على حسب الحروف الهجائية ، استفدنا من هذا الكتاب في التعريف ببعض الأماكن الجغرافية، كما أفادنا أثناء الحديث عن الحياة الاقتصادية ، و خاصة لما تطرقنا إلى خدمة الأرض و أهم المحاصيل الزراعية و مناطق إنتاجها ، و كذا أثناء الحديث عن السقي و الوديان التي استعملت في ذلك ، و في الصناعة اعتمدناه أثناء الحديث المنسوجات و الصباغة ، وكذلك أثناء الحديث عن التجارة و الأسواق التي وجدت في أرياف المغرب الأوسط .

2-2الحسن الوزان : الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت 957هـ /1552م)

---

[1] تحقيق و تعليق محمود بوعياد المؤسسة الوطنية للكتاب ، المكتبة الوطنية الجزائر ، 1985 .

[2] تح إحسان عباس ،ط2 ، مكتبة لبنان ،مطبعة هيدلبرغ ، بيروت ، 1984 .

وصف إفريقيا [1]

يمثل كتاب الحسن الوزان جغرافية العامة لبلاد المغرب و أواسط إفريقيا و مصر و القسطنطنية وغيرها و قد ختم كتابه بالحديث عن أهم الحيوانات الموجودة في المناطق التي زارها ، و لا يعتبر كتابه كله عبارة عن وصف لما شاهده بن اعتمد على المصادر الجغرافية التي سبقته كمؤلفات البكري والإدريسي ، و قد استفدنا من هذا المصدر في التعريف ببعض المناطق الجغرافية ، و كذا أثناء حديثنا عن مساهمة الريف في الاجتماعية ، و ذلك أثناء حديثنا عن أصناف المجتمع و خاصة إثبات وجود طائفة مسيحية في أرياف المغرب الأوسط ، كما أفادنا في معرفة الطعام و مصادره و اللباس و السكن و موصفاتهما ، ومعرفة بعض العادات و التقاليد سواء ما كان حميدا مستحسنا أو ذميما مستهجنا ، أما في الناحية الاقتصادية فاستأنسنا به في معرفة نوعية التربة و أهم المحاصيل الزراعية ، و عرفنا على بعض السبل في مواجهة المجاعات و اعتمدنا عليه في معرفة بعض طرق الصيد و ما كان يصاد ،في الصناعة استفدنا منه في عرفة أهم الصناعات و المواد التي اعتمدتها و أماكن تواجدها كما أفادنا في الحديث عن التجارة الريفية من حيث معرفة أهم ما كان يباع و مناطق تواجد الأسواق .

مارمول كربخال : (عاش في القرن 10 هـ / 16م)

2-3كتاب إفريقيا [2]:

ألف مارمول كربخال هذا الكتاب بطلب من الإمبراطور شارلكان ، طبع في ثلاثة أجزاء ، وله أهمية كبرى في دراسة جوانب مهمة من تاريخ بلاد المغرب و إن كان مارمول كربخال كان في كثير من المرات يستعمل النقل الحرفي عن مؤلف الحسن الوزان حتى يخيل للقارئ أنه يتعامل مع كتاب وصف إفريقيا، و رغم هذا اعتمدنا على الكتاب في فترات كثيرة من البحث ومن ذلك التعريف ببعض الأماكن و كذا أثناء الحديث عن مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية ، ومن ذلك تواجد النصارى، وكذا الطعام و مصادره و اللباس و السكن و صفتهما من حيث الجودة و الرداءة ، و أفادنا أثناء الحديث عن الأسرة الريفية، أما فائدته في الحياة الاقتصادية ، فإنه دلنا على نوعية المحاصيل الزراعية وأماكن زراعتها ، و طرق السقي و أهم ما حوته أرياف المغرب الأوسط من ثروة حيوانية ،كما

---

[1] تر محمد حجي و محمد الأخضر ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 .

[2] تر محمد حجي و آخرون ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1984 .

استسقينا منه أهم الصناعات ، و في التجارة وجهنا إلى معرفة السلع المتداولة و الأسواق و مداخيل التجارة .

3/كتب الفقه والنوازل :

تعد كتب الفقه والنوازل بالنسبة لهذا البحث مصدرا هاما لاحتوائها على عدد من المعلومات حول الجانب الاجتماعي و الاقتصادي و اعتمدنا على ثلاث موسوعات فقهية لثلاث فقهاء من المغرب.

3-1 **البرزلي** : أبو القاسم أحمد البلوي التونسي (ت 841هـ/1438 م) :

كتابه عرف بالفتاوى أو النوازل أو ديوان البرزلي وقد اختار له المؤلف في مقدمته عنوانا فقال" وسميته بجامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام "[1] ، وقد عمد البرزلي على تبويب الكتاب – الذي يحتوي في طبعته التي طبعتها دار الغرب الإسلامي عام 2002 على سبعة مجلدات خصص السابع منها للفهارس – على الطريقة التي اعتمدها أغلب جامعي الفتاوى بترتيبه إلى أبواب الفقه والطهارة والعبادات والنكاح والطلاق والبيوع والشركات وغيرها ، و اعتمدنا عليه في هذا البحث أثناء حديثنا عن الطعام و أفادنا أيضا أثناء الحديث عن المجاعات و بعض طرق مواجهتها، ثم استعنا به فيه أثناء حديثنا عن التجارة و ما قد يصاحبها من غش في السكة و المكاييل و الموازين .

3–2المازوني : أبو زكريا المازوني : محمد بن أبي عمران المغيلي (ت 833هـ/1478م):

الدرر المكنونة في نوازل مازونة[2] :

يعتبر هذا المصدر من المصادر المهمة في دراسة الحياة الاجتماعية و الاقتصادية ، و يعتبر من أهم المصادر التي اعتمدها الونشريسي في المعيار ، وكان اعتمادنا على الجزء الثاني من هذا المصدر ، خاصة أثناء حديثنا عن مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية ، وذلك أثناء حديثنا عن الطعام ، وأثناء حديثنا عن الأسرة الريفية ، خاصة المشاكل الأسرية التي عرفتها الأرياف ، كما أفادنا أثناء الحديث عن مكانة المرأة في المجتمع في فترة الدراسة .

---

[1] البرزلي : فتاوى البرزلي المعروف بجامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 2002 ، ج1 ، ص 45 .

[2] تح حساني مختار ،ج2 نشر مخبر المخطوطات كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية جامعة الجزائر ،2004 .

3-3 **الونشريسي** :أبو العباس أحمد بن يحي (ت 914هـ/ 1508 م).

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب[1].

قسمه صاحبه أيضا إلى أبواب مثل تقسيم البرزلي و اعتمدنا على طبعة دار الغرب الإسلامي التي بها ثلاثة عشر جزءا ويكون الأخير عبارة عن فهارس وكانت الاستفادة من عدة أجزاء من هذا المصنف ، و خاصة أثناء حديثنا عن مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية فأفادنا في كلامنا عن أهل الذمة و مكانتهم في المجتمع الريفي ، و عند تناول الطعام و اللباس ، و العادات و التقاليد الحميدة منها و الذميمة ، ثم اثناء تطرقنا إلى النظرة إلى المرض و الموت ، و أثناء حديثنا عن مكانة المرأة في المجتمع ، و الأدوات التي اتخذتها في الزينة ، أما في الحياة الاقتصادية فأفادنا في الحديث الزراعة وخاصة الحرث و الحصاد ووسائلهما ،كما دلنا على وجود ثروة حيوانية متنوعة في أرياف المغرب الأوسط ،كما أفادنا في معرفة طرق مواجهة المجاعات في فترة الدراسة و أفادنا في معرفة التجارة وما تعلق بها ،كما دلنا على وجود غش في الموازين و المكاييل و السكة ، أما من الناحية الثقافية فاستعنا به في معرفة المساجد والمدارس و ما تعلق بهما من نفقة و وقف ،كما عرفنا بطرق التعليم السائدة في تلك الفترة .

4/كتب المناقب و التراجم:

يعد هذا الصنف من المصادر الواجب اعتمادها في دراسة بعض جزئيات هذه الدراسة خاصة الجانب الثقافي ،كونها تحتوي على الكثير من التراجم لعلماء الفترة المدروسة و أهم انتاجاتهم العلمية، غير أن التراجم فيها تختلف من عالم إلى آخر فهي قد تفيض في الترجمة لواحد في حين تعطي ترجمة مقتضبة لآخر .

4-1ابن قنفد القسنطيني : أبو العباس أحمد بن الحسين (ت 810هـ /1407)

انس الفقير و عز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين و أصحابه رضي الله عنه [2]

هذا الكتاب هو في أصله هو عبارة عن رحلة قام بها المؤلف في بلاد المغرب ، و تناول فيها أهم ما لاحظه من مظاهر للتصوف في المناطق التي زارها ، و يعود تركيزه جانب التصوف كونه من أسرة

[1] خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ،الرباط ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981 .

[2] تح أبي سهل نجاح عوض صيام ، تقديم علي جمعة ، ط1 ، دار المقطم للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 2002 .

صوفية و أورد هو ذلك أثناء حديثه عن جده لأمه ، و استفدنا من هذا الكتاب أثناء حديثنا عن مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية و ذلك في جزئية الملبس كون المتصوفة كان لهم لباس خاص ، كما أنه ساعدنا على معرفة بعض العادات الحميدة التي وجدت في أرياف المغرب الأوسط ، أما في مساهمة الريف في الحياة الاقتصادية فأفادنا أثناء حديثنا عن بعض المجاعات التي عرفتها المنطقة وسبل مواجهتها، و كانت فائدته أغزر أثناء تناولنا مساهمة الريف في الحياة الثقافية ، حيث دلنا على بعض الزوايا و المساجد والمدارس ، وكذا ذكره لطرق التعليم ،و العلماء الذين برزوا في بعض العلوم .

4-2 ابن مريم : أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المليتي المديوني التلمساني (ت 1014هـ /1605م)

البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان [1].

يعد البستان من المصادر المهمة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة ، حيث ترجم صاحبه لمائة واثنين و ثمانين عالما و وليا ممن دخلوا تلمسان أو استوطنوها أو كان أصلهم منها ، و إن كان ابن مريم قد اعتمد على مصادر سبقته كمؤلفات الغبريني و يحي بن خلدون ، إلا أن أهمية مصدره تكمن في كونه ترجم للأشخاص الذي عاصروه أو سبقوه بقليل و لم يتم ذكرهم في مصادر أخرى ، و إن كان يعتقد من الوهلة الأولى أنه ركز على تلمسان الحاضرة ، فإنه بالقراءة المتأنية له يجد مادة دسمة حول أرياف تلمسان و هو ما اعتمدناه ، و أفادنا في مساهمة الريف في الجانب الاجتماعي ، و ذلك أثناء حديثنا عن النظرة للمرض و الموت وموقف المتصوفة خاصة من هاتين الظاهرتين ، أما في الجانب الثقافي فدلنا على عدد من الزوايا و المساجد و المدارس ، و أهم ما كان يقدم فيها علوم ، كما ذكر العديد من العلماء الذين نبغوا في الكثير من العلوم ، و أعاننا في حديثنا عن علاقة السلطان بالعالم .

4-3التنبكتي : أحمد بابا (ت 1039هـ/1626م)

كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج [2] :

يعد هذا الكتابة تتمة لكتاب ابن فرحون الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، و هو من المصادر المهمة في دراسة مثل هذه المواضيع ، و إن كان ما ورد فيه لا يختلف كثيرا عن ما ورد في نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، و يشبه أيضا ما تناوله ابن مريم ، لكن تبق له أهمية كبيرة ، و أفادنا أثناء

---

[1] نشر محمد بن أبي شنب ، قدم له عبر الرحمن طالب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 .

[2] تح علي عمر ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2004 .

تناولنا مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية ، و خاصة العادات و التقاليد و خاصة الحميدة منها ،و في الجانب الاقتصادي اعتمدنا عليه أثناء حديثنا عن طرق التعامل مع الحيوان ، واستفدنا منه كثيرا في الحياة الثقافية ، و ذلك أثناء الحديث عن المساجد و الزوايا و المدارس ، و كذا عن الشروط الواجب توفرها في العالم و المتعلم ، و الحركة التعليمية و ما خدمها و ما وقع عائقا أمامها ، و كذا أثناء الحديث عن العلماء و العلوم التي برعوا فيها .

المراجع و الدراسات الحديثة :

من أهم الدراسات الحديثة التي اعتمدنا عليها في هذه الرسالة كتاب عبد العزيز فيلالي الموسوم بتلمسان في العهد الزياني و الذي يمكن أن نعتبره من الدراسات المهمة لمثل هذه الموضوع كون الباحث تناول نفس الفترة الزمنية التي قمنا بدراستها ، و اعتمدنا على هذه الدراسة في جل فترات الدراسة ، بداية من مساهمة الريف في الحياة السياسية و تأثر ريف المغرب الأوسط من كثرة الحروب الزيانية المرينية ، و الزيانية الحفصية ، و تأثره بالحروب داخل البيت الزياني ، ثم في مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية ، و ذلك أثناء الحديث عن الفئات الاجتماعية خاصة اليهود و النصارى ،و عن نظرة أهل الريف للمرض و بعض سبل العلاج منه ، و أفادنا أثناء تناولنا مساهمة الريف في الحياة الاقتصادية ، و ذلك أثناء حديثنا عن المجاعات التي تعرضت لها أرياف المغرب الأوسط و سبل مواجهتها ، أما في مساهمة الريف في الحياة الثقافية فقد استفدنا منه في معرفة المؤسسات التعليمية و الطرق المتبعة في التعليم .

كما اعتمدنا الدراسة التي قام بها الباحث المغربي يوسف نكادي الموسومة الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، و رغم أن الدراسة تناولت الأندلس في فترة بعيدة عن الفترة التي نحن بصدد دراستها ، لكن رغم ذلك اعتمدنا كون الزراعة في المغرب مشابهة للتي في الأندلس من حيث أدوات العمل الزراعي و كذا استعمال تقنية السقي و أصنافه .

كما اعتمدنا على مجموعة كبيرة من المقالات و التي تناولت العديد من المواضيع المختلفة و التي خدمة الموضوع على حسب مواضيعها .

مدخل:

ريف المغرب الأوسط: مفاهيم ومصطلحات :

1/المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف:

نحت الكثير من الدراسات التاريخية الحديثة ، التي عنت بتاريخ المغرب الوسيط إلى الاهتمام بالمدن والحواضر الكبرى، ودراسة أهم التغيرات التي طرأت عليها في مختلف جوانب الحياة، وظلت المناطق الواقعة خارج نطاق المدن والحواضر بعيدة عن اهتمامات الباحثين لفترة طويلة، وفي هذا المجال لم يأخذ ريف المغرب الأوسط الأهمية التي يستحقها في مجال الدراسات التاريخية رغم أهميته.

الريف لغة:

إن كلمة الريف في اللغة تتضمن معاني الخصب [1]، ويرى البعض أن الكلمة مصدرها الإرافة وفي هذا يقال: أرأفت الأرض إرافة وريفا بمعنى الإخصاب [2] و اشتقت منها الصفة والفعل فيقال: أرض ريفة و رافت الماشية أي رعت الريف[3].

المعنى الاصطلاحي للريف:

اختلفت استعمالات الريف الاصطلاحية تبعا لاستعمالاتها في حالة الإفراد والجمع، فحين قصد بها الخصب والسعة في المأكل كانت مفردا لأن الخصب والسعة تخصان موضعا معينا ، على عكس الحال حين قصد بها معنى " ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها " [4]، فهذه مواضع متعددة يسكنها الناس وبهذا المعنى جمعت على أرياف وريوف، ويتصل بهذا ما جاء في حديث العرنيين كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف [5]، والمراد هنا أننا من أهل البادية ولسنا من أهل المدن وكأن من المفسر

---

[1]ابن منظور : لسان العرب ، ط1 ، ج9، دار صادر، بيروت ص 128 .

[2] ابن سيده أبو الحسن علي بن اسماعيل : المخصص ، تح خليل إبراهم جفال ، ط1 ، ج3 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1417هـ 1996م ص 110 .

[3] أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، ج2 ، دار الفكر ، بيروت ، 1399هـ - 1979م ص 468 .

[4] ابن منظور : المصدر السابق ، ج9 ص 128 .

[5] البخاري : الجامع الصحيح المختصر المعروف بصحيح البخاري ، تح مصطفى ديب البغا ، ط3 ، ج4، دار ابن كثير اليمامة ، بيروت 1987 ص 1535 .

أراد من الريف المدن ليؤكد اعتماد الريف على حياة الاستقرار لأن أهل البادية هنا يراد بهم أهل الإبل من العرب ولأن أغلب سكان الجزيرة العربية كانوا من البدو الرحل[1].

وأما مصطلح الريف في بلاد المغرب فأطلق على الأراضي الواقعة خارج نطاق المدن ، فهو يشمل كل المناطق الواقعة خارج نطاق الحواضر المغربية والتي استقرت بها عدد من القبائل ، وأطلق محمد حسن عليه لفظ القرية و اعتبرها النواة السكنية في المجال الريفي [2]، و هناك من الباحثين من حاول أن يعطي تعريفا للريف على أنه الحضر و أنه نقيض البادية استنادا لحديث العرنيين الذي سقناه من قبل ، و كذا محولة تبيانه للآثار الحضارية و التاريخية لما قامت به القبائل التي وجدت في أرياف المغرب مثل صنهاجة و غمارة ومكناسة و غيرها من القبائل و من ثم فهي قبائل ريفية متحضرة [3] ، أما في المغرب الأقصى فأطلق هذا المصطلح على منطقة هامة من شمال المغرب يسكنها البربر من قبائل الشلوح .

2- الحدود الجغرافية لريف المغرب الأوسط:

ليس من السهل على الباحث وضع خريطة دقيقة للحدود الجغرافية في العصر الوسيط نظرا لتداخل المناطق وعدم وجود حدود ثابتة للسلطات السياسية القائمة، وإذا تحدثنا عن المغرب الأوسط في العصر الوسيط فهو لم يخضع لسلطة واحدة بل تقاسمته عدد من الممالك والإمارات و انقسمت بذلك انتماءات سكانه السياسية، بل وحتى المذهبية جاعلة منه فسيفساء سياسية واجتماعية ودينية.

و حاول عدد من الجغرافيين وضع خريطة تقريبية للمنطقة فقال البعض هي الحد الفاصل بين بلاد إفريقية " تونس" وبلاد المغرب الأقصى واعتبر الحميري أنه يمتد " من واد يسمى مجمع وهو في نصف الطريق من مدينة مليانة إلى أول بلاد تازا من بلاد المغرب "[4] ، و انطلاقا من هذا وجدنا مناطق من المغرب الأوسط الشرقية تدخل في نطاق إفريقية .

---

[1] ابن منظور : المصدر السابق ، ج9 ص 128 .

[2] المرجع السابق ،ج1 ص 58 .

[3] أحمد الطاهري : بلاد الريف المصطلح و العمران من خلال المصادر العربية ، مقال في كتاب التمدن و التعمير في جبال الريف بالمغرب ، ط1 ، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف ، مطبعة الخليج العربي ، تطوان ، المغرب ، 2002 ص 11-12 .

[4] المصدر السابق ص 135 .

و قد حاول أحد الباحثين ربط المصطلح بالواقع السياسي ، فقال إن المنطقة هي كل ما يدخل حاليا في نطاق الدولة الجزائرية التي رسمت حدودها من قبل الأتراك العثمانيين منذ القرن السادس عشر ثم من قبل الإدارة الفرنسية بعد ذلك حين وسعت نطاق هذه الدولة كما هي معروفة ومعترف بها حاليا [1].

ونحن نأخذ في رسالتنا هذه بالرأي الأخير على اعتبار شيوع هذا التفسير لدى عدد من الدارسين لتاريخ المغرب .

3-المفهوم اللغوي و الإصطلاحي للمدينة :

سعت الكثير من الدراسات لإعطاء تعاريف للمدينة غير أن هذه التعاريف تختلف من دارس إلى آخر، و ربما يعود السبب إلى كون المدينة المشرقية تختلف عن المدينة المغربية في بعض السمات والصفات ، ومن ذلك نذكر المدينة المنورة التي هي عاصمة دولة الرسول و الخلفاء الراشدين من بعده، و دمشق عاصمة الخلافة الأموية ، و بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فميزة هذه المدن أنها عواصم للخلافة و لم تكن أي مدينة مغربية عاصمة للخلافة إذا استثنيا المهدية عاصمة الدولة الفاطمية الشيعية ، و سنحاول هنا إعطاء تعريف لغوي واصطلاحي للمدينة المغربية .

المدينة لغة :

مأخوذة من مَدَنَ بالمكان أي أَقام به ومنه المدِينة وهي على وزن فَعِيلة وتجمع على مَدَائن بالهمز ومُدْنٍ ومُدُن [2] ، و يقال فلان مدونا أتى المدينة ومن تمدن هو من عاش عيشة أهل المدن، وأخذ بأسباب الحضارة و المدنية واتساع العمران [3].

المعنى الاصطلاحي للمدينة :

قبل الحديث عن المعنى الاصطلاحي للمدينة يجب الإشارة إلى أن كتب الجغرافيا ميزة بين نوعين من المدن القديمة أو الأزلية أو أصيلة و المدن الحديثة أو المستحدثة .

---

[1] أحمد عبيد : التاريخ الجزائري -تقيم و نقد - حالة الجزائر العثمانية ، مقال في مجلة إنسانيات ، العدد 47-48 ، 2010 ، مركز البحث في الإنثربولجية الاجتماعية و الثقافية ، وهران ص 73 .

[2] ابن منظور : المصدر السابق ، ج13 ص 402.

[3] إبراهيم مصطفى و آخرون : المعجم الوسيط ، تح مجمع اللغة العربية ، ج2 ، دار الدعوة للنشر ص 859.

تعرف المصادر الجغرافية المدينة على أنها تجمع سكاني يتميز بمجموعة من الخصائص كأن يكون عليها سور و بها أسواق و حمامات و مسجد و يكون لها أرباض [1] ، و يمكن أن يكون في المدينة مارستانات حيث توجد في مدينة بجاية مثلا [2] ، و تحدث ابن خلدون عن المدن و ما يجب مراعاته في بنائها فعنون فصل من مقدمته بعنوان " فصل في ما يجب مراعاته في أوضاع المدن و ما يحدث إذا أغفل من تلك المراعاة " [3]، و أهم ما ذكره في هذا الفصل هو دفع المضار بحماية المدينة من أي خطر قد تتعرض له ، و يكون ذلك ببناء السور ، و جلب المنافع و تسهيل المرافق و يكون ذلك بجلب الماء ، و مراعاة أن تكون بالقرب من المزارع " فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها " كان ذلك أسهل في اتخاذه و أقرب في تحصيله "[4].

و كان للمدينة توابع و ظواهر تسمى بالربض و هو ما حول المدينة [5] ، و قد ورد ذكر هذا المصطلح عند ابن خلدون أثناء حديثه عن عودة السيطرة الحفصية على بجاية و قسنطينة بعد أن كانت تحت حكم المرينيين و محاولة الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا استرجاع بجاية بقوله " ثم رجع إلى مكانه من حصارها ودس إليه بعض أشياعه بالبلد وسرب إليه المال في الغوغاء فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان " [6] ، و هناك مصطلح الضواحي و" ضاحية كل بلد ناحيته البارزة و جمع ضاحية ضواحي " [7]، تم تداول هذا المصطلح في المغرب الأوسط ومن ذلك ذلك " وكان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان " [8] ، " فدخلوا ضواحي بجاية [9] " ، و و ما يمكن أن نخلص إليه هنا أنه هناك استعمال لمصطلح الربض و الضاحية للحديث عن ما حول المدينة غير أن المصطلح الثاني أكثر انتشارا من الأول .

---

[1] الحميري : المصدر السابق ، الحسن الوزان : المصدر السابق .
[2] الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2 ص 50 .
[3] المقدمة ،المطبعة البهية المصرية ص 244 .
[4] نفسه ص 245 .
[5] ابن منظور : المصدر السابق ، ج 7 ص 149 .
[6] العبر ، ج7 ص 282 .
[7] عبد العال عبد المنعم الشامي :جغرافية المدن عند العرب ، مقال منشور في مجلة عالم الفكر ، تصدر عن وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، المجلد 9 ، العدد.1 ، 1971 ص 141 .
[8] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 78.
[9] نفسه ص 107 .

4-جدلية العلاقة بين الريف والمدينة:

بلغت ظاهرة الانحسار العمراني التي بدأت تبرز سماتها في القرن السادس الهجري أوجها في القرن الثامن ، أي في عصر ابن خلدون الذي لاحظ ذلك وسجله في المقدمة قائلا : " كان عمران إفريقية والمغرب كله أو أكثر بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال..." [1] .

و يمكن لنا أن نلاحظ أن العلاقة بين الريف و المدينة تأخذ أبعادا مختلفة ، منها ما هو سياسي وثقافي ديني و اجتماعي و اقتصادي .

فبالنسبة إلى السياسي فبلاد المغرب كانت مقسمة إلى أقاليم و على رأسها مشرفون يملكون صلة الوصل بين المدن و أريافها ، فكان للمدينة تدخل مباشر في شؤون الريف و توجيهه سياسيا و إداريا ومن ثم تخضع الريف لسلطتها [2] ، ومن مظاهر إخضاع المدينة لأريافها سياسيا نذكر تنس التي كانت تابعة لتلمسان [3]، و كانت ميلة تتبع قسنطينة " ومن عادة أمير قسنطينة أن يبعث والي ليقضي بين الناس و يجبي ما خصص له من إيرادات في آن واحد " [4] ، و لم تكن العلاقة بين المدينة المدينة و الريف دائما علاقة تبعية و خضوع ، ففي كثير من المرات كان أهل الأرياف يحاولون الخروج عن سيطرة المدينة و هو ما يؤدي إلى استعمال القوة في إخضاعهم ، ومن ذلك إقدام قبيلة مغراوة بقيادة علي بن راشد على ضم ضواحي الشلف والتغلب على أمصاره وافتتحوا دلس وأخرجوا منها أولياء السلطان [5] ، كما أن أمير قسنطينة يحاول في كل مرة إخضاع القل إلى سلطته غير أن أهلها كان يدافعون عنها مستندين في ذلك إلى حصانتها الطبيعية إذ يفصل بينها و بين قسنطينة جبال شاهقة [6] ، ما يمكن ملاحظته عن العلاقة السياسية بين الريف و المدينة أنها كانت تتراوح بين التبعية

---

[1] المقدمة ص 251 .

[2] محمد فتحة : ملاحظات حول علاقة المدينة بالبادية بالمغرب خلال نهاية العصر الوسيط ، مقال في كتاب المدينة في تاريخ المغرب العربي ، أشغال الندوة المنظمة من 24-26 نوفمبر 1988 ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية 2 ابن مسيك ، الدار البيضاء ، مطابع سالا ، المغرب 1990 ص 339 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 35 .

[4] نفسه ، ص 60 .

[5] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 281 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 54 .

التبعية و رفض الخضوع ، فإذا استطاعت المدينة إخضاع الريف فعلت ، و إذا استطاعت الأرياف رفض التبعية فعلت ذلك .

أما بالنسبة للعلاقة الثقافية و الدينية فتظهر في أن المدينة كانت قبلة للعديد من المتعلمين و العلماء القادمين من الأرياف ، وقد و جدنا في بحثنا هذا أن الكثير من العلماء هم علماء ريفيون استقروا في المدن ، ومن بينهم أبو عبد الله محمد بن علي ابن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي وهو من قرية حمزة تعلم ببلده ثم انتقل إلى ببجاية [1] ،و أبو هادي مصباح الصنهاجي كان يعرف في البادية باسم يشوا ، اختلف في أصله فهناك من يقول أنه المغرب وهناك من يقول أنه من عرب برقة وارتحل إلى المغرب والأشهر أنه من المغرب ، وكان الشيخ أبو هادي يتردد على بلاد المغرب وأكثر المناطق التي استقر فيها هي قسنطينة و أحوازها [2] ، و إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام المطماطي التنسي كان موطنه تنس عرض عليه السلطان في الكثير من المرات للسكنى في تلمسان فامتنع ، واستقر فيها بغرض التدريس فكان له طلبة من الشرق والغرب [3] ، إذا كانت ما قدمناه هنا عن الحركة العلمية من الريف إلى المدينة فهل هناك علاقة عكسية من المدينة إلى الريف ؟ يمكن التسليم بوجود هذه العلاقة ومن ذلك ما تقوم به السلطة التي هي موجودة في المدينة بأعمال تخدم الجانب الثقافي ومن ذلك الأحباس السلطانية التي تقدمها للمساجد و المدارس في المدن و الأرياف [4]، على كل كانت العلاقة الثقافية الموجودة بين الريف و المدينة في العصر الوسيط علاقة تأثير و تأثر و هو ما يعني أن الازدهار الثقافي في الريف يكون له تأثيرات على المدينة و من ثم تتدخل المدينة للاستثمار في ذلك .

---

[1] الغبريني : المصدر السابق ص 101 .

[2] ابن قنفد القسنطيني : المصدر السابق ص 93 .

[3] أحمد بابا التنبكتي : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، تح علي عمر ،ط1 ، ج1 ،مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2004 ص 81.

[4] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 7 ص 365-366 ، محمد فتحة : النوازل الفقيه والمجتمع ،أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6ه/9ه 12-15م ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، 1999 ص 112 .

و تكون العلاقة في الجانب الاجتماعي ببروز ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة هذه الهجرة أدت إلى الزيادة في عدد الطبقة العامة في المدينة [1] ، غير أن التسليم بأن كل القادمين من الأرياف يصنفون في الطبقة العامة يعتبر مجانبا للصواب فبنو عبد الواد كانوا يسكنون أرياف المغرب الأوسط وتلاله و صحاريه و يقومون برحلة الصيف شمالا بسبب حر الصحراء [2] ، غير أنهم لما سكنوا المدينة أصبحوا سادة و دان لهم جزء كبير من المغرب الأوسط ، و قد تحدث ابن خلدون عن هذه الظاهرة بقوله " أن الملك يدعوا إلى نزول الأمصار و ذلك أن العصائب و القبائل إذا حصل لهم الملك اضطروا إلى الاستيلاء على الأمصار لأمرين ، أحدهما ما يدعوا إليه الملك من الدعة و الراحة و حط الأثقال و استكمال ما كان ناقصا من أمور العمران في البدو، و الثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين و المشاغبين ، لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم و انتزاع ذلك الملك الذي سموا إليه " [3] أما عن الهجرة من المدينة إلى الريف فكانت محدودة إن لم نقل منعدمة و سبب الذي دفعنا إلى هذا القول كوننا قلما نجد المصادر أو المراجع تتحدث عن ذلك إلا نادرا ومن ذلك أنه يوجد بقرية العباد فندق لإيواء الغرباء [4] ، وما يفهم من لفظ الغرباء أي غير أهل القرية و قد يكونون من أهل المدن خاصة إذا عرفنا أن بقرية العباد ضريح الولي الصالح بومدين شعيب و الذي كانت له مكانة خاصة عند أهل المغرب الأوسط فكان محطة زيارة من أهل المدن و الأرياف على حد سواء .

أما في الجانب الاقتصادي فيمكن القول أن هناك علاقة تكامل بين الريف و المدينة فالريف هو الذي يوفر لها المورد الزراعي الضروري و يمدها بما تحتاجه من قوة بشرية ، فلا توجد مدينة من دون قرى و أرياف تابعة لها ، و من ثم وجب على المدينة السيطرة على محيطها ، و كل ما يحدث في

---

[1] الحبيب الجنحاني : المجتمع العربي الإسلامي ، الحياة الاقتصادية و الاجتماعية ، سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، العدد 139 ، مطابع السياسة ، الكويت ، 2005 ص 182 .

[2] ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 21 .

[3] المقدمة ص 242 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 24 .

المدينة يؤثر تأثيرا مباشرا على الريف فهناك الكثير من المنتجات الزراعية التي وجدت في الريف دخلت عن طريق المدينة و خاصة الساحلية [1] وقد اعتبرت المدينة هي سوق الريف فإذا تضررت التجارة في المدينة تأثر الريف ومن ذلك " إذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة و لم يحصل للتجارة حوالة الأسواق فسد الربح و النماء بطول تلك المدة و كسدت سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعي فيها و فسدت رؤوس أموالهم و اعتبر ذلك أولا بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح و الزراعة لقلة الربح فيه " [2]، و إن كان ما تحدثنا عنه يعتبر من مظاهر التأثير و التأثر فقد وجدت مظاهر للصراع ومنها ما سجله ابن خلدون عن ظاهرة تجمع الملكيات الزراعية لصالح الأقليات وكذا استغلال الدخل الزراعي خارج الأرياف ، وثمة تدهور معيشة المزارعين حيث قال :" اعلم أن تأثل العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد.. وإنما يكون ملكهم وتأثلهم لها تدريجيا إما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه ....أو أن يكون بحوالة الأسواق "[3]، هذا قد يؤثر تأثيرا سلبيا على العلاقة بين أهل الحضر المالكين للأرض و أهل الريف العاملين عليها ، ومن ثم انتشرت ظاهرت الخماسة و ما انجر عنها من مشاكل حيث أن عمل الخماس هو " أن يحرث و ينقي و يرفع الأغمار و يحصد و يدرس و ينقل السنبل إلى الأندر ، و إن شرط عليه غير ذلك لا يجوز ، و جرت العادة اليوم في البادية أن يشترط عليهم القيام بالبقر و الاحتشاش له و حمل الحطب و استقاء الماء إن احتاج إليه ، وهذا يفسدها " [4] ، أضف إلى هذا كون أهل الريف كانوا ينظرون إلى المدينة على أنها مركز السلطة و مركز تجمع الثروة و مركز فرض الجباية ، ومن ثم كانت نظرتهم إليها نظرة عدائية ، والسبب أنهم فقراء لم يستطيعوا تحصيل الضروريات عكس أهل المدن [5] .

---

[1] الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ص 183.

[2] ابن خلدون : المقدمة ص 279 .

[3] نفسه ص 258 .

[4] الونشريسي : المصدر السابق، ج8 ص 150 .

[5] الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ص 182 .

من خلال تعريفنا للريف و المدينة و العلاقة الموجودة بينهما و صلنا إلى أن المدينة لا يمكنها أن تستغني عن الريف و العكس صحيح ، فالعلاقة التي بينهما هي علاقة تأثير و تأثر ، غير أن الصراع بينهما أيضا يظل ظاهرا و جليا ، و قد تحدث عنه ابن خلدون في مقدمته و وسمه بعدة سمات كقوله أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر و أهل البدو أقرب للشجاعة من أهل الحضر [1].

---

[1] المقدمة ص 87-88

الفصل الأول :

مساهمة الريف في الحياة السياسية :

عرفت أرياف المغرب الأوسط خلال فترة الدراسية حالة من عدم الاستقرار، فقد كان منهكا من الهجمات المرينية من الغرب و الحفصية من الشرق ، وقد حاولت الدولة الزيانية رد هذه الحمالات بما لها من قوة ، لكن توالي الاضطرابات والهجمات وظهور خطر جديد هو الخطر الاسباني وضعف سلاطينها المتأخرين و الصراع بينهم عجل بسقوطها ، هذا في الجزء الغربي أما الجزء الشرقي للمغرب الأوسط فقد كانت قسنطينة تابعة اسميا للحفصيين في حين استطاعت في المناطق الأخرى بعض الزعامات المحلية تكوين كيانات سياسية مجهرية [1].

المبحث الأول :

مساهمة الريف في العلاقات الزيانية المرينية:

ترجع أصول بني عبد الواد و بني مرين إلى قبيلة واحدة هي قبيلة زناتة و ينتمون إلى بطن بني واسين وهو بطن كبير يضم أيضا بني توجين و بني راشد [2] ،و رغم أن بني عبد الواد و بني مرين يرجعون إلى بطن واحد إلا أن العداوة بينهما تعود إلى فترة تسبق فترة الدراسة ، حيث ذكر ابن أبي زرع أن بني مرين واجهوا في سنة 540هـ/ 1143م الموحدين ، وساند بنو عبد الواد الموحدين على حساب بني عمومتهم بني مرين و من ثم بدأت ملامح الصراع بين الأسرتين [3] .

و قبل الحديث عن الصراع الزياني المريني سنحاول البحث عن أسباب هذا الصراع كونه كان بين أسرتين من قبيلة واحدة هي قبيلة زناتة .

---

[1] عبد القادر زبادية :التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي بعض أثاره و أعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان ، مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة ص 206- 207.

[2] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 05.

[3]الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ،دار المنصور للطباعة والوراقة ،الرباط ،1972 ص21 ، ابن خلدون: المصدر نفسه ص 62

بالعودة إلى ابن خلدون بحثا عن مواقع استقرار القبيلتين وجدناهما متجـــاورتين فبنو عبد الواد سكنوا بين نهر ملوية و نهر صا [1] ، في حين سكنت قبائـــل بني مرين ما بين نهر مـــــلوية و أرض الزاب [2] ، كان هذا الجوار دافعا للتنافس على الزعامة و النفوذ من أجل تحقيق سيطرة سياسية واقتصادية على الوسط الذي يعيشون فيه [3] ، و يمكنا أن نفهم من كلمة الوسط الحضر و الريف على حد سواء و السبب الذي دفعنا إلى هذا القول كون مصطلح السياسية إذا كانت على المدن دون الأرياف تتحول إلى خطر كون الأرياف قد تتحول إلى جيوب مقاومة للمسيطر على المدن ، أما السيطرة الاقتصادية فكما هو معروف الريف يمثل الاقتصاد المعاشي للمدينة و من ثم فعلى المسيطر أن يخضع الأرياف حتى لا تقع مجاعات جراء ذلك .

و من أسباب الصراع التحرش الدائم لبني عبد الواد ببني مرين ، و يرجع السبب في ذلك إلى كون بني عبد الواد سعوا جاهدين إلى منعهم من بناء دولة ، و يظهر ذلك جليا في التحالف الذي كـان بـين يغمراسـن بـن زيـان (633-681هـ /1235-1282م)و الخليفـة الموحـدي المرتضـي (646-665هـ/1248-1266م) سـنة 647هـ /1249م [4] ، كمـا تحـالف يغمراسـن (633-681هـ /1235-1282م) أيضا مع الخليفة أبو دبوس (665-668هـ /1266-1269م) سنة 665هـ /1267م [5] .

و انتقـل الزيـانيون مـن التحـالف مـع الموحـدين إلى التحـالف مـع بـني الأحمـر ، إذ تحـالف يغمراسـن بـن زيـان (633-681هـ /1235-1282م) مع سلطان غرناطة ابن الأحمر(630-672هـ/1232-1273م) لصرف المرينيين عن العبور إلى الأندلس ، و كان هذا التحالف موضوع

---

[1] و هما نهران يصبان في البحر ما بين جراوة أبي العيش و مليلة ، ابن حوقل : صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ص 88 ، و يرى الحسن الوزان أنهما حدود مملكة تلمسان من جهة الغرب ،ابن خلدون المصدر نفسه ص7 ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 7.

[2] و تقع بلاد الزاب على طرف الصحراء ، مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر و تعليق سعد عبد الحميد زغلول ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1985 ص 171 ، و يحد هذا الإقليم من الغرب مسيلة و من الشمال جبال بجاية و من الشرق بلاد الجريد ، و جنوبا ورقلة و تقرت ، الحسن الوزان : المصدر نفسه، ج2 ص62- 138.

[3] عبد العزيز محمود الأعرج : مدينة المنصورة المرينية بتلمسان ،ط1 ، دار الشرق ، القاهرة ، 2006 ص 20 .

[4] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 83.

[5] نفسه ص 86 .

الرسالة رقم 57 التي كتبها ابن الخطاب و المؤرخة في شوال سنة 678هـ /1279م [1] ، و لم يفوت ابن أبي زرع و ابن خلدون الحديث عن هذا التحالف ، بل و ربطا بينه و بين التحالف الذي كان بين غرناطة و قشتالة إذ " راسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزة يعقوب [2]، وشن الغارات على ثغوره ليكون ذلك شاغلا له عنهم، فبادر يغمراسن بإجابتهم وترددت الرسل منه إلى الطاغية ومن الطاغية ... وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة ، وأن يفرغ لجهاد العدو فأبى عليه وكان ذلك مما دعا يعقوب إلى الصمود إليه، ومواقعته بخرزوزة[3] ... ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة، وهو ينتهز الفرصة في كل واحد متى أمكنه منهم حتى هلك وهلكوا والله وارث الأرض "[4].

و كرد فعل على ما قام به بنو زيان قام السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق (656هـ-685هـ/1258-1286م) بتوجيه حملة عسكرية باتجاه المغرب الأوسط سنة 670هـ 1270م و التقى بجيش يغمراسن بن زيان في واد ايسلي بالقرب من وجدة وكان النصر فيها لبني مرين و بذلك سيطروا على بعض البلاد التابعة لبني عبد الواد ، فأخضعوا وجدة و خربوها ، ثم واصلوا الطريق حتى تلمسان " فأوغل في بلاد يغمراسن يخربها و يسبي أموالها حتى وصل إلى تلمسان ، فنزلها و دارت المحلات بأسوارها و شد في حصارها ، و شرع في قتالها " [5] ، و لم تكن عاصمة الدولة الزيانية هي وحدها المعنية بهذا البأس من المرينيين بل تعرضت أرياف تلمسان إلى الخراب من قبل قبائل بني توجين حلفاء بني مرين " و ضيقت قبائل توجين بمدينة تلمسان لأخذ ثأرهم من يغمراسن بن زيان ، فقطعوا

---

[1] فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب ، دراسة و تحقيق و نشر أحمد عزاوي في كتاب المغرب و الأندلس في القرن السابع /13م ، ط1 ، مطبعة ربانيت ، الرباط ، 2008 ص 160 ، أنظر ملحق رقم 03.

[2] المقصود هنا أن يحجز بينهم و بين السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق حتى لا يعبر الأندلس .

[3] لم نتمكن من التعرف على هذا الموقع الجغرافي

[4] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ، ص 335 ، ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 89 .

[5] ابن أبي زرع : المصدر نفسه ص 310 ، الذخيرة السنية ص 131 ،ابن الأحمر : تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم و تحقيق و تعليق هاني سلامة ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية للنشر و التوزيع ، بور سعيد ،مصر 2001 ص65 ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ، تح و تعليق جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج3 ، دار الكتاب الدار البيضاء ، المغرب ، 1954 ، ص 32 .

الثمـار و الجنـات و خربـوا الربـاع ، و افسـدوا الـزروع و رقـوا القـرا و الضـياع ، حـتى لم يـدعوا بتلـك النواحي قوت يوم حاشا السدرة و الدوم " [1].

تواصل التحالف الزياني مع بني الأحمر بعد وفاة السلطان الزياني يغمراسن بن زيان في عهد خلفه أبو سعيد عثمان(681-703هـ /1282-1303م) إذ حاول هذا السلطان المحافظة على العلاقة التي ربطها سلفه مع بني الأحمر وهو ما يفهم من الرسائل المتبادلة بين الطرفين ، ومما ورد فيها " و قد تقرر بيننا و بينكم من خلوص السر و الجهر ما لا يحتاج معه تكلف العذر ، فإنا ننظر إلى كل ما يصدر عنكم بعين الرضى ، و نقيس مستقبل حالكم في الوفاء على ما تيقنا فيه فيما مضى " [2] ، كما ورد في رسالة أخرى ما يلي " فنحن مغتبطون بما تأكد بينا و بينكم من الدمام أشد اغتباط، مرتبطون إلى العمل بموجبه و إبرام مذهبه أكرم ارتباط و لا يزال يجدد مع الأحيان رسمه و يثمر بكل وجه حظه الأوفر و قسمه " [3]، لكن هذا التحالف هذه المرة لم يكن على حساب بني مرين بل سعى السلطان الزياني الجديد البحث عن كسب ود بنو مرين آخذا بوصية أبيه " أوصى دادا يغمراسن لـدادا عثمـان- و دادا حـرف كناية عـن غاية التعظيم بلغتهم- فقـال لـه يـا بـني إن بـني مـرين بعـد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم ، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص [4] عن القرن التي أنت بعيد عنهـا فإيـاك واعتمـاد لقـائهم، وعليـك باللـياذ بالجـدران مـتى دلفـوا إليـك وحـاول مـا اسـتطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشـدك ولعلـك تصـير بعـض الثغـور الشـرقية معقـلا لـذخيرتك ، فعلقـت وصـية الشـيخ بقلبـه، واعتقـد عليها ضمائره، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك "[5].

إذًا ظلت العلاقة ودية بين السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن و بين السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق و بعد وفاة الأخير عرفت العلاقات بين المرينيين و الزيانيين ثلاث سنوات من العلاقة

---

[1] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ، ص 311 ، الذخيرة السنية ، ص 132 ، الناصري : المرجع نفسه ، ص 32.

[2] ابن خطاب : المصدر السابق ، الرسالة رقم 58 ص 164 .

[3] نفسه ، رسالة رقم 59 ص 166 .

[4] قصد يغمراسن بمعرة النكوص هنا الخوف من العار و وصفه بالجبن إذا عقد سلما مع بني مرين و من ثم واصل القتال ضدهم .

[5] ابن خلدون : العبر، ج7 ص 92 .

الطيبة بسبب المعاهدات المبرمة بين الطرفين ، و التي نصت على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكـل منهمـا ، ولكـن طموحـات السـلطان المـريني الجديـد يوسـف بـن يعقـوب (685-706هـ/1286-1306م) ، الـتي كانـت تهـدف إلى استعادت ارث الدولـة الموحديـة و ذلـك لا يكون إلا على حساب الدولة الزيانية ، فأخذ في استغلال الخلافات التي كانت بينه و بين بني زيان ومن ثم سعى إلى عدم تجديد المعاهدة التي كانت قائمة بينهما لمدة ثمانية سنوات [1] ، و لأجل تحقيق طموحاته قام بخمس غزوات على تلمسان و حاصرها [2] ، و يمكن هنا أن نقول محاصرة تلمسان كان بعد أن ضم الأرياف التي تحيط بتلمسان .

و كان الحصار الأول سنة 689هـ /1290م ، و سببه أن والي مراكش محمد بن عطو الذي تعاون مع ابن السلطان المريني أبو عامر فهرب محمد بن عطو إلى تلمسان مستجيرا بالسلطان الزياني عثمان بن يغمراسن (681-703هـ /1282-1303م) ، وقد طلب السلطان المريني يوسف من السلطان الزياني عثمان تسليم المطلوب فامتنع عن ذلك وقال " و الله لا أسلمه أبدا و لا أبيع حرمتي و أترك من استجار بي حتى أموت فليصنع ما بدا له " [3] ، و كان هذا الموقف مبررا للسلطان المريني لغزو تلمسان و ما حولها فخرج لغزوها بعد أن حشد لها الجيوش " بقي يرتع في أحوازها و يأكل زروعها و يسبي و يغنم أموالها و يخرب قراها "[4] ، ثم تحرك إلى تلمسان و نزل بذراع الصابون من ظاهرها يوم الثلاثاء 25 جمادى الثانية سنة 689هـ/1290م [5]ثم انتقـــل و حاصرها في رمضان سنة 689هـ/1290م ، وهو ما دفع السلطان الزياني إلى التحصن داخل أسوارها[6] ، و لما رأى المرينيون استحالة دخولها عملوا على فك الحصار [7] .

---

[1] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق، ج1 ص 27 .

[2]ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 387 ، ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 94 ، الناصري : المرجع السابق ، ج3 ص 29.

[3] ابن أبي زرع : المصدر نفسه ص 379 .

[4] نفسه ، ص 379 ، ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 94 .

[5] يحي ابن خلدون :المصدر السابق ، ج1 ص 209 .

[6] ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 379 .

[7] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 94 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 209 .

وكانت مشاركة الأرياف بتدخل قبيلة مغراوة إلى جانب المرينيين في الحصار و هو ما دفع بالسلطان الزياني بعد رفع الحصار إلى الخروج في " أثر مغراوة المتألبين مع ملك المغرب ، فدوخ بلادهم و انقادوا إلى طاعته و ترك ولده أبو حمو بالشلف و عاد إلى حضرته " [1] .

و إذا أردنا إجراء عملية تقيمية لهذه الغزوة نقول أن السلطان الزياني استطاع أن يحقق نصرا على بن مرين ، و سبب هذا الحكم كون السلطان المريني عجز عن دخول مدينة تلمسان رمز السلطة السياسية ، لكن في الجهة المقابلة ضم المناطق التي تحيط بتلمسان .

كما أن موقف السلطان الزياني يدل على شجاعته و كان له موقفا حازما و قد أجار من استجار به حتى ولو أدى ذلك إلى موته هو شخصيا ، و تعتبر الإجارة من الأخلاق الإسلامية التي أوصى بها الله في كتابه حتى مع المشركين في قوله تعالى " وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ المِشْرِكِينَ اِسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ " [2] فموقف السلطان الزياني هو موقف ينم عن شجاعة ممزوجة مع خلق إسلامي رفيع .

أما غزوة السلطان المريني يوسف الثانية لتلمسان فكانت في سنة (695هـ /1295م) [3]،وسببها مساعدة السلطان المريني يوسف بن يعقوب لثابت بن منديل [4]، الذي استنجد به ثم قام قام السلطان المريني بطلب الشفاعة لثابت من السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن فلم يستجب لطلبه و كان ذلك سببا لتجهيز السلطان المريني جيشا لغزو تلمسان [5]، و قبل وصوله إليها" نزل بحصن تاوريت [6]و كان نصفه لعثمان بن يغمراسن و نصفه لأمير المسلمين (يوسف بن يعقوب)لأنه كان الحد بين بلادهما ، فطرد عامل عثمان بن يغمراسن المذكور " [7] ، و في هذه الغزوة استطاع

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 94 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 209 .

[2] سورة التوبة ، الآية 06 .

[3] ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 385 ، ابن الأحمر : المصدر السابق ص 68 .

[4] وهو الذي آلت إليه رياسة قبيلة مغراوة سنة 676هـ ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 66 .

[5] نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي : المرجع السابق ص 43.

[6] يقع هذا الحصن في مدينة توريت و التي ابتناها الرومان يحدها شمالا صحراء الكرط ومن الجنوب صحراء الظهرة ومن الشرق صحراء أنكاد ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج1 ص349م .

[7] ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 385.

استطاع السلطان المريني السيطرة على الكثير من المناطق منها ندرومة و جبل جيدزة الملاصق لوهران [1].

ولم يختلف مصير هذه الحملة عن مصير الحملة الأولى ، فالسلطان المريني لم يستطع بسط نفوذه على عاصمة الدولة، وقد عمد السلطان الزياني إلى استرجاع ما ضاع منه من أرياف " فأثخن في تلك الجبال لطاعتهم عدوه و اعترضهم جنده و استباح رباط تاسكدلت [2]...ثم رجع إلى المغرب " [3] ، و كان هذا العمل من السلطان الزياني سببا في توجيه يوسف بن يعقوب المريني حملته الثالثة على تلمسان فغرضها تأديبيا كون السلطان الزياني هدد استقرار الدولة المرينية [4] ، وقعت هذه الحملة الحملة في سنة 696هـ/1296م و نزل المرينيون في ذراع الصابون [5]، وفي العودة حاصروا ندرومة وشددوا في قتالها ثم انتقل إلى وجدة فنزل بها و أعاد بنائها فبنيت و حصنت أسوارها و عين عليها أخوه أبو يحي و أمره بالإغارة على تلمسان و ضواحيها من حين إلى آخر [6].

أما غزوة السلطان المريني يوسف الرابعة فكانت في سنة (697هـ/1298م) [7] ، و سمى ابن الأحمر هذه الغزوة " بحركة الدار الحمراء " [8] ، حيث توجه إلى تلمسان تلمسان لمحاصرتها فنزل بأفران الجيار شمال مدينة تلمسان [9] ، و حاصرها حصارا شديدا حيث "

---

1 ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 94 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق، ج1 ص 209 .

2 و يسميها البكري تاسفدالت و هي قلعة هوارة تقع في الجبل و تحت هذه القلعة يجري نهر سيرات بالقرب من تاهرت، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب وهو جزء من المسالك و الممالك ، نشره مع الترجمة الفرنسية كولين دوسلان ، مكتبة أمريكا و الشرق ، باريس 1965 ص 69 ، الحميري : المصدر السابق ص 470.

3 ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 94 .

4 نضال مؤيد مال الله : المرجع السابق ص 43 .

5 يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 209 .

6 ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 385 .

7 نفسه ص 385 ، ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 94 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 209 ، ابن الأحمر : المصدر السابق ص 67 .

8 ابن الأحمر :المصدر نفسه ص 67 .

9 يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 209 .

أحاطت عساكره إحاطة الهالة بها و نصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف إليها الصناع و المهندسون فعملها و كانت توقر على أحدى عشر بغلا " [1] .

وخرج السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن لمواجهة السلطان المريني خارج المدينة لكنه انهزم أمامه فدخل المدينة و أغلق أبوابها ، و أمام طول الانتظار دون التمكن من الدخول إلى تلمسان فك السلطان المريني الحصار و عاد إلى فاس ، بعد هذا قام السلطان الزياني بحملات على القبائل القاطنة بأرياف المغرب الأوسط و هي محالفة لبني مرين و التي كانت سببا في قيام بني مرين بغزوة خامسة على الدولة الزيانية [2]، و عبر يحي ابن خلدون عن مقدمات و مسببات هذه الغزوة بقوله " فنهض السلطان المرحوم أبو سعيد قدسه الله غير مبال بها ثاني عشر ربيع الأول من السنة (698هـ/1299م) و شرّق إلى توجين ، لموجدته عليهم بتألبهم مع ملك المغرب ، و أطال المغيب في تدويخ بلادهم فخلع زكرياء بن يخلفتن المضغري قائده بندرومة طاعته و بايع المريني ، فاضطرمت أرجاء حضرته نارا لذلك ، و طمع السلطان أبو يعقوب في انتهاز الفرصة فيها فنهض يطوي المراحل إليها " [3] .

و قد بدأت هذه الغزوة في رجب من سنة 698هـ/1299 م [4] ، ووصل الجيش المحاصر – الذي كان أكثر عددا وعدة من الجيوش السابقة التي غزت تلمسان – إلى تلمسان بعد ضمهم للمناطق الريفية المحيطة بها في اليوم الثاني من شهر شعبان من نفس السنة و ضرب عليها حصارا ، وأرسل جيوشا أخرى لبسط سيطرته على المغرب الأوسط مدننا و أريافا "ثم سرح عساكره لمحاصرة وهران و تقرى البسائط و منازلة الأمصار فأخذت مازونة [5] في جمادى الآخرة من

---

[1] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 220 .

[2] نضال مؤيد مال الله : المرجع السابق ص 44 .

[3] المصدر السابق ،ج1 ص 209 .

[4] ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 386 ، ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 220 ، يحي ابن خلدون :المصدر نفسه ، ج1 ،ص209 ، ابن الأحمر : تاريخ المصدر السابق ص 68 .

[5] هي مدينة بنها الرومان و في القديم كانت متحضرة غير أنها في فترة الدراسة تعرضت للتخريب من قبل الحفصيين تارة و الأعراب تارة أخرى فأصبحت بذلك قليلة السكان ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 36 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 359.

سنة تسع و تسعون و تنس في شعبان بعده و تالموت و القصبـــات و تـــامزردكت [1] ، في رمضـــان منـه فكـــتان فتح مدينـة وهـران وســـــارت عسـاكره في الجهـات إلى أن بلغـت بجايـة ... و أخـذ الرعـب بـالنواحي و تغلـب على ضـواحي مغـراوة و تـوجين و سـارت فيهـا عسـاكره و دوختهـا كتائبـه واقتحمت أمصارها مثل مليانة و مستغانم و شرشال و البطحاء [2]و وانشريس و المدية و تافركينت " [3].

و تكلم ابن أبي زرع عن المناطق التي خضعت للمرينيين بقوله " ملك ندرومة و هنين ووهران و تاونـت و مزغـران [4] و مسـتغانم و تـنس و شرشـال و برشـك [5] و البطحـاء و مازونـة و ونشـريس والقصبات و المدية و تازجـدت ، و جميـع بـلاد بـني عبـد الـوادي و بـلاد تـوجين و بـلاد مغـراوة ... وخدمه أهل بجاية و قسنطينة وهو مع ذلك محاصر مدينة تلمسـان " [6] ، بعـد هـذه الفتوحـات المرينيـة اعتبرت كل بلاد المغرب الأوسط حواضرا و أريافا تحت سيطرت الدولة المرينية التي فشلت رغـم ذلـك في دخول تلمسان فقامت بفرض حصار على تلمسان عرف بالحصار الطويل .

و في أثنائه استنجد السلطان الزيـاني بصـهره أبي زكريا الحفصـي صـاحب بجايـة لنجدتـه فأرسـل أخوه يحي ، و ما كادت الحامية تبلغ مرادها حتى اعترضتها جيوش المرينيين بجبل الزاب [7] فتقـاتلا في

---

[1] و هو عبارة عن قصر يفصل بين تلمسان و صحراء أنكاد و هو معروف بقصر تمزيزدكت ، و استعمل من قبل ملوك بني زيان كأول نقطة دفاعة ضد بني مرين ، أنظر الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج1 ص 11 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ، ج2 ص 293 ، و قد تكون تالموت و القصبات بالقرب من هذا الموقع مادام ذكرهما جاء معا و ذكرت أثناء سيطرت بني مرين عليهم و نحن لم نعثر على تعريف لهما .

[2] البطحاء بناها الأفارقة بالقرب من معسكر غير أنها خربت بسبب الحروب التي كانت بين بني عبد الواد و بني توجين ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2 ص 28 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه، ج2 ص 326

[3] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 221

[4] تقع بالقرب من مصب نهر الشلف ، و قد ذكر محقق كتاب وصف إفريقيا أنها على بعد 2 كيلومتر على الساحل و 18 كيلومتر جنوب مصب الشلف ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 32 .

[5] تقع برشك على بعد 36 ميلا عن تنس و هي مطلة على البحر ، الحميري : المصدر السابق ص 88 ، و يقول الحسن الوزان أنها بعيدة عن مستغانم بعدة أميال ، المصدر نفسه ج2 ص 32 ، في حين يسميها مارمول كربخال بريشكار و يقول أنها تقع بالقرب من المدية ، المصدر السابق ، ج2 ص 355 .

[6] روض القرطاس ، ص 386-387 .

[7] لم نستطع تحديد موقع هذا الجبل من المصادر الجغرافية ، غير أنه من كلام ابن خلدون يفهم بأنه من المناطق القريبة من جبال زواوة .

سنة (698هـ/1299م) و لكثرة القتلى بين الجيشين المتقاتلين سميت المعركة ب " مرسى الرؤوس " [1] ، وهذا حصار طويل يقول ابن خلدون و التنسي أنه دام " ثماني سنوات وثلاثة أشهر " [2] و أضاف يحي ابن خلدون خمسة أيام " فكانت مدة هذا الحصار الأكبر و الخطب الشديد ثماني سنين و ثلاثة أشهر و خمسة أيام " [3] ، في حين قال المقري أن " جملة الحصار فيما حدثت ألف شهر " [4]، أما ابن ابن الأحمر فقد قال أنه دام مدة سبع سنوات [5].

و كان لهذا الحصار تأثير كبير إذ " ضيق على أهلها بالحصر سبعة أعوام حتى أكلوا الجيف و الحشرات و جميع الحيوانات من الفيران والعقارب و الضفادع و الحيات و غير ذلك ، حتى أكل بعضهم بعضا و كانوا يفرطون و يجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه و يأكلونه " [6] " و كان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار وموت الرجال و تثقيف من يخاف منه الفرار ، بلغ فيها الرطل من الملح بدينارين و كذلك من الزيت و السمن و العسل و اللحم و ذكر بعضهم أن الدجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهبا " [7] .

و أمام هذا الوضع المتدهور اجتماعيا و اقتصاديا ازداد الوضع السياسي تأزما حيث في سنة 703هـ /1303 م توفي السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن بسبب نزلة أصابته في الحمام على رأي يحي ابن خلدون [8] ، أما أخوه عبد الرحمن فيروي رواية عن شيخه محمد بن إبراهيم الابلي يقول فيها أنه انتحر بالسم لما يأس من الفرج و خوفا من العار [9] .

و في المقابل كان الحصار فرصة سانحة للمرينيين لبسط نفوذهم على كل المغرب الأوسط والتحكم فيه و لأجل تثبيت ذلك عملوا على بناء مدينة محاذية لمدينة تلمسان سميت بالمنصورة [10] "

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 224 ، نضال مؤيد مال الله : المرجع السابق ، ص 45 .

[2] العبر ،ج7 ص 95 ، التنسي : المصدر السابق ص 133

[3] المصدر السابق ، ج1 ص 211 .

[4] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح إحسان عباس ، ج 5 ، دار صادر، بيروت ، 1388هـ ص 265.

[5] المصدر السابق ص 68 .

[6] ابن الأحمر : المصدر نفسه ص 69 .

[7] المصدر السابق ص 132 .

[8] المصدر السابق ، ج1 ص 210 .

[9] العبر ، ج7 ص 95 .

[10] ابن مريم التلمساني : المصدر السابق ص 265

و شرع سلطانهم أبو يعقوب بن يعقوب بن عبد الحق في بناء منصورته شمال الحضرة فشيد الأسوار ، وزخرف البناء و أوسع الغروس و أدار على تلمسان نطاق الحصر " [1] ،و استحوذت هذه المدينة على على مكانة تلمسان و أهميتها السياسية و الاقتصادية لكون تلمسان تعاني الحصار ومغلقة الأبواب لا داخل إليها و لا خارج منها [2] ، حيث تكلم ابن خلدون عن مكانة المدينة الجديدة بقوله " واختط بمكان فساطيط المعسكر قصرا لسكناه، واتخذ فيه مسجدا لمصلاه. وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء، فابتنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين وأجروا المياه ، ثم أمر بإدارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعماية وصيرها مصرا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق أسواق واحتفال بناء وتشييد منعة ، وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمارستان، وابتنى بها مسجدا جامعا وشيد له مئذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها وسماها المنصورة، واستبحرت عمارتها وهالت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الأفاق، فكانت أحد مدائن المغرب "[3] ، و هذا الوصف يعتبر من أكبر الأدلة على عظم هذه المدينة .

و انتهى هذا الحصار بمقتل السلطان المريني يوسف بن يعقوب من قبل أحد خصيانه ، وسبب ذلك حسب ابن خلدون قسوة السلطان على خدمه و خصيانه و حجبهم عن سائر أهله وحريمه على غير ماجرت عليه العادة [4] ، بينما يرى البعض الآخر أن سبب القتل كون هذا الخصي واسمه سعادة أراد أن ينتقم لمن رباه (الفقيه أبو علي الملياني) ، الذي قتل من قبل السلطان المريني فانتقم لمقتل سيده بقتل السلطان [5].

[1] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج7 ص 210 .

[2] عبد العزيز محمود الأعرج : المرجع السابق ص 35 .

[3] العبر ، ج7 ، ص 221 .

[4] نفسه ص 233 .

[5] التنسي : المصدر السابق ص 133 .

ومن نتائج مقتل يوسف بن يعقوب ، أن خلفه السلطان عمر أبو ثابت الذي أرجع إلى الزيانيين كل المناطق التي سبق أن دخلت تحت حكم أبيه من أراضي أرياف المغرب الأوسط ، على أن يحافظوا على مدينة المنصورة قائمة عامرة [1] .

وفى السلطان المريني عمر أبو ثابت (706-708هـ/1306-1308م)بوعده و انصرف إلى فاس [2] ، في الجهة المقابلة فإن أول ما قام به السلطان الزياني أبو زيان (703-707هـ/1303-1307م) و أخوه أبو حمو حسب الأخوين ابن خلدون [3] و السلطان أبو حمو على حسب التنسي [4] كان توجيه حملة عسكرية في اتجاه الأرياف الشرقية ، و الغرض منها استرجاع المناطق التي خرجت عن طاعة الزيانيين و تأديب القبائل التي ساندت المرينيين في حصارها الطويل " فقصد بلاد مغراوة و شرد من كان هناك منهم في طاعة بني مرين " [5]، ثم توجه إلى السرسو التي وقعت في يد العرب من سويد و الديالم و التي كانت قبل الحصار في يد قبيلة زناتة [6] ،كما " ذللوا قبائل توجين ، وقادوهم في زمام الطاعة ، فراجع أهل الردة أجمعون بيعة السلطان أبي زيان " [7] .

و إذا كانت غزوات بني مرين على الدولة الزيانية توقفت مؤقتا فقد استمرت الفتن الداخلية و التي عمل السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول (707هـ-718هـ /1307م-1318م) على القضاء عليها وذلك باستعمال الأسلوب العسكري و السياسي ومن ذلك عسكريا تجهيز جيشا باتجاه مغراوة و بني توجين ففي مغراوة" ردد إليهم العساكر، حتى دوخ بلادهم وذلل صعابهم وشرد

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 235 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 211 ،التنسي : المصدر نفسه ص 135 ، إبراهيم حركات : العلاقات بين بني مرين و بني عبد الواد و انعكاساتها ، مقال منشور في كتاب وجدة حاضرة الألفية أعمال الذكرى الألفية لتأسيس حاضرة وجدة (994- 1994) ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، ط1 ، الرباط ، 2003 ص 41 عبد العزيز محمود الأعرج : المرجع السابق ص 37 .

[2] التنسي : المصدر نفسه ص 135

[3] العبر ،ج7 ص 97 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 212

[4] المصدر السابق ص 135 .

[5] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 97 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 212 .التنسي : المصدر نفسه ص 136.

[6] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 97 .

[7] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 212 ، التنسي : المصدر السابق ص 136 .

محمد بن عطية الأصم عن نواحي وانشريش، وراشد بن محمد [1]عن نواحي شلف " [2] و الذي فر إلى زواوة فأمر السلطان ابن عمه مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن بملاحقته هناك [3].

أما بالنسبة لبني توجين فخرج في 710هـ /1310م بجيوشه ، ونزل تافركنيت، " فشرد الفل (مفرد فلول) من أعقاب محمد بن عبد القوي [4] عن وانشريش، واجتاز رياستهم في بني توجين دونهم وأدام منهم بالحشم وبني تيغرين " [5] .

و لم تكن اهتمامات السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م)العسكرية منصبة على القبائل المعروفة بعدائها للزيانيين بل كانت نواياه أكبر من ذلك إذ سعى إلى توحيد كل أقطار المغرب الأوسط مدنا و أريافا وهو ما يفهم من كلام يحي ابن خلدون و التنسي " فأمر السلطان أبا سرحان مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن بالتوجه لحصار بجاية و أمر محمد ابن يوسف ابن أمير المسلمين أيضا قائد مليانة و مسامحا (قائد من العلوج) بالتوجه في جيش كبير على التل لتدويخ بلاد الموحدين و أرسل موسى بن علي الغزي في مصارختهم بجيش آخر و العرب كافة على الصحراء ، فجاس كل منهم خلال ما والاه من ديارهم ، و اجتمعوا بظاهر بلد العناب ثم قفلوا " [6] ، ما يمكن فهمه من كلام يحي ابن خلدون و التنسي أن أبو حمو موسى الأول استطاع السيطرة على كل المغرب الأوسط من تلمسان عاصمة الدولة غربا إلى بلد العناب شرقا و يكون هنا بنو زيان سيطروا على الكثير من المناطق التي كانت تابعة للحفصيين و الذين ذكروا عند يحي ابن خلدون والتنسي بالموحدين كونهم اعتبروا الوارثين الشرعيين للدولة الموحدية و في الصحراء جنوبا دون ذكر حدود الصحراء هنا ، و يقع تحت هذه الرقعة أرياف المغرب الأوسط .

وأما الأعمال السياسية فعين يحيى بن عطية على رياسة قومه بني تيغرين في جبل وانشريش، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدية وأعمالها، وعقد لسعد من بني سلامة بن علي

---

[1] راشد بن محمد هو حفيد ثابت بن منديل و هو أمير مغراوة ، ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 66 .

[2] نفسه ، ج7 ص 99 .

[3] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 213 ، التنسي : المصدر السابق ص 137 .

[4] محمد بن عبد القوي هو أمير بني توجين ، ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 294 .

[5] نفسه ، ج7 ص 99 .

[6] المصدر السابق ،ج1 ص 213 ، التنسي : المصدر السابق ص 137 .

على قومه بني يدللتن إحدى بطون بني توجين، وأهل الناحية الغربية من عملهم وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية، واستعمل عليهم جميعا من صنائعه قائده يوسف بن حيون الهواري [1].

و أمام هذا الوضع الداخلي ، الذي يمكن وصفه بأنه غير مستقر ، وقع احتكاك جديد بين الزيانيين و بنو مرين ففي سنة 714هـ/1314م وقعت محاولة داخل الأسرة المرينية للإطاحة بالسلطان المريني أبو ربيع سليمان بن عبد الله (708هـ-710هـ/1308م-1310م) ، فلما اكتُشف أمر الثائرين لجئوا إلى تلمسان و رغبوا أبو حمو بغزو فاس ، و في هذه الأثناء توفي السلطان المريني أبو ربيع و عُين أبو سعيد عثمان الثاني سلطان جديدا فقام بالمطالبة بتسليم الثائرين الفارين إلى تلمسان و أمام رفض التسليم قام بعملية عسكرية شملت تراب الدولة الزيانية و نزل بساحة تلمسان بعد أن سيطر على أريافها فعمد أبو حمو إلى تسريب الأموال إلى حاشية السلطان المريني الذي أحس بالمؤامرة فسحب جيوشه و عاد إلى فاس [2] .

و رغم الأعمال التي قام بها السلطان أبو حمو موسى الأول للسيطرة على المغرب الأوسط بإتباع الأساليب السياسية و العسكرية إلا أن ذلك لم يتم ، و قد ورث ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (718هـ-737هـ/ 1318 م-1337م) عرش الدولة الزيانية و قام بجملة من الأعمال منها أنه في سنة 719هـ / 1319م ، شن حربا ضد محمد بن يوسف من بني توجين الذي ثار على أبيه و حاصره في جبل الونشريس و هناك قضى عليه و عفا عن أتباعه [3].

كما قام أيضا بتكثيف العمل العسكري على بني حفص ففي سنة 726هـ /1326م " نزل قسنطينة و أفسد بقطرها الزرع و الضرع ، و عاد إلى واد بجاية فاختط به مدينة تامزجزجت "[4] أو

---

[1] يحي ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 213 . التنسي :المصدر نفسه ص 99 .

[2] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 101-102 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 107 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 216 ، التنسي : المصدر السابق ص 143 .

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 108 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج1 ص 218 ، التنسي : المصدر نفسه ص 143 .

تامزيزدكت [1] ، و بعد سيطرتهم على هذه المناطق وجه حملة أخرى سنة 728 هـ/ 1328 ، إلى قسنطينة و بلاد العناب [2]، و يفهم من افسد الزرع و الضرع أنه سيطر على الأرياف فهي من كان بها الزراعة و الرعي .

و في سنة 730هـ / 1330م أرسل حملة عسكرية بقيادة يحي بن موسى الجمي و أبو عمران الحفصي و التي كان لها احتكاك مع جيش الحفصيين بقيادة السلطان الحفصي أبو بكر بن يحي المتوكل (718هـ-746هـ/1318م-1346م) وانتصروا عليه نصرا كبيرا وبذلك دخلوا تونس و حكموها مدة أربعين يوما [3]،في حين يذكر روبار برنشفيك أن مدة السيطرة الزيانية على تونس كانت خمسة أشهر [4] ،و كانت سياسة السلطان الزياني أبو تاشفين التوسعية سببا في تعرض الدولة الزيانية لحملة مرينية على تلمسان ، إذ أن الزيانيين بسطوا سلطتهم على أراضي حفصية و الحفصيون هم حلفاء بني مرين و تربطهم معهم رابطة مصاهرة (إحدى بنات أبو يحي زوجة أبو الحسن المريني)، و لقد تشفّع أبو الحسن المريني لدى السلطان الزياني من أجل الإقلاع عن التوسع على حساب الحفصيين غير أن رد السلطان الزياني كان " أسوأ رد قولا و فعلا " [5] .

و كان هذا الرد سببا في قيام السلطان المريني بحملة جديدة على تلمسان ، هذه الحملة حدثت سنة 732هـ / 1332م ، لكنه تخطاها إلى تاسالة وضرب بها معسكره وأطال المقامة ، وبعث بمجموعة من الجيوش إلى بجاية مع الحسن البطوي ، الذي التقى بالأمير الحفصي أبو بكر بن يحيى المتوكل (718-746هـ /1318-1346) ببجاية ، وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم

---

[1] تقع بالقرب من بجاية سماها كل من عبد الرحمن و يحي ابن خلدون بالمدينة ، غير أنني أعتقد أن تسميت مدينة مبالغ فيها نوعا ما ، خاصة إذا علمنا أن مدة بناء دامت أربعين يوما و هي مدة قصيرة لا يمكن أن تبنى فيها مدينة ، فمثلا عقبة بن نافع بنا مدينة القيروان في خمس سنوات ، و المهدي الفاطمي بنا المهدية في ثلاث سنوات . فتمرزدكت هذه ربما تكون معسكرا للجيوش ، أو قاعدة لحصار و مراقبة بجاية الحفصية ، فمصطلح مدينة يكون حسب اعتقادي مبالغ فيه

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 108 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 218

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 108 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 218 ، التنسي : المصدر السابق ، ص 144

[4] روبار برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م ، تر حمادي الساحلي ، ط1 ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988 ص 176 .

[5] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 109 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 218 ، التنسي : المصدر السابق ص 145 .

تامزيزدكت، وهنا فر من كان فيها من عسكر بني عبد الواد وتركوها خاوية و دخلها عسكر الحفصيين " فعاثوا فيها تخريبا ونهبا وانطلقت الأيدي على الاكتساح بما كان فيها من الأقوات والأدم، فنسفت وألصقت جدرانها بالأرض وتنفس مخنق بجاية من الحصار، وانكمش بنو عبد الواد إلى وراء تخومهم " و قد حدثت هذه الحادثة سنة 733 هـ / 1333م[1] .

و كان للظروف الطارئة التي حدثت في المغرب الأقصى تأثيرات على المغرب الأوسط [2] ، إذ بمجرد سيطرت أبو الحسن المريني على الوضع عاود تجهيز حملة جديدة على المغرب الأوسط سنة 735هـ / 1336م سيطر في أثنائها على ندرومة و هنين و وهران و مليانة و تنس و الجزائر و كل البلاد الشرقية للمغرب الأقصى مدنا و أريافا ثم قصد تلمسان و عمل على محاصرتها حصارا شديدا و أثناء هذا الحصار قدمت على السلطان المريني قبائل مغراوة و بنو توجين لتقديم الطاعة و الولاء [3] .

و في أثناء الحصار قام بمجموعة من الأعمال منها إقامة القناطر كقنطرة وادي سطفسيف بتلمسان [4] كما بنا مدينة المنصورة غرب تلمسان [5]، و دام الحصار عامين و ذلك إلى27 [6] أو 28 28 من رمضان 737هـ / 1336م [7]حيث استطاع المرينيون دخول المدينة ، و نتج عن ذلك حدوث معركة فاصلة هلك فيه بعض أمراء بني زيان و كان ذلك سببا في سقوط دولتهم و وصف ذلك ابن خلدون بقوله " ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته، وقاتل هنالك حتى قتل ابناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي، ووليه عبد الحق بن عثمان بن محمد من أعياص آل عبد الحق... فهلك هو وابنه وابن أخيه، وأثخنت السلطان أبا تاشفين الجراحات ووهن لها، فتقبض عليه وحمله بعض الفرسان إلى السلطان فلقيه الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب ووارد غمرتها بنفسه

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج7 ص 109، 110 ، يحي ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 219 ، التنسي :المصدر نفسه ص 145 .

[2] نقصد بذلك النزاعات التي حدثت داخل البيت الحاكم في الدولة المرينية ومن ذلك " الأمير أبو علي ثار على أخيه السلطان أبي الحسن، ونهض من سجلماسة إلى درعة، فقتل بها عامل السلطان" وغيرها من الأحداث ابن خلدون : العبر ،ج7 ، ص254 .

[3] نفسه ص 256 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 219 .

[4] محمد ابن مرزوق : المصدر السابق ص 418 .

[5] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 219 ، التنسي : المصدر السابق ص 146 .

[6] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 257 .

[7] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 219 .

فاعترضه وقد غص الطرق بموكبه فأمر به للحين فقتل واحتز رأسه وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توبيخه وتقريعه وذهب مثلا في الغابرين ، واقتحم السلطان بكافة عساكره، وتواقع الناس بباب كشوط لجنوبهم من كظيظ الزحام، فهلك منهم أمم ، وانطلقت أيدي النهب على البلد، فلحقت الكثير من أهله معرات في أموالهم و حرمهم "[1] .

و دامت فترة السيطرة المرينية على المغرب الأوسط مدة اثني عشر سنة من (737هـ-749هـ/1336-1348م) كانت بها الكثير من الهزات السياسية و الصراعات العسكرية بسبب ما حدث في الأرياف ، إذ أنه في سنة 738هـ/1337م سار في اتجاه متيجة لملاقاة السلطان الحفصي أبو بكر بن يحي لكن الأخير لم يسر نحوه لكون حجابه محمد بن الحكيم حذره من مغبة اللقاء به بقوله " إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما " و طال به الانتظار ما أدى إلى مرضه وما صاحب هذا المرض من إشاعات حول هلاك السلطان مما أدى إلى محاولة تقسيم المملكة بين ولديه أبو عبد الرحمن وأبو مالك ، و حاول بعض خاصة السلطان تدارك الأمر قبل فوات الأوان إذ أعلموا السلطان بذلك و النتائج التي قد تترتب عن تقسيم المملكة ، فخرج إلى فاس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق وهو ما كان له نتائج محمودة إذ عادة الأمور إلى نصابها وهنا قام بالقبض على أهل الفتنة وأودعهم السجن وسخط على الأميرين ، وردهما إلى معسكره ثم رجع إلى فسطاطه، فارتاب الأميران لذلك ووجما وطفأت نار فتنتهما[2].

و حاول السلطان المريني أبو الحسن استخدام بني عبد الواد فجمعهم و حافظ عليهم وعلى رتبهم و أبقى لشعوبهم و قبائلهم المراسم التي ألفوها و كان ذلك تفاخرا منه بملك القبيلتين ، تشرفًا بإمرة قبلة زناتة [3] ، و رغم السياسة المتبعة من قبل السلطان المريني تجاه بني عبد الواد إلا أن السلطان السلطان لا يمكن أن يرض إلا أن يكون سلطانا و لأجل ذلك كان بعض وجهاء بنو عبد الواد يتحينون الفرص لاستعادة ملكهم ، و هو ما كان لهم بعد أن تحرك السلطان المريني أبو الحسن غازيا إلى إفريقية و أخذ معه أبو ثابت و أبو سعيد و أهلهما (قبيل بني عبد الواد) ، و بعد سيطرته على تونس و نواحيها عامل القبائل العربية و خاصة قبيلة سليم و أحلافها معاملة قاسية فتألبوا عليه

---

[1] العبر ،ج7 ص 256 .

[2] نفسه ، ص 259 .

[3] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 234 ، التنسي : المصدر السابق ص 149 .

وبايعوا أحمد بن أبي دبوس [1] ، فوجه السلطان المريني جيشه لملاقاتهم بالقرب من القيروان ، و هنا تأتت الفرصة المناسبة لبني عبد الواد لاسترجاع ملكهم المفقود فانحازوا إلى العرب و استطاعوا التغلب على جيش السلطان المريني [2] .

بعد هذا النصر بايع بنو عبد الواد أبو سعيد [3]بتونس في ربيع الأول 749هـ /1348م و ما قام به في تونس هو تأليف قلوب مغراوة و بني توجين ، ثم رحل إلى بلاد المغرب الأوسط ، و ثارت عليه في الطريق بعض القبائل كقبائل ونيفن من هوارة و أهل جبل بني ثابت الملاصق لقسنطينة و لما وصل إلى الشلف فارقته قبيلتا مغراوة و بنو توجين بالمناصرة عند الحاجة ، و بالقرب من تلمسان التقى بمن بقي من جيوش بني مرين فيها و استطاع التغلب عليهم و بذلك دخل العاصمة تلمسان في جمادى الآخرة سنة 749 هـ/ 1348م [4].

و بدأت الدولة المحيات ببعض الأعمال العسكرية منها مواجهة أبو الحسن المريني الذي كان بتونس و قفل راجعا إلى المغرب الأقصى ، و شاركت قبيلة مغراوة إلى جانب الزيانيين في هذه المعركة " فالتقى الجمعان بتيعزيزين "[5] " و صابروا مليا ثم انكشف السلطان أبو الحسن و قومه و طعن ولده الناصر بعض فرسان مغراوة و هلك آخر يومه و قتل محمد بن علي العربي قائد أساطيله و ابن البواق و القبائلي كاتباه و استبيح معسكره وما فيه من متاع و حرم " [6] ، ما يمكن ملاحظته هنا أن الريف كان مسرحا لهذه المعركة بين بني زيان و بين بني مرين .

---

[1] أحمد بن أبي دبوس هو حفيد الخليفة الموحدي أبو دبوس و هو أحمد بن عثمان بن إدريس بن أبي دبوس أنظر : ابن خلدون : العبر، ج7 ص 257 .

[2] نفسه ج7 ص 257 ، يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 235 ، التنسي : المصدر السابق ص 149 ،150.

[3] اشترك في الدولة السلطانان أبو سعيد و أبو ثابت " فالسرير و المنبر و الدينار للسلطان أبي سعيد و الجيوش و الألوية و الحروب للسلطان أبي ثابت مع تعظيمه لأخيه و بروره به " يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 241 .

[4] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 114 ، يحي ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج1 ص 236 ، التنسي : المصدر السابق ص 150، 151 .

[5] لم أتمكن من التعرف على هذه المنطقة ، لكن يمكن أن تكون في الشلف على حسب يحي ابن خلدون " تيعزيزين من الشلف " يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 244 ، و يسميها عبد الرحمن ابن خلدون ب تيمغزين ابن خلدون : المصدر نفسه،ج7 ص 119 .

[6] ابن خلدون : المصدر نفسه،ج7 ص 119 ، يحيى بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 244 ، التنسي : المصدر السابق ص 153 .

و عرف ريف المغرب الأوسط امتداد لمرحلة أللاستقرار و ذلك بسبب تجدد الصراع الزياني مع مغراوة إذ أقبل بعض أهل مغراوة على قتل بعض من بني عبد الواد غدرا ، فكان ذلك دافعا لتجهيز حملة جديدة على مغراوة قادها السلطان أبو ثابت في غرة محرم 752هـ /1351م ، و في طريقه عرج على قبائل سويد و بني عامر و أخضعها ثم توجه إلى الجبل المطل على تنس و حاصره ، ثم ارتحل شرقا و أخضع برشك و شرشال و مليانة و المدية و دخل في طاعته عرب متيجة ثم رجع إلى جبل تنس و شدد الحصار عليه أكثر و هو ما دفع بأرباب المواشي إلى مساعدة بني زيان في حصارهم ففر زعيم مغراوة علي بن راشد إلى تنس و بها ذبح نفسه في شعبان 752هـ /1351م [1].

و بذلك استطاع الزيانيون إحياء دولتهم من جديد بعد السيطرة المرينية على الدولة الزيانية التي دامت 12 سنة ، عرفت من خلالها أرياف المغرب الأوسط الكثير من الثورات و التمردات على حكم بني مرين ، سواء من البربر أو من القبائل العربية المتواجد في البلاد ، و قد حاول الزيانيون فرض سيطرتهم على المغرب الأوسط بسلطة أكثر قوة من الفترة السابقة .

لم يكن عمر الدولة المبعوثة من جديد طويلا فقد عرفت الأفول و الزوال من جديد على يد المرينيين و السبب هو أنه في أثناء حصار بني زيان لمغراوة أرسل السلطان المريني أبو عنان (749-759هـ /1348-1357)كتاب إلى الأمير الزياني أبو ثابت يشفع فيه لمغراوة و يطلب من السلطان الزياني الإقلاع عن حربهم و فك الحصار عنهم ، غير أن الأمير أبو ثابت رد شفاعته و هو ما دفعه إلى التحرك غربا إلى تلمسان بعد أن جهز الجيوش لهذا الغزو ، و لما بلغ الخبر إلى بني زيان سعوا إلى مواجهة هذا الخطر فخرج الأمير أبو ثابت لحشد قبائل زناتة و القبائل العربية ، ونزل بوادي شلف و لحقه هناك الكثير من أنصاره ، و أطاعته تدلس و رجع بعدها إلى تلمسان لمواجهة زحف السلطان المريني أبي عنان ، ثم توجه غربا ، وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد (749-753هـ /1348-1352م) و معه جمع من قبائل زناتة و بنو عامر من زغبة والفل من سويد [2].

في الجهة المقابلة زحف السلطان أبو عنان في عدد كبير من جيوشه وهي أيضا من زناتة وعرب المعقل والمصامدة بالإضافة إلى الجنود النظاميين، و التقى الجيشان في أنكاد جمادى الأول 753هـ

---

[1] ابن خلدون :المصدر نفسه ، ج7 ص 119 ، يحيى بن خلدون : المصدر نفسه ، ج1 ص 245 ، التنسي : المصدر نفسه ص 153.

[2] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 244 ، التنسي : المصدر نفسه ، ص153 .

/ 1352م ، و انهزم الزيانيون في هذه المعركة و قتل أبو سعيد في حين قفل أبو ثابت راجعا إلى تلمسان و منها قصد الجزائر و أعاد جمع العديد من الجيوش لملاقاة المرينيين و التقى الجمعان بالقرب من واد الشلف و انهزم المرينيون قبل أن يصلهم المدد من العرب فدارة الدائرة على الزيانيين و انهزموا ووقع الأمير أبو ثابت في الأسر و استطاع أبو حمو موسى الثاني من الفرار و التوجه إلى تونس [1].

من خلال ما قدمنا يمكننا القول أن سبب الحملة الجديدة هو ما حصل في الريف ، إذ أن حملة بني مرين كانت بسبب توجه الزيانيين لأخذ الثأر من مغراوة ، كما أن المعارك التي حدثت بينهما كانت كلها خارج نطاق المدن ووقعت في الأرياف .

إذا بهذا زالت الدولة الزيانية من جديد من الخارطة السياسية لبلاد المغرب و سيطر بنو مرين على كل المغرب الأوسط [2] بداية من بجاية في سنة 754هـ /1353م و التي ثار عليها أهلها [3] وفي طريقه إلى بلاد الزاب سيطر على قسنطينة سنة 755هـ /1354م [4]، و طلب السلطان المريني من السلطان الحفصي أبو إسحاق بن أبي يحي الحفصي (751هـ-770هـ/1350م-1369م) تسليم أبو حمو موسى الثاني غير أنه رفض ذلك وهو ما دفع بالسلطان المريني إلى احتلال بلاد المغرب الأوسط و إفريقية في سنة 758هـ /1358م [5] .

إذ توجه إلى بلاد الزاب وهناك واجه عدة حروب من قبل القبائل العربية الموجودة على طول الطريق من قسنطينة إلى بلاد الزاب ، فحاربته أولاد سباع الذين تحالفوا مع أولاد سواق ، و بعث برسالة تحذيرية توعدية مما جاء فيها " إنه لا يمهلهم أو يكر على جموعهم ، و يستأصل بالسيف أهل ربوعهم و يبيح للجيش اكتساح أموالهم ، و انتهاب حلالهم ، و إخماد ذيالهم و بخث أثلهم و

---

[1] ابن خلدون : المصدر السابق ،ج7 ص 120 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 245 ، 246، التنسي : المصدر نفسه ص 153، 154 .

[2] و قد عرف المغرب الأوسط تحت حكم بني مرين الكثير من الأحداث السياسية و العسكرية و التي أجمل كل أحداثها تقريبا المؤرخ ابن الحاج النميري في كتاب فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و بلاد الزاب و الذي حققه و درسه محمد بن شقرون ، و نشرت طبعته الأولى سنة 1990 عن دار الغرب الإسلامي .

[3] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 292.

[4] نفسه ص 293 .

[5] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ، ص 53 .

سيالهم ، و إيراد الصعاد شرب دمائهم " [1]، و رغم ذلك حاربوه و ناصبوه العداء لكنه استطاع التغلب عليهم [2]، و لم يختلف مصير قبائل الأثبج عن مصير سابقيهم إذ أجبرهم المرينيون على الاعتصام في جبل الأوراس و تحالفت مع الأثبج قبائل عربية أخرى كقبيلة كرفة و رياح ، و رغم ذلك انهزم العرب أمامهم هزيمة كبيرة و بذلك واصل المرينيون مطاردة فلول الفارين من العرب إلى بلاد الزاب مسيطرين في طريقهم على القنطرة [3].

ثم سيطر على طولقة التي قام بزيارتها في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رمضان 758هـ / 1357م ، ودخل إلى جامعها وقصبتها وهي خاوية من السكان ، ولما رأى ما لها من حصانة وتمنع الإتقان أدرك صعوبة تركها بهذه الحصانة ، و أمر لتوه بهدمها وإذهاب وسماتها بحجة أنها " أباحت الظلم " [4] ، وفي الليلة التي تلت ليلة دخوله إلى طولقة توجه إلى حصن فرفر ، وأمر بتخريبه كما أمر أيضا بقطع وحرق ما كان به من أشجار ، و كان هذا الحصن خاضع لسيطرة يعقوب بن علي وأولاد محمد الذخر الأكبر ، وعبر ابن الحاج النميري عن هذا العمل ب " ولم يكن إلا أن أمر مولانا الخليفة بإذهاب مينه وإزالة زينه ، وإشهاد انطفائه على عينه ، فشدت القبائل لاستئصاله الأزر ، وتقاسموا مسافاته تقسم ساكنيه الجزر ، واتصل العمل في ذلك هدما وحرقا واجتمعت عليه الأيدي محوا محقا ، حتى عرفت أبنيته الخط بالغبار بعد التجميل " [5] .

ورغم محاولات بني مرين إخضاع كل المناطق التي مروا بها ، فإن ذلك لم يتم و هو ما يشير إليه مؤرخهم ابن الحاج النميري ، حيث تحدث أثناء رجوعهم إلى الشمال عن مناطق ناهضت تواجدهم فمثلا في نقاوس و المناطق القريبة منها انتشرت ظاهرة اللصوصية وهو دليل على عدم استطاعتهم بسط نفوذهم على المناطق المسيطر عليها ومن أمثلة ذلك" ظهر سراق من بوادي رياح المفسدين ممن عول على سبق جواده " ، " و قد كان سراق من بني ملاك فيهم دغار بن عيسى قد تعرضوا لأخذ بقر بقيت في أعقاب الرحائل بالزاب " [6]، كما كانت في ريغة قلاع راسخة تضاهي

---

[1] النميري : المصدر السابق ص 401 .

[2] نفسه ص401 .

[3] نفسه ص ص 406 ، 420 .

[4] النميري : المصدر نفسه ص 443 .

[5] نفسه ص ص 445 ،447.

[6] نفسه ص 455، 456 .

جبالها " و هي مأوى لكل سارق ، و ملجأ لكل مناف منافق "[1] ، ولما توجه إلى قسنطينة أعاد سيطرته عليها في سنة 758هـ /1357م[2]، و حاول أهل قسنطينة مقاومته " أن أهل قسنطينة لم يزالوا مصرين على المكافحة ، طائلا طيلهم في المقابلة و المقابحة ، واصلين مقاداتهم في العناد بالمراوحة "[3] و لم يزل أهل قسنطينة على جدلية من أمرهم مصرين على العناد المضاعف لأصرهم ، حتى أحفظوا الخليفة أعظم أحفاظ "[4].

من خلال استقراء الوضع العام يلاحظ أن السلطان المريني أبو عنان فارس استطاع إخضاع المغرب الأوسط لسلطته بل و أخضع افريقية غير أن هذا الإخضاع كان غير مكتمل كونه تعرض للكثير من الثورات الداخلية و رفض من قبل أهل المغرب الأوسط و خاصة العرب الهلالية ، كما أنه فشل في تأمين سكان المغرب الأوسط حيث كان هناك انتشار واسع لظاهرة اللصوصية ، و إذا تمعنا للرفض وجدنا أنه غلب على أهل الريف أكثر من أهل المدن .

و في وقت السيطرة المرينية على بلاد المغرب و محاولتهم إحياء ارث الدولة الموحدية ، كان السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني يعمل مع السلطان الحفصي أبو إسحاق بن أبي يحي من أجل محاربة المرينيين و استعادة دولتيهما إذ توجها إلى بلاد الجريد ، وهناك تعرف السلطان الزياني على بعض الزعمات العربية خاصة من عرب الذواودة الذين أجمعوا على خلع طاعة بني مرين ، و الانحياز إلى السلطان الحفصي و صاحبه الزياني ، وبذلك استطاع السلطان الحفصي استعادة عرشه فرجع إلى تونس و رجع معه السلطان الزياني و منها بدأ التحضير لاسترجاع دولة أبائه إذ كون جيشا من عرب الذواودة و بني عامر ومن زناتة ومن كان معه من بني زيان أضف لها مساعدة بني حفص و كان ذلك في سنة 759هـ/ 1358م[5] .

---

[1] نفسه ص 463 .

[2] ابن قنفد : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تقيم و تحقيق محمد الشادلي النيفر ، عبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1968 ص 174 .

[3] النميري : المصدر السابق ص 288 .

[4] نفسه ص 289 .

[5] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 122 ، يحي بن خلدون : بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، ج2 ، طبع بمطبعة فونطانة، الجزائر ، 1910 ص 21، 22 ، التنسي : المصدر السابق ص 157 ، 158 ، عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ص 53 .

و كانت الوجهة نحو أرياف المغرب الأوسط فأخضع جبل عياض و بلاد الزاب و ريغ واورجلان [1]، ثم اتجه غربا فسيطر على جبل مصاب و وادي زرفون و أولاد عريف و أولاد ملال وحدثت معهم معارك شديدة ، و صفها يحي بن خلدون و التنسي ب"فبعد مشي عشرة أيام ولياليها لم يحل فيها و لا قومه سرجا و لا حطوا فيها قتبا صبح القوم بواد ملال و قد عميت عليهم الأنباء فاستبيح المال و قتل عثمان بن وزنمار بن عريف في مشاهير كثيرين من قومه كائنة مشهورة الخبر وملحمة عظيمة الأثر كانت لمولانا الخليفة أيده الله و حزبه باكورة الجنا و طليعة الملك و أولى بشائر الفتح " [2] ، ما يمكن ملاحظته على هذا الوصف أن به الكثير من المبالغة إذ لا يمكن تصور المشي مدة عشر أيام و ليالي دون الاستراحة ، كون الانسان يحتاج إلى الراحة و التزود .

و في الطريق إلى تلمسان بلغهم نعي السلطان المريني أبو عنان [3] ، و استطاعوا سيطرة على كل المناطق المجاورة لها و حاصرها و أثناء ذلك قدم عليه أهل المغرب الأوسط و دخلها شهر ربيع الأول 760هـ/1359م [4].

ورغم السيطرة الزيانية على تلمسان حاول المرينيون استرجاعها ، إذ عين السلطان المريني ابن عمه مسعود بن رحو بن علي على رأس جيش زحف عليها ، فلما وصل الخبر إلى أبي حمو وأتباعه من بني عامر تركها و توجه إلى الصحراء ، ودخلها مسعود بن رحو ، وخالفه السلطان أبو حمو إلى المغرب فنزل بأنكاد فأرسل إليه مسعود بن رحو ابن عمه عامر بن عبو بن ماساي في جيش استطاع الزيانيون و أحلافهم هزمه و لما و صل الخبر إلى تلمسان انقسمت كلمتهم و تشتت شملهم و خلعوا بيعت السلطان المريني محمد سعيد أبو بكر (759هـ-760هـ/1358م-1359هـ) فبايع البعض ابن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق و بايع آخرون ومنهم مسعود بن رحو منصور بن

---

[1] مؤلف مجهول : زهر البستان في دولة بني زيان ، تقديم محمد بن أحمد باغي ، ط1 ، شركة الأصالة للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2011 ص 33 .

[2] المصدر السابق ،ج2 ص 23 ، التنسي : المصدر السابق ص 158 .

[3] و كانت وفاته في الرابع و العشرين من ذي الحجة 759هـ / 1358م ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 233 . في حين وصل خبر وفاته إلى بني زيان في السادس من محرم 760هـ / 1358م يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 24 .

[4] تحدث ابن خلدون عن تاريخ مضبوط فيقول " و دخل السلطان أبو حمو تلمسان لثمان خلون من الربيع الأول سنة ستين " ، نفسه ص 233 ، في حين ذكر كل من يحي بن خلدون و صاحب زهر البستان و التنسي أن الدخول كان في غرة ربيع الأول انظر يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 37 ، مجهول : زهر البستان ص 58 ، التنسي : المصدر السابق ص 159 .

سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق و كان ذلك سببا في ترك تلمسان وشأنها، ورجع السلطان أبو حمو إليها [1] .

نلاحظ هنا أن الأحداث كانت تدور حول السيطرة على عاصمة الزيانيين ، غير أن ريف المغرب الأوسط هو من كان مسرحا للأحداث إذ أخلى الزيانيون العاصمة و توجهوا إلى الصحراء ومنها جهزوا الحملات التي كانت التقائها بالجيش المريني في الأرياف .

و بعد استرجاع بني زيان لقاعدة ملكهم راحوا يحاولون استرجاع الأراضي الخارجة عن سيطرتهم في المغرب الأوسط ، إذ استعادوا وهران و أرسل السلطان أحد كبار قادة جيشه و هو شعيب بن إبراهيم المعطاوي في جيش لاسترداد تنس و هو ما كان له [2] .

و رغم أن السلطان الزياني أبو حمو يعتبر من أقوى السلاطين الذين عرفتهم الدولة فإن المرينيين حاولوا إعادة السيطرة على المغرب الأوسط ، ومن ذلك ما قام به يحي بن علي البطيوي وهو أحد القادة المرينيين متحالفا مع عرب سويد و قبائل بني توجين ، لكن الزيانيين تمكنوا من هزيمته ففر إلى مليانة و استعصم بها وطورد في أرياف المغرب الأوسط إلى أن أسر في المدية مع خمسمائة من جند بني مرين [3].

و كان لهذه الهزيمة وقع على العلاقات السياسية ، إذ طالب السلطان المريني أبو سالم من السلطان الزياني أن يفك أسر من أسر في المدية فرد أبو حمو بقوله " إنهم أكفاء عبد الواد المثقفين عندكم من كائنة أنجاد فإن رضيتم فداء اثنين من قبيلكم بواحد من قبيلنا فعلناه " لكن السلطان المريني رفض هذا الطلب و هو ما كان سببا في الحرب التي حدثت في أوائل سنة 761هـ / 1360و كان النصر فيها حليف الزيانيين [4] ، و في منتصف السنة تجهز المرينيون لغزو المغرب الأوسط و يورد عبد الرحمن بن خلدون سببا هذه الغزوة بقوله " لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب، ومحا أثر الخوارج على الدولة سما إلى امتداد ظله إلى أقصى تخوم زناتة، كما كان لأبيه

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ج7 ، ص 123 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج2 ص 51 ،52 .

[2] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص 52،53 .

[3] نفسه ص 62، 63.

[4] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ص 64 .

وأخيه وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم إلى تلمسان بجباية عمله فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان " [1] .

و انتهج الزيانيون خطة قامت على الخروج من تلمسان و التوجه إلى الصحراء [2] ، ومنها يقومون بالتوجه إلى المغرب الأقصى " فنازلوا وطاط وبلاد ملوية وكرسيف وحطموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخربوا عمرانها " و كانت هذه الخطة سببا في رجوع السلطان المريني إلى المغرب الأقصى و عين على تلمسان رجل من آل يغمراسن هو محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ويكنى بأبي زيان و أمّره على عدد من جيوش قبائل بني توجين و مغراوة ، غير أنه فشل في المحافظة على عرشه وإبقاء تبعية تلمسان للمرينيين ، فانهزم أمام جيوش أبي حمو و بذلك التحق بجيوش بني مرين المتواجدة شرق تلمسان " من البطحاء و مليانة و ووهران و أوليائهم من بني توجين و سويد من قبائل زغبة " [3] .

بعد الانتصار على صنيعة المرينيين حاول السلطان أبو حمو استرداد الأراضي الوقعة شرق تلمسان فأرسل قائده أبو موسى عمران بن موسى فحاصر وهران و التي استطاع ضمها في رمضان ثم سار إلى تسالة [4] فاستردها كما استرجع البطحاء أيضا ، و توجه إلى عرب المعقل و زغبة و بني عامر كما حصار جبل الونشريس الذي اعتصم به محمد بن عثمان المعروف بأبي زيان ، و واصل استرداده لأراضي فاسترد المدية ومليانة و المتيجة و التنس و بذلك استطاع استرجاع كل أراضي مملكته [5] و بعد أن تم له كل هذا أرسل كتابا إلى السلطان المريني أبو سالم يطلب منه السلم [6] .

---

[1] العبر ، ج7 ،ص 125 .

[2] مجهول : زهر البستان ،ص 149.

[3] ابن خلدون : العبر ، ج7 ، ص 125 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ، ص ص 75 ،79 ، مجهول : المصدر نفسه ، ص 156 .

[4] تاسلة يكتبها كل من الحسن الوزان و مارمول كربخال تسلة من دون ألف و هي تبعد عن وهران حوالي 29 كيلومتر ، و قد بناها الرومان و خربها أبو الحسن المريني أثناء حماته على المغرب الأوسط ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 25 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ، ص 325 .

[5] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 125 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ص ص 80 ، 82 ، مجهول : زهر البستان ص 163.

[6] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 125 ، مجهول : المصدر نفسه ص 191 .

و رغم أن الزيانيين استطاعوا عقد السلم مع بني مرين [1] ، إلا أن الوضع السياسي ظل غير مستقرا داخل الدولة فمحمد بن عثمان المعروف بأبي زيان بقي يطالب بحقه في حكم الدولة الزيانية و حاول أكثر من مرة الدخول إلى عاصمة الدولة ، و هو ما كان له أثر على كل المغرب الأوسط ولم يكن على عاصمته فقط لأنه لما فشل في السيطرة عليها نقل التمرد إلى المناطق الداخلية ومن ذلك أنه في شهر ذي الحجة سنة 767هـ / 1356م استطاع أبو زيان السيطرة على جبل التيطري ، ثم على المدية ، كما بايعه أهل الجزائر ، ثم أحكم سيطرته على مليانة ، و دفعت هذه الأعمال السلطان الزياني إلى التحرك و محاولة استعادة المناطق التي سقطت في يد أبو زيان فجهز جيشا لذلك سنة 768هـ/1357 ففتح بلاد توجين ثم قلعة بن سلامة ، ثم أعاد السيطرة على مليانة و مجاورها و عين عليها موسى بن علي، و ضم المدية وعين عليها عمران بن موسى ، و قد حاول إخضاع العرب الموجودين في المغرب الأوســـط فخضعت له الذواودة و زغبة والبدو من رياح ، و رغم إعادة سيطرته على البلاد إلا أنه فشل في القضاء على صاحب التمرد أبو زيان الذي بقي معتصما في جبل التيطري [2].

كما ظهر تمرد جديد قاده من العرب أولاد عريف و خالد بن عامر و الذي كان في البداية على بني عمومتهم الذواودة ثم توسعت تداعياته على جل أرياف المغرب الأوسط و مناطق الدولة الزيانية ، و وصف ابن خلدون هذا التمرد بقوله " وبادر أولاد عريف وخالد بن عامر [3]إلى الذواودة ليشردوهم عن البلاد، قبل أن تتصل يد السلطان بيدهم، فصبحوهم يوم الخميس أخريات ذي القعدة من سنة تسع وستين وسبعمائة، ودارت بينهم حرب شديدة وأجفل الذواودة أولاً، ثم كان الظهور لهم آخراً وقتل في المعركة من زغبة عدد ويئسوا من صدهم عما جاءوا إليه، فانعطفوا إلى حصين والأمير أبي زيان، وصعدوا إليهم بناجعتهم وصاروا لهم مدداً على السلطان أبي حمو، وشنوا الغارة على معسكره فصمدوا نحوه وصدقوه القتال فاختل مصافه وانهزمت عساكره ونجا بنفسه إلى تلمسان على طريق الصحراء وأجفل الذواودة إلى وطنهم، وتحيز عامة العرب من زغبة إلى الأمير أبي زيان واتبع آثار المنهزمين ونزل بسيرات ، وخرج السلطان أبو حمّو في قومه ومن بقي معه من بني

---

[1] يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ص 166.

[2] ابن خلدون : العبر ،ج7 ، ص 130،131 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ج2 ص ص 182 ،186 .

[3] أمير قبيلة بني عامر العربية ابن خلدون : المصدر نفسه ج7 ص 126.

عامر وتقدم خالد إلى مصادمته فقفل السلطان وأجفل القوم من ورائه ، ثم تلطف في مراسلته وبذل له المال، وأوسع له في الاشتراط فنزع إليه والتبس بخدمته ، ورجع الأمير أبو زيان إلى أوليائه من حصين متمسكاً بولاية أولاد عريف ثم نزع محمد بن عريف إلى طاعة السلطان" [1].

و كان لاستعادة أبو حمو السيطرة على المغرب الأوسط نتائج سلبية على أسرته ، إذ عمد أخو محمد بن عريف وهو أبو بكر بن عريف [2]على الاستنجاد بملك المغرب ، و الذي وافق على غزو تلمسان فشن حملة عليها في أواخر ذي الحجة من سنة 771هـ /1370م و وصل خبر هذه الحملة إلى السلطان الزياني أبو حمو وهو بالبطحاء فقفل راجعا إلى تلمسان و طلب من حلفائه من عرب المعقل الالتحاق به غير أنهم نقضوا بيعته و انضموا إلى السلطان المريني وقد دفع هذا الانضمام إلى استنجاده بعرب بني عامر ، غير أن ذلك لم يمنع من سقوطها في يد بني مرين [3] ، و كان ذلك على حسب ابن خلدون في يوم عشوراء 772 هـ /1371م [4] ، في حين يرى يحي بن خلدون أنها كانت في يوم الأحد 25 محرم 772هـ/ 1371م [5] .

وأمام هذا الوضع وجد السلطان الزياني نفسه مجبرا على مغادرة تلمسان وهو مطارد من قبل جيوش بني مرين حتى وصل إلى بلاد الزاب وهناك حدثت معركة بينهم بوادي شدى [6] ، ظهر فيها نجم ابنه أبو تاشفين الذي استطاع على حسب يحي بن خلدون رد الجيوش المرينية " أبو تاشفين أعزه الله يحمل على جميعهم كالأسد الهادي فيرد أولهم على أعقابهم حتى لم يتركوا بالدار عقالا و قدم الخليفة ضيعته بين يديه و قد أجنه الظلام فانهار العدو خلفه و تكالبوا في طلبه فقرعت طبوله و انعطف نحوهم فولوا الأدبار و انكبح طغيانهم ثم أدلج نصر الله مقبلا " [7] ، و بعد هذا النصر قفل راجعا إلى حضرة ملكه سالكا طريق الصحراء و عسكر بجبل راشد ومنه توجها شمالا إلى تلمسان ، و

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ج7 ص 131 .

[2] هو أمير قبيلة سويد العربية و هو من بطن بني مالك ، نفسه ، ص 328

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 132 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ج2 ص 237،238 .

[4] ابن خلدون :المصدر نفسه ، ج7 ص 132 .

[5] المصدر السابق ، ج2 ، ص 238 .

[6]وادي شدي هو ببلاد الزاب بالقرب من الدوسن و يبعد عنها شرقا بمرحلتين ابن خلدون : العبر ، ج7 ، ص 132 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ج2 ص 238 ،239

[7] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص 240 .

عمل أبو حمو على تفريق عماله على المغرب الأوسط من وهران ومليانة و المدية وجبل الونشريس [1] .

ولم يستقر الوضع بأرياف المغرب الأوسط بعد هذه الأحداث و ذلك أنه في سنة 773هـ /1372م بقيت على حسب وصف يحي بن خلدون " الفتنة بحالها و العدو منيخ على الحضرة بكلكله و أمر التمحيص مستتب و مردة الضلال ترفل في غيها " [2] ، و ذلك ناتج عن خروج الكثير من المناطق عن سيطرته و خضوعها للمرينيين ، فقام أبو حمو بنقل أهل بيته و حريمه إلى جبل راشد و توجه لرد المناوئين له إلى صفه ، فاستطاع ضم الكثير من المناطق و القبائل كواد المنية و قلعة ابن سلامة و زغبة و سويد و الديالم و العطاف و القرى المجاورة لها ، كما و صلته أيضا طاعة أبي بكر بن عريف [3] ، وساندوه في ترحاله من منطقة إلى أخرى و في حروبه .

و في هذا الوقت أعلنت حصين بيعتها لأبي زيان و أوفدوا إليه من يستدعيه من محلة أولاد يحي فاستقروا في المدية و ملكوا نواحيها ، و كان ذلك سببا في اضطراب أمر ريف المغرب الأوسط من جديد ، إذ أرسل أبو حمو جيشا لمقاتلة حصين و مغراوة ، و قفل هو راجعا مع بني عامر إلى تلمسان ، فقام السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز الأول المستنصر (768هـ-774هـ/1366-1372م) بشراء ذمة " خالد بن عامر ورغبه في المال والحظ منه ، وكان أبو حمّو قد آسفه بمخالطة بعض عشيره وتعقب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته ، ولم يرتض كفاءته فجنح إلى ملك المغرب ونزع يده من عهد أبي حمو" ، و أعلن الحرب على السلطان الزياني أبي حمو و أوقع به و انتهب معسكره وأمواله ، و فر أبو حمو إلى تيكورارين ، و استطاع المرينيون في الوقت نفسه فتح بلاد مغراوة و جبل بني سعيد و مليانة و حصين و استطاع بذلك تفريق جيوش أبي زيان و فرض الضرائب على قبائل حصين و الثعالبة ، كما أرسل جيشا من قبائل زغبة لملاحقة أبي حمو في تيكورارين ، غير أن السلطان المريني هلك في أواخر شهر ربيع الآخر 774هـ /1372م و هو ما كان سببا في رجوع المرينيين إلى المغرب الأقصى بعد أن أمّروا على تلمسان إبراهيم بن السلطان أبي تاشفين [4] .

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 132 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج2 ص 241 .

[2] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج2 ص 249 .

[3] نفسه ص 250 .

[4] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 133، 134 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 269 .

غير أن السلطان الزياني أبو حمو استطاع استرداد عرش الدولة الزيانية و السيطرة على تلمسان من جديد و أفرد عبد الرحمن ابن خلدون لهذا الحدث فصلا و ذلك بقوله " الخبر عن عودة السلطان أبي حمّو الأخير إلى تلمسان الكرة الثالثة لبني عبد الواد في الملك " [1] و كان هذا الدخول في 24 جمادى الأولى 774هـ /1372م [2].

و لم تكن هذه العودة ممهدة بل واجه فيها الكثير من الثورات و التمردات ، فكانت البداية بالقضاء على من سماهم يحي بن خلدون بالخونة وهم الذين " كفروا نعمه و جحدوا حقه و اعتمدوا خذلانه حتى ارتكبوا الضلال المبين بسعيهم في فساده قولا و عملا و أسماعهم إياه هجر الكلام غيبا و مشهدا و مشيهم بينه و بين عربه بالنميمة و الزور فباؤوا بالإثم الأكبر و استوجبوا القتل شرعا " وقصد بهذا الكلام محمد بن عمر البريطل و وادفل بن عبو بن حمادن و سعيد بن تاصليت [3] .

ثم حمل على عاتقه إخضاع أرياف المغرب الأوسط فعين مولاه عطية بن موسى على رأس جيشا لضم مغراوة فلقيهم بالقرب من مازونة مرتين استطاع أن ينتصر عليهم و يشتت شملهم ، وبهذا النصر دخلت تحت بيعته كل من تنس و مليانة ، و رغم ذلك استطاع علي بن هارون المغراوي – رغم الهزيمتين السابقتين- تجنيد معارضين لأبي حمو كخالد بن عامر و قبيلته و من تبعه من عرب سويد و الديالم و العطاف و توجين و استطاعوا محاصرة عطية بن موسى في تنس و قصد خالد بن عامر تلمسان غير أن أبو حمو أرسل إليه ابنه تاشفين على رأس جيش فستطاع هذا الأخير أن يهزمه و يشتت شمله ففر معظمهم إلى متيجة ، لكن رغم ذلك بقيت مغراوة شوكة في حلق الدولة الزيانية إذ عاود أبو حمو تجهيز حملة جديدة عليها و كانت في شهر ربيع الأول 776هـ /1374م انتهت بهزيمتهم [4] .

و حاول أيضا القضاء على فتنة أبي زيان الذي رجع إلى المغرب الأوسط بعد وفاة السلطان المريني عبد العزيز ، و كذا السيطرة على حصين و المتيجة التي دخلت في دعوته ، و ظهر حِلم أبو حمو في صراعه من ابن عمه أبو زيان إذ حاول تأليف قلبه " فشارطه على الخروج من وطنه إلى

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 134 .
[2] يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج2 ص 274.
[3] نفسه ص ص 269، 274 .
[4] نفسه ص ص 176، 308 .

جيرانهم من رياح على إتاوة تحمل إليه ، فقبل ووضع أوزار الحرب و فارق مكان ثورته " ، وبهذا دانت له بلاد حصين و متيجة و المناطق القريبة منهما و هي كلها أرياف[1] و كان هذا الصلح في 775هـ/1373م على حسب عبد الرحمن بن خلدون [2] في حين يرى أخوه يحي أنه في شهر ربيع الأول سنة 776هـ/1374م [3].

و لم يمض على هذا الصلح إلا بضعت أشهر إذ بايع في شهر محرم من سنة 777هـ / 1375م عبد الله بن عامر و أبو بكر بن عامر أبو زيان سلطانا على بلاد المغرب الأوسط و ساروا في اتجاه مازونة لمحاصرتها ، و استطاع عامل السلطان الزياني بها عطية بن موسى رفقة ابن السلطان أبو تاشفين من أن يصدا هذا العدوان و أن يفرق شملهم و كان ذلك في شهر ربيع الأول 777هـ / 1375م [4]، و أمام هذا الوضع المتأزم أقدم أبو حمو على عمل زاد الوضع تأزما إذ عمل على تقسيم الدولة بين أبنائه فولى ابنه أبو تاشفين ولاية العهد و قسم باقي المملكة على أبنائه من زوجة أخرى فولى ابنه الأكبر المنتصر و أخوه الأصغر عمر على مليانة و مجاورها ، وولى أخوهما الأوسط أبو زيان على المدية و بلاد حصين ، و ولى ابنه يوسف وهو أخ غير شقيق لهم – يعرف بابن الزابية–على دلس هذه الأعمال تكلم عنها ابن خلدون بقوله قسمة السلطان للأعمال بين ولده وما حدث بينهم من التنافس [5].

وفي سنة 781هـ / 1379م قام السلطان الزياني أبو حمو بحملة على المغرب الأقصى كانت سببا في توتير العلاقة مع سلطان المغرب أبو العباس أحمد بن إبراهيم (حكم مرتين الأولى 775هـ-786هـ/1372م-1384م الثانية 789هـ-796هـ/1387م-1393م) ، ومظاهر هذا التوتر إقدام سلطان المغرب على تسير حملة على تلمسان استطاع السيطرة عليها بعد أن فر أبو حمو إلى البطحاء ومنها إلى حصن تاحجموت و اعتصم به ، و بقي هناك إلى سنة 786هـ/1384م بعد ما قفل سلطان المغرب راجعا إلى عاصمة ملكه بسبب إقدام موسى ابن السلطان أبي عنان على إعلان

---

[1] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 135 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص 309 .
[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 135 .
[3] المصدر السابق ، ج2 ص 309 .
[4] ابن خلدون : العبر، ج7 ص 137 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 329 .
[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ج7 ص 139 .

نفسه خليفة على الدولة المرينية [1] ، نلاحظ هنا أن السلطان الزياني انتقل على الريف بعد حملة بني مرين .

بعد رجوع بني زيان إلى عاصمة ملكهم اشتدت المنافسة بين أولاد السلطان أبو حمو و أعلن ولي العهد أبو تاشفين التمرد على أبيه و خلع طاعته و كان ذلك في أواخر سنة 788 هـ / 1386م و قام باعتقال أبيه بعد أن جرده من ما كان معه أموال و ذخيرة ثم بعثه إلى قصبة وهران وسجنه هناك ، كما اعتقل كل إخوته الموجودين بتلمسان ، هذه التصرفات دفعت بإخوته المنتصر وأبي زيان و عمير إلى الخروج من مليانة و الاعتصام بجبل التيطري ، فعمل أبو تاشفين على تسير جيشه ضمن من حالفه من عرب سويد و بني عامر فدخل مليانة و حاصر جبل التيطري ، وفي فترة الحصار استطاع والده فك الأسر و جدد بيعته و توجه إلى تلمسان التي دخلها في أوائل سنة 789هـ/1386م ، غير أن أبا تاشفين فك الحصار عن جبل التطيري و التحق بتلمسان و استطاع السيطرة عليها و أخضع أباه الذي طلب منه العفو و تسريحه لأداء فريضة الحج [2].

لم يكن الحج إلا خدعة من أبي حمو ليتمكن من إعادة بناء جيشه و استعادة ملكه ، فنزل ببجاية ومنها جيّش الجيوش من زناتة و العرب و قفل راجعا إلى تلمسان ، فخلف ابنه أبا زيان في جبال شلف و توجه هو إلى الصحراء، ولما بلغ الخبر إلى أبي تاشفين، بعث جيشا إلى شلف مع ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبد الله بن مسلم فاقتتلوا مع أبو زيان وهزمهم ، وقتل أبا زيان ابن أبي تاشفين ووزيره ابن مسلم ، أما أبو تاشفين فتوجه إلى أبيه الموجود بصحراء تامة ، فانسحب أبو حمّو إلى وادي صا، واستنصر بأحلافه من عرب المعقل هنالك فجاءوا لنصره و من ثم رجع إلى صحراء تامة فنزلها ، وأقام أبو تاشفين قبالته هنالك وصلته هزيمة ابنه ومقتله فحاول العودة إلى تلمسان وأبوه في إتباعه ، و حاول أبو تاشفين استدراك الوضع إذ أرسل مولاه سعادة لمحاولة تأليب العرب للتخلي عن أبي حمو، لكن استطاع أبو حمّو القبض عليه وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين بتلمسان فخرج هارباً منها إلى الصحراء ومنها إلى المغرب ، ودخل السلطان أبو حمّو إليها في رجب 790هـ /

---

[1] يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج2 ص 142، 143 .

[2] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 143 ، 144 .

1387م ، وقدم عليه أبناؤه، فأقاموا معه بها [1] ، نلاحظ هنا أن جل المناطق التي عرفت هذه الأحداث هي مناطق ريفية .

و أمام هذا الوضع قام أبو تاشفين بالاستنجاد بجيوش بني مرين فبعث معه السلطان المريني أبو العباس أحمد بن إبراهيم في سنة 791هـ/1388م قائده زيان بن عمر الوطاسي في عدد كبير من الجيوش ، فتوجهوا نحو تلمسان و التقوا بجيش أبو حمو في جبل بني ورنيد [2] المطل على تلمسان ووقعة معركة كبيرة انتهت بمقتل أبو حمو و دخول أبو تاشفين إليها و إعلان تبعيته إلى السلطان المريني [3] .

و حاول أبو زيان ابن أبي حمو الأخذ بثأر أبيه فسير جيشا من الجزائر مدعما بقبائل زغبة إلى تلمسان و كان ذلك في رجب سنة 792هـ/1389م فحاصرها أياما ، غير أن أبا تاشفين استطاع شراء ذمم العرب بالمال فتفرقوا عن أبي زيان فخرج إليه أبا تاشفين و استطاع أن يهزمه ففر إلى الصحراء ومنها إلى المغرب الأقصى[4].

و استقر الوضع نسبيا بعد هذه الحوادث و طوال فترة حكم أبو تاشفين دفعت التنسي إلى التعبير عن ذلك بقوله " فشمل الرعية عدله و أمانه ، و عمّها فضله و امتنانه ، و كانت مدة خلافته ثلاثة سنين و أربعة أشهر و ستة عشر يوما مضت في دعة و هناء " [5] ،لكن بوفاته في 17ربيع الثاني 795هـ /1392م [6] و في رمضان حسب ابن خلدون [7] ، اضطرب الوضع من جديد إذ عمل القائم بأمر الدولة الزيانية أحمد بن العز على تعين أحد أبنائه مكانه وهو صبي و قام بكفالته ، هذا الوضع دفع بيوسف بن أبي حمو – ابن الزابية- والي الجزائر على السير إلى تلمسان و السيطرة عليها و قتل أحمد بن العز و الصبي الذي ولاه .

و قام السلطان المريني أبو العباس أحمد بن إبراهيم بإرسال ابنه أبو فارس إلى تلمسان فاستطاع السيطرة عليها ، و أرسل حملة على أرياف المغرب الأوسط الواقعة شرق تلمسان بقيادة وزير

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 145 .

[2] جبل يقع على بعد ثلاثة أميال عن تلمسان ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 44

[3] بن خلدون : المصدر السابق ، ج7 ص 146 ، التنسي : المصدر السابق ص 180، 181 .

[4] ابن خلدون المصدر نفسه ،ج7   ص 147 .

[5] المصدر السابق ص 203.

[6] نفسه ص 203 .

[7] العبر ،ج7   ص 147 .

أبيه صالح بن حمو فأخضع مليانة و الجزائر و دلس إلى حدود بجاية ، و اعتصم يوسف بن الزابية في حصن تاحجموت فحاصره هناك [1].

وبعد وفاة السلطان المريني أبو العباس أحمد بن إبراهيم و تعين ولده أبو فارس أحمد (796هـ-799 هـ/1393م-1396م) ، قام الأخير بتعين أبو زيان بن أبي حمو أميرا على تلمسان و ما يليها من بلاد المغرب الأوسط ، فجد في القضاء على أخيه يوسف بن الزابية الذي حاول أن يستعين بعرب بني عامر على أخيه أبي زيان الذي استطاع شراء ذمم هؤلاء العرب فقتلوا أخوه و حملوا إليه رأسه[2].

و حكم أبو زيان إلى سنة 801هـ/1398م إذ خرج عليه أخوه السلطان أبو محمد عبد الله و استعان ببني مرين و استطاع أن يزيحه من الحكم ، و سعى أبو زيان لاستعادة ملكه و ذلك بمحاولة استعانته بالعرب و البربر غير أنه فشل في ذلك وانتهى به الأمر إلى القتل في سنة 805هـ/1402م [3].

ما يمكن ملاحظته على مشاركة الريف في العلاقات الزيانية المرينية أنه كان مسرح للتوتر الدائم مع وجود بعض الاستثناء إذ كانت السمة الغالبة هي كثرة الثورات و الحروب و التي سيكون لها نتائج سلبية على الوضع العام كون المغرب الأوسط أصبح منطقة حروب مدنه و أريافه .

المبحث الثاني :

مساهمة الريف في العلاقات الزيانية الحفصية :

عرفت العلاقة التي قامت بين بني عبد الواد الزيانيين و الحفصيين وجهان مختلفان الأول طبعه الصراع و التناحر سببه الجوار و التحالف الحفصي المريني و كذا البحث عن شرعية وراثة الدولة الموحدية ، أما الوجه الثاني فسمته التحالف و التقارب لمواجهة الخطر المريني ، هذه السمات أثرت على الريف تأثيرا مباشرا و جعلت منه طرفا فاعلا في رسم معالمها .

و كانت بداية الصراع العبد الوادي الحفصي في عهد السلطان يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1282م) إذ وبمجرد استقلاله بتلمسان والمغرب الأوسط عمدت قبائل بني توجين

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج7 ص 147 ،التنسي : المصدر السابق ص ص 206 ،210 .

[2] ابن خلدون :المصدر نفسه ، ج7 ص148 ، التنسي : المصدر نفسه ص 109، 110.

[3] التنسي : المصدر نفسه ص 127، 128 .

إلى الاستعانة بالسلطان الحفصي أبو زكرياء بن عبد الواحد (627-649هـ/1229-1251م) يرغبونه في الاستيلاء على تلمسان و جمع كلمة زناتة ، وقد اعتبر أبو زكرياء ذلك إحياء لحكم الموحدين [1]،و كانت هذه الحملة في شهر شوال 639هـ /1242م [2] التي جمع فيها القبائل المتواجدة في أرياف المغرب الأوسط كبني توجين و زغبة و بني عامر و سويد ، و قبل وصوله إلى تلمسان حاول يغمراسن بن زيان مراسلة السلطان الحفصي طلبا للسلم و البراءة و الدعوة ، غير أن هذه المساعي باءت بالفشل ، فعزم على مواجهته عسكريا وانكسر جيش بني عبد الواد في هذه المعركة ، و فر السلطان إلى الصحراء ، وقدمت جيوش الحفصيين " إلى البلد من كل حدب فاقتحموه و عاثوا فيه بقتل النساء و الصبيان و اكتساح الأموال " [3] .

دامت مدة السيطرة الحفصية على تلمسان وما جاورها من الأرياف تسعة أشهر ، واستعادها بني عبد الواد صلحا على أن تمتد حدودها شرقا إلى مليانة [4] ، أما المناطق التي تقع شرق مليانة فقسمها الحفصيون على القبائل المتحالفة معهم في غزوهم لتلمسان ، فولى عبد القوي بن عطية التوجيني و العباس بن منديل المغراوي و علي بن منصور الملكيشي كل على قومه [5] .من خلال هذا نلاحظ أن القبائل الريفية في المغرب الأوسط كان لها دور مباشر في رسم معالمه السياسية ، بمشاركتهم في التحالف ضد السلطان الزياني الذي فر إلى الصحراء ، و جزاء على ذلك قلد السلطان الحفصي أسيادهم قادة كل على قومهم .

و عبر شارل روبار برنشفيك عن العملية بقوله " و بهذه الصورة تمكن من إقامة عدد من الدويلات التابعة له مباشرة ، بينه و بين خصمه السابق و هي مجموعة من الحصون الكفيلة بحماية مملكته من أي هجوم محتمل من الناحية الغربية " [6]، يمكن اعتبار تحليل برنشفيك غير دقيق كون ابن خلدون نفى ما أدلى به برنشفيك بقوله " و دخل يغمراسن بن زيان و وفى للأمير أبي زكريا بعهده

---

[1] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 80.

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ص 80 ابن قنفد : الفارسية ص 109 ، ابن الشماع : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح و تقديم الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، 1984 ، طرابلس ، ليبيا ص 59 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 80 .

[4] ابن قنفد : الفارسية ص 129.

[5] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 81 .

[6] المرجع السابق ج1 ص 61 .

وأقام بها الدعوة له على سائر منابره ، و صرف إلى مشاقيه من زناتة وجوه عزائمه فأذاق عبد القوي و أولاد عباس و أولاد منديل نكال الحرب و سامهم سوء العذاب و الفتنة ، وجاس خلال ديارهم وتوغل في بلادهم، وغلبهم على الكثير من ممالكهم، وشرد من الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياعهم ودعاتهم ، ورفع عن الرعية ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقل عسفهم وجورهم "[1] .

و قد أكد ابن الأحمر ما ذهب إليه ابن خلدون ، إذ قال إن السلطان العبد الوادي بايع السلطان الحفصي أبو زكريا و خطب له على المنابر و بقيت هذه البيعة إلى أن جاء حفيده أبو حمو موسى الأول [2] ، فمن خلال قول ابن خلدون و ابن الأحمر يمكن القول أن برنشفيك أصاب واخطأ في طرحه: فهو أصاب حين قال أن أبا زكريا أقام هذه الدويلات لتكون جدارا حصينا أمام أي هجمات قد تأتي من الغرب ، فصحيح أن أي هجوم من الغرب يصطدم أولا بهذه القبائل ، غير أن المراهنة عليها في درء الخطر يعتبر رهانا فاشلا كونها لم تستطع الصمود أمام جيش يغمراسن بن زيان، وأخطأ حين رأى بأن خروج أبو زكريا عن تلمسان و إقامته لهذه الدويلات كان لدرء الخطر القادم من الغرب، فيغمراسن بن زيان أبقى على بيعته لأبي زكريا.

و تعتبر هذه الحادثة هي بداية للكثير من العمليات العسكرية التي خاضها الحفصيون على أرياف المغرب الأوسط ، منها الحملة التي خاضها أبو عبد الله محمد المستنصر بالله (649-675هـ/1251-1276م) على المسيلة سنة 664هـ /1266م [3]، و التي جهز فيها الجيوش من الحفصيين و أحلافهم و قد كان سبب هذه الحملة " تمهيد الوطن و محو أثار الفساد منه " فاستطاع السيطرة على بلاد رياح و الذواودة الذين فروا إلى الصحراء و وصل إلى المسيلة آخر معقل لقبيلة رياح العربية [4] .

و قد تعرضت عاصمة الدولة الحفصية في سنة 668هـ/1270م إلى ما يصطلح عليه بالحملة الصليبية الثامنة [5]، و التي ستكون لها نتائج سلبية على حكم الدولة في المناطق الغربية ومن ذلك

---

[1] العبر ،ج7 ص 81 .

[2] المصدر السابق ص 62 .

[3] ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 289 ، ابن قنفد : الفارسية ص 127 .

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 289 .

[5] نفسه ص 292 ، ابن قنفد : الفارسية ص 131 ، ابن الشماع : المصدر السابق ص 72 .

إعلان أهل الجزائر عن خلعهم لطاعة السلطان الحفصي و استقلالهم عنه ، مما دفع بالمستنصربالله إلى تجهيز حملات إلى رد الجزائر إلى سلطته ، فكانت الحملة الأولى سنة 669هـ/1271م غير أنها فشلت ، فعمل على إيفاد حملة جديدة في 671هـ / 1273م وقام بمحاصرتها غير أنها تمنّعت عنه فرجع إلى بجاية ، و عزم في سنة 674هـ/1375م على توجيه حملة كبيرة لاستردادها " فسرح إليها العساكر في البر و أنفذ الأساطيل في البحر ... ونهضت هذه العساكر برا و بحرا إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب و اشتد حصارها ثم افتتحها عنوة وأثخن فيها القتل و انتهبت المنازل وافتضح الكرائم في أبكارهن و تقبض على مشيخة البلد " [1] . يمكن القول أن هذه الحملة كانت موجهة إلى الجزائر و المناطق الريفية المحيطة بها ، كون تشديد الحصار على المدينة لا يتم إلا بالسيطرة على المناطق المحيطة بها .

بعد وفاة المستنصر بالله في سنة 675هـ/1276م [2] ، بويع أبو زكريا يحي الواثق سلطانا على الدولة الحفصية(675-678هـ/1276-1279م) غير أن الوزير أبو الحسن يحي بن عبد الملك الغافقي (المشهور بالخبير) سيطر على حكم الدولة فكان " الواثق في يده كالمحجور في يد الوصي " [3] ، فقام هذا الوزير بالكثير من الأعمال التي أثرت تأثيرا مباشرا على الدولة الحفصية و استقرارها ، ومنها في الجزء الغربي من الدولة ، ففي سنة 676هـ /1277م عزل أبا عبد الله محمد بن هلال عياد بن سعيد الهنتاتي من ولاية بجاية و عين أخاه إدريس بن عبد الملك خلفا له فاستبد بأهلها وأفنى أموالها و تحكم في مشيختها ، فقام الوالي السابق أبو عبد الله محمد بن هلال مع بعض من خدامه وبعض من عامة البلد على الدخول عليه و قتله ، و كان ذلك في 677هـ /1278م وإعلان البيعة للأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يحي الذي كان بتلمسان [4] ، فقدم بجاية و جهز جيشا سيره إلى قسنطينة و حاصرها ففشل فرجع إلى بجاية ، فقام السلطان الواثق بتجهيز جيش لملاقاة عمه أبو

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ج6 ص 295 ، روبار برنشفيك : المرجع السابق ، ج1 ص99 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 296 ، ابن قنفد : الفارسية ص 134 ، ابن الشماع : المصدر السابق ص 74 ، روبار برنشفيك : المرجع السابق ص 100 .

[3] ابن قنفد : المصدر نفسه ص 134 .

[4] ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 297 ، ابن قنفد : الفارسية ، ص 136 ، محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ص 234 .

إسحاق ، وراسل عمه أبو حفص و وزيره أبو جامع لمساندته ، غير أنهما أعلانا البيعة لأبي إسحاق و أعلماه بذلك مما جعله يتنازل عن حكم الدولة الحفصية لعمه أبو إسحاق [1] .

نلاحظ أن مجمل الأحداث التي وقعت كانت في المناطق الريفية الواقعة بين بجاية و قسنطينة وكانت تابعة للدولة الحفصية و التي تنازع عنها أمراؤها .

و رغم أن السلطان أبو إسحاق (678-683هـ /1279-1284م) استطاع السيطرة على الدولة الحفصية و عين الوزراء و الولاة و القواد على الأقاليم ومن ذلك تعين أبا بكر بن موسى بن عيسى المعروف بابن وزير على قسنطينة و كان هذا القائد طموحا ، فعمل على محاولة الاستقلال بها فاستبد بأهلها و عاث فيها فسادا و ظلما مما دفع بأهلها الاستنجاد بالسلطان أبي إسحاق ، أما ابن وزير فاستنجد بملك أرغون يرغبه في السيطرة على قسنطينة وما جاورها ، فسير حملة بحرية رست في مرسى القل ، و كردّ على أعمال هذا القائد وجه والي بجاية أبو فارس حملة عسكرية حشد فيها إلى جانب جيشه الكثير من العرب فاحتل ميلة ومنها توجه إلى قسنطينة وحاول ابن وزير أن يرجع إلى حضن الدولة الحفصية غير أن أبو فارس أعرض عنه و دخل قسنطينة في 681هـ/1282م و قام بقتل ابن وزير [2] .

كما تعرضت عاصمة الدولة تونس إلى الكثير من الثورات و الفتن كان لها أثرا على المناطق الواقعة في الجزء الغربي للدولة الحفصية (الجزء الواقع في المغرب الأوسط) ، ومن ذلك قيام أحمد بن مرزوق أبي عمارة [3] (عرف بالدعي) بالسيطرة على أجزاء كبيرة من الدولة الحفصية ومنها العاصمة تونس ، و بذلك فر السلطان الحفصي أبو إسحاق (678-683هـ /1279-1284م) سنة 681هـ/1282م إلى بجاية إلا أن ابنه أبو فارس منعه من الدخول إليها حتى يتنازل له عن الخلافة ففعل ذلك ، و بويع ابنه أبو فارس و تلقب بالمعتمد ، و خرج مع عمه أبو حفص لملاقاة الدعي فانهزم و قتل و نجا أبو حفص و لما وصلت هذه الأخبار إلى بجاية اضطربت و ثارت على من بها

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 298 . محمد العروسي المطوي : المرجع نفسه ص 234 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 300 ، ابن قنفد : الفارسية ص 139 ، 140 .

[3] أحمد بن مرزوق أبو عمارة من أهل المسيلة نشأ في بجاية واشتغل بالخياطة ، ثم ادعى أنه المهدي المنتظر و كانت بداية دعوته بطرابلس ، ابن خلدون : المصدر نفسه ج6 ص 302 .

من بني حفص ففر أبو إسحاق و ابنه أبو زكريا إلى تلمسان فأدرك الثائرون أبو إسحاق في بني غبرين بجبال زواوة و قتلوه أما أبو زكريا فاستطاع الوصول إلى تلمسان [1].

بعد هذه الفتنة التي حدثت داخل الدولة استطاع السلطان أبو حفص عمر بن يحي (683-694هـ /1284-1294م) استعادة ملك الدولة الحفصية و كانت بيعته في 26 ربيع الثاني 683هـ/1284م بمدينة تونس [2].

و قد واجه أبو حفص الكثير من الفتن ، منها خروج ابن أخيه أبو زكريا ابن السلطان أبو إسحاق عنه و استقلاله بالجزء الغربي للدولة الحفصية (بجاية و قسنطينة و أريافهما) ، كان ذلك في أواخر سنة 683هـ /1284م[3] ، أو في سنة 684هـ/1285م [4] ، و وصلته بعد ذلك بيعة أهل الجزائر و المناطق القريبة منها ، و رغم أنه لم يسيطر على الجزء الشرقي للدولة الحفصية إلا أنه " تلقب بالمنتخب لإحياء دين الله و أغفل ذكر أمير المؤمنين أدبا مع عمه الخليفة بالحضرة " [5].

و استطاع الأمير أبو زكريا السيطرة على الكثير من المناطق التي كانت تابعة لعمه أبي حفص ومنها بلاد الزاب التي أعلنت تبعيتها إلى بجاية و طاعتها لأبي زكريا فعين عليها منصور بن مزني عاملا له عليها [6].

و بعد وفاة السلطان أبو حفص عمر بن يحي (ت 694هـ/1295م) خلفه ابنه أبو عبد الله المستنصر محمد بن يحي المعروف بأبي عصيدة (694-709هـ/1295 -1309م)[7] ، حاول هذا السلطان إعادة توحيد الدولة الحفصية ، فجهز حملة لاسترداد الجهة الغربية سنة 695هـ/1295م ، و الذي خدمته الظروف في هذه الحملة إذ أن أهل الجزائر أعلنوا خلع بيعة الأمير أبو زكريا ، فوجد الأخير نفسه أمام خطرين الأول ممثل في ابن عمه أبو عصيدة الذي استطاع أن يسيطر على أعمال قسنطينة و وصل حتى ميلة و الثاني خروج أهل الجزائر عن طاعته ، فاضطرا إلى الاستنجاد بسلطان

---

[1] نفسه ص 303،304 ، ابن قنفد : الفارسية ص 142 ، 143.

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 305 ، ابن قنفد : المصدر نفسه ص 146 .

[3] ابن قنفد : المصدر نفسه ص 148 .

[4] ابن خلدون :العبر ،ج6 ص 307 .

[5] نفسه ص 307 .

[6] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 310 .

[7] نفسه ص 312 ، ابن قنفد : الفارسية ، ص 143، ابن الشماع : المصدر السابق ، ص 83 .

بني عبد الواد عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1303م) الذي أمده بالجند ،و في الوقت نفسه تعرضت تلمسان لهجوم بني مرين و محاصرتها كما ذكرنا سابقا، و هنا راسل السلطان الحفصي أبو عصيدة السلطان المريني يوسف بن يعقوب يحبذه في فتح بجاية [1] .

و في سنة 700هـ/1300م توفي الأمير أبو زكريا و أخذت البيعة لابنه الأمير أبو البقاء خالد و الذي كان قبل بيعته عاملا لأبيه على قسنطينة ، فدخل بجاية و عين على قسنطينة حاجبه أبا الحسن ابن الأمير الذي تنكر له و أعلن بيعته للسلطان الحفصي أبو عصيدة سنة 704هـ/1304م، وكرد فعل على هذا العمل جهز الأمير أبو البقاء خالد جيشا في أواخر السنة المذكورة و حاصر قسنطينة حتى تمكن منه و قتله [2].

حاول الأمير الحفصي أبو البقاء خالد استعادة الجزائر والمناطق المحيطة بها و التي خرجت عن طاعة أبيه فخرج إليها سنة 706هـ/1306م أو707هـ/1307م و سيطر على متيجة ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه ، ولجأ إليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل أمير مغراوة هارباً أمام بني عبد الواد فأواه و حماه ، كما سيطر على كل المناطق القريبة من تلك المناطق ، وبعد هذه الفتوح زحف إلى الجزائر وحاصرها أياما فامتنعت عليه، فأقفل راجعا إلى بجاية[3].

و نتيجة لكثرة التناحر و التقاتل داخل البيت الحفصي و اقتناع الطرفين المتقاتلين استحالة قضاء أحدهما على الآخر، عقد اتفاق بين السلطان الحفصي أبو عصيدة و الأمير أبو البقاء خالد خلص بموجبه إلى أن من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر و البيعة تكون له [4] ، وأمام وأمام هذا الاتفاق وصلت أخبار إلى الأمير أبو البقاء خالد مفادها مرض السلطان أبو عصيدة وخوفا من نقض العهد جهز جيشا للاستيلاء على عاصمة الدولة الحفصية و أخذ البيعة لنفسه ، فكان له ذلك بعد أن قضى على أبي بكر بن عبد الرحمن الذي بايعه الحفصيون في تونس بعد موت أبو عصيدة وأصبحت الدولة الحفصية تحت حكم أبو البقاء كان ذلك في سنة 709هـ /1309م [5].

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص ص 312 ، 315 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 318 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 319 .

[4] نفسه ص 319 ، محمد العروسي المطوي : المرجع السابق ص 297 .

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 321 ،ابن قنفد : الفارسية ص 156 ، ابن الشماع : المصدر السابق ص 84 .

و في وقت توحيد الدولة الحفصية حاول يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحاق الخروج عن الدولة و لحق بمنصور بن مزني الذي جمع له جيشا من العرب توجه به إلى قسنطينة و حاصرها أياماً، و في تلك الفترة انضوى تحت حكم يحي بن خالد مجموعة من الأوغاد أوغروا صدره على منصور بن مزني ، ونتيجة لذلك أرجع منصور ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء ، ولحق يحيى بن خالد بتلمسان فأمده أبو حمو موسى بن عثمان بجيش زحف به على قسنطينة فامتنعت عليه ، و أمام هذا الوضع استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده و أكرم نزله إلى أن توفي يحي بن خالد سنة 721هـ/1321م [1].

و كامتداد للانقسامات الداخلية حاول عامل أبو البقاء خالد على بجاية يعقوب بن مخلوف المعروف بأبي عبد الرحمن الاستقلال بهذا القطر ، و حفاظا على وحدة الدولة الحفصية جهز السلطان حملة على بجاية انتهت بمقتل يعقوب بن مخلوف و عودتها إلى سلطان بني حفص و بذلك " استولى السلطان على سائر المملكة التي كانت تحت حكم أبيه بالجهة المعروفة بالناحية الغربية " [2].

بوفاة السلطان أبو البقاء خالد بويع السلطان أبو يحي زكريا بن يحي الليحاني (711-717هـ/1311-1317م) ، الذي جهز حملة من بجاية إلى قسنطينة 713هـ/1313م، وبوصوله إلى فرجيوة لقي عبد الله بن ثابت و أخوه الحسن بن الحاجب فصادر أموالهما [3].

وقام السلطان بتعين ابن الغمر حاجبا على بجاية و الذي استبد بها و بأعمالها ولم يبق للسلطان غير ذكر اسمه في خطب الجمعة و كتابة اسمه على السكة ، و رفض السلطان الحفصي الجديد أبو يحي المتوكل (718-748هـ/ 1318 -1346م) هذا الوضع فأرسل إليه قائده أبو عبد الله محمد و الذي أخضع المناطق المحيطة ببجاية ، أمام هذا الوضع راسل الحاجب السلطان و طلب رضاه فقبل بذلك و بقي الوضع على حاله إلى أن توفي الحاجب في شوال سنة 719هـ/1319م فخلفه ابنه علي بن الغمر وهو ما رفضه السلطان الذي عين عليها ابنه أبو زكريا أميرا و عين محمد بن القالون حاجبا له ، و عين ابنه أبو عبد الله محمد أميرا على قسنطينة [4].

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 322 .
[2] نفسه ص 324 .
[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 325 .
[4] نفسه ص 332 ، ابن قنفد : الفارسية ص 165 .

و اتسم عهد هذا السلطان بالكثير من الصراعات الداخلية و التي كانت بابا للتدخل الخارجي ومن ذلك إقدام حمزة بن عمر بن أبي عمران [1] على دخول تونس و انهزامه بها ، فراسل عبد الواحد بن محمد الليحاني في المهدية و عرض علية الاستنجاد بالسلطان العبد الوادي أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو (718-737هـ/1318-1336م) ، فقدموا عليه في سنة 723هـ/1322م ، ورغبوه في السيطرة على بجاية ، فأرسل معهم السلطان الزياني عددا كبير من جنده و أمّر عليهم قائده موسى بن علي ، و انصرفوا باتجاه الشرق فحدثت موقعة بينهم و بين الحفصيين بقيادة السلطان أبو يحي المتوكل (718-748هـ/ 1318 -1346م) ، في رغيس [2] في شعبان سنة 723هـ /1322 م، و استطاع الحفصيون هزيمة بني عبد الواد و حلفائهم [3] .

كما جهز سلطان بني عبد الواد أبو تاشفين حملة جديدة على بجاية و أريافها سنة 724هـ/ 1323م ، و حاول الحاجب الحفصي ببجاية أبو عبد الله محمد بن سيد الناس التصدي لهذه الحملة غير أنه انهزم أمامهم [4].

ورغم هذا الضعف الذي كانت عليه الدولة الحفصية ، فإن المتمردين من الداخل لم يستطيعوا القيام بأي حركة ناجحة دون الاستنجاد بغيرهم ، ومن ذلك إقدام زعماء قبائل سليم كحمزة بن عمر بن أبي الليل و محمد بن طالب بن مهلهل و محمد بن مسكين الحكيمي على الاستنجاد بسلطان بني عبد الواد أبو تاشفين(718-737هـ/1318-1336م) للسيطرة على تونس ، و قام هذا السلطان بأخذ البيعة منهم لإبراهيم بن عبد الرحمن الشهيد الحفصي [5] ، و أرسل معهم قائده موسى بن علي و حاول السلطان الحفصي أبو يحي المتوكل (718-748هـ/ 1318 -1346م)

---

[1] حمزة بن عمر بن أبي عمران من نسل أبي عمران موسى بن إبراهيم ابن الشيخ أبي حفص و هو الذي ولي إفريقية نائبا عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، ابن خلدون : المصدر نفسه ص 333 ، في حين ذكر يحي بن خلدون أنه حمزة بن عمر بن أبي الليل السليمي شيخ عرب إفريقية ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 216 .

[2] رغيس و هو مكان بين بونة و قسنطينة ، ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 335 ، و سمى يحي بن خلدون المكان بدغيس بالدال مكان الراء ، المصدر نفسه ، ج1 ص 217 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 335 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج1 ص 217 .

[4] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 217 .

[5] هو ابن السلطان الحفصي أبو بكر أبو يحي عبد الرحمن المعروف بالشهيد و قد حكم مدة سة عشر يوما ، ابن قنفد : الفارسية ، ص 156 ابن الشماع : المصدر السابق ص 84 .

صدهم في قسنطينة غير أنه فشل فدخل إبراهيم بن عبد الرحمن الشهيد إلى تونس ، أما موسى بن علي فحاصر قسنطينة مدة خمسة عشر يوما ثم رجع إلى تلمسان [1]، و إذا كان الأخوين ابن خلدون قد اتفقا على هذه الأحداث فقد اختلفا عن سنة وقوعها فعبد الرحمن يقول أنها كانت في ذي القعدة من سنة 724هـ/1323م [2] ، أما يحي فيرى أنها حدثت في سنة 725هـ/1324م[3].

و أمام هذه الأحداث حاول سلطان بني عبد الواد أبو تاشفين (718-737هـ/1318-1336م)ضم كل المغرب الأوسط مدنا و أريافا ، فجهز في سنة 726هـ/1325م حملة بقيادة موسى بن علي الذي توجه إلى قسنطينة و أفسد زروع المناطق المحيطة بها ثم توجه إلى بجاية وحاصرها وبالقرب منها اختط تامزجزجت أو تيمرزدكت و دامت مدة البناء أربعين يوما ، و أمر السلطان أن تحمل محاصيل كل البلاد الشرقية إلى هذه المدينة فشحنت مخازنها ، أمام هذا الرخاء في تيمرزدكت عانت بجاية من شدة الحصار فغلت الأسعار ووهنت الأقوات ، و حاولت السلطان الحفصي القيام بحملة عسكرية لفك الحصار عن بجاية فجمع جيوشه المتواجدة بالمغرب الأوسط (جيوش ظافر الكبير من قسنطينة ، و عبد الله العاقل من هوارة ، و ظافر السنان من بونة) و توجيهها نحو بجاية وكان ذلك في 727هـ/1326م غير أن الجيوش الحفصية انهزمت أمام بني عبد الواد [4] ، نلاحظ هنا أن السيطرة الزيانية كانت على الأرياف الشرقية للمغرب الأوسط و هو ما نفهمه من أنهم أفسدوا الزروع المحيطة بقسنطينة ، و كذا أمر السلطان بحمل المحاصيل إلى تيمرزدكت .

عمل السلطان أبو تاشفين (718-737هـ/1318-1336م) على تجهيز حملة جديدة في سنة 728هـ /1327م بقيادة قائده يحي بن موسى الجمي على المناطق الشرقية من المغرب الأوسط و المقصود بالمناطق الشرقية قسنطينة و بونة و أريافهما ، و استطاع هذا القائد إخضاع هذه المناطق و السيطرة عليها غير أنها كانت سيطرت وقتية فقط إذ رجع بعدها إلى عاصمة الدولة تلمسان [5]، وفي هذا الوقت تقريبا(729هـ/1328م) تلقى السلطان أبو تاشفين دعوة من بعض أهلي بجاية

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج6 ص 335-336 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 217 .
[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 336 .
[3] المصدر السابق ،ج1 ، ص 217 .
[4] ابن خلدون : العبر ،ج6 ص 327 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج1 ص 217 التنسي : المصدر السابق ص 143.
[5] يحي ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 218 .

يجبذونه في الدخول و السيطرة عليها خاصة و أن الحاجب الحفصي ابن سيد الناس كان غائب عنها، وهو ما حدث حيث جد في السير إليها غير أن الحاجب الحفصي سبقه إليها و قام بقتل من استنجدوا به ، و أمام هذا الوضع رجع السلطان إلى عاصمة ملكه ، و ترك أحد قواد جيشه و هو عيسى بن مزروع الياتكتني بتمرزدكت و أمره ببناء بلد آخر على تعبير يحي بن خلدون خارج بجاية [1].

و بحلول سنة 730هـ/1329م جهز السلطان العبد الوادي حملة جديدة على الدولة الحفصية أرسل فيها خيرة قواده تحت إمرة يحي بن موسى الجمي و معه ابن أبي عمران الحفصي و التقوا مع الجيش الحفصي في واد الشارف بالقرب من تونس و انهزم الجيش الحفصي أمامهم و استطاعوا دخول العاصمة الحفصية تونس و تسلم أبو عمران الحفصي الحكم في تونس في حين فر السلطان الحفصي أبو يحي جريحا إلى قسنطينة و كان ذلك في شهر صفر من سنة 730هـ/1329م [2] .

كانت هذه الواقعة سببا في حدوث مراسلة بين السلطان الحفصي أبو يحي و السلطان المريني أبو سعيد توجت بمصاهرة بين ابنه أبو الحسن المريني و إحدى بنات السلطان الحفصي ، هذا الزواج السياسي كان سببا من أسباب تجهيز حملة عسكرية من بني مرين على تلمسان بسبب رفض السلطان العبد الوادي شفاعة السلطانيين من بني مرين لإقلاعه عن بجاية ، حيث كانت المراسلة الأولى سنة 731هـ /1330م تحت إشراف السلطان أبو سعيد و كانت سببا في إرسال حملة عسكرية زيانية على المناطق القريبة من بجاية ، و الثانية كانت بعد وفاة أبو سعيد و تتويج أبو الحسن المريني سلطانا على المغرب و كانت في سنة 732هـ/1331م هذه الحملة كانت سببا في فك الحصار عن بجاية و تخريب تمرزدكت في سنة 733هـ/1332م [3] .

و في سنة 735هـ/1334م جهز السلطان المريني أبو الحسن حملة جديدة على المغرب الأوسط استطاع فيها السيطرة على كل المناطق التابعة للدولة العبدوادية و محاصرة العاصمة تلمسان ثم سقوطها في يده في 28 رمضان 737هـ / 1336م [4] .

---

[1] نفسه ،ج1 ص 218 .

[2] ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 340 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 218 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 341،340 ، يحي ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 218 ، التنسي : المصدر السابق ، ص 144.

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ج7 256 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 219 ،التنسي : المصدر نفسه ص 146، ابن الأحمر : المصدر السابق ص 82.

ومن هذا يمكن القول أن العلاقات بين بني عبد الواد و الدولة الحفصية توقفت بسبب ابتلاع الدولة المرينية للأراضي العبد الوادية و سيطرتهم على كل المغرب الأوسط ثم توجههم إلى السيطرة على المغرب الأدنى و الأراضي الحفصية ، و إذا أردنا إعطاء نظرة تقيمية للعلاقات بني عبد الواد بالحفصيين حتى سقوط الدولة الأولى في يد المرينيين نجد أنها صبغت بطابع الصدام في غالب فتراته ، فإذا كان الحفصيون في موقع قوة يكونون سباقين إلى إعلان الحرب على جيرانهم و العكس صحيح ، كما أن الصراع لم يكن صراع ثنائي بين الدولتين بل تعداه إلى التحالف مع أطراف أخرى ، و هو ما لاحظناه بعد الزواج السياسي الذي تم بين المرينيين و الحفصيين و تدخل المرينيين في الصراع بطريقة مباشرة كانت في البداية بمحاولة رأب الصدع بين الطرفين المتناحرين و ذلك بالطرق السلمية وحصول مراسلات و شفاعات من أجل كف التعدي على الآخر و خاصة بني عبد الواد على بني حفص ثم التدخل العسكري بعد فشل الطرق السلمية والتي أدت إلى زوال الدولة العبدوادية ، و يمكن القول أيضا أن معظم المعارك التي حدثت بين الدولتين كان الريف مسرحا لها ، كما كان للقبائل الريفية دور في رسم نتائج هذا الصراع و ذلك بالتحالف مع دولة ضد الأخرى و من ثمة تستقوى هذه الدولة على الأخرى .

بعد فترة الصراع بين الحفصيين و بين بني عبد الواد سيظهر فصل جديد من العلاقات خاصة بعد إحياء الدولة العبدوادية بمسماها الجديد الدولة الزيانية ، و اكتساء العلاقات طابع الود ، والسبب في ذلك يرجع إلى كون الدولتين وجدت نفسيهما أمام عدو مشترك و هو السلطان المريني أبو الحسن المريني الذي كان يرى أن كمال ملكه لا يكون إلا بالسيطرة على كل بلاد المغرب ، ومن ثم يحي إرث الدولة الموحدية ، و لتحقيق هذا المبتغى سير معه كل بني عبد الواد إلى المغرب الأدنى و هناك استطاع بني عبد الواد تحت زعامة الأخوين أبو ثابت و أبو سعيد من إحياء الدولة بمسماها الجديد و بدعم من الحفصيين و العرب و كان ذلك في سنة 749هـ / 1348م [1] .

لم تدم فترة التقارب بين الحفصيين و الزيانيين كثيرا إذ أنه في سنة 753هـ/1352هـ حدثت معركة بين بني مرين و الزيانيين انتهت بالقبض على السلطان أبو سعيد و نجا أخوه أبو ثابت الذي فر إلى نواحي بجاية ، وجدّ صاحبها الأمير أبو عبد الله محمد بن أبو زكريا يحي في القبض عليه وأرسله

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ص ،ج7 116 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج1 ص 235 ، التنسي : المصدر نفسه ص149،150 ، ابن الأحمر : المصدر نفسه ص 74 .

إلى بلاط السلطان المريني أبو عنان و الذي عمل على قتله [1] ، فيمكن القول أن فترة النقاء بين الدولة الحفصية و الزيانية دامت تقريبا خمس سنوات ، و كان تسليم أبو ثابت للمرينيين سببا في اندثار الدولة الزيانية مرة أخرى و سترى النور من جديد على يد أبي حمو موسى الثاني .

لم تختلف طريقة إحياء الدولة الزيانية في هذه المرة عن المرة السابقة إذ أن أبو حمو موسى الثاني استطاع الوصول إلى تونس و نزل عند الحاجب ابن تافراكين الذي أكرمه ، و رفع من شأنه عند السلطان الحفصي أبو إسحاق بن أبي يحي بن أبي زكريا ، و بعد غزو السلطان المريني أبو عنان للأراضي الحفصية ارتحل السلطان الحفصي و معه أبو حمو موسى إلى بلاد الجريد و هناك جاءته وفود من قبائل بني عامر و زناتة لبيعته سلطانا لبني زيان ، فقفل معهم راجعا إلى تلمسان التي دخلها في شهر ربيع الأول 760هـ/1358م ، و يعتبر هذا التاريخ هو تاريخ إحياء الدولة [2] .

و عرفت الدولتين فترة من العلاقات الودية ومنها ما أورده يحي ابن خلدون و هو يتحدث عن سير أبو حمو موسى نحو فاس في سنة 761هـ/1359م ووصول أخبار عن تعرض تلمسان لغزو مضاد " فلم يسعه إلا حماية دار ملكه فصرف الأمير محمد بن يحي الحفصي و ابن عمه الأمير أبو العباس أحمد بن محمد إلى بلديهما بجاية و قسنطينة فهما عتقاء مولانا أمير المسلمين أبو حمو " وهذان الأميران ساعداه على هذه الحملة [3].

و قد تغيرت الأحوال بين الحفصيين و الزيانيين بعد سنتين أي في سنة 763هـ/1361م وسبب الذي أدى إلى ذلك هو استقبال السلطان الحفصي أبو إسحاق بن أبي زكريا لبعض الفارين من قبيلة مغراوة ، و راسله السلطان الزياني أبو حمو يطلب منه تسليمهم غير أنه رفض ذلك وهو ما كان سببا في أن " أمر مولانا السلطان أيده الله قواده الشرقية بتحيف وطنه " [4]، فقامت جنود بني زيان بضم الكثير من المناطق التابعة للحفصيين فضم القائد عمر بن موسى المطهري دلس التي كانت تابعة لهم و استطاع الوزير الزياني أبو محمد عبد الله بن مسلم من السيطرة على المناطق القريبة

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ص ،ج7 121 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص ،ج1 246،247 ، التنسي : المصدر نفسه ص 154،155 ،ابن الأحمر : المصدر نفسه ص 76.

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 122، 123 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج2 ، ص ص 19-28 ، التنسي : المصدر نفسه ص ص157 ،159 .

[3] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 76، 77 .

[4] نفسه ،ج2 ص 103 .

من بجاية فسيطر على حمزة و بني حسن و ثنية تاغزوت و زواوة [1] ، و كل المناطق المذكورة مناطق ريفية ، ومن ثم اعتبر الريف معتركا لهذه الأحداث .

و في السنة 764هـ/ 1362م جهز السلطان الزياني أبو حمو حملة جديدة على بجاية لأجل تنصيب الأمير أبو عبد الله محمد بن أبو زكريا بن يحي مكان السلطان أبو إسحاق و تحدث يحي بن خلدون عن هذه الحادثة كونه كان شاهدا عن هذه الحملة فقال " كنت ممن ضمني السلطان أبو سالم بن السلطان أبي الحسن في زمرة الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا بن السلطان أبي يحي الموحدي عند صرفه إياه من تلمسان إلى بجايته معنيا بحجابته لسابقة آبائي في خدمة سلفه ، واعتاص عليه فتحها لما كان عمه الأمير أبي إسحاق فيها فأوى إليه رياح عرب قطرها مستنصرا بهم و اضطرني الوفاء لملازمته فحاصرتها معه ثلاث مرات و استغلق علينا أمرها و طال علينا الأمد و أعيت الحيل و عيل الاصطبار "[2] .

و مع طول الحصار الزياني على بجاية وصل رسولان من السلطان الحفصي أبو إسحاق بن أبي يحي وهما محمد بن يوسف بن أومازير و محمد بن يعقوب بن علي الريحاني طلبا للصلح و كان ذلك في جمادى الثانية سنة 764هـ/1362م ، و يكون الصلح بفك الحصار من جهة الزيانيين مقابل تسليم الحفصيين ابن عم السلطان الزياني محمد أبو زيان بن أبو سعيد الذي يعتبر ثائرا عن حكم الزيانيين [3].

قبل الزيانيون بهذا الصلح و أرسل مع رسلهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسيني، و لم يصل هذا الوفد إلى بجاية حتى وصلت أخبار مفادها فرار محمد بن زيان من بجاية ولحاقه بحمزة عند شيخ عربها أبو الليل بن موسى بن أبي الفضل اليزيدي ، و أدى هذا إلى حدوث فتنة جديدة بين الدولتين ، و كنتيجة لذلك أرسل السلطان الزياني من يسترد الفقيه أبو عبد الله بن أحمد الشريف الحسيني قبل وصوله بجاية ، فأدرك بالمدية و استردهم وثقف الرسوليين [4].

---

[1] نفسه ص 103 .

[2] نفسه ص 123 .

[3] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 133 .

[4] نفسه ص 133،134 .

و عمل السلطان الزياني بعد هذه الحادثة على تجهيز حملة على بجاية تحت قيادة الوزير عبد الله بن مسلم الذي استطاع أن يضم إلى جيشه بعض القبائل العربية من زغبة و رياح ، فحاصر برج حمزة و فر أبو الليل بن موسى إلى جبال جرجرة و معه أبو زيان ابن عم السلطان الزياني ، و أمام إصرار أبو حمو على القضاء على أبو الليل و ابن عمه أبو زيان راسله الأول طلبا للصلح و الخدمة وصرف الثاني إلى الشرق و أعطى ولده رهنا لذلك ، فقبل السلطان الزياني بهذا العرض [1] .

و في سنة 765هـ/1363م استطاع الأمير الحفصي أبو عبد الله من السيطرة على بجاية على حساب ابن عمه السلطان أبو العباس المتوكل، و عمل الأمير أبو عبد الله على محاولة استرجاع دلس التي كانت بيد الزيانيين ، غير أنه و بسبب وجود حدود بين بجاية و قسنطينة و ما حدثت بين الأمير أبو عبد الله و ابن عمه أبو العباس ، فرأى صاحب بجاية أن يهادن الزيانيين بأن يتنازل لهم عن دلس و يطلب من أبي حمو المصاهرة في ابنته [2] .

قبل السلطان الزياني بذلك غير أن سقوط بجاية في يد أبو العباس كان سببا في تسير السلطان الزياني أبو حمو حملة جديدة على بجاية بغرض رد صهره لحكمها ، فعمل على قتال الحفصيين بالقرب منها ومحاصرتها إلا أن نتائج هذه الحملة لم تكن كما كان يحبذه الزيانيين فقد استطاع الحفصيون فك الحصار و مواجهة الجيش الزياني الذي انكسر أمامهم و فر السلطان الزياني أبو حمو إلى الجزائر ومنها إلى تلمسان ، و" خرج السلطان أبو العباس من بجاية في إثر هذه الواقعة فنازل تدلس و افتتحها و غلب عليها من كان بها من عمال بني عبد الواد و انتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده " [3].

و لم تستمر العلاقات المتوترة بل عرفت فترة من الودية انتهت باستقبال السلطان الزياني أبو حمو موسى للكثير من السفارات من قبل الحفصيين انتهت بإرسال " وزيره عمران بن موسى للقاء

---

[1] نفسه ص 135 .

[2] ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 380 ، في حين أن يحي بن خلدون يرى أن التنازل عن دلس و المصاهرة لم تكن في سنة 765هـ بل كانت في سنة 766هـ ، أنظر يحي بن خلدون : المصدر نفسه ، ج2 ص 160 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 380 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 183.

كريمته بنت الأمير أبي عبد الله محمد بن يحي الموحدي حفاية بها و تنويها بقدرها و رعيا لأصالتها ووصل بها الحضرة العلية في العشر الأول من شهر ربيع الثاني " سنة 767هـ /1365 م [1].

و لكن السلطان الزياني جهز حملة جديدة على بجاية في سنة 769هـ/1367م في جيش عظيم نزل به بالقرب من بجاية و عمل على محاصرتها و اكتفى الحفصيون بوضع الرماة على أسوار بجاية دون الدخول في حرب معهم ، و أثناء الحصار الذي دام سبعة أيام وصلت أنباء عن وصول ابن عم السلطان أبو زيان الذي كان مسجونا في قسنطينة ، و قد أمر السلطان الحفصي أبو العباس أحمد (772هـ-796هـ /1370م-1393م) [2] بإطلاق سراحه بعد حصار أبو حمو لبجاية بسبب العداء الموجود بينهما و على حد تعبير ابن قنفد " أن أبا حمو كان يخاف منه خوفا عظيما ما لقيه قبل هذا التاريخ قط إلا هزمه أبو زيان " و كان سبب في حدوث فوضى في المعسكر الزياني وفرار جنودهم وانسحابهم [3].

و كانت العلاقات الزيانية الحفصية بعد هذه الحادثة بين مد وجزر و إن كانت المصادر التي بين أيدينا تتحدث عن الأحداث الداخلية داخل كل دولة ، إلا أننا نرجح وجود فترات من السلم وفترات من الصراع كون الأحداث الداخلية تغذى من الخارج ، فالزيانيون كان لهم دور فيما يحدث داخل الدولة الحفصية و الحفصيون لهم دور فيما يحدث داخل الدولة الزيانية .

و إن كانت المصادر كما قلنا تكتمت عن ذكر بعض العلاقات فقد تحدث يحي بن خلدون أثناء حديثه عن سنة 776هـ / 1374م عن تمكن الزيانيين من استعادة دلس من يد الحفصيين والأخذ ببيعة أهلها ، و رافق هذا العمل الصفح عن أهل دلس و العفو عن قائد الحفصيين بها [4].

و تحدث الزركشي و التنسي عن فترات ضعف الدولة الزيانية و تدخل الحفصيين فيها ومن ذلك تدخل السلطان الحفصي أبو فارس (796-837هـ /1393-1433م)في سنة 827هـ/1423م لعزل السلطان الزياني أبو مالك عبد الواحد (814هـ-827هـ/1411-

---

[1] يحي بن خلدون : نفسه ،ج2 ص 166 .

[2] هناك تناقض في التواريخ عند ابن قنفد ، فهو أثناء حديثه عن توليت السلطان الحفصي أبو العباس أحمد بن أحمد يقول أنه كان في سنة 772هـ ، و أثناء الحديث عن هذا الحصار يقول أنه كان في سنة 769 هـ و يصف هذا السلطان بالسلطان و ليس بالقائد أو الأمير ، الفارسية ص ص 178 ،186 .

[3] ابن قنفد : المصدر نفسه ص 186 .

[4] المصدر السابق ، ج2 ص 315 .

1423م/831-833هـ/1427-1429م) و تعين أبو عبد الله محمد المدعو بابن الحمراء [1] (827-831هـ/1423-1427م)، و لم يكن هذا التدخل الوحيد للسلطان الحفصي أبو فارس إذ أنه عاود التدخل في شؤون الدولة من جديد و ذلك لإعادة السلطان أبو مالك عبد الواحد في مكان السلطان ابن الحمراء وحاصر تلمسان حصارا طويلا إلى أن دخلها في سنة (831هـ / 1427م) لكن السلطان ابن الحمراء استطاع استعادة عرش الدولة الزيانية في سنة 833هـ/1429م و قتل السلطان عبد الواحد و جراء هذا العمل جهز السلطان الحفصي أبو فارس حملة جديدة على تلمسان انتهت بقتل السلطان الزياني ابن الحمراء سنة 834هـ/1430م و تعين مكانه السلطان أبو العباس أحمد العاقل (834هـ-841هـ/1430-1437م)[2] ، و هنا يمكننا أن نقول أن هذه التدخلات الحفصية على الدولة الزيانية و محاصرة عاصمة الدولة لا يكون إلا بالسيطرة على الأرياف المتاخمة لها .

إذا وظفنا نظرة تقيمية لمساهمة الريف في العلاقات الزيانية الحفصية نرى أن العلاقات العامة طبعت بطابع الودية في بعض الأحيان و العداء في أحيان أخرى و ذلك راجع إلى كون الدولتين متجاورتين ، و كل دولة في فترة قوتها تحاول التوسع على حساب الدولة الأخرى كما عملت أيضا على محاولة التدخل في تعين و عزل السلاطين بما يخدم مصلحتها هذا من جهة ، و كل دولة كانت تحاول مساندة المنشقين داخل الدولة الأخرى بما يضعفها من جهة ثانية ، و كل هذا كان يحدث تحت البحث عن شرعية خلافة الدولة الموحدية ، أما فترات الود فكانت في غالب الأحيان أثناء مواجهة العدو و المقصود هنا الدولة المرينية التي حاولت السيطرة على كل بلاد المغرب فلأجل مواجهة هذا الخطر وجد الزيانيون و الحفصيون أنفسهم مضطرين إلى التحالف ، و قد توجت بعض فترات الودية بمراسلات سياسية و تبادل السفارات و لم ينته التقارب عند هذا الحد بل وصل في بعض الأحيان إلى ما يمكن تسميته بالمصاهرة السياسية التي تكون بتزويج ولد سلطان الدولة الأولى ببنت سلطان الدولة الثانية على غرار ما حدث بين بنت السلطان أبو حمو بالأمير الحفصي أبو عبد الله ، أما عن الدور الريف في هذه العلاقات فكان واضحا و ذلك كون أرض المعارك كانت جلها

---

[1] الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، تح و تقديم محمد ماضور ، ط2 ، المكتبة العتيقة . تونس ، 1966 ص 125،126 ، التنسي : المصدر السابق ص 241 .

[2] الزركشي : المصدر نفسه ص 128 ،129 التنسي : المصدر نفسه ، ص ص 242،247 .

في الأرياف ، كما شارك أهل الأرياف في المعارك و محاصرة المدن مع الحفصيين ضد الزيانيين أو العكس .

المبحث الثالث :

الصراع داخل البيت الزياني و آثاره على أرياف المغرب الأوسط:

قامت الدولة الزيانية استنادا إلى عصبية قبيلة زناتة البربرية ، و استطاعت إقامة كيان سياسي ضم أجزاء كبرى من المغرب الأوسط خاصة في فترات قوتها ، غير أن هذه الدولة لم تكن في منأى عن الصراعات الداخلية التي كان لها بالغ الأثر على الخارطة السياسية للدولة الزيانية ، من خلال انتشار اللاأمن و الذي شمل كل المغرب الأوسط تقريبا مدنه و أريافه و سنحاول هنا الحديث عن أهم الصراعات داخل البيت الزياني و ما خلفته من آثار على أرياف المغرب الأوسط .

ومن هذه الفتن إقدام السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن (718-737هـ/1318-1337م) على قتل أبيه السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) ، و يرجع السبب في ذلك إلى كون السلطان أبو حمو قدّم و قرب ابن عمه مسعود بن برهوم المعروف بمسعود بن أبي عامر على حساب ابنه أبو تاشفين و سائر إخوته ، وهو ما أدى إلى وقوع ابنه السلطان أبو تاشفين تحت تأثير خدمه من العلوج الذين أغاروا قلبه على أبيه خاصة بعد أن أقدم على إهانته بعد رجوع مسعود بن أبي عامر من حصار بجاية و الذي أبلى فيه البلاء الحسن فشكره السلطان على ذلك وعيّر ابنه ، فكبر الحقد في قلب أبو تاشفين خاصة و أن أباه بعد وفاة مسعود بن أبي عامر قرب ابنه أبي سرحان ، وهذا كان سببا في إقدام العلوج على إغارة قلب أبو تاشفين على أبيه و أنه سيؤثر أبو سرحان بولاية العهد ، فطلبوا منه قتل سرحان و اعتقال السلطان ليستأثر بالأمر ، فتحين أبو تاشفين الفرصة للقيام بذلك في وقت اجتماع أبيه بخاصته ، هجم عليهم و قتل العلوج السلطان و أبي سرحان و الكثير من الوزراء و نكبت أسر هؤلاء ، وقعت هذه الواقعة في يوم الأربعاء 22 جمادى الأولى 718هـ/1318م [1]، و استكمالا لهذا العمل قام السلطان أبو تاشفين بنفي سائر

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص ص 104 ،106 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 214 ،215، التنسي : المصدر نفسه ص 138،139 .

قرابته من ولد يغمراسن إلى الأندلس خوفا مما قد يقومون به من فتن انتقاما منه لقتله أبيه [1]، و لم تكن تأثيرات هذه الفتنة على عاصمة الدولة فقط بل تعدتها إلى أرياف المغرب الأوسط.

ومن الفتن التي حدثت داخل البيت الزياني فتنة أبو زيان و هو ابن محمد بن السلطان أبو سعيد عثمان الثاني(749-753هـ/1348-1352م) ، كانت بدايتها في فترة حكم السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-790هـ/1359-1389م)) و ذلك أن أبا زيان بن محمد بن السعيد كان في بلاط المرينيين إذ قُبض عليه مع عمه أبو ثابت و وزيرهم يحي بن داود في بجاية و سيقوا إلى المغرب فقام السلطان المريني أبو عنان بقتل أبو ثابت و وزيره و سجن أبو زيان ، و لما مات أبو عنان و آل الأمر لأخيه أبو سالم أطلق سراحه و أكرمه و ذلك لإعداده لأن يكون سلطانا للدولة الزيانية فتصبح تابعة للدولة المرينية ، ثم بعثه إلى تلمسان غير أن مهلك السلطان المريني أبو سالم أجل من طموحه في أن يكون سلطانا للدولة الزيايينة [2] .

و أقدم السلطان المريني عبد الحليم بن علي (763هـ/1361م) على طلب ود الزيانيين فقبلوا ذلك مقابل تسليم أبو زيان بن محمد بن السعيد فاعتقله ، غير أنه استطاع الفرار و لحق ببني عامر ومنهم إلى الذواودة ثم استدعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد و صاحب برج حمزة و بني حسن ، غير أن تسير السلطان أبي حمو حملة على أبو الليل و قومه أمّر عليها وزيره عبد الله بن مسلم ، فقام الوزير بدفع المال لأبي الليل شريطة التخلي عن أبي زيان بن محمد بن السعيد الذي فر إلى بجاية ، وهنا وقعت مراسلة بين السلطان الحفصي أبو يحي و السلطان الزياني نصت على إقصاء أبو زيان بن محمد بن السعيد إلى تونس [3].

و لم تنته فتنة أبي زيان بن محمد بن السعيد إذ عاود للظهور من جديد في سنة 765هـ/1363م بعد أن تحالف مع سويد إحدى بطون زغبة ، فخرج إلى ملوية ثم إلى تلمسان ، فقام السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني بإرسال جيش عين عليه وزيره عبد الله بن مسلم الذي استطاع ردهم و طاردهم حتى وصلوا إلى المسيلة و هناك أصاب الوزير عبد الله بن مسلم الطاعون فرجع الجيش إلى تلمسان فجهز السلطان الزياني حملة جديدة لمدافعة عدوه و عسكر بالبطحاء غير

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج7ص 106 .

[2] نفسه ،ج7 ص 126 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 126 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج2 ص 114 .

أن معسكره تعرض لحملة خاطفة من جيش أبو زيان فانهزم الجيش الزياني و رجع أبو حمو إلى تلمسان [1].

و ظهر خطر أبي زيان بن محمد بن السعيد من جديد بعد أن جهز السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني حملة عسكرية على بجاية سنة شوال 767هـ-1365م بهدف الانتقام لصهره الأمير أبو عبد الله محمد بن يحي الذي قتل على يد السلطان الحفصي أبو العباس الفضل (750-793هـ/1349-1388م) ، غير أنه فشل في حصار بجاية و انكسر أمام جيش الحفصيين في ذي الحجة من نفس السنة [2]، فكانت هذه الهزيمة سببا في اشتداد بأس أبو زيان بن محمد بن السعيد الذي استطاع السيطرة على المدية و بلاد حصين و استمال القبائل العربية من زغبة الموجودة هناك ، فسيطر على الجزائر و مليانة ، غير أن السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني جهز حملة ضمت بالإضافة إلى الجيش الزياني أحلافه من بني توجين و بني راشد و سويد الديا لم و العطاف عين عليها وزيراه الحاج موسى بن علي بن برغوث و عمران بن موسى بن فارس و قائده عطية بن موسى بن فارس و ولده أبو تاشفين ، فاستطاعوا في البداية هزيمته غير أنه تحصن بجبل التيطري إلا أنه قام بحملة مضادة فهزم الجيش الزياني الذي رجع إلى تلمسان و بقي أبو زيان بالتيطري[3].

و لم تنته فتنة أبي زيان بن محمد بن السعيد ، إذ أنه و بعد سيطرت السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز(768-774هـ/1367-1373م) على تلمسان في 10محرم 772هـ /1371[4] ، -في حين يرى يحي بن خلدون أنها في 25محرم 772هـ[5]- ،وهروب بني زيان إلى بلاد الزاب ، قام السلطان المريني بإرسال فرج بن عيسى بن عريف زعيم قبيلة سويد إلى حصين طلبا لطاعته و نبذ طاعة أبو زيان و استدعاه إلى مجلسه غير أنه لم يلب دعوته و نتيجة لهذا العمل أوعز السلطان المريني إلى وزيره أبي بكر بن غازي بتسيير الجيوش إلى حصين تيطرى فحاصروه أشهراً، و أمام شدة

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 127 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 130-131 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ص 183

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 130 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ص 185،186 .

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 132

[5] المصدر السابق ص 238.

الحصار انفضت جموعهم وفروا من حصنهم توجه أبو زيان ولحق ببلاد ورقلة لبعدها جيوش بني مرين[1] .

و بعد وفاة السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز في 22 ربيع الثاني 774هـ/1373م استطاع السلطان الزياني أبو حمو استعادة عاصمة ملكه تلمسان ، كما أن أبا زيان بن محمد بن السعيد أيضا رجع من ورقلة في سنة 775هـ/1374م إلى بلاد حصين ، فنقض أهلها بيعة السلطان أبي حمو موسى الثاني و بايعوه كما استنجد به الثائرون على الحكم الزياني كخالد بن عامر و قومه ، فقام السلطان الزياني بتسيير حملة أمّر عليها ابنه أبو تاشفين فوقعت موقعة بين الجيشين انتهت بهزيمة أبو زيان و جيشه فهرب إلى بلاد الزاب [2] .

و ظهر الثائر أبو زيان من جديد على مسرح الأحداث في سنة 778هـ/1377م [3] ، إذ أن سالم بن إبراهيم كبير الثعالبة تحالف مع خالد بن عامر شيخ بني عامر ،وكانت حدثت بينه وبين محمد بن عريف عداوة فخشي أن يحمل السلطان الزياني على النهوض عليه، فبادر إلى نقض بيعة السلطان أبو حمو واستقدم الأمير أبا زيان بن محمد بن السعيد فزحفوا إلى حصار مليانة ، وبها حامية السلطان الزياني فامتنعت عليهم ، ورجعوا إلى الجزائر فهلك خالد بن عامر وولي أمر قومه من بعده إلى المسعود ابن أخيه الصغير، ونهض إليهم السلطان أبو حمو فتحصنوا بجبال حصين و أطبق عليهم الحصار مع حدوث مناوشات بين الجيشين فرأى سالم بن إبراهيم وأصحابه أن يعيدوا الطاعة لأبي حمو بن موسى الثاني فقبل بذلك شريطة مفارقة أبي زيان بن محمد بن السعيد ففعلوا ذلك و هو ما كان سببا في فراره إلى بلاد الجريد ومنها إلى توزر [4] .

و من الفتن التي حدثت داخل البيت الزياني إقدام السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-790هـ/1359-1389م) على تقسيم البلاد الواقعة تحت حكمه على أبنائه ، و الذي أدى إلى حدوث تنافس بينهم [5]، إذ كان السلطان أبو حمو يؤثر اكبر أبنائه أبو تاشفين و ولاه عهده على

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج2 ص 132.

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 135 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج2 ، ص 285 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 137 ، بينما يري يحي بن خلدون أنها كانت في سنة 777هـ ، المصدر نفسه ، ج2 ، ص 328 .

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 138 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ، ص ص 328 ،331 .

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 139.

سائر إخوته [1]، و يفهم من كلام يحي بن خلدون تعظيمه و تبجيله عن سائر إخوته بقوله " صدر أمره الكريم باستنابة ولده المولى الأعلى أبي تاشفين أعزه الله و قصر النظر في الملك عليه و إطلاق يده على السيف و القلم و الخراج و الحكم ، و كتب بذلك صك كريم فامتنع المولى أبو تاشفين أنجح الله مقاصده "[2] .

فكلام يحي بن خلدون يؤكد على تقريب أبي حمو لابنه أبو تاشفين غير أنه يذكر أن أبو تاشفين رفض هذا التقريب و زهد في هذا المنصب ، و هذا الكلام يطابق في شقه الأول ما قاله أخوه عبد الرحمن بن خلدون وهو المتعلق بالتقريب بينما يتعارض و ما قاله في شقه الثاني من حيث زهده أبو تاشفين في الملك " و كان أبو تاشفين ولي عهده و قد رفعه عن الباقين و أشركه في رأيه و أوجب له الحق على وزراء دولته ...و كان مع ذلك يتعاهد أولئك الإخوة الأشقاء بحنوه و يقسم لهم من ترشيحــه و النجاء في خلوته فتنغص أبو تـــاشفين منهم ....فأعمل نظره في قسمة الأعمال بين ولده وترشيحهم للإمارة و البعد بهم عن أخيهم أبي تاشفين أن يصيبهم بمكروه عند إيناس الغيرة منهم "[3] .

يمكن أن نرجح من هذا الكلام قول عبد الرحمن بن خلدون على حساب قول أخيه ،كون عبد الرحمن تكلم عن تخوف أبي حمو مما قد يصيب أبنائه من أخيهم و هو ما حدث فعلا فيما بعد والوالد أدرى بتصرفات ابنه ، بينما يحي بن خلدون تكلم بكلام به الكثير من العاطفة تجاه أبو تاشفين الذي سيقوم فيما بعد بنكبته و قتله .

و كان تقسيم الدولة على أبناء أبو حمو موسى الثاني بتولية أبو تاشفين ولاية العهد و المنتصر و أخوه عمر على مليانة و أعمالها و أبو زيان محمد على المدية و ما يليها من بلاد حصين و ولاية وهران ، و يوسف بن الزابية دلس و ما جاورها [4] .

---

[1] وهم إخوة أبو تاشفين لأبيهم أربعة المنتصر و أبو زيان محمد و عمر و يلقب عميرا و يوسف بن الزابية ، ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7ص 139، 140.

[2] المصدر السابق ،ج2 ص 313 .

[3] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 140.

[4] نفسه ،ج7 ص 140 .

و كانت بداية التنافس بين أبناء أبي حمو بإقدام أبو تاشفين بقتل يحي بن خلدون كاتب أبيه ، و يعود سبب قتله إلى أن أبا تاشفين طالب أبوه بولاية وهران بعد أن عهد بها إلى أخيه أبو زيان ، فقبل بذلك وطلب من كاتبه يحي بن خلدون أن يماطل في الكتابة إليه بذلك حتى يجد مخرجا لهذه المعضلة ، و كان موسى بن يخلف من بطانة أبو تاشفين فأوغر قلبه على يحي بن خلدون ، و أرجع له سبب المماطلة في كتابة الكتاب إنما هو بسبب خدمته لأخيه أبو زيان ، فأقدم أبو تاشفين على قتل يحي بن خلدون بعد صلاة التراويح سنة 780هـ/1379م ، و حاول أبو حمو الأخذ بالثأر من قتلة كاتبه فلما علم بأن صاحب الفعلة ابنه غض الطرف عن ذلك بل و أقطعه ولاية وهران ، ونتيجة لذلك طلب ابنه أبو زيان من أبيه أن يقطعه ولاية الجزائر فأقطعه إياها [1] .

و كان التنافس في البداية دون الدخول في الصدام المباشر بين الأبناء لكن الوضع تغير في ما بعد حيث أن أبا تاشفين في سنة 788هـ/1387م اتهم أبوه بمحاباة إخوته على حسابه وهو ما كان مدعاة للعقوق و العداوة وتعتبر هذه سابقة خطيرة في تاريخ الدولة الزيانية ،إذ أن أبا حمو لما استشعر الخطر من ابنه أبو تاشفين جهز حملة في ظاهرها لإخضاع العرب المارقين عن الدولة بينما حقيقتها كانت للقاء ابنه المنتصر بمليانة ومنها ينتقل إلى الجزائر ليجعلها عاصمة ملكه وذلك بعد أن استخلف ابنه أبو تاشفين على تلمسان ، غير أن أبا تاشفين ساورته شكوك حول ما ينوي القيام به، فسير جيشا لقي به أبوه بالبطحاء فرجع به إلى تلمسان ،و أرسل أبو حمو إلى ابنه أبو زيان بالمال ويخبره بما حصل و أنه يتحين الفرصة للقيام بما خطط له ، غير أن الكتاب وقع في يد أبو تاشفين فعزل أبوه و حبسه بالقصر و اعتقل من كان معه من إخوته ثم بعثه إلى وهران و حبس هناك [2]– ويمكن أن نرجع سبب العداء الموجود بين أبو تاشفين و أبوه أبو حمو إلى قتل الأخير لحفيده محمد بن تاشفين –[3] .

أمام هذا الوضع قام الإخوة المنتصر و أبو زيان و عميرا بالاستصراخ بقبائل حصين فناصروهم و أنزلوهم جبل التيطري ، و قام أبو تاشفين بجمع العرب من سويد و بني عامر و خرج في طلب إخوته فضم مليانة و عمل على محاصرة التيطري ، و في وقت الحصار تمكن أبو حمو من النجاة من

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج7 ص 140 .
[2] نفسه ص 144 .
[3] ابن الأحمر : المصدر السابق ص 82 .

الاعتقال و أخذ البيعة لنفسه من أهل وهران ثم دخل تلمسان و بايعه أهلها أيضا وبلغت أخباره أبو تاشفين ففك الحصار و دخل تلمسان و قبض على أبيه فسجنه في القصر ، ثم طلب منه أبوه تسريحه إلى المشرق لأداء فريضة الحج فأرسله مع بعض التجار المسيحيين إلى الإسكندرية [1].

استطاع أبو حمو أن يقنع هؤلاء التجار بإنزاله في بجاية و كان ذلك في 789هـ/1387م وقد أمر السلطان الحفصي أبو العباس أحمد (772هـ -796هـ/1370-1394م)في تونس عامله على بجاية ابنه أبو عبد الله بأن يكرم أبو حمو و أن يسير معه جيوشه إن أراد ذلك ، فخرج أبو حمو من بجاية إلى متيجة فوافه هناك أبنائه و راسل القبائل العربية الموجودة هناك فلبوا دعوته فخرج يريد تلمسان ،و ترك ابنه أبو زيان بالشلف حيث واجه جيش أبو زيان بن أبو تاشفين و وزيره محمد بن عبد الله بن مسلم ، فقتل أبو زيان بن أبو تاشفين و الوزير محمد بن عبد الله و الكثير من جيشهم ، ووصلت أنباء هزيمة جيش أبي تاشفين و مقتل ابنه و وزيره و هو يستعد لمواجهة أبيه بالقرب من تلمسان ففر إلى عاصمة ملكه و منها إلى المغرب فدخل أبو حمو تلمسان في رجب 790هـ/1389م [2] .

و طلب أبو تاشفين النصرة من السلطان المريني أبو العباس أحمد (تولى مرتين من 776-786هـ/1374-1384م ومن 789-796هـ/1387-1393م) ،فأرسل معه جيوشا عظيمة على رأسها ابنه الأمير أبو فارس و وزيره محمد بن علال [3]،بينما يرى التنسي أنه أرسل مع الجيوش قائده زيان بن عمر الوطاسي [4]،و التقى جيش أبو تاشفين مدعوما بجيش المرينيين بجنود أبو حمو في جبل بني ورنيد [5] انتهت بمقتل أبو حمو و ابنه عميرا ودخول أبو تاشفين الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو (791-795هـ/1389-1392م) تلمسان في ذي الحجة 791هـ/1388م [6] .

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 144 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 145 ، التنسي : المصدر السابق ص 180 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 146 .

[4] المصدر السابق ، ص 180

[5] يقع هذا الجبل على بعد ثلاثة أميال عن تلمسان ، الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 44 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 352 .

[6] ابن خلدون : العبر، ج7 ص 146 ، التنسي : المصدر السابق ص 181 .

و نتيجة لمقتل أبي حمو قام ابنه أبو زيان الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو الذي كان على ولاية الجزائر على التوجه إلى حصين و استصرخ أهلها للأخذ بثأر أبيه و أخيه فأجابوه لطلبه ، كما أن زعماء بني عامر من زغبة استدعوه إلى وطنهم و بايعوه ، فسيروا جيشا إلى تلمسان في رجب سنة 792هـ/1389م و حاصروها ، غير أن أبا تاشفين استطاع شراء ذمم العرب بالمال فتفرقوا عن أبو زيان فخرج إليه أبو تاشفين و هزمه في شعبان 792هـ/1389م ، ففر أبو زيان إلى الصحراء واستنجد بعرب المعقل و عاد إلى حصار تلمسان في شهر شوال ، غير أن أبا تاشفين بعث ولده يطلب المدد من سلطان المغرب الذي أمده بذلك و قبل أن يصل إلى تلمسان فك أبو زيان الحصار عنها و رجع إلى الصحراء ومنها دخل فاس فأحسن صاحبها وفادته و وعده بالنصر على عدوه [1].

وفي منتصف سنة 795هـ /1392م أنجز السلطان المريني أبي العباس أحمد ما واعد به أبو زيان إذ سير معه جيشا إلى تلمسان ، و بوصول هذا الجيش إلى تازة وصلت أخبار وفاة أبو تاشفين ، وهنا ظهر من جديد إلى ساحة الأحداث يوسف بن أبي حمو و أمه الزابية الذي عمل في فترة حكم أبو تاشفين واليا على الجزائر ، و قد جهز جيشا للسيطرة على تلمسان فقتل وزير أبو تاشفين والصبي الذي عينه خلفا له ، و بوصول هذه الأخبار إلى السلطان المريني أبو العباس استدعى أبو زيان بن أبي حمو من تازة و حبسه ، و سير جيشا أمّره عليه ابنه أبو فارس إلى تلمسان التي استطاع السيطرة عليها و على مليانة و الجزائر و دلس و على بجاية [2].

و بعد وفاة السلطان المريني أبو العباس أحمد سنة 796هـ/1393م بويع ابنه أبو فارس سلطانا على الدولة المرينية (796-799هـ/1393-1396م) ، و الذي قام بإطلاق سراح أبو زيان الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو (797-801هـ/1394-1399م) و أرسله إلى تلمسان للقيام بأعمالها تحت حكم المرينيين ، فدخلها و أخوه يوسف بن الزابية متربصا بها مستقويا ببني عامر ، فعمل أبو زيان على شراء هؤلاء بالمال فسلموا له أخوه يوسف و ساروا به إلى تلمسان فحاول بعض العرب تخليصه فقتلوه و ساروا برأسه إلى أخيه و بذلك هدأت الأحوال مؤقتا [3].

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 147 .

[2] نفسه ص 147 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 148 التنسي : المصدر السابق ، ص 210.

وكانت مدة الهدوء خمس سنوات تقريبا إذ في سنة 801 هـ /1398[1]م دخل عليه أخوه أبو محمد عبد الله مستعينا بجيوش بني مرين و بعض الناقمين على حكم أبو زيان ، فالتقى الجيشان وانهزم الجيش الزياني و فر السلطان و ترك تلمسان [2] ، و حاول أبو زيان الاستنجاد بالعرب و البربر من أجل استعادة ملكه و دام ذلك إلى سنة 805هـ/1402م و هي تاريخ اغتياله من قبل محمد بن مسعود الوعزاني [3] و بهذا انتهت محاولة أبو زيان فرض السيطرة على الدولة [4].

و لم يختلف الحال في حكم أبي محمد عبد الله الأول بن أبي حمو (801-804هـ/1399-1402م) فقد نصبه المرينيون و ساعدوا في تنحيته ، و ذلك أنه في سنة 804هـ توقف عن دفع الخراج إلى السلطان المريني عثمان (801-831هـ/1398-1427م) فسير حملة جديدة على تلمسان انتهت بعزل السلطان أبو محمد عبد الله و حمله أسيرا إلى فاس و تعين مكانه السلطان أبو عبد الله محمد بن خولة [5] .

و استطاع أبو محمد عبد الله الأول بن أبي حمو من إحكام سيطرته على حكم الدولة الزيانية لكن بوفاته آل حكم الدولة إلى ابنه عبد الرحمن بن محمد بن خولة (804-813هـ/1402-1412 م)الذي لم تكن له صفات أبيه ، وهو ما فتح الباب أمام عمه السعيد بن أبي حمو الذي استطاع أن يخلعه عن الحكم بعد شهرين و بضعت أيام من توليته، غير أن بني مرين لم يرقهم توليت السعيد بن أبي حمو فسيروا جيشا نحو تلمسان لتعين مكانه أخوه أبو مالك عبد الواحد ، و حاول السعيد مواجهة الجيش غير أنه و بخروجه من تلمسان استطاع أبو مالك عبد الواحد دخولها و بذلك انفض من كان مع السعيد عنه و أعلنوا طاعتهم للسلطان الجديد ففر السعيد إلى الشرق [6].

لم تكن الدولة المرينية هي المغذي الوحيد للصراع داخل الدولة الزيانية بل دخلت الدولة الحفصية على الخط إذ جهز السلطان الحفصي أبو فارس (796-837هـ /1393-1433م)حملة

---

[1] التنسي : المصدر نفسه ص 227 ، بينما يرى ابن الأحمر أن هذه الحادثة كانت في صفر سنة 802 هـ المصدر السابق ص 83 .

[2] التنسي : المصدر نفسه ص 228 ، ابن الأحمر : المصدر نفسه ص 83 .

[3] لم نستطع التعرف على هذه الشخصية

[4] التنسي : المصدر نفسه ص 228.

[5] التنسي : المصدر نفسه ص 229 ، ابن الأحمر : المصدر السابق ص 84 .

[6] التنسي : المصدر نفسه ص 234،235 .

على تلمسان في سنة 827هـ /1423م و استطاع السيطرة عليها بعد أن فر منها السلطان أبو مالك عبد الواحد ، وعين عليها محمد بن تاشفين المدعو بابن الحمراء [1](حكم مرتين الأولى من827-831هـ/1424-1428م الثانية833هـ-834هـ/1430-1431م) ، غير أن صفو العلاقة بين السلطان الحفصي أبو فارس و ابن حمراء تعكر بسبب قطع السلطان الزياني اسم السلطان الحفصي من الكتب و الخطب فجهز حملة جديدة على تلمسان انتهت بعزل ابن الحمراء الذي فر إلى المغرب ، و إعادة أبو مالك عبد الواحد إلى عرشه و كان ذلك في سنة 831هـ/1427 م [2] .

أمام هذا الوضع لم يبق ابن الحمراء متفرجا بل توجه إلى الأرياف الشرقية من المغرب الأوسط واستقر مدة متنقلا بين جبال برشك و تنس ، و في سنة 833هـ جند جيشا استطاع أن يدخل به تلمسان في ذي القعدة من هذه السنة ، و قتل فيها السلطان أبو مالك عبد الواحد [3].

لم تدم فترة حكم ابن الحمراء في المرة الثانية كثيرا (84 يوما) ففي سنة 834هـ/1431م إذ جهز السلطان الحفصي حملة جديدة على تلمسان ففر ابن الحمراء إلى بني يزناسن ، و حاول من هناك كسب ود السلطان الحفصي ، فقبل السلطان الحفصي ذلك ظاهرا و رفضه في باطنه ، و خرج السلطان الحفصي لملاقاته و تمكن منه فقتله ، و رجع إلى تلمسان و ولى عليها أبو العباس أحمد العاقل بن أبو حمو [4].

كانت فترة حكم أبو العباس أحمد العاقل (834-866هـ/1431-1462م)مشابهة لسلفه فقد تميزت باضطراب الوضع السياسي ، و يتجلى ذلك في كثرة الثورات الداخلية من قبل العرب وقبائل زناتة ،و كذا من البيت الحاكم ومنها إقدام أبو عبد الله محمد المستعين على الاستقلال بالكثير من المناطق الشرقية للدولة إذ بايعه أولاد بليل و مليكش و بنو عمر بن موسى و الثعالبة و حصين والجزائر وتنس و المتيجة و مليانة ، و فر إليه الكثير من بني عبد الواد المتواجدين بتلمسان غير أنه اغتيل من قبل أهل الجزائر في شوال 843هـ/1439م [5].

---

[1] الزركشي : المصدر السابق ، ص 125،126 ، التنسي : المصدر نفسه ص 241 .
[2] الزركشي : المصدر نفسه ص 128،129 ، التنسي : المصدر نفسه ص 244 .
[3] الزركشي : المصدر نفسه ص 129 ، التنسي : المصدر نفسه ص245 .
[4] الزركشي : المصدر نفسه ص 129 ، التنسي : المصدر نفسه ص 247 .
[5] التنسي :المصدر نفسه ص 250،251 .

يضاف إلى ذلك إعلان أخوه أبو يحي بن أبي حمو تمرده عنه بعد أن بايعته بعض القبائل العربية ، فقصد تلمسان غير أنه فشل في الاستيلاء عليها، فانعطف إلى وهران و سيطر عليها وهو ما كان سببا في حدوث الكثير من الحروب بينه و بين أخيه السلطان أبو العباس أحمد العاقل إلى شعبان سنة 852هـ/1448م حيث تمكن السلطان من دخول وهران ففر أبو يحي عن طريق البحر إلى بجاية ومنها إلى تونس [1].

كما حاول أحمد بن الناصر بن أبي حمو التمرد على عمه السلطان أبو العباس أحمد العاقل بعد أن استصرخت به طائفة من أهل تلمسان و بايعوه ، غير أنه فشل و جيء به إلى عمه الذي أمر بقتله [2].

و في سنة 866هـ/1461م أمر محمد المتوكل بن أبي عبد الله المستعين بتجهيز جيشا انطلق به من مليانة متوجها إلى تلمسان ، ففتح بني راشد و هوارة و مستغانم و تمزغران و وهران ثم توجه إلى تلمسان و حاصرها يومان فسقطت تحت حكمه في اليوم الثالث وهو يوم الإثنين 01جمادى الأولى 866هـ/1461م ، وفر السلطان أبو العباس أحمد العاقل إلى قرية العباد [3].

و حاول السلطان الزياني الجديد محمد المتوكل (866-873هـ/1462-1468م)أن يعالج قضية الصراع حول الملك داخل الدولة ، فجمع كل من كان من أبناء السلاطين المتفرقين في الشرق والغرب و أبرهم و أحسن إليهم ومنهم السلطان أبو العباس أحمد العاقل الذي سيره إلى الأندلس ، غير أن الأخير رجع من الأندلس و تحالف مع محمد بن عبد الرحمن بن أبي تاشفين وجمعا جيشا من العرب و البربر و توجها به إلى تلمسان و حاصراها أربع عشر يوما ، إلا أن السلطان محمد المتوكل تمكن من التغلب عليهم [4].

ما يمكن استنتاجه من عرضنا للصراع داخل البيت الزياني هو أن آثار هذا الصراع لم يكن على عاصمة الدولة فقط ، بل تعدت إلى كل بلاد المغرب الأوسط بمدنه و أريافه ، بل كانت الأرياف أكثر ظهورا في هذا الصراع من المدن ، فالمدقق لما عرضناه يجد أن المنافس للسلطان يبدأ حملته في

---

[1] التنسي : المصدر نفسه ص 249 .

[2] نفسه ص 253 .

[3] نفسه ص 254 .

[4] نفسه ، ص 257 .

غالب الأحيان من أرياف الشرق أو الغرب ، كما يمكن أن نلاحظ أيضا أن الصراع في غالب الأحيان يكون بدعم خارجي ، إذ كان للمرينيين دور كبير في تغذية الصراع الداخلي بما يخدم مصالحها الداخلية ، و لم يبق الحفصيون مكتوفي الأيدي من هذه الأحداث بل تدخلوا وساهموا في عزل و توليت سلاطين على حساب الآخرين بما يخدم مصلحتهم أيضا ، غير أن الصراع لم يكن دائما مغذى من الخارج ، فكان في بعض الأحيان يكون من الداخل و بإيعاز من الوزراء على غرار ما فعله العلوج مع أبي تاشفين عبد الرحمن ، و ذلك بأن أوغروا قلبه على أبيه فقتله هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن سوء تصرف بعض السلاطين كان سببا من أسباب الصراع على غرار ما فعله أبو حمو موسى الثاني الذي حابى ابنه أبو تاشفين على حساب بقية أبنائه فكان هذا سببا في تقسيم المملكة بين الأبناء ، و دخولهم في صراع طويل أنهك كاهل الدولة وجعلها عرضة للكثير من الحملات الخارجية ، و ما يمكن ملاحظته أيضا أن هذا الصراع كان سببا مباشرا في ضعف الدولة الزيانية التي أصبحت لا تستطيع القضاء على تمرد صغير إلا بشق الأنفس فما بالك بحملة خارجية من قبل الحفصيين أو المرينيين ، و خير مثال على ذلك خروج أبو حمو موسى الثاني من تلمسان و تركها خاوية على عروشها أمام جيش السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز الذي طرد أبو حمو موسى الثاني إلى الصحراء و قام بنفس العمل مع أبو زيان بن محمد بن أبو سعيد .

المبحث الرابع :

الإمارات المستقلة في أرياف المغرب الأوسط :

قامت عدة إمارات في أرياف المغرب الأوسط و مرد ذلك إلى وجود قبائل تميزت بالقوة و استطاعت السيطرة على الكثير من المناطق، فقامت الدولة الحاكمة بمحاولة كسب ود هذه الإمارات وذلك بالاعتراف بها و محاولة استعمالها في تسير تلك المنطقة بما يخدم مصالح هذه الدولة و سنحاول في هذا المبحث الحديث عن أهم الإمارات التي قامت في أرياف المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة .

1- إمارة بني مزني في بلاد الزاب :

كانت بلاد المغرب عرضة لما اصطلح عليه بالهجرة الهلالية ، فمن العرب الذي دخلوا إلى بلاد المغرب بني مزني و كان ذلك في القرن الخامس الهجري ، و هم من أحلاف بني هلال ، ينتسبون إلى

مزنة بن دنفل بن محيا بن جزي بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف و هم من عرب الأثبج ، استقروا في بلاد الزاب بعد أن عجزوا عن الضعن و الترحال و جاوروا أهلها من بربر زناتة والعرب الفاتحين [1] ، و يعتبر بني مزني أنفسهم من عرب فزارة [2] ، و يرجع سبب انتسابهم لفزارة لما لهذه القبيلة من تاريخ حافل في بلاد المشرق في الجاهلية و الإسلام فقد قال فيهم الشاعر

فزاره بيت العز و العـــــز فيهــم　　　فزاره قيس حسب قيس نضالها

لها العزة القعساء و الحسـب الذي　　　بناه لقــيس في القديم رجالهــا [3].

يرى ابن خلدون أن بني مزني انتسبوا إلى فزارة لما انتهى إليه عرب الأثبج باستقرار في بلاد الزاب و امتهانهم للفلاحة و تأدية ما وجب عليهم من مغرم للدولة فأنفوا من ذلك و استنكفوه ، وبذلك انتسبوا إلى غرائب الأنساب [4].

نزل بني مزني في بداياتهم ببلاد الزاب بقرية من قرى بسكرة اسمها حناس ، و تكاثروا وتناسلوا حتى استطاعوا مشاركة أهل بسكرة في الأرض و المياه ، ثم دخلوا بسكرة البلد و انضموا للعيش مع أهلها من بني رمان ، و انتظم كبرائهم في أرباب الشورى بها ، كل هذا كان سببا في نشوب عداوة بينهم و بين بني رمان ، و كانت في البداية بالكلام و محاولة الشكوى إلى السلطان و من ثم محاولة كل واحد السيطرة على الآخر [5] .

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج6 ، ص 405 ، مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1981 ص 139 ، الدراجي بوزيان : بنو هلال و أحلافهم (المنشأ و الهجرة و الاستقرار) ، مقال في دولة بني مزني ببسكرة 1279-1402م المجلة الخلدونية ، العدد 09 جانفي 2011 ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة ، ص 31 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 405 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 139 .

[3] مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ، ص 139 .

[4] ابن خلدون : العبر ،ج6 ص 405 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 139 .

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 405 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 140 ، حافظي علوي لحسن : واحات بلاد المغرب من القرن 4هـ-8هـ/10-14م ، رسالة دكتورة بجامعة محمد الخامس كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، أكدال الرباط، السنة الجامعية 2004-2005 ص 274 ، سميرة السقا : دولة بني مزني ببسكرة من خلال كتاب العبر لابن خلدون ، مقال في دولة بني مزني ببسكرة 1279-1402م المجلة الخلدونية ، العدد 09 جانفي 2011 ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة ص17 .

و لم ينته الخلاف عند محاولة السيطرة ، بل تعداه إلى الحرب و محاولة القضاء على الآخر ومن ذلك ما حدث في أثناء خروج الأمير الحفصي أبو إسحاق على أخيه السلطان الحفصي محمد المستنصر بالله (647-675هـ/1249-1277م) ، و انتقل إلى العيش بالذواودة و بايعه أميرهم موسى بن مسعود البلط ، و توجه معه إلى بسكرة فبايعه الفضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني و أطاعته أسرته ، ورغم أن السلطان الحفصي المستنصر أرسل جيشا لرد بلاد الزاب إلى سلطانه فإن بني مزني استمروا في ولائهم لأخيه أبي إسحاق، و كان لهذا الولاء تأثير على مكانة هذه الأسرة بعد تعين أبو إسحاق (678-683هـ/1279-1284م)سلطانا للدولة الحفصية فعقد للفضل بن علي على كل بلاد الزاب ، و لأخيه عبد الواحد على بلاد الجريد رعاية لخدمتهما له في فترة الأزمة ، فدخل الفضل بسكرة وخضعت له بني رمان [1] .

و كانت خدمة الفضل بن علي للسلطان إلى أن توفي في سنة 683هـ/1284 ، حيث عمد عرب أولاد حر من لطيف إحدى قبائل الأثبج إلى قتل الفضل بن علي بن مزني و قومه و فر ابنه المنصور بن الفضل إلى تونس سنة 683هـ /1284م ، و حاولوا الاستبداد بالبلد غير أن بني رمان منعوهم من ذلك و استقلوا بأمر بلاد الزاب و أعلنوا البيعة للسلطان الحفصي أبي حفص عمر الأول (683-694هـ/1284-1295م) ، و بعد إعلان البيعة للسلطان الحفصي خاطبوه في المنصور بن الفضل فأمر به فسجن مدة ، غير أنه لما انقسمت الدولة الحفصية بسيطرة أبي زكريا يحي بن أبي إسحاق على بجاية و بونة فر المنصور بن الفضل من تونس إلى بجاية في سنة 691هـ/1292م[2].

و حاول المنصور بن الفضل أن ينال مكانة لدى أبو زكريا يحي بن أبو إسحاق لما دخل إلى بلاد الزاب سنة 693هـ /1294م، إذ عمل على إتباع بلاد الزاب له ، و حاول أن يفرض نفسه على تلك المنطقة و ذلك بأن يقوم بالانتقام من قتلة أبيه فوجد أن عرب الحر قد طردوا منها إلى بلاد ريغة ، و لم يبق أمامه إلا السيطرة على بني رمان الذين أخضعهم و استخدمهم في بناء قصر له

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 406 ،مصطفى أبو ضيف :المرجع نفسه ص 140 ،حافظ علوي لحسن :المرجع نفسه ص274

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 407 مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 141 ، حافظ علوي لحسن : المرجع نفسه ص 274 .

بالمدينة وسور حول مدينة بسكرة و أخرجهم منها [1] ، و بعد أن دانت له بلاد الزاب و استطاع تحصيل جبايتها ضم إليه السلطان الحفصي أبو زكريا يحي بن أبو إسحاق جبل الأوراس و قرى ريغة ووراكلي ، و بلاد الحضنة مقرة و المسيلة ، و نقاوس لتنظيم إدارتها و تحصيل جبايتها و بذلك غنت بسكرة واستطاع بني مزني شراء رضا أعوان السلطان بالمال [2] .

و زادت مكـــانة قبيلة بني مزني عند الحفصيين خاصة بعد وفاة أبو زكريا يحي و تعين ابنه أبو البقاء خالد مكانه (709-711هـ/1309-1311م) ، و قام بأمر السـلطان الجديـــد حاجبه أبو عبد الرحمن بن عمرو الذي كانت له علاقة متميزة مع الفضل بن المنصور بن مزني، فأضاف له السلطان أجزاء من بلاد التل مـــن أرض بربر سدويكش [3] و عرب عياض [4] ، وبذلك توسع حدود هذه الإمارة و أصبحت تسيطر على مناطق شاسعة [5]، و كانت لزيادة النفوذ نتائج عكسية إذ أن المنصور بن الفضل كان يتطلع إلى السيطرة على مملكة بجاية بأكملها، حيث قدم على قسنطينة و معه الأمير يحي بن خالد بن أبو إسحاق بعد أن بايعه و استألف عرب الذواودة لمشايعته، فحاصر معه قسنطينة ،و لما شك في ولائه له تخلى عن الدعوة له و اعتقله وعاد به إلى بسكرة و أرجع طاعة السلطان أبي البقاء خالد ، و بقي يحي بن خالد معتقلا في بسكرة إلى أن توفي سنة 720هـ/1320م [6].

و رجعت العلاقات بين بني مزني و الحفصيين إلى سابق عهدها إلى أن طلب الحفصيون من المنصور بن مزني تدبير الأموال اللازمة لحملة الأمير أبي يحي إلى تونس 717هـ/1317م ، و يبدو أنها مطالب تعجيزية ، و هو ما اضطر المنصور بن مزني إلى الانسحاب و معه حلفاؤه من عرب أولاد

---

[1] ابن خلدون :المصدر نفسه ،ج6 ص 405 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 141 ، حافظ علوي لحسن : المرجع نفسه ص 274 ، سميرة السقا : المرجع السابق ، ص 18 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 405 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 141 ، حافظ علوي لحسن : المرجع نفسه ص 275 ، سميرة السقا : المرجع نفسه ص 18 .

[3] هم من قبيلة كتامة و مواطنهم بين قسنطينة و بجاية ، ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 149 .

[4] عرب عياض من بني هلال استقروا في جبل قلعة بني حماد ، ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 24 .

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 405 ، حافظ علوي لحسن : المرجع السابق ص 275 ، سميرة السقا : المرجع السابق ص 18.

[6] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 407 ، حافظ علوي لحسن : المرجع السابق ص275 .

حر بقيادة عثمان بن ناصر و عرب أولاد خنفر بقيادة يعقوب بن إدريس ، و أعلنوا البيعة لدولة بني عبد الواد حتى وفاته في 725هـ/1325 م[1] .

و بعد وفاة المنصور بن مزني تولى أمر بلاد الزاب ابنه عبد الواحد و الذي عمل على رد الدعوة لبني حفص ، غير أنه سرعان ما توترت العلاقة بين بجاية و إمارة بسكرة بسبب التنافس بين عبد الواحد و حاجب بجاية محمد بن أبي الحسن سيد الناس على التقرب للسلطان في تونس ، و هذا ما دفع بمحمد بن أبي الحسن إلى مهاجمة أملاك بني مزني ، و كرد فعل على ذلك قام عبد الواحد بن المنصور بإعادة البيعة لبني عبد الواد ، و لكن ذلك زاد من حدة الهجوم الذي شنته جيوش بجاية فارتأى تغير السياسة و ذلك بتسليم الجباية لبجاية و مصاهرة الحاجب محمد بن أبي الحسن بأن عقد على ابنته ، و بقي الأمر على هذا الحال إلى أن اغتاله أخوه يوسف بن المنصور سنة 729هـ /1329م [2] .

تميزت فترة حكم يوسف بن منصور بالدهاء و الحكمة ، إذ استطاع المحافظة على الإمارة ودرء كل الأخطار التي واجهتها ، ومنها أنه تعامل بحكمة مع قائد السلطان الحفصي محمد بن الحكيم الذي أرسله السلطان للقضاء على الثورات الخارجية ، و ذلك أنه وجه جيوشه بعد القضاء على الخارجين في بلاد الجريد إلى بسكرة و زحف عليها عدة مرات ، غير أن يوسف بن المنصور يراوغه بالطاعة و يسلم له الجباية و يتحفه بالهدايا ، و ظل على ذلك الحال إلى أن نكب السلطان قائده في سنة 744هـ/1343م [3] .

كما استطاع يوسف بن المنصور من القضاء على ثورة علي بن أحمد زعيم الذواودة و سببها استئثار بني مزني بالجباية دون الذواودة ، فانقلبوا على بني مزني و حاولوا تحريض القبائل العربية عليهم، غير أن يوسف بن منصور استطاع القضاء على هذه الثورة بأن استمال ابن زعيم الذواودة

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 408 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع السابق ص 142 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج6 ص 408 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص143 ، حافظ علوي لحسن : المرجع السابق ص 276 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 409 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص143 ، حافظ علوي لحسن : المرجع نفسه ص 276 ، سميرة السقا : المرجع السابق ص 21 .

وهو يعقوب و تزويجه من أخته بنت المنصور بن مزني ، و كذا تقربه من أولاد سباع بقيادة سليمان بن علي و بذلك اضطر علي بن أحمد إلى العود لمحالفة بني مزني [1] .

و مما يدل على حكمة و دهاء يوسف بن منصور طريقة تعامله مع الغزو المريني الأول و الثاني للمغرب الأوسط و إفريقية ، إذ أنه تنقل إلى فاس و كتب بيعة أهل بلاده للسلطان المريني أبو الحسن الذي أكرم وفادته و أقره على حكم الأقاليم التي كانت تحت تصرفه وانطلق معه لغزو المغرب الأوسط و افريقية إلى أن تملك أبو الحسن تونس فرجع يوسف إلى بسكرة [2].

و زادت مكانة يوسف بن منصور عند بني مرين علوا خاصة بعد ثورة أهل إفريقية على أبي الحسن المريني ، إذ أنه بقي متمسكا بطاعته محافظا على إرسال المال له و داعيا له على المنابر إلى أن توفي أبو الحسن في 752هـ/1351م [3]، فبايع ابنه أبي عنان بإرسال كتاب بيعته ثم قدم عليه رفقة كاتبه أبو عبد الله محمد بن أبي عمر سنة 754هـ/1353م[4] .

و لما جهز أبو عنان حملة على إفريقية في 758هـ/1357م تلقاه يوسف بن منصور بقسنطينة فضمه السلطان إلى طبقات وزرائه ، في حين شيخ الذواودة يعقوب بن علي رفض ذلك و هو ما دفع بالسلطان المريني أبي عنان إلى تجهيز حملة على بلاد الزاب وما ورائها لتعقبه ، فخرب بلاد يعقوب بن علي و قطع أشجارها و هدم بنائها ، غير أن يعقوب بن علي توغل في الصحراء فعجز أبو عنان عن تعقبه فرجع و أقام بظاهر بسكرة و أقام هناك ثلاثة أيام على عاتق يوسف بن مزني [5] ، إذ تكفل بعلف جياد الجيش ، و أخرج الطعام من المخازن ، ثم رفع إلى السلطان قناطير من الذهب جباية سنة ، و قد استحسن أبو عنان هذا العمل فرد أن خلع عليه و على ولده الخلع المملوكية و كساهم بالملابس الفاخرة وأعطاه من الجياد أحسنها [6].

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 409 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص143 ، حافظ علوي لحسن : المرجع نفسه ص 275 .

[2] الحاج النميري : المصدر السابق ، ص 432.

[3] نفسه ، ص 432 ، ابن خلدون : العبر ،ج6 ، ص 410 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع السابق ، ص143 .

[4] الحاج النميري : المصدر نفسه ص 433 ، ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 411 .

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 411 .

[6] النميري : المصدر السابق ص 434 ، ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 411 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع السابق ص 144 .

بعد وفاة أبو عنان سنة 759هـ/1358م أعاد الحفصيون سيطرتهم على بجاية و قسنطينة فقام يوسف بن منصور بمراجعة البيعة و الطاعة لهم و بقي عليها إلى أن توفي في سنة 767هـ/1366م ، و خلفه ابنه أحمد بن يوسف بن مزني [1]، و ففي فترة حكمه قام السلطان الحفصي أبو العباس أحمد بإخضاع مدن الجريد و القضاء على الحركات الخارجية بها ، فانتقل شيوخها إلى بسكرة [2]،إذ تآمروا على مبايعة بني عبد الواد فزحف إليهم أبو العباس أحمد بعد أن تحالف مع بني سليم فتحالف رياح و الأثبج للدفاع عن بلاد الزاب و أمام هذا الوضع اضطر أبو العباس لمهادنة بني مزني [3].

و في سنة 804هـ/1402م سيّر السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ /1394-1434م) حملة على بسكرة ، فرأى أحمد بن يوسف أنه لم يبق له سوى أن يسلم أو الفرار فسلمها للسلطان و بذلك انتهت فترة حكم أسرة بني مزني على بلاد الزاب [4].

ما يمكن قوله عن هذه الإمارة أنها من بين الإمارات الصغيرة التي قامت في أرياف المغرب الأوسط ،وتعامل أمراؤها مع ما يحيطها بها بالكثير من الذكاء ، و ذلك أنها كانت تعلن التبعية للحفصيين في فترة قوتهم و للزيانيين للحد من خطر الحفصيين و مع المرينيين بعد سيطرتهم على كل بلاد المغرب في عهد أبو الحسن و ابنه أبو عنان ، و يمكن القول أنها استطاعت الاستمرار في ظل هذه الظروف ، فمثلا إذا قارنا بين هذه الإمارة و الدولة الزيانية فالأخيرة لم تستطع مواجهة هذه الحملات و زالت من الوجود أكثر من مرة قبل تجددها .

2-إمارة الثعالبة في متيجة :

ينتسب الثعالبة إلى عرب المعقل و هم من ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير ، و موطنهم بالمتيجة ، و قبل استقرارهم بها استقروا بجبل التيطري (أشير) غير أن سيطرت بني توجين على الونشريس دفعتهم إلى التوجه نحو سهول متيجة ، و استقر عرب حصين بالتيطري ، و كان كل من الثعالبة و حصين في خدمة بني توجين و يؤدون إليهم المغارم كما يساهمون بجيوشهم في قواتهم ، ثم

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 412.

[2] نفسه ،ج6 ، ص 412 ، الزركشي : المصدر السابق ص 102 .

[3] مصطفى أبو ضيف : المرجع السابق ص 144 .

[4] ابن قنفد : الفارسية ص198 ، الزركشي : المصدر السابق ص 122.

انتقلت تبعيتهم إلى بربر ملكيش المجاورين لهم بمتيجة ، و بعد سيطرت بني مرين على المغرب الأوسط قضوا على بربر ملكيش و بذلك استطاع الثعالبة السيطرة على سهول المتيجة [1].

و كانت للثعالبة مكانة خاصة عند الموحدين لكنهم لم ينالوها عند بني عبد الواد و الحفصيين، و هو ما دفعهم إلى مناصرة الثائرين على الدولتين و الغازين لها ، ومن ذلك أنهم ناصروا ابن علان لمّا ثار على الدولة الحفصية و أعلن استقلاله بمدينة الجزائر ، و قام بذلك معتمدا على الثعالبة الذين استطاعوا أن يطهروا مدينة الجزائر من العائلات الكبيرة التي يمكن لها أن تنافس ابن علان على حكم المدينة ، و لهذا قام السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) سنة 712هـ/1312م بحملة عسكرية على متيجة و أخضعاها و حاصر مدينة الجزائر و استطاع أن يضمها إلى أملاكه [2] .

كما أنهم أثناء الغزو المريني لتلمسان في سنة 770هـ / 1368م حالفوهم و وقفوا معهم ضد بني زيان [3] ، و كانت المتيجة وطن الثعالبة مكان منيع للثائرين ، ومن ذلك أنه لما ثار خالد بن صغير بن عامر زعيم بني عامر على الدولة الزيانية سنة 777هـ/1375م و انهزم أمام قواتهم لجأ إلى زعيم الثعالبة سالم بن إبراهيم الذي لم يتردد في نصرته لحنقه على أبو حمو موسى الثاني(760-791هـ/1359-1389م) [4] ، و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل اتفق كل من خالد بن صغير بن عامر و سالم بن إبراهيم على استدعاء الأمير أبو زيان الذي كان بوطن رياح ، و بايعوه و مكنوه من مدينة الجزائر و المناطق القريبة منها ، بل و حاولا استنهاض كل العرب الموجودين في المغرب الأوسط على مبايعته ، و بذلك تمكن أبو زيان من الاستيلاء على تنس و مستغانم و مزغران ووهران، و أمام هذا الوضع حاول أبو حمو موسى الثاني التقرب من سالم بن إبراهيم زعيم الثعالبة و منحه الأمان و أقره على زعامة قومه الثعالبة مقابل التخلي عن أبي زيان و طرده من بلاده [5].

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج6 ص 64 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع السابق ص 163 .

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج7 ، ص 100-101 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 163 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 134 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ص 229 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 163 .

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ج6 ص 54 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 163 .

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج6 ص 54 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 164 .

هذه الأعمال التي قام بها أبو حمو مع سالم بن إبراهيم كانت بغرض درء خطر أبو زيان فقط ، إذ بحلول فصل الشتاء (عودة الكثير من العرب أحلاف الثعالبة إلى الصحراء) قاد الجيش الزياني حملة على المتيجة فهربت الثعالبة إلى الجبال ، و تحصن سالم بن إبراهيم بجبل بني خليل فاقتحمه أبو حمو، ففر سالم إلى بني ميسرة بجبال صنهاجة ، غير أن أبو حمو تمكن من القبض عليه بعد أن أعطاه الأمان ، و رجع به إلى تلمسان و قتله هناك في سنة 779هـ /1378م ، و واصل مطاردة من بقي من الثعالبة فقتل و سبى الكثير منهم و دخل من بقي تحت سلطته [1].

تعتبر إمارة المتيجة من الإمارات الصغيرة التي لم تتمكن من مواجهة الدولة الزيانية ، فرغم أنها كانت تحاول المحافظة على نفسها من خلال مناصرة الثائرين على الدولة الزيانية إلا أنها افتقدت للقوة التي بها تستطيع حماية نفسها ، إذ و بمجرد رجوع أحلافهم من العرب إلى الصحراء تمكن السلطان الزياني من القضاء على إمارتهم .

3-إمارة بني توجين :

يرجع أصل بني توجين بن بادين إلى قبيلة زناتة سكنوا على ضفاف وادي شلف قبلة جبل وانشريش من أرض السرسو ، وكانت منطقة السرسو تسكنها بطون من لواتة ثم استطاع بنو وجديجن ومطماطة التغلب عليها فملكوها ، و تمكن بنو توجين من السيطرة عليها فضموها إلى نفوذهم وبذلك توسعت أملاكهم فصارت ما بين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة [2] ، من أشهر بطون بني توجين بنو مدن و تندرج تحته بنو يدللتن وبنو نمزي وبنو مادون وبنو زنداك وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت ، و بطن بني رسوغين و يضم بنوتيغرين وبنو يرناتن وبنو منكوش و هناك من نسب إليهم بني زنداك دخيل غير أن ابن خلدون يرى أنهم من بطون مغراوة [3] .

و كان بنو توجين عند انقراض دولة الموحدين تحت إمرة عبد القوي بن العباس بن عطية الحيو الذي " صار له ملك بدوي لم يفارق فيه سكنى الخيام و لا إبعاد النجعة ولا إيلاف الرحلتين ينتهون

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ج6 ص 65 ، ج7 ص ص 137، 139 ، مصطفى أبو ضيف : المرجع نفسه ص 164 .
[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ج7 ص 154 .
[3] نفسه ص ،ج7 155 .

في مشاتيهم إلى مصاب والزاب وينزلون في المصايف بلادهم هذه من التل ولم يزل هذا شأن عبد القوي وابنه محمد إلى أن تنازع بنوه الأمر من بعده وقتل بعضهم بعضا "[1] .

و عانت هذه الإمارة في سبيل فرض نفسها في الخارطة السياسية للمغرب الأوسط كإمارة ريفية ، فكانت عرضة للحملات الزيانية و الحفصية و المرينية ، و سنحاول هنا الحديث عن أهم الحروب التي خاضتها هذه الإمارة من أجل تثبيت نفسها في المغرب الأوسط ، و الحملات التي تعرضت لها من أجل استئصالها .

ومن ذلك أنه أثناء حملة السلطان الحفصي أبو زكرياء يحي عبد الواحد (626-647هـ/1228-1250م) على تلمسان سنة 639هـ /1242م [2] استطاع التغلب على مواطن بني توجين واستطاع أن يقبض على زعيمهم عبد القوي بن العباس ثم منّ عليه و أطلق سراحه ليكسب قلوب بني توجين الذين صاروا بذلك من شيعته و عقد له عليهم " وأذن له في اتخاذ الآلة فكانت أول مراسم الملك لبني توجين هؤلاء "[3] .

و بقي بنو توجين على ولائهم لبني حفص و يظهر ذلك جليا في نصرتهم لهم أثناء نزول النصارى على السواحل التونسية في سنة 668هـ /1270م ، إذ قام محمد بن عبد القوي بتجيش قومه و نزل بهم على السلطان الحفصي المستنصر(649-675هـ /1251-1276م) و قد أبلوا بلاء حسنا في مواجهة النصارى ، و كجزاء لذلك قام السلطان الحفصي بإقطاعهم بلاد مغراوة وأوماش ببلاد الزاب [4].

أما علاقاتهم مع بني عبد الواد فكانت تتحكم فيها الظروف ، فقد ساعد بنو توجين بني عبد الواد في سنة 647هـ /1250م في حملتهم على المغرب الأقصى غير أن هذه الحملة كان مصيرها الفشل و انهزمت جيوش بني عبد الواد و حلفائهم أمام بني مرين ، و برجوع بني توجين إلى ديارهم

---

[1] نفسه ،ج7 ص 155 .

[2] يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ، ص 205 ، ابن قنفد : الفارسية ، ص 109 ، ابن الشماع : المصدر السابق ، ص 59 .

[3] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 156.

[4] نفسه ص 157 .

هلك عبد القوي و خلفه ابنه يوسف الذي لم يدم حكمه سوى أسبوع ، إذ قام أخوه محمد بقتله وبذلك استطاع السيطرة على بلاد توجين [1].

و كان للزعيم الجديد شخصية قيادية جعلته يرفض في بداية حكمه الانصياع لبني عبد الواد ، فقام يغمراسن بن زيان سنة 649هـ/1251م بتجهيز حملة عليهم و حاصرهم ثم دعا زعيمهم إلى السلم و مساعدته لغزو بني مرين فقبل بذلك ، فجهزوا حملة على المغرب سنة 657هـ /1259م غير أن يعقوب بن عبد الحق تمكن من هزمهم فرجعوا إلى المغرب الأوسط [2] .

بعد هذا الصفاء في العلاقة توترت العلاقات من جديد بين بني عبد الواد و بني توجين ففي سنة 659هـ /1261م جهز بنو عبد الواد حملة على بني توجين و بدعم من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق (656-685/1258-1286م) و قاموا بمحاصرتهم في أوطانهم غير أن السلطان المريني طلب من بني عبد الواد رفع الحصار عن بني توجين رفعا للكلفة [3].

و تغير الوضع فبعد التحالف العبد الوادي المريني ضد بني توجين جاء التحالف بين بني توجين و بني مرين على بني عبد الواد ، إذ في سنة 670هـ /1271م جهز السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق حملة عسكرية على تلمسان و قدم بنو توجين العون للمرينيين في هذه الحملة ، إذ ساروا من مواطنهم بالونشريس في اتجاه تلمسان و سيطروا على البطحاء و المناطق الواقعة شرق تلمسان إلى أن التقوا بالجيش المريني بالقرب منها و ساعدوه في حصارها ، ثم أذن لهم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالرجوع إلى مواطنهم بعد أن أكرمهم بالكثير من الهدايا [4].

و لم تنته العداوة بين بني عبد الواد و بني توجين بوفاة يغمراسن بن زيان بل تواصلت في عهد خلفه ، إذ جهز أبو سعيد عثمان الأول (681-703هـ /1282-1303م) حملة عليهم في ذي الحجة 781هـ /1282م انتهت بضمه للونشريس و المدية و بمقتل زعيمهم محمد بن عبد القوي [5]،

---

[1] نفسه ص 156 .

[2] نفسه ص 156 .

[3] يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 207 .

[4] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 157 .

[5] التنسي : المصدر السابق ، ص 129 ، غير أن ابن خلدون يرى أن هذه الحملة كانت في سنة 682هـ /1283م ، و يختلف أيضا مع التنسي في أن هذه الحملة انتهت بوفاة ملك بني توجين حيث يذكر أنه توفي في سنة 684هـ /1285م ، ابن خلدون : المصدر نفسه،ج7 ص 158 .

و بوفاته بدأ بنو توجين في الضعف بسبب التنافس الذي حصل بينهم حول الرياسة ، فقد ولي بعده ابنه سيد الناس الذي لم تطل مدة ولايته ، إذ قام أخوه موسى بن محمد بقتله وتولى الأمر بعده ، وحاول إخضاع كل بني توجين بالقوة ومن ذلك أهل مرات " و هم من اشد أهل وطنه شوكة وأقواهم غائلة ... فأجمع لذلك و نزلها و نذروا بشأنه و رأيه فيهم فاستماتوا جميعا و ثاروا به فقاتلهم ، ثم انهزم مثخنا بالجراحة " فكانت سبب وفاته ، و ولي بعده عمر بن إسماعيل بن محمد و دام حكمه أربع سنوات إذ غدر به أبناء عمه زيان بن محمد فقتلوه و ولوا مكانه كبيرهم ابن زيان [1].

و كان لهذا الصراع على الرئاسة نتائج سلبية على إمارتهم ، إذ استغل السلطان أبو سعيد عثمان عدم الاستقرار و وجه عدة حملات على بلادهم منها حملة سنة 686هـ / 1287م حيث حاصرهم في جبل الونشريس و عاث في بلادهم خراب ثم رجع إلى تلمسان [2]، ثم جهز حملة جديدة في شهر ربيع الثاني 688هـ /1289م و التي كان من نتائجها السيطرة على المدية [3] ، كما غزاهم في ربيع الثاني سنة 690هـ /1291م و استطاع أن يقتل ملكهم و يصادر أموالهم [4] ، و أمّر عليهم أبو بكر بن إبراهيم بن محمد و الذي حكمهم سنتين و أساء فيهم السيرة و بوفاته تشتت كلمة بني توجين حول من يعينوا أميرا عليهم فبايع بنو تيغرين أخاه عطية المعروف بالأصم ، في حين بياع أولاد عزيز و جميع قبائل بني توجين يوسف بن زيان بن محمد [5] .

و كان لذلك أثار سلبية على بني توجين إذ تعرضوا لحملة جديد من السلطان أبو سعيد عثمان في سنة 698هـ /1298م الذي أخضع الكثير من مناطقهم ، ثم رجع إلى تلمسان بسبب وصول أخبار بتجهيز بنو مرين حملة عليها [6] ، غير أن هذه الحملة لم تجمع كلمة بنو توجين فعمل أولاد عزيز ومن معهم من بني توجين على محاصرة عطية و بني تيغرين في جبل الونشريس لعام أو أكثر فقام يحي بن عطية كبير باستنجاد ببني مرين المحاصرين لتلمسان ورغبهم في ملك جبل الونشريس ، فسير السلطان المريني يوسف بن يعقوب (685-706هـ/1286-1306م) جيشا

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ،ج7 ص 158 .
[2] نفسه ص158 .
[3] نفسه ص 159 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ، ص 208 .
[4] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص 209 .
[5] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 159 .
[6] يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1ص 209 .

تحت إمرة أخيه أبي سرحان و كان ذلك سنة 701هـ/1301م و تمكن من ضم بلاد توجين فقدم عليه أهلها وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي و جعل يحي بن عطية وزيرا له و بوفاة علي بن الناصر عين محمد بن عطية الأصم أميرا عليهم [1] .

و اشتدت وطأت بني عبد الواد على بني توجين بعد أن فك بنو مرين الحصار على تلمسان إذ جهز السلطان أبي زيان محمد (703-707هـ/1303-1307م) حملة في ذي القعدة 706هـ/1306م نجح فيها بالسيطرة على مواطنهم و أرجعهم إلى طاعته ، و بذلك بايع بنو توجين أبو زيان محمد [2].

كما جهز السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) حملة جديدة عليهم في سنة 710هـ/1310م فاستطاع السيطرة على مواطنهم فأطاعوه ، غير أنه أدرك أنه بمجرد الإجلاء عنها يكون نقض الطاعة على ما عهد عنهم فأخذ منه رهائن ليبقوا على الطاعة [3].

و بقي بنو توجين على طاعتهم لبني عبد الواد و يظهر ذلك أثناء سيطرت أبو الحسن المريني (731-752/1330-1351) على تلمسان، وبعد عودة السلطان أبو سعيد (749-753هـ/1348-1352م) وأخوه أبو ثابت من تونس سنة 749هـ/1348م إذ بايعته بنو توجين على المناصرة عند الحاجة [4].

لكن الذين كانوا تحت إمرة عدي بن يوسف قاموا بنقض العهد و بايعوا السلطان المريني أبو الحسن بعد نزوله بالجزائر من جهة البحر(في فترة خروج ابنه أبو عنان عنه و سيطرته على الدولة المرينية) فقام السلطان الزياني أبو سعيد بإرسال أخيه أبي ثابت سنة 751هـ/1350م على رأس جيش لمقاتلة من نقض بيعته من بني توجين غير أنهم استنجدوا بأبي الحسن المريني ، و حلت الهزيمة بأبي الحسن و من معه من بني توجين [5] .

---

[1] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 159 .

[2] يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 212 .

[3] نفسه ، ص 213 ، التنسي : المصدر السابق ، ص 136 .

[4] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 236 ، التنسي : المصدر نفسه ص 150 .

[5] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ص 243 ، التنسي : المصدر نفسه ص 151.

و خرج بنو توجين عن طاعة بني زيان و دخلوا في طاعة بني مرين في أثناء حصار أبو عنان المريني (749-759هـ /1348-1357م)لتلمسان (753-760هـ/1352-1359م) لكن لما قام أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م)بإحياء الدولة جهز حملة في سنة 760هـ/1359م لرد من خرج عن طاعة بني زيان و منهم بنو توجين الذين خضعوا له [1] ، و بقوا تحت حكمه و طاعته ، إلا أن خرج عن أبي حمو ابن عمه يوسف بن يغمراسن ، فعمد بطن أولاد عزيز إلى مبايعته ، ثم عملوا على لم شمل قبائلهم تحت رايته فانضم إليهم بنو تيغرين ومنكوشة و بني يزناتن و زحفوا مع محمد بن يوسف بن يغمراسن على معسكر أبي حمو سنة 761هـ /1360م واستطاعوا أن يحدثوا اضطرابا في المعسكر غير أن أبا حمو استطاع إعادة لملمة جيوشه وهزيمة محمد بن يوسف ومن معه ، و قد بقي حال بني توجين بين الطاعة و العصيان مع بني زيان [2] .

نستنج من خلال حديثنا عن هذه الإمارة أنها كانت تعد من الإمارات الصغيرة التي لم يتعد في كثير من المرات مجالاها الجغرافي جبل الونشريس ،كما أن هذه الإمارة كانت تتعامل بمنطلق مصلحي محض من أجل المحافظة على نفسها ،كما نلاحظ أيضا أنه و رغم صغر هذه الإمارة و ضعفها فقد احتدم الصراع بين قادة هذه القبيلة من أجل السيطرة على حكمها و هو ما أدى إلى قتل الأخ لأخيه ، و كانت هذه الإمارة ترى في الدولة الزيانية هي العدو الأول و لهذا نراها تحالفت مرات مع الدولة الحفصية و احتمت بها ، كما تحالفت أيضا مع الدولة المرينية من أجل حماية نفسها ، و إذا أردنا البحث عن سبب هذا الصراع مع الزيانيين رغم الانتساب إلى عصبية واحدة وهي عصبية زناتة فربما يكون السبب هو التماس الجغرافي الموجود بينهما فالزيانيون كانوا يحاولون بسط نفوذهم على كل المغرب الأوسط و بني توجين كانوا يرفضون الخضوع ، و الذي قد يكون سببه اقتصادي محض كون السيطرة على هذه المناطق يعني الحصول على مناطق رعوية و زراعية جديدة للمتغلب ، بينما المنهزم يكون خاسر لهذه المناطق ومن ثم يعاني الإقصاء و ربما عليه الفرار إلى مناطق قاحلة و المقصود هنا الصحراء .

---

[1] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص 61.

[2] ابن خلدون : العبر ، ص 127 ، يحي بن خلدون : المصدر نفسه ص 79.

الفصل الثاني :

مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية :

عرفت بلاد المغرب في العصر الوسيط الكثير من التغيرات الاجتماعية و التي سيكون لها تأثيرا مباشرا على الحياة الاجتماعية في حد ذاتها وعلى الحياة السياسية و الاقتصادية و الثقافية أيضا ونقصد بالتغيرات الاجتماعية تعرض بلاد المغرب إلى الكثير من الهجرات و خاصة العربية والأندلسية.

المبحث الأول : عناصر السكان في أرياف المغرب الأوسط :

تعددت الأعراق في بلاد المغرب في العصر الوسيط ، وهو تنوع لم يكن منتشرا في المدن المغربية فقط بل شمل حتى الأرياف و البوادي المغربية ، و تعايشت هذه الأجناس المختلفة في أكثر الفترات لكن هذا لا ينفي وجود بعض الفترات التي شهدت اضطرابات بسبب الاختلاف العرقي ومن أهم عناصر السكان :

البربر :

هم السكان الأصليون لبلاد المغرب و قد تحدث ابن خلدون في كتاب العبر عن البربر و عن المواطن التي سكنوها في بلاد المغرب بشيء من التفصيل كما تحدث عن مناطق تواجدهم كل الذين درسوا الحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط و لذا اعتبرنا أن الحديث عنهم يعتبر إعادة لما سبق لا فائدة منه .

العرب :

هم الذين قدموا إلى بلاد المغرب مع الفتوحات الإسلامية ثم كانت الهجرات الكبرى مع الهجرة الهلالية ، و لا يختلف حالهم عن البربر فقد نالوا نصيبهم من الكتابة التاريخية و لذا ارتأينا عدم تكرير ما سبقني إليه الكثير من المؤرخين .

لكن ما هو مغيب في الحديث عن العرب هل تواجد الشرفاء في أرياف المغرب الأوسط ؟ ومن ثم رأينا أنه يتحتم علينا الإشارة إلى تواجد فئة مهمة من العرب في أرياف المغرب الأوسط و استوجب تتبع مناطق تواجدها و مكانتهم في المجتمع الريفي .

اعتبر الشرفاء من الفئات الاجتماعية الفاعلة في المجتمع ثقافيا وسياسيا واجتماعيا وهو ما دفع ببني مرين إعادة الاعتبار للأشراف فالبيعة لم تكن تنعقد إلا بحضور نقيب الأشراف[1] ،و الزيانيون يعتبرون أنفسهم من الأشراف إذ ينتسبون إلى البيت العلوي ، و هو ما دفع بمحمد بن عبد الله التنسي إلى تأليف كتابه المشهور نظم الدرر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، و الذي حاول فيه

---

[1] علي الإدريسي :جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون :مقال في الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون ،تنسيق بناصر البعزاتي ، ط1،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 2007 ،ص20.

إثبات النسب الشريف لهؤلاء و تكلم عن عدة أمراء مبينا نسبهم الشريف [1]،و أطنب التنسي أثناء حديثه عن الأمير الزياني المتوكل و قال أن " حصول الشرف له من جميع أبويه " ، " و لم ينل الخلافة من أبواه هاشميان إلا علي بن أبي طالب و الأمين بن الرشيد ، فمولانا المتوكل ثالثهما في هذه الخـــاصية الشريفة " [2] .

يعتبر الزيـــانيون أنفسهم من شرفاء ، و من ثم عمدوا إلى الاحتفال بالمولـــد النبوي الشريف ، و كـــان من الأيام المشهودة في عهدهم و تقام له احتفالات خـــاصة " فوق ســـائر المراسيم يقيم مدعـــاة يحشر لها الأشراف و السوقة "[3] ،و تكرر ذلك على زمن كل الأمراء [4]، و لم يختلف الحال عند المرينيين فقد أقروا الاحتفال به منذ 691هـ/1291هـ وأصبح عيدا من الأعياد الرسمية [5] ، وما دامهم عظموا المولد النبوي و سنوا الاحتفال به ، فيمكن أن يكونوا نقلوا هذه الاحتفالات الرسمية إلى المغرب الأوسط في وقت سيطرتهم عليه ، و من ثم أخذ الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب الأوسط طابعا رسميا على العهد الزياني وقت السيطرة المرينية، لكن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك احتفالات به من قبل ، فهي دخلت إلى بلاد المغرب مع الفاطميين ثم بعد القطيعة المذهبية كان هناك رفض لكل ما هو فاطمي .

كانت للشرفاء مكانة مرموقة ومن ذلك أن العالم سيدي إبراهيم التازي كان ينوه بقدرهم وينبه إلى رفعة مكانهم ، ويقول لأصحابه تعظيم أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من تعظيمه لأن حرمته صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا ، وأنه لما بنى زاويته قام بجعل غرفة في أعلى المدرسة المعدة لطلب العلم وعينها لولدين من أهل البيت ورتب لهم ما يجب من حق الضيافة و عرف هذا البيت ببيت الشرفاء ، ويروي لنا ابن صعد التلمساني واقعة كان فيها شاهد عيان قال : " حضرت

[1] المصدر السابق .
[2] التنسي : المصدر نفسه ص 256.
[3] نفسه ص 162.
[4] نفسه ص 162، 186، 196، 212. 236. ..
[5] السلاوي : المرجع السابق ،ج3 ص91.

يوما بوهران وقد قدم الزاوية شاب من أولاد الشرفاء برسم التجارة فتقدم إليه عامل الزاوية لينزله بمحل كرامتهم من المدرسة " [1].

كما أنه جاء أحدهم ليشتكي إلى الشيخ سيدي أحمد الغماري أحد الشرفاء تعدى عليه في مرتبه ، فقال له الشيخ اجعله في حل ، فامتنع الرجل وقال والله يا سيدي لا أترك مرتبي وأنا بحاجة إليه ، فقال الشيخ ما قلت " لك إلا ما ينفعك كيف لا تجعله في حل ونحن غدا إذا وقفنا بين يدي الله لا نرجو وسيلة عند الله سوى شفاعة جده عليه السلام "[2] .

و جاءت مجموعة من الشرفاء إلى الشيخ سيدي أحمد الغماري من موطنهم ببلاد مغراوة من بلاد الشلف يشكون الشيخ من جور عاملها و أنه أنقص من قيمتهم وأهاليهم عن غيرهم من الرعية، فاشتد غضب الشيخ لذلك وبعث إلى الخليفة و طلب منه أن يكتب للعامل يؤكد فيه على الشرفاء ، فلما وصل رسول الشيخ إلى الخليفة وسمع منه ، قال له أعلم الشيخ أني عزلت العامل لإهانته للشرفاء وسأتقدم لمن يخلف هذا العامل بتوصيته خيرا بالشرفاء [3].

وكان لتنامي الظاهرة الشريفية في أرياف المغرب الأوسط آثار بعيدة المدى خصوصا مع تصدع السلطة المركزية ممثلة في الحفصيين و الزيانيين و المرينيين منذ مطلع القرن 09هـ / 15م ، وهو ما جعل هذه الأخيرة (السلطة على اختلافها) تتقرب من الأشراف لمحاولة احتوائهم واستثمار نفوذهم المعنوي، وهكذا أصدرت العديد من الظهائر تتيح لهم حق الانتفاع بأملاكهم الموقوفة ، وهو ما وجدناه في ظهير أصدره الأمير الحفصي أبو يحي زكرياء إلى الشيخ أبي عبد الله بن إدريس بن محمد بن مسعود يثبّت فيه أملاك الزاوية ، وهو مؤرخ في ذي القعدة 888 هـ / 1483م [4] .

---

[1] روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين ، مراجعة و تح يحي بوعزيز ، ط1 ، منشورات ANEP، و المطبعة الحديثة IMAG للفنون المطبعية ، الجزائر ،2004 ص 162-163.

[2] نفسه ص 232

[3] نفسه ،ص233

[4] وصف الظهير :يذكر الشيخ الزبير حمادوش وهو الشيخ الحالي لزاوية قجال أن الموكلين بشؤون الزاوية بعد الاستقلال قد سلّموا للشيخ المهدي البوعبدلي ملفا به عدد من المخطوطات والوثائق المتعلقة بتاريخ الزاوية وأوقافها، وللأسف فإن الشيخ البوعبدلي لم يقم بإرجاع الملف المذكور للزاوية (أنظر : الزبير حمادوش : سيرة العالم الشهيد عبدالحميد حمادوش، دراسة مخطوطة ، ص 25.)، ولا شك أن ذلك الملف هو نفسه الذي استفاد منه المستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسينيون في إعداد دراسته عن السبع رقود بقجال سنة 1954 والتي نشرها بمجلة الدراسات الإسلامية الفرنسية (Louis Massignon, Les Sept Dormants d'Éphèse

و ما يلاحظ على الظهير إغفال الإشارة إلى شرف أصحاب الزاوية حيث لم ترد كلمة الشريف أو الحسني أو الإدريسي أو أي عبارة مشابهة عند ذكر هؤلاء، وذلك رغم حصولنا على شجرة النسب الشريف لهذه الأسرة، وكذا ماذكره ماسينيون الذي اطلع عند زيارته للزاوية سنة 1954 على مخطوط قال أن به عشر صفحات وخطه دقيق جدا يروي سيرة مشايخ الزاوية وسلسلة نسبهم الذي ينتهي إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كما ذكر أن المخطوط يحمل توقيع القاضي المعروف أبو بكر بن العربي في القرن الخامس الهجري [1].

ومهما يكن فإن السلطة الحفصية عاملت المرابطين والأشراف معاملة متماثلة مع بعض الحظوة التي خصت بها أهل البيت، فقد جاء في المؤنس أن الأشراف كانوا يحضون بالكرم والإحسان في الدولة الحفصية خصوصا في عهد السلطان أبي عمرو عثمان، حيث " كان يكرم أهل البيت النبوي ويحسن إليهم ."[2]

ويضيف ابن أبي دينار أنه كان " لنقيب الأشراف عادة يأخذها من السلطنة من زيت وشمع وما يحتاج إليه وهذه العادة جارية من زمن بني حفص ودامت إلى هذه الدولة (أي الدولة المرادية بتونس) عليها " .[3]

و سعت بعض العائلات البحث عن بركة الشرفاء ، فسعوا خاصة في مناسبة الزواج إلى مصاحبة الشرفاء أثناء الخطبة بصفتهم بضع من رسول الله ومن سلالة آل البيت وغالبا ما كانت وساطة الأشراف تأتي بأكلها ويتم التفاهم والاتفاق بين الأسرتين المتصاهرتين [1].

(Ahl al-Kahf) en Islam et en,revue Chrétienté des études islamiques, Paul Geuthner, Paris, 1955 pp 79-84).

ولحسن الحظ فقد تمكن الشيخ الزبير حمادوش من جمع عدد من الوثائق حول أوقاف الزاوية في مختلف العصور، وقد أتيحت لنا فرصة الحصول على هذه الوثيقة، وهي وثيقة عائلية ضمن ملف يضم مجموعة هامة من الوثائق، وخط هذه الوثيقة مغربي مقروء إلا في بعض المواضع التي أتت عليها عوامل الزمن من رطوبة وأرضة ، وبالتالي حرمتنا من إمكانية قراءة الوثيقة كاملة ومع ذلك فقد تمكنا من قراءة غالبية ما جاء فيها.أنظر صورة الوثيقة ملحق رقم 04

[1]- Louis Massignon : Opcit , p 83

[2]ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة النهضة ، تونس 1350 هـ/ 1922 م ص 157

[3]ابن أبي ينار : نفسه ، ص 307

ورغم وجود هذه الهالة الكبيرة للشرفاء ، إلا أن هناك من تجرأ على الشرفاء بالسب ، و قد أورد الونشريسي في المعيار حادثة وقعت بتلمسان سنة 843هـ/1439م كانت بين الفقيه أبي العباس أحمد بن عيسى البطيوي و الشريف أبي الفرج بن السيد أبي يحي حول تقسيم تركة رجل ميت انتهت إلى السب بين الفقيه و الشريف حتى قال الفقيه ابن عيسى للشريف إن " أبوك هو الكلب ابن الكلب العار بن العار و أبو أبيك " و أثارت هذه الحادثة العلماء و دفعت إلى استهجان سب آل البيت رغم وجود إفراط وتفريط من الفقيه و الشريف على حد سواء[2].

الأندلسيون :

يعتبر الوجود الأندلسي في المغرب الأوسط ضعيفا إذا ما قورن بالمغرب الأقصى و المغرب الأدنى، و السبب يرجع إلى أن الدولة الزيانية لم تكن قادرة على أن توفر لنفسها المجال الجغرافي الضروري وتحميه ، و هو ما يختلف مع طموح الأندلسيين الذين سعوا إلى البحث عن مكان يستطيعون فيه فرض طموحاتهم السياسية و العلمية و الاقتصادية[3].

و في البداية كانت غرناطة وجهت للأندلسيين القادمين من المناطق التي سقطت في يد الإسبان مثل قرطبة 633هـ/1235 و بلنسية 636هـ/1238 و مرسية 666هـ/1266 ومن غرناطة الوجهة إلى بلاد المغرب ، و سبب الهجرة إلى بلاد المغرب الاستقرار السياسي نسبيا مقارنة ببلاد الأندلس ، و كذا سياسية التشجيع التي تلقاها الأندلسيون إثر قدومهم إلى بلاد المغرب و هو ما كان حافزا لإبراز خبرات الطبقة المثقفة من العلماء و بعض الحرفين و الصناع [4] .

و كان لهذا الانتقال دور فعّال في حدوث احتكاك حضاري و فكري و اجتماعي بين سكان بلاد المغرب و المهاجرين ، و هو ما يظهر جليا في طريقة لباسهم و عيشهم و تقاليدهم في المأكل [5]، و إن كانت كل بلاد المغرب قبلة للمهاجرين الأندلسيين فقد عُرفت مناطق بأكملها على أنها مناطق

---

[1]. أحمد الطيب العلج : من طور البداية إلى حصن الرجولة ، مقال في كتاب العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، مقال في العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2000 ص226

[2] الونشريسي : المعيار ، ج2 ص ص 140- 147 .

[3] محمد رزوق : دراسات في تاريخ المغرب ، ط1 ، إفريقيا الشرق ، 1991 ص 49 .

[4] محمد الحبيب بن الخوجة : الهجرة الأندلسية إلى افريقية في القرن 7 هـ / 13م ، الكراسات التونسية ،كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، تونس ، العدد 69-70 ، السنة 1970 ص 130 ،131 .

[5] ATALLAH DHINA : les états de l’occident musulman aux 13 ,14 ,15 siècles , institutions gouvernementales et administratives ,office des publications Universitaires , Alger , P 183 .

أندلسية في أرياف المغرب الأوسط ومن ذلك منطقة أرشكول و التي يقول عنها الحسن الوزان أنها "خلت من السكان لسنوات عديدة قاربت المائة و العشرين سنة حتى عمرها قوم من الأندلس غير أن هؤلاء طردوا أو قتلوا من قبل قبائل صنهاجة و مغراوة "[1]، ما يلاحظ هنا أن هذه المنطقة استقطبت جالية أندلسية في فترة سابقة للفترة المدروسة غير أن استأنسنا بهذا النص لنثبت و جود الجالية الأندلسية في المنطقة ، ثم يقول الوزان أنهم قتلوا أو طردوا و هو ما يدفع إلى التساؤل هل كل من كان في المنطقة ونجا من القتل عاود الرجوع إلى الأندلس ، و هو ما يدفعنا إلى القول ربما يكونوا قد اندمجوا في المجتمع المغربي و تزاوجوا مع سكان البلاد ، وحتى كلمة طردوا تحمل في طياتها انتقالهم من هذه المنطقة إلى مناطق قريبة منها .

كما تواجد الأندلسيون في شرشال و قصدوها بعد سقوط غرناطة في يد المسيحيين و حين دخلوها وجودها خراب فأعادوا بنائها [2].

ومن مناطق تواجدهم بجاية و هو ما يفهم من كلام الغبريني أثناء حديثه عن أبو بكر محمد بن محرز[3] " كان رأس الجالية الأندلسية ببجاية ، كل كان يأتي إلى منزله وعنده مجتمعهم أبو عبد الله الآبار و أبو المطرف بن عميرة و أبو بكر بن سيد الناس و أبو عبد الله الجنان و غيرهم كان هو شيخ الجماعة و كبيرهم " [4] ، يحتمل أن تكون جالية أندلسية خارج بجاية و المناطق المحيطة بها و سبب الاحتمال كون المصادر لما تتحدث عن بجاية تتحدث عن المدينة و عن الضواحي ، و لكن يبقى الاحتمال ضعيفا لأننا لم نجد مايشير إلى ذلك في هذا النص .

أهل الذمة :

اليهود :

[1] المصدر السابق ، ج2 ص 16 .

[2] نفسه ،ص 34 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 356.

[3] من العلماء الأندلسيون الذين سكنوا بجاية كانت وفاته675هـ/1277م الغبريني : المصدر السابق ، ص 135.

[4] نفسه ، ص 135 .

يعد اليهود من أقدم الفئات الاجتماعية في بلاد المغرب ، حيث قدموا إليها مع الفينيقين على شكل هجرات متعاقبة ، ثم قدموا بعد اضطهاد الرومان لهم ، و بفعل هذه الهجرات استطاعوا تهويد بعض القبائل البربرية و خاصة قبيلة جراوة و قبيلة مديونة [1] .

تزايد عدد اليهود في المغرب الأوسط في عهد الموحدين بسب اضطهاد مسيحيي اسبانيا لهم[2]، و يكون الاعتقاد السائد أن استقرار اليهود كان في المدن فقط دون الأرياف لكن أكد برنشفيك أن اليهود استقروا في غير المدن وذلك بناءً على بعض الوثائق فقد أكد أن منهم الرحل " القاطنين تحت الخيام " في جنوب المغرب الأوسط ، كما أقر بوجود طائفة يهودية في بسكرة و في تقرت في القرن التاسع الهجري [3] ، و لم يكن توافد اليهود على بلاد المغرب من الأمور الشاغلة للبال سواء على المستوى الشعبي أو على المستوى الرسمي ، إذ اعتبر قدومهم مبشرا على المستوى الاقتصادي بفضل ما جلبوه معهم من أموال و من نشاط تجاري ، كما اعتبروا موردا جديدا من موارد الجباية (الجزية) [4] .

ورغم هذا التسامح فقد كانت كتب الحسبة تشدد على أن يميزوا عن المسلمين ، وذلك بإجبارهم على لبس الغيار و تعليق الرقاع و الزنار الذي يكون على شكل قرد و كل من ينزع ذلك يعاقب بالضرب و الحبس و يطاف به في موضع اليهود ليكون ذلك تحذيرا و زجرا لهم ، و يكون الضرب موجعا و بالغا و الحبس طويلا [5]، وفي العهد الموحدي أمر أبو يوسف يعقوب(580-595هـ/1184-1198م) أن يميز اليهود بلباس يختصون به دون غيرهم ، و كانت ثيابهم سوداء و أكمامهم متسعة تصل إلى أقدامهم و يضعون على رأسهم كلوتات تصل إلى تحت أذانهم " كأنها البراديع " ،وبقي هذا اللباس طوال عهده و بعض عهد ابنه محمد الناصر (595-610هـ/1198-1213م) حيث غيروا لباسهم بعد أن توسلوا إليه بكل الوسائل ، فأمرهم بلبس ثياب صفر وعمائم صفر، و سبب إقدام الخليفة الموحدي على ذلك شكه في إسلامهم و هو ما يفهم من قوله " لو

---

[1] جورج مارسي : المدن الفن الشهيرة تلمسان تر سعيد دحماني ، مطبعة موقان ، البليدة ،2004 ، ص 100 ، عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ،ج1 ، ص193.

[2] جورج مارسي : المرجع نفسه ص 100 ، عبد العزيز فيلالي : المرجع نفسه ج1 ص193

[3] روبار برونشفيك ، المرجع السابق ، ج1 ص 432.

[4] نفسه ص433 .

[5] يحي بن عمر :أحكام السوق بقلم محمود مكي ،فصلة من صحيفة المعهد المصري ،الشركة التونسية للنشر و التوزيع ص 128.

صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم و سبيت ذراريهم و جعلت أموالهم فيئا للمسلمين ، ولكني متردد في أمرهم ، ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي و لا نصراني و لا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة و لا كنيسة ، إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام و يصلون المساجد و يقرئون أولادهم القرآن ، جارين على ملتنا وسنتنا، و الله أعلم بما تكن صدورهم و تحويه بيوتهم "[1]، هذا التسامح الديني مع اليهود سمح لهم بشغل عدة وظائف فإضافة إلى التجارة التي هي أهم وظيفة شغلوا مناصب أخرى ، ولكن رغم ذلك فقد كفروا النعمة التي كانوا يعيشونها و أفسدوها بأفعالهم الشنيعة ، إذ بلغ الأمر ببعضهم إلى أن اشتغل بالسحر و الكهانة ، و هو ما دفعه إلى سب المسلمين و اعتبرهم من غير حسب و لا نسب و أن اليهود شرفاء ، وكل من تجرأ وسب اليهود فمصيره أن يخلع لسانه من قفاه ، و أثارت هذه الحادثة التي وقعت في هوارة من أعمال تلمسان الفقهاء الذي أمروا بتسليط عقوبات قاسية على هذا اليهودي كالضرب المبرح والسجن الطويل[2] .

كما كان اليهود يعيشون في إقليم توات حياة عادية و نقل عبد القادر زبادية عن مالفانت وصفا لطريقة عيشهم فقال " يتكاثر اليهود هنا وتسير حياتهم في سلم تحت ظل الرؤساء الذين يدافع كل منهم عن أتباعه ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة ، وتسير التجارة بواسطتهم وهناك الكثير هنا يضعون ثقتهم فيهم "[3]،و ألقى العقباني تشخيصا دقيقا لوضع اليهود في إقليم توات نقله الونشريسي " وما يفعله اليهود اليوم في الأسفار من ركوب الخيل في السروج الثمينة ، و لبس فاخر اللباس والتحلي بحلية المسلمين في لبس الخف و المهاز ، و التعمم بالعمائم ، فمحظور شنيع ومنكر فظيع ، يتقدم في إزالته بما أمكن وربما يجعل لذلك محللا ، زعمهم أنهم يخافون على أنفسهم و أموالهم إن ظهر عليهم زيهم الذي يعرفون به ، و هم في ذلك كاذبون لما شاهدنا من حصول الأمن القوي لهم عند العرب و الحظوة الكبيرة لما يرجون من حصول النفع منهم ، فيرضى العربي أن يستأصل هو وجميع أهله في نجاة اليهودي الذي معه ، فلم يبق إلا أنهم لما وجدوا السلعة عند من لا ينكر عليهم من جفاة العرب و طغاتهم تزينوا بأفخر زي المسلمين إذ كانوا لا يفعلون ذلك في الحواضر" [4] .

---

[1] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح سعيد العريان ، القاهرة ،1963م ص383.

[2] الونشريسي : المعيار ، ج2 ص ص 399-400.

[3] عبد القادر زبادية :المرجع السابق ص211-212.

[4] الونشريسي : المعيار ، ج2 248-249 .

و استطاع اليهود التأثير على القضاء ومن ذلك دفاع قاضي توات (أبو عبد الله العنصوصي) عن بنائهم لبيعتهم ، وهو ما أثار حفيظة الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أفتى بإذلالهم وقتلهم وهدم كنائسهم ، و عيب عليه هذا الفعل فقام بمراسلة فقهاء وعلماء فاس وتلمسان وتونس، ووافقه على هذا العمل الفقيه محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي في رسالة مما جاء فيها " إلى الأخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها هذا الوقت علم على عمارة القلب بالإيمان .... فقد بلغنا ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية من تغير إحداث اليهود أذلهم الله كنيسة ببلاد الإسلام وحرصكم على هدمها ، وتوقف من توقف لمعارضة من عارضكم من أهل الأهواء فبعثتم للعلماء " ، ولما بلغ هذا الجواب إلى الفقيه المغيلي أمر جماعة بهدم الكنيسة وقتل من عارضهم ثم قال من قتل يهوديا فله علي سبعة مثاقيل [1] .

و انتقل الغضب على اليهود من العلماء إلى العامة و السبب راجع إلى تذمرهم من سلوكاتهم ومن هيمنتهم على التجارة و الأعمال المالية و استعمال الربا في هذه المعاملات ، و كذا وصولهم إلى مناصب عليا و خاصة المالية منها لدى السلاطين[2] ، ثم انتقل هذا التذمر إلى السلاطين ومن ذلك مطالبة والي قسنطينة في القرن التاسع للهجرة ، القرن 15م من اليهود دفع مبلغا إضافيا غير ضريبة الجزية فقام شيخ اليهود بدفع المبلغ المذكور من ماله الخاص [3]، كما تعرض اليهود الموجودين بتلمسان وأحوازها إلى نهب أموالهم بعد وفاة السلطان أبو عبد الله الخامس عام 923م /1517م و تحولوا من أغنياء إلى فقراء " يكادون يتكففون الناس " [4] ، و بدخول العثمانيين إلى المغرب الأوسط تعرضوا إلى النكب سنة 923هـ/ 1517م ، ثم تعرضوا لذلك من جديد من قبل حاكم وهران الاسباني ألكوديتي Comte Alcaudete في سنة 951هـ/ 1544م [5].

من خلال الحديث عن اليهود يمكننا القول أنهم تواجدوا في أرياف المغرب الأوسط و تعايشوا مع أهله و طبقت عليهم أحكام الذمة ، غير أنهم قاموا بأعمال شنيعة دفعت إلى القيام عليهم وتعرضهم إلى النكب من العلماء ثم العامة ثم السلاطين .

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج لمعرفة ،ج2 ص 220.

[2] عبد العزيز فيلالي :المرجع السابق ج1 ص195

[3] روبار برنشفيك : المرجع السابق ،ج1 ص435.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص20.

[5] جورج مارسي : المرجع السابق ،ص 100.

النصارى :

يعود تواجد النصارى في بلاد المغرب إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، وانحصر عددهم بسبب الفتح [1] ، لكن هذا لا ينفي وجود عناصر مسيحية في أرياف المغرب الأوسط إذ ذكر البكري أن النصارى كانوا موجودين بتلمسان في عصره " و بها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة " [2] ، و يرى مارمول كربخال أن أهل قبيلة زواوة يفتخرون بكون أصولهم مسيحية ولكي يتميزوا عن المسلمين كفوا عن حلق لاحهم و تقصير شعر رؤوسهم ، كما أن الأفارقة الذين سكنوا هذه المنطقة حملوا صلبان كدليل على تمسكهم بمسيحيتهم [3] ، و تكلم الحسن الوزان عن سكان جبال بجاية و الجزائر و برشيك و قال أنهم يرسمون بالوشم صليبا أسودا على الخد وفي كف اليد [4] ، كما تواجد في قلعة بني حماد طائفة مسيحية [5].

ما يمكن استخلاصه من هذه الشواهد أن الطائفة المسيحية كانت منتشرة في العديد من أرياف المغرب الأوسط والمناطق المذكورة هي تقريبا كلها مناطق ريفية إذا استثنينا تلمسان التي تكلم البكري عن الكنيسة التي بها ، و حديثه عن نصارى تلمسان قد يعني وجود نصارى في المناطق الريفية القريبة من تلمسان ويقصدون هذه الكنيسة .

و على كل فإن المسيحيين الذي تواجدوا في بلاد المغرب تعددت مصادرهم فمنهم التجار والجند ، و الأسرى[6].

التجار : عرفت بلاد المغرب صحوة تجارية بفضل إحكام الموحدين سيطرتهم التجارية على التجارة الصحراوية ، وبذلك سعوا إلى بناء اقتصاد تجاري قوي و ذلك يكون بالانفتاح على الضفة الشمالية للمتوسط و تمتين علاقاتها التجارية ، و من ثم يكون لهم دور الوساطة بين تجارة الشمال و الجنوب

---

[1] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ، ج1 ، ص 187 .

[2] المصدر السابق ، ج1 ص 86.

[3] المصدر السابق ، ج1 ، 94

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 33 ،ص 102 .

[5] روبار برنشفيك : المرجع السابق ،ج1 ص461

[6] إبراهيم القادري بوتشيش :تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بغض قضايا المجتمع و الحضارة ،ط 1 ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، 1994 ص 88

[1]، ومن هذا المنطلق كانت بلاد المغرب قبلة للتجار المسيحيين وخاصة تجار الجمهوريات الايطالية ، و الذين استفادوا من معاهدات عقدها سفرائهم مع حكام بلاد المغرب والتي من خلالها تحصلوا على الكثير من الامتيازات الدينية والاقتصادية [2]، و كان التجار الأجانب يقيمون في فنادق و أشار ماس لاتري (MAS LATRIE)إلى أن الفنادق تكون في داخل المدن أو الضواحي خارج المدن [3] وهذه الضواحي قد تكون في الأرياف.

و يشير الحسن الوزان إلى إشارة مهمة يمكن استغلالها في حديثنا عن التواجد المسيحي في بلاد المغرب مفادها أن أمير قسنطينة أمر ببناء منازل و مخازن للتجار الجنويين في سكيكدة لأنهم كانوا يتاجرون في البلاد[4] ، كما كانت في وهران جالية مسيحية وكانت " مهبط التجار القطلونيين والجنويين ، و ما زالت بها إلى الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم يقيمون بها "[5] .

كما كان للتجار الإيطاليين المسيحيين قنصليات في بلاد المغرب فكان لتجار جنوه قنصلية في بجاية [6] ، كما كان لتجار جمهورية البندقية قنصلية في بجاية أيضا [7] ، وكانت مهمة القناصل الدفاع عن رعاياهم في حالة حدوث نزاع بينهم و بين طوائف التجار المقيمين في بلاد المغرب ، و حتى مع السكان الأصليين ، ومن مهامه المحافظة على تركة من يتوفى من أفراد طائفته ، وكذا يقع على عاتق القنصل مهمة اختيار السفن التي يتم استئجارها من قبل خلفاء المغرب [8] .

هنا يمكننا أن أنقول أن القناصل وجدت في المدن كون القنصل لا يمكنه أن يكون في الريف غير أن مهمته كانت الدفاع عن التجار المسيحيين الذين يمكن أن يتواجدوا في الأرياف .

---

[1] إبراهيم القادري بوتشيش : المصدر نفسه ، ص 89

[2] سامي سلطان سعد : الجاليات الايطالية التجارية في بلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، مقال في مجلة سيرتا ، السنة السادسة ، العدد 10 ، رمضان 1408 ، أفريل 1988 ،دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة ص 87 .

[3] MAS LATRIE : t'raités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyan-age , PARIS .1872 , p89.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 55.

[5] نفسه ص 30 .

[6] MAS LATRIE :opcit. p42

[7] سامي سلطان سعد : المرجع السابق ص 92.

[8] نفسه ، ص 93-94 .

الجند: يعتبر اعتماد الجند المسيحيين في بلاد المغرب من الأمور المعروفة و المألوفة ، إذ استعملهم المرابطون في عهد علي بن يوسف (500-537هـ/1106-1142م)[1] ،كما تواجد الجند في الدولة الموحدية منذ بداياتها الأولى وهذا ما يفهم من كلام عبد الواحد المراكشي :" ثم كر عبد المؤمن بن علي راجعا إلى مراكش ، بعد ما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا و رجالا و من المصامدة و العرب و غيرهم من أصناف الجند "[2] ، و يفهم من كلمة أصناف الجند المسيحيين الذي كانوا في الجيش الموحدي .

و زاد عدد النصارى في جيش الموحدين في عهد المأمون (627-629هـ/1229-1231) فذكر أبن أبي زرع و الناصري أنه بلغ اثني عشر ألف[3] ،في حين يرى ابن عذارى المراكشي المراكشي أن عدد المستقدمين كان خمسة مائة جندي[4] ، و إن كان هناك تباين واضح في الرقم فإن الشاهد هنا هو اعتماد الموحدين على النصارى في تركيبة الجيش ، و سيستمر اعتماد بنو مرين و بنو زيان عليهم في جيشهم .

حيث اعتمد بنو زيان عليهم في سنة 646هـ/1248م بعد انتصارهم على الموحدين ، و كان عددهم ألفي فارس[5]،و يرى يحي بن خلدون أن الزيانيين تخلو عنهم في عهد يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1282م) بداية من ربيع الثاني سنة 652هـ /1254 و السبب يرجع إلى أنه في احتفال استعراضي لقواته " غدر به النصارى عند مروره بساقتهم ، فقتلوا أخاه محمدا ، واحتضنه كبير قوادهم فانجذب " ، هذا السبب دفع إلى قتل كل النصارى الذين كانوا في جيشه و لم يستخدموا بعد ذلك[6]، لكن يرجع يحي بن خلدون و يناقض كلامه حين يتكلم عن عهد أبو حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ/1359-1389م) فيقول " فاستركب الحرم وحمل الأموال و اكفل بذلك الخصيان و النصارى المستخدمين "[7] .

---

[1] روبار برنشفيك :المرجع السابق ،ج1 ص 470 .

[2] عبد الواحد المراكشي : المرجع السابق ص 293.

[3] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 251 ، السلاوي : المرجع السابق ،ج2 ص212

[4] ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، قسم الموحدين ،تح محمد إبراهيم الكتاني و آخرون ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1985 ، ص 284

[5] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص206 ، عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ،ج1 ص188

[6] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج1 ، ص206.

[7] يحي بن خلدون : المصدر نفسه ،ج2 ، ص 142.

ما يمكن استنتاجه من هذا التناقض أن استخدام النصارى تواصل طوال العهد الزياني، لكن قد تكون حادثة قتل أخ يغمراسن و محاولتهم قتله هو شخصيا وما تلا تلك العملية من قتل للنصارى هو توقف الاعتماد عليهم في عهده هو و العهود التي تلت حكمه ، و بعد نسيان الحادثة من قبل ملوك بني زيان يرجع الاعتماد من جديد عليهم .

و استخدام النصارى في الجيش و علاقته بالريف يكمن في أن هناك معسكرات للجيش تكون في الأرياف و قد يكونون في تلك المعسكرات ، ثم ماداموا موجدين في الجيش فقد كانوا يشاركون في اخماد الثورات التي تكون في الريف ، و نحن كما نعرف استتباب الأمن يحتم بقاء الجيش مدة من الزمن في المنطقة الثائرة بعد إخماد الثورة .

الأسرى : يعتبر الجهاد البحري المورد الرئيسي للأسرى و حتى الذين يعرضون في أسواق النخاسة كانوا من نفس المصدر تقريبا [1] ، و قد تحدث عبد الباسط خليل عن حضوره لجلب الأسرى إلى تلمسان بقوله " احضر إلى مدينة تلمسان و نحن بها أحد عشر نفرا من الفرنج أسروا من ساحل هنين و كانوا وردوا إليها بمركب لتخطف المسلمين و الإغارة عليهم بالطرقات و نحوها فأخذوا و جهزوا إلى تلمسان للسلطان بها حتى يرى فيهم رأيه ، و كان لما فطن المسلمون بهم ثاروا عليهم فهرب منهم الكثير و أخذ من ذكرنا و تقلع الباقون بمركبهم إلى البحر ، و لما أخذ المأخوذون إلى صاحب تلمسان أمر بستة منهم فعلقوا مشنوقين على رقابهم على بعض أبواب تلمسان إلى أن ماتوا و أبقى منهم خمسة يذكر أنهم من ذوي اليسر ليفادوا عن أنفسهم بالمال " [2]،و إن كان عبد الباسط خليل تحدث عن عدد محدود فإن عددهم في بلاد المغرب كبير ويعدون بالآلاف و يمثلون فئة مهمة من فئات المجتمع إذ استخدموا في أغراض صناعية و حرفية ، كما أن الكثير من الأسيرات نقلن إلى القصر ليكنّ حريما للسلطان ، و هناك من المسيحيين من اعتنق الإسلام فأصبح من الموظفين في إدارة الدولة أو في الجيش [3].

و على كل فإن الجاليات المسيحية في بلاد المغرب قد استفادت من روح التسامح الإسلامي ، إذ سمح للنصارى بإقامة كنائس في الأراضي التي يسكون فيها على شرط أن يكون البناء ضمن اتفاق

---

[1] روبار برنشفيك : المرجع السابق ،ج1 ،ص 478

[2] الروض الباسم في حوادث العمر و التراجم ، نشره روبار برنشفيك ، مكتبة لاروز ، باريس ، 1936 . ص 43 .

[3] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ج1 ص 191

الجزية ، وإذا تعدوا و قاموا بالبناء عدى ما اتفق عليه فيجب هدم ما أضيف فقط دون إزالة الكنيسة كلها [1].

و في الأخير ما يمكن قوله عن أهل الذمة في أرياف المغرب الأوسط في فترة الدراسة أنهم تعايشوا مع أهل المغرب رغم الظروف السياسية التي سادت في بلاد المغرب (التناحر بين القوى السياسية الزيانيون و الحفصيون و المرينيون) ، و سبب ذلك كونهم من أهل الذمة و إذا قدموا ما عليهم من جزية فبحكم الشريعة الإسلامية يمكن لهم العيش تحت راية الدولة ، لكن هذا لا ينفي وجود بعض الفترات التي رفض أهل المغرب لأهل الذمة و هنا تتدخل عوامل داخلية وخارجية في هذا الاستثناء فالداخلية تكون في تعدي أهل الذمة الحدود المرسومة لهم كما حدث مع يهود توات ، و الخارجية كالمحنة التي تعرض لها المسلمون في الأندلس جراء حروب الاسترداد و كذا الحملة الصليبية الثامنة التي كانت على تونس .

المبحث الثاني :

الطعام اللباس و السكن في أرياف المغرب الأوسط :

اعتبر الطعام واللباس و السكن من صلب الحياة اليومية لسكان أرياف المغرب الأوسط وكانت شغلهم الشاغل على اعتبار إنها من ضروريات الحياة و من ثم كان البحث عن سبل تحصيلها وسنحاول هنا الحديث عن هذه الضروريات :

1/الطعام :

عاش الريفيون مثل غيرهم من السكان حياة اجتماعية جماعية و في بعض المرات تكون حياة انفرادية، وهو ما كان له أثر على طرق المأكل و المشرب فتكون فردية وتكون جماعية [2].

اختلف الطعام بين أوقات الرخاء ووقت المجاعات ومن أسباب المجاعات سياسية واجتماعية حسب ابن خلدون " إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه ... أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال و الجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقل احتكار الزرع

---

[1] الونشريسي : المعيار ،ج2 ص225،226

[2] محمد بن يوسف السنوسي : نصرة الفقير في الرد عن أبي الحسن الصغير تح و نشر جمال الدين بوقلي حسن ضمن كتاب الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ص 418.

غالبا وليس صلاح الزرع وثمره بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم فيه كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته ، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات غلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا" [1] فأسباب المجاعات حسب ابن خلدون يرجع إلى تخلي الناس عن الحرث والزرع وإلى ارتفاع الضرائب والموكوس وإلى ضعف المبادلات التجارية بسب فقدان الاحتكار بالإضافة إلى كثرة الحروب والفتن .

ومن النتائج المترتبة عن المجاعات اشتداد الجوع حتى إن هناك من باع أبنائه أو قدمه رهينة للتجار البرتغاليين مقابل الحصول على جزء من الطعام [2].

و اختلفت مصادر الطعام الذي عرفه ريف المغرب الأوسط و منه :

1-ذات المصادر النباتية :و نذكر منها :

الحبوب : تعتبر الحبوب أساس التغذية لكل سكان بلاد المغرب حتى إنها تحظى بنوع من القداسة فلا يليق أن تدنس أو تداس بالأقدام أو بحوافر الدواب خاصة بعد تصفيتها و خزنها [3].

و اعتبرت المادة الأساسية لبعض أنواع الطعام كالخبز ، و الذي يعتبر المادة الرئيسية في غذاء سكان الأرياف [4]، وللخبز أنواع منه الخبز الأبيض ويكون من دقيق الدرمك الدقيق الصافي الخالص، و يستهلك من قبل الطبقة المترفة أما خبز عامة الناس فهو من الشعير و الذرة و الدخن و يسمى الخبز الأسمر أو الأسود [5].

و طريقة صنعه تكون بأخذ السميد و يبلل و يخلط بالملح و يترك لفترة حتى يرطب ثم يعجن جيدا و يخلط بالخميرة و يضاف له قليل من الماء و يوضع عليه دقيق رقيق و يعجن به ثم يصنع به شكل قرص و يوضع على منديل أو كتان أو صوف و يغطى بجلود الضأن و يترك حتى يتخمر،

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ص 212.

[2] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج 1 ص111.

[3] محمد استيتو : الفقر و الفقراء في مغرب القرنين 16و17 ، مؤسسة النخلة للكتاب ، وجدة المغرب ،2004 ص 335 .

[4] ابن قنفد : أنس الفقير 149

[5] الحسين فقادي : من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول الأطعمة و الأشربة في تاريخ المغاربة ،العدد 16 ،السنة السادسة ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب 1999 ص36 .

وعلامات تخمره ارتفاعه ، ثم يوضع في الفرن و عند نضجه يخرج و ينظف و يوضع في وعاء ويستعمل عند الحاجة إليه [1] .

ومادام القمح هو المادة الأساسية لصنع الخبز ، فقد تحدثت كتب الجغرافيا عن أرياف المغرب الأوسط وعن المناطق الغنية بهذه المادة و المناطق الشحيحة بها ، فأثناء حديثها عن المناطق الشمالية مثلا منطقة ميلة " يكثر فيها القمح "[2] ، كما أن المناطق القريبة من تفسرة بضواحي تلمسان " أراضي ... جيدة لزراعة القمح " [3] أما المناطق الشحيحة فهي المناطق الجبلية و الصحراء فمن الجبال جبل ولهاصة المجاور لمدينة هنين "و الذي ينبت فيه قليل من القمح "[4]، و جبال بجاية لا " تستطيع أن تنتج حبوبا "[5] وصفها مارمول كربخال ب" و لا تأتي أرض هذه الجهات بقمح كثير "[6]ومن المناطق الصحراوية التي لا قمح فيها تقرت " القمح منعدم فيها و يستورد من قسنطينة " [7].

ومن الأكلات التي استعمل فيها الخبز شرب اللبن من القربة [8]، و قد خصص التجيني لهذا النوع من الطعام فصلا أورد فيه حوالي ثلاثين لونا بين أندلسي و مغربي و مشرقي بعضها بلحم البقر و الغنم و بعضها بالدجاج و بعضها باللبن و الحليب [9].

ومما كان يؤكل أيضا الكسكسون و يستخرج من الحبوب ، و كانت عادة استعمال هذا الطعام عند اشتهائه [10]، وهو من الأطعمة الموغلة في القدم والتي ورثت عن الأجداد [11] ، أما طريقة تحضيره فمختلفة منها أن يؤخذ السميد و يوضع في المعجنة و يرش بماء به ملح ثم يحرك بأطراف الأصابع

---

[1] ابن رزين التجيني : فن الطبخ في الأندلس و المغرب في بداية عصر بني مرين ، تقديم و تح محمد بن شقرون ،مطبعة الرسالة ، الرباط ،1981 ص 07 .

[2] الحسن الوزان :المصدر السابق ، ج2 ص 60.

[3] نفسه ،ص 24 ، مارمول كربخال :المصدر السابق ، ج2 ،ص 323.

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 44 .

[5] نفسه ، ص 50 .

[6] المصدر السابق ،ج2 ص377 .

[7] الحسن الوزان :المصدر السابق ، ج2ص135 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ج3 ،ص165.

[8] ابن قنفد : انس الفقير ص 152.

[9] المصدر السابق ص ص 9، 23 .

[10] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج2 63.

[11] محمد مقر : اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي ، ط1 ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المغرب ، دار أبي الرقراق للطباعة و النشر ، الرباط ، 2006 ص 144.

حتى يلتئم بعضه البعض ثم يحك بين الكفين برفق حتى يصير بحجم رؤوس النمل و بعدها ينفض بغربال حتى يسقط ما بقى من الدقيق ، أما طبخه فتعددت طرقه و الغالب عليها أنها تكون باللحم و ذكر التجيني خمس أطباق للكسكس [1] .

ومن الأكلات التي استعملت فيها الحبوب كمادة أساسية أكلة من " الدقيق الحوارى الملتوت بالزيت المحكم العجن بالماء المتخذة رغفا مفاريد أو مثنيات أو مثلثات كيفما اختير عملها وتنقش وتصنع فيها أشكال من العجين مركبة على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة أو بغير ذلك من الألوان بحسب المتخير لها ثم يفدم الجميع بالزعفران ويطبخ في الفرن ، ويجمع إليها أصناف الفواكه " و كانت تُأكل في الاحتفالات بالأعياد كعيد النيروز [2] .

كما أُكل الكعك حيث ذكر ابن قنفد أنه قدم كعيكات إلى الشيخة المرأة الصالحة المؤمنة التلمسانية[3] .

الفواكه : إذا تصفحنا كتب الجغرافيا نجدها تتكلم بإسهاب عن غراسة الأشجار و خاصة أشجار الفواكه .

و سنحاول هنا ذكر بعض الفواكه الموجودة في أرياف و بوادي المغرب الأوسط .

حيث كانت أرياف ندرومة و تبحيرت :" أراض مغروسة بأشجار الخروب التي يأكل السكان ثمارها بكثرة " [4]، كما يوجد أيضا في جبل مطغرة و جبل و لهاصة " الكثير من الخروب " [5]، والغالب على سكان جبل بني يزناسن إنتاجهم لكمية كبيرة من الخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي لهم [6] .

التين : وجد في كل أرياف المغرب الأوسط و سنحاول ذكر بعض المناطق الموجود بها فضواحي تلمسان بها " التين شديد الحلاوة "[7] ، و وجد أيضا في برشيك [1]، و وصفها مارمول كربخال بأن

---

[1] المصدر السابق ص 40،50.

[2] محمد بن شريفة :من تاريخ العادات المغربية الأعياد نموذجا ، مقال في كتاب العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007 ص 78.

[3] انس الفقير ص 125.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 14،15 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 295 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 43،44 .

[6] نفسه ص 43.

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص20 .

بها " أجود ثمار التين بإفريقية "[2] كما يكثر أيضا في جيجل[3]، و تين بلاد نقاوس شهير بأنه أجود تين في مملكة تونس[4].

الكروم : هي من الأشجار التي تدر العنب و عرفت أرياف المغرب الأوسط انتشارا لهذا النوع من الأشجار فضواحي تلمسان بها الكروم المعروشة الممتازة تنج أعنابا من كل نوع [5]، في حين وصف مارمول كربخال كرومها ب" كروما كبيرة تحمل عنبا حلوا لذيذ الطعم جدا "[6]،و في ضواحي هنين الكروم معروشة و غيرها من الفواكه [7].

التمور : كان لها انتشارا واسعا في صحراء المغرب الأوسط فتقرت بها حدائق النخيل و التمر فيه كثير لدرجة أنه أصبح يستبدل بالقمح مع قسنطينة [8] ، وفي إقليم الزاب " عدد حدائق النخيل بها لا تحصى " فبسكرة " لا تنتج إلا التمر " و طولقة " تنتج أراضيها كثيرا من التمر " [9]، و اشتهر أكله في شهر رمضان حيث ذكر ابن قنفد عن تربية جده يوسف بن يعقوب البويوسفي " أمرني والدي في ابتداء أمري بالاعتكاف في شهر رمضان وناولني في الليلة الأولى ثلاثين تمرة وفي الليلة الثانية تسع وعشرين تمرة ومازال ينقص لي واحدة كل ليلة " [10] .

2-ذات المصادر الحيوانية :

اعتبرت المواد الحيوانية من أهم مصادر الغذاء لدى المغاربة و خاصة سكان الأرياف لتوفره على هذه المادة .

---

1 نفسه ص 33 .

2 المصدر السابق ،ج2 ص 355 .

3 الحسن الوزان :المصدر السابق، ج2 ص 52 .

4 نفسه ص 53.

5 نفسه ص 20 .

6 المصدر السابق ج2 ص 296 .

7 الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 15 .

8 نفسه ، ص 135 .مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج3 ص165 .

9 الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 140،139، مارمول كربخال : المصدر نفسه ، ج3 ص ص 170،168 .

10 ابن قنفد : انس الفقير ص 83.

ومما أكل الطعام وعليه اللحم ، [1] ، و ربما كان رعاة الإبل من رحل الصحراء لا يعرفون من الأكل إلا اللحم [2] ، و ذكر أن رجل دخل المسجد ومعه لحم في كيس وصلى ولما رجع إلى داره أراد طبخ اللحم للعشاء فإذا به لم يتغير فظنه لحم شارف فمازال يوقد عليه حتى الصبح فلم يتغير فتذكر وذهب إلى المسجد وأخبر الشيخ محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي وكان هو الإمام فقال يا بني " أرجوا أن كل من صلى ورائي لا تعدو عليه النار ، ولعل هذا اللحم من ذلك ولكن أكتمه " [3].

تعتبر الماشية المصدر الأساسي للحم ، و كما هو معلوم فإن من مقومات الاقتصاد الريفي الرعي ، و اعتبرت القبائل العربية التي دخلت بلاد المغرب من البدو الرحل و حتى القبائل البربرية قبائل رعوية بامتياز .

و تفيدنا تآليف الجغرافيين و الرحالة بمعلومات مهمة عن كثرة المراعي و وفرة الماشية في أرياف المغرب الأوسط ، فمثلا سكان إقليم بني راشد يسكنون البادية و يعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم [4] ، و قد عمد أحد الزهاد إلى سهل بالقرب من البطحاء و عمّره " و تكاثر بقره و غنمه إلى حد أن أصبح هو نفــــسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية " [5]، أما جبال الجزائر فكان بها " كمية عظيمة من الماشية " [6]، في حين كان الزرع يجود بالمدية و تكثر الماشية [7].و تكثر مثل هذه الإشارات في كتب الجغرافيا.

أما المصدر الثاني للحوم فهي لحوم الصيد و قد أفردنا مبحثا خاصا في هذه الرسالة عن الصيد كمهنة ممارسة في أرياف المغرب الأوسط ، و تكلمنا فيه عن الصيد و أهم ما كان يصاد من حيوانات منها ما لحمه جائز للأكل ومنها ما هو محرم .

---

[1] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 134.

[2] محمد استيتو :أقوات التغذية في تاريخ المغرب الحديث ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول التغذية و الأزمة في تاريخ المغرب ، العدد 17 ، السنة السادسة ، 1999 ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1999 ص 24 .

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 212 ، التنبكتي :نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،تح علي عمر ، ج2 ،ط1 ،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، 2004 ص 259

[4] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 26 .

[5] نفسه ص 28 .

[6] نفسه ص 46

[7] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص373.

و اختلفت طرق إعداد الأكلات باللحم ، إذ أدرج التجيني ستة فصول و في كل فصل عدة ألوان لإعداد أطباق اللحوم من مختلف أنواعه من لحم الخروف و البقر و الإبل و لحوم الصيد كبقر الوحش و الوعل و الغزال و غيره [1] .

و على كل فإن أكل اللحم قد نال نصيبه في كتب النوازل ومن الأمور التي سأل عنها الفقهاء مثلا هل يجوز أكل و ذبح الشياه و الأبقار المريضة، وقد جوز أبو عبد الله بن مرزوق أكل ذلك [2] ، و اختلف الفقهاء في أكل لحم الخنزير الوحشي فأجازه البعض بعد أن يذكى إذا دعت الضرورة ، في حين حرمه آخرون تحريما مطلقا [3] ،كما كان لذبائح أهل الكتاب مكانا في كتب النوازل فأجاز بعضهم أكل دجاجهم و ذبائحهم دون صيدهم و يستثنى من هذه الأحكام ما هو محرم [4].

السمك : هو من المواد الحيوانية التي أكلت في أرياف المغرب الأوسط حيث كانت دلس من أهم المناطق اصطيادا للسمك " فقد تعودوا جميعا على اصطياد السمك بالشباك فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع و لا تشترى، و إنما يهدونه لمن يرغب فيه "[5] ، و قد يكون الإهداء بعد أخذ حاجتهم.

ومن المأكولات الحيوانية التي عرفت في بعض المناطق الصحراوية و خاصة في توات أكل الجراد و هو كثير عندهم ويخرجون لصيده قبل طلوع الشمس فهو لا يطير تحت تأثير البرد ويقومون باكتنازه كما يكتنزون التمر [6] ، و أجمع الفقهاء على جواز أكله لما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أنه " قال أحلت لي ميتتان ودمان ، الميتتان الجراد والسمك ، والدمان الكبد والطحان " [7].

و إذا كان جواز أكله لاقى الإجماع فقد اختلف فيما إذا كان يجب تذكية الجراد أم لا، وإذا كان يجب تذكيته فكيف تكون؟ فهل تكون التذكية بالتسمية فقط أم تكون بقطع الأرجل و الأيدي

---

[1] التجيني : المصدر السابق ص ص 101،55 .

[2] الونشريسي :المعيار ، ج2 ص 19 .

[3] نفسه ،ص ص 23،20 .

[4] نفسه ، ص ص 18،9 .

[5] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 42 .مارمول كربخال: المصدر السابق ،ج2 ص 327.

[6] ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، المعروف بكتاب الرحلة ، دار صادر بيروت ، 1992ص 700.

[7] ابن ماجة : سنن بن ماجة ، تح محمد فؤاد عبد الباقي ، ج2 ، دار الفكر بيروت ص 1102 .

والأجنحة ،و إذا اختلط الجراد المذكى و الجراد الغير مذكى في القدر عند الطهي هل يحل الأكل من هذا الجراد[1].

ومن المأكولات التي ثارت حولها ضجة أكل لحم الكلاب ، إذ روي عن ابن راشد القفصي أنه لما كان بمجلس شهاب الدين القرافي بالقاهرة ذكر بعض الحكماء أن أربعا أكلت أربعا فأورثتها أربعا، أكلت النصارى لحم الخنزير فأورثتها الغلظة وقلة الرحمة ، وأكلت العرب لحم الإبل فأورثتها الحقد والكرم ، وأكلت العجم والزنج لحوم القردة فأورثتها كثرة الطرب فذكر بعض المصريين في مجلسه فقال " يا مولاي وأكل المغاربة الكلاب فأورثتها كثرة الهرش (الخصام والقتال) "، فقام طالب أندلسي في المجلس وقال " و أكل أهل مصر لحوم الفئران فأورثتها الفسق والخلاعة " فقال له المصري " رحمك الله أفكل أهل مصر يفعلون هذا ؟ " فقال " والمغاربة كلهم يأكلون الكلاب ؟ وجوابك عن هذا جوابي عن الآخر "[2]، ما يمكن ملاحظته في هذا المقام هو الجدل الذي أقيم حول أكل المغاربة للحم الكلاب ، و الرد الذي كان من الطالب الأندلسي حول أكل المصريين للفئران ، و كيف بحث المصري عن الاستثناء و جواب الطالب الأندلسي الذي قال إذا كان الاستثناء في طعام المصريين فهو موجود في طعام المغاربة .

و على كل فإذا و جد أكل للحم الكلاب في أرياف المغرب الأوسط فهو قليل إن لم نقل منعدم ، فكتب الجغرافيا رغم تفصيلها في مثل هذه القضايا بل و تحاملها في بعض الأحيان و خاصة العبدري فقد استثنت من ذلك أرياف المغرب الأوسط ، في حين ذكر أكله في بلاد الجريد وسجلماسة [3] .

الــدهون : تحتل الدهـون مرتبـــة مهمـة في التغذية و أهــم هذه الدهـــون :

---

[1] البرزلي : المصدر السابق ، ج 1 ص635.

[2] نفسه : ج1 ، ص 640 ، سعيد غراب : كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية مثال نوازل البرزلي ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد 16 ، تونس 1978 ص 81.

[3] الإدريسي : القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، تح و تقديم إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ص 129 ،مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1985ص 160 ص201 .

زيـــت الزيتون : اشتهرت به معظم الأرياف فبلاد هنين كان بها الكثير من الزيتون [1] ، و من السلع التي تباع في سوق معسكر الزيت [2] ، و أسواق قسنطينة يباع بها الزيت و كان يصدر منها إلى نوميديا و ليبيا [3].

ومن الدهون أيضا العسل الذي وجد في أرياف المغرب الأوسط ، إذ قيل إن من كرامات أبو مدين شعيب أنه قام وصلى ركعتين وأدخل صفحة من العسل وقد ملأت ببركته فأكل الحاضرون وقال الشيخ أبو مدين : "وأكلنا من ذلك العسل خمسة وعشرين يوما ولم ينقص ، ثم خفت أن يكون لي معلوما فتصدقت به " [4]، كما كان يقدم في مجلس سيدي إبراهيم التازي على الواردين [5] ، واشتهر أهل ندرومة و أهل تبحريت بأكلهم للعسل لتوفره بكثرة عندهم [6].

وإذا كان الطعام الذي تكلمنا عنه عام لكل الناس ، هناك من انفرد بغذاء خاص إذ انفرد المتصوفة في خلواتهم على أكل الحشائش والنبات ، وكان المتصوف محمد بن عمر الهواري يقول إن هذا " أطيب الطيبات " [7].

وإذا أردنا أن نحدد أوقات تناول الغذاء فإنه لم يكن محددا بزمن معين غير أنه يتناول صباحا وظهرا و مساء [8].

ما يمكن استخلاصه من خلال عرضنا لأهم الأطعمة التي عرفها ريف المغرب الأوسط أن المائدة المغربية كانت متنوعة و بها العديد من أنواع الطعام ذات المصادر المختلفة من نباتية و حيوانية و دهنية ، وما يمكن ملاحظته أيضا على المصادر التي استقينا منها مادتنا الخبرية صومها عن الحديث عن هل هذه الأكلات هي للفقراء أم الأغنياء ، وهو ما دفعنا إلى الترجيح بأن الطعام كان خاصا بكل الفئات الاجتماعية و إنما يكون الاختلاف بين الوفرة والندرة و بين الجودة و الرداءة .

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2ص 16 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 296 .

[2] الحسن الوزان :المصدر نفسه ص 26 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ص 324 .

[3] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 56 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ج3 ص 13 .

[4] ابن قنفد : أنس الفقير ص 67.

[5] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 190

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ص 14،15 .

[7] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 60 .

[8] محمد استيتو : الفقر و الفقراء ص 345 .

و إذا كان هذا حال المأكل في الأوقات العادية فما هو الطعام زمن الأزمة و نقصد بالأزمة وقت المجاعات و الحروب ، و أو بمصطلح آخر ما هي أساليب مواجهة الجوع ؟

شهد أرياف المغرب الأوسط فترات من المجاعات و الأوبئة تكلمت عنها المصادر بنوع من الإسهاب سنذكر بعضا منها أثناء حديثنا عن الزراعة وما واجهها من كوارث طبيعية و نذكر بعض الأوبئة أثناء الحديث عن المرض و سنحاول هنا الحديث عن الأطعمة زمن هذه الأزمات .

حيث كان السكان في مثل هذه الأوقات يتناولون أية مادة تسمح لهم بالتخفيف من روع الجوع و الاستمرار في الحياة ، ومنها نبات إيراني أو الإيرنة و يسمى في مناطق تلغودة و تسمى علميا ب ARUM ARISARUM [1]و الاستفادة من هذا النبات تكون بسلق جذوره للتخلص من السموم التي يحملها ، ثم يعرض للشمس ليجفف و يطحن ليحصل على دقيق لصنع الخبز و من صفاته صعوبة هضمه ،كما تناولوا أيضا الجمار و هو قلب النخلة ، البلوط ، عناب السدر [2] وعسلوج البسباس البري ، الخرشوف البري [3] ، الترفاس [4] ، نواة الزيتون بعد طحنه ونبات التبودا وهو شبيه بالقصب ينبت عادة في الصهاريج و الأنهار والسواقي فيجفف ويصنع منه الخبز [5].

ومادمنا نتحدث عن أوقات الأزمات لا يفوتنا هنا أن نتحدث عن وسيلة الادخار كوسيلة لمواجهة هذه الأزمات ، فقد أقدم الخليفة الموحدي المستنصر (610-620هـ/1213-1223م) في مواجهة مجاعة 616هـ/1217م على "فتح المخازن المعدة لخزن الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم ، فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء ، وبالجملة فإنه صدق منها شيئا كثيرا وأعطى من الأموال عطاء جزيلا فحسنت أحوال الناس بذلك " [6].

---

[1] محمد أستيتو : أقوات التغذية ص 31 ،مصطفى نشاط : التغذية و الأزمة في العصر المريني ، مقال في مجلة أمل عدد حول التغذية و الأزمة في تاريخ المغرب ، العدد 17 ، السنة السادسة ، 1999، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999 ص 09 ،10

[2] مصطفى نشاط : المرجع نفسه ص 09 ،10.

[3] محمد استيتو : أقوات التغذية ص 31 .

[4] الحسن الوزان :المصدر السابق ، ج2 ص 284 .

[5] ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، جزء خاص بالموحدين ص 326 .

[6] نفسه ص 267 .

ما يمكن استخلاصه من حديثنا عن المأكل زمن الأزمات أنه كان بسيطا ، و في نفس الوقت قليلا و قد يكون منعدما ، و هو ما دفع إلى التغذي حتى على ما تجود به الأرض ، و الذي قد تكون له أثارا سلبية على صحة الإنسان إذ ورد في عرضنا التخلص من السموم وهو ما يعني أن هذا الطعام يمكن أن يتحول إلى خطر ، و ما يستنتج أيضا أن هناك تضافر للجهود في وقت الأزمة حتى من قبل الدولة .

المشرب :

اختلفت أنواع الأشربة فمنها ما هو طبيعي ومنها ما هو من صنع الإنسان و الذي قد يدخل في خانة المحرم.

الماء : هو من الأشربة البسيطة و التي احتلت مكانة مهمة و رئيسية في المنظومة الغذائية ، و لكنه قد لا يوجد في مناطق فيمثل مشكلة كبيرة في التزود بهذه المادة ، و سنحاول هنا الحديث عن بعض المناطق التي يندر فيه و مناطق أخرى يكثر بها دون الحديث عن إشكاليات التزود به وهو ما سنتحدث عنه أثناء حديثنا عن الزراعة و ما يصاحبها من نظام الري .

فمن المناطق التي يندر بها الماء عنابة " ليس في عنابة عيون و إنما فيها صهاريج لخزن ماء المطر "[1] ، ما يفهم من هذا الكلام أن الماء كان منعدما إلا ما خزن من ماء المطر و هو ما دفع إلى إقامة هذه الصهاريج لتخزينه ، والمناطق التي يندر بها الماء أيضا إقليم الزاب الذي " لا يوجد بها إلا يسير من الماء "[2] ، أما المناطق التي يكثر بها كمستغانم " سقاياتها عديدة يخترقها جدول ماء " وذكر محقق الكتاب أن جدول الذي تكلم عنه الحسن الوزان هو جدول عين الصفراء[3] ، وتعتبر نقاوس من أغنى القرى ماءً إذ كان " لجميع الدور تقريبا سقاياتها الخاصة "[4] كما أن بهنين " لكل دار بئر من الماء العذب"[5]، ما يمكن أن نستشفه من هذا العرض أن الماء له أهميته الخاصة في المائدة دفع الجغرافيين للحديث عنه من حيث الوفرة والندرة .

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 62 ،

[2] نفسه ، ص 138 ،

[3] نفسه ، ص 32 .

[4] نفسه ص 53 .

[5] نفسه ،ص15 .

اللبن : و يقصد به اللـبن و الحليب معـا و يكون في الدرجــة الثــانية من حيث الأهمية بعد الماء، و تكلم البـــكري عن الرحل وقال " شرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء ، يبقى الرجل منهم الشهر لا يشرب ماء "[1] و يمكن من قول البكري التعرف على المكانة التي خص بها هذا النوع من الشراب خاصة عند البدو الرحل .

و كان مصدر اللبن أصول حيوانية من غنم و بقر و ماعز و إبل ، وعرف ريف مغرب الأوسط وفرة لهذه المصادر ، فكان بجبل بني بوسعيد كمية وافرة من الماعز [2] و كانت أعمال تنس من المناطق التي تكثر بها الماشية [3] ، وكان بأرياف عنابة " عددا كبيرا من البقر ... و الغنم " [4] ، على كل فقد اعتبرت هذه الحيوانات المادة الأساسية في غذاء المغاربة من جهتين الأولى على أساس أنها تمده باللحم و الثانية فهي تمده باللبن .

الأشربة المتخمرة :تعددت الأشربة المتخمرة منها ماء الزهر و ماء قصب السكر ، و صفو الزبيب المنقع من الماء و عصير بعض الفواكه كالعنب [5]، أما الشراب المسكر فهو حرام بصريح الآيات والأحاديث النبوية ومن الآيات المحرمة له قوله تعالى " يَا أَيُهَا الذّينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ و المَيْسرُ والأَنْصَابُ و الأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَيْطَانِ فاجْتَنِبُوه لَعَلَكُمْ تُفْلِحُونَ "[6] ،ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه و سلم " كل مسكر حرام " [7]،و رغم هذا التحريم ظل شرب الخمر رائجا في كل بلاد المغرب و في الأرياف المغربية و لدى الخاصة والعامة ، ولهذا عمل الفقهاء على محاربة هذه الظاهرة و ذلك يكون بتخريب ماخور الخمر ، بل و حتى حرق بيت الخمار إذا كان يصنع و يبيع فيه الخمر [8] ، و تعتبر الكروم هي المصدر الرئيسي لإنتاج الخمر ، إذ كان جزء من الكروم يحول مباشرة إلى الاستهلاك فيتناول طريا بينما الجزء الآخر منه يجفف و يصنع منه خمرا و العنب بعد

---

[1] البكري :المصدر السابق ، ص 170 .

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 45

[3] مارمول كربخال : المصدر السابق : ج2 ص 353 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 62 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 8 .

[5] الحسن فقادي : من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول الأطعمة و الأشربة في تاريخ المغاربة ،العدد 16 ،السنة السادسة ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب 1999 ص 46 .

[6] المائدة الآية 90.

[7] البخاري : المصدر السابق ج4 ص 1597 .

[8] البرزلي : المصدر السابق ، ج4 ص 392 ، الونشريسي : المعيار، ج2 ص 409.

تجفيفه يسمى زبيبا [1] ، و اشتهرت بعض المناطق بكثرة كرومها فتلمسان بها بساتين " حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعنابا من كل لون " [2] ، وكان جزء من هذا العنب يجفف و يستعمل في كل السنة [3] ، و كانت أرياف إقليم بني راشد من أهم المناطق التي تزرع بها الكروم [4] ، و نالت نقاوس نفس شهرت بني راشد في إنتاج الكروم فكان في كل بيت تقريبا " حديقة كروم معروشة جميلة تعطي أيام الصيف ظلا ظليلا ممتعا جدا " [5] ، وعلى كل فيمكن القول أن كل أرياف المغرب الأوسط عرفت انتشارا واسعا لزراعة الكروم ، أما الإشارات التي تتحدث عن تجفيفه و من ثم استعماله كمسكر فهي قليلة إن لم تكن منعدمة .

ولم يكن مصدر الخمر الكروم فقط بل تعددت مصادره فهناك التين الذرة التمر و العسل والحنطة و الشعير [6]، و على كل حال فإن هذه المزروعات وجدت في أرياف المغرب الأوسط كما أسلفنا غير أننا أثناء بحثنا لم نصادف استعمالها في صنع الخمر .

بالإضافة إلى الإنتاج المحلي كان هناك تسلل للخمور الأوربية إلى بلاد المغرب ، ونحن أفردنا أثناء حديثنا عن تركيبة السكان مطلبا للحديث عن المسيحيين في بلاد المغرب بمختلف أصنافهم .

وسمح الحضور المسيحي في بلاد المغرب بإدخال الخمور إليها ، و كانت الخمور موجهة إلى الجالية المسيحية الموجودة هناك ، لأنها لم تكن موضع تجارة بين أوربا و بلاد المغرب ، أضف إلى ذلك مضمون العاهدات التجارية الموقعة بين الطرفين لم تنص على تجارة الخمور [7]، و رغم أن خمور الأوربيين جلبوها ليشربوها فهذا لا يعني أنهم لم يكونوا يبيعوها ، و الدليل على ذلك ما ذكره محمد بن مرزوق و هو يتحدث عن علاقة أبو الحسن المريني مع المسيحيين " و لم يبح لهم من الخمر إلا ما يسوغ لهم ، ومن ظهر عليه أن باعه لمسلم أو استظهر به بولغ في عقوبته و جعل عبرة للمعتبر " [8] .

---

[1] مصطفى نشاط : جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالعصر الوسيط ، منشورات الزمن ، 2006 ص 17 .

[2] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 20 .

[3] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 299 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 26 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه،ج2 ص 324 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 53 .مارمول كربخال : المصدر نفسه 384 .

[6] مصطفى نشاط : المشروبات المسكرة ،ص22 ، عبد العالي احمتي: التغذية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط قضايا ونماذج ، رسالة لنيل شهادة دكتوراه بكلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس ، 2001 -2002 ص 259 .

[7] عبد العالي احمتي : المرجع نفسه ص 33 .

[8] ابن مرزوق : المسند الحسن ص 282 .

يمكن أن نفهم من هذا الكلام أن المسيحيين دأبوا على بيع الخمر للمسلمين و هو من الأمور الممنوعة التي دفعت بالسلطان المريني إلى التدخل و معاقبة الفاعلين ، و كانت العقوبة قاسية لأن أي تساهل قد يؤدي إلى تحول المسيحيين إلى المتاجرة بالخمر عوض المتاجرة بما اتفق عليه .

ما يمكن ملاحظته على المشرب في أرياف المغرب الأوسط وجود نوعين من الشراب الحلال الذي لا مشكلة فيه ، والشراب محرم الذي أثار ضجة كبيرة في بلاد المغرب و دفعت بالفقهاء إلى محاولة التصدي لهذا الشراب سواء بالتذكير بأنها حرام خاصة و أننا نتحدث عن مجتمع ريفي قد يكون جاهلا في بعض الأحيان بالكثير من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ، أو بمحاربة بائعي هذه المسكرات إذ وصل حد المحاربة إلى الإفتاء بإحراق دار المتاجر بالخمر ، و تعدت محاربة الخمر الفقهاء إلى السلطان فذكرنا أن أبو الحسن المريني منع على المسيحيين بيع الخمر للمسلمين.

2/اللباس :

تعددت أسباب لجوء الإنسان إلى اللباس فكان من أجل الوقاية ، و نقصد بذلك الوقاية من الحر و الوقاية من البرد ، ومن أجل ستر العورة و كما هو معروف فإن الإسلام بيّن عورة المرأة و عورة الرجل، ومن أجل الزينة ، إذ كان اللباس من أهم ما تزين به الإنسان على مر الأزمان ما لم يكن متعارضا مع الشرع .

و يستحسن في من وسع الله عليه في دنياه أن يظهر نعمة الله عليه وأن يستعملها في الأوجه المباحة ، فيلبس أحسن اللباس أو أوسطه مع مرقعة يتخذها عدته أصل لباسه إن احتاجها وجدها [1] ، و كان الفقيه أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي يدعوا إلى إظهار نعم الله على من وسع الله عليه فعليه باستعمالها فيما يباح " و أن يلبس أحسن لباس جنسه أو وسطه " [2] .

اختلف اللباس في أرياف المغرب الأوسط بين الجودة والرداءة ، و سنحاول أن نقوم بإعطاء أمثلة عن مناطق كانت ألبستها جيدة و من كانت ألبستها رديئة و ربما العامل المتحكم في الجودة والرداءة يرجع إلى الفقر و الغنى و البداوة و التحضر، و رغم أننا نتحدث عن مجتمع ريفي فقد وجدت بعض المناطق الريفية و كان لباسها جيد ، ربما لوجود احتكاك دائم مع أهل الحضر ومن ثم تأثروا بهم في هذا المجال .

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 64.

[2] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص134 .

ومن الذين لبسوا ملابس رديئة سكان المسيلة " يرتدون لباسا رديئا لفقرهم " [1] ، و لم يختلف لباس سكان تبحيرت كثيرا عن لباس أهل المسيلة فكان لباسا مزريا [2] ،أما المناطق التي كان لباسها جيدا أهل دلس [3] ، ولم تختلف صفة لباس أهل نقاوس عن لباس أهل دلس وفي ذلك يقول الحسن الوزان "لباسهم لائق كلباس بجاية المدنيين " [4] وما يمكن أن يفهم من القول الأخير أن لباس سكان بجاية الحضريين مغاير لباس سكان بجاية الجبليين لأن التميز يفيد الاستثناء ومن ثم لباس أهل جبال بجاية كان مزريا .

1–مواد صناعة اللباس :

1–1الصوف : تعتبر المادة الرئيسة في إنتاجه الأغنام و التي كانت منتشرة بكثرة في المغرب ونشير هنا إلى أن هذا القطاع تأثر سلبا بسبب انعدام الأمن [5]، و أثناء حديثنا عن المصادر الحيوانية للطعام تكلمنا عن بعض المناطق التي بها أغنام في المغرب الأوسط ، و سنذكر هنا مناطق أخرى لم نذكرها من قبل فضواحي عنابة بها" عددا كبيرا من البقر و الثيران و الغنم " [6]،و كانت صحراء أنكاد من المناطق التي بها الكثير من الغنم و استنتجنا ذلك من تعدد الرعاة بها والعدد الكبير من الغنم الذي تفترسه السباع [7]، و كانت جبال مطغرة من أوفر المناطق تربية للماشية [8].

1–2الكتان : وهو من النباتات المرهقة للتربة ، والسبب في ذلك أنه يحتاج في زراعته إلى تربة عميقة وماء وفير ، وتكون خيوط الكتان دقيقة ومرنة وطويلة وصلبة ، ولهذا تعددت مجالات استعماله ، إذ استعمل في صنع الملابس والخيام وأشرعة السكن وغيرها [9]، و انتشر الكتان بكثرة في عنابة [10].

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 52 .

[2] نفسه ص 15 .

[3] نفسه ص 42 .

[4] نفسه ص 53.

[5] محمد مقر : المرجع السابق ص 73.

[6] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 62 .مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج3 ص 07 .

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 11 .، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 293.

[8] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 351 .

[9] محمد مقر :المرجع السابق ص 75 .

[10] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 61.

1-3القطن : أصوله هندية و جلب إلى بلاد المغرب الإسلامي مع الفتوحات الإسلامية وتتركز مناطق زراعته في الأراضي ذات التربة الطمية والغزيرة المياه ، تدهورت هذه الزراعة بسب التوسع الهلالي وتحول الاقتصاد من اقتصاد زراعي إلى اقتصاد رعوي [1]، ومن بين العوامل المؤثرة سلبا على هذه الزراعة الجفاف وبعض الأمراض النباتية ، إضافة إلى تغير الطرق التجارية [2].

1-4الحرير :يرتكز على مادتين أساسيتين هما زراعة شجرة التوت وتربية دودة القز ، انتشر في أغلب شواطئ البحر المتوسط وله جودة عالية و عملية الإنتاج والتحويل تعتبر سهلة مقارنة بالصوف والكتان والقطن ،ويمكن الحصول على 800 أو900 متر من خيوط الحرير مباشرة من المادة الخام بعد فك اللوزة قبل التفريخ ، ثم تغسل بالماء الساخن لإزالة ما علق بها من الصمغ ومن ثم يمكن استعماله على حالته الأصلية ويسمى بالشرب أو الحرير المخملي ويكون سهل الصباغة دون أن يفقد لمعانه [3]، و اشتهرت شرشال بصناعة الحرير لوجود المادة الأولية المساعدة على ذلك و هي أشجار التوت التي تقتات منها دودة القز [4] .

1-5الجلد :يعتبر الجلد ناتجا عن عملية الدباغة التي تقوم بتحويل جلد الحيوان إلى مادة غير قابلة للتعفن [5]، و قد اشتهرت عدة مناطق بدباغة الجلود ثم بيعها فكان سكان جبال بني بوسعيد المجاور لتنس يحملون الجلود إلى شاطئ تنس لبيعه إلى الأوربيين [6]، كما قام سكان القل أيضا بمبادلة الجلود بالبضائع التي يحملها إليهم التجار الجنويين [7] ، و يمكن من هذه الإشارات أن نرجح أن الكمية التي كانت تباع هي الكمية الفائضة عن الحاجة .

2-أنواع الألبسة : تنوعت الألبسة في أرياف المغرب الأوسط بين ما هو لباس رجال ، و لباس نساء ، و لباس مشترك بينهما

2-1لباس الرجال :لبس رجال أرياف المغرب الأوسط عدة ألبسة نذكر منها :

---

[1] محمد مقر : المرجع السابق ص 76

[2] محمد الطويل : الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ص 180-181.

[3] محمد مقر: المرجع السابق ص 77

[4] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 34 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 356 .

[5] محمد مقر : المرجع السابق ص 78 .

[6] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 45 .

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 54 ،مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص 08 .

البرنس : وهو " معطف أسود ينسج من قطعة واحدة بغطاء الرأس " [1]،وحاولت الدراسات الحديثة أثناء حديثها عن أصناف البربر أن تميز بين البتر و البرانس و أن الفيصل بينهما البرنس الطويل والبرنس المبتور ، لكن ابن خلدون حين تكلم عن البرنس لم يميز بين الطويل والمبتور وإنما تكلم عن زي موحد فيقول حين حديثه عن لباسهم " و يفرغون عليها البرانس الكحل ورؤوسهم في الغالب حاسرة و ربما يتعاهدونها بالحلق " [2]، وما يطابق هذا القول بعض المأثورات التي تقول " ورثنا عن الجدود حلق الرؤوس و أكل الكسكوس وارتداء البرنس " [3] ،من خلال هذه الإشارات يمكن أن نقول أن الفصل بين البتر و البرانس على أساس البرنس المبتور مجانب للصواب ، فالإشارة إلى حلق الرأس دليل على أن الرؤوس كانت عارية ومن ثم قد تكون كل البرانس مبتورة .

و ذكر البرنس عند ابن صعد التلمساني على أنه لباس أحمد الغماري [4].

العباءة :وهي من ضرب الأكسية [5] و اختص بهذا اللباس الفقراء [6]، و كان له انتشار واسع لدى قبائل صنهاجة [7].

السروال : وهو ثوب يلبسه الرجل من السرة إلى الأسفل [8]، وهو لباس الصلحاء وسكان الجبال[9].

العمامة : وهي ما لف فوق الرأس كالعصابة ، وهي لباس مشرقي قدم إلى بلاد المغرب مع الهجرات الهلالية ، و اتخذت عدة أشكال عرف بعضها باسم الكرزية وهي مصنوعة من الصوف وكانت العمامة لباس القضاة والعلماء في الغالب[10].

و لبس العلماء و المتصوفة لباسا خاصا ، فلبس العلماء سترة عريضة الأكمام ، والقميص والدراعة وهي لباس طويل متعدد الألوان أخضر وأحمر وهو عريض الأكمام ومخيط من الأمام ، وفوق كل

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ج1 ص 177،176

[2] العبر ،ج6 ص 89 .

[3] محمد مقر : المرجع السابق ص 144.

[4] ابن صعد التلمساني :المصدر السابق ص 199 .

[5] ابن منظور : المصدر السابق ج8 ص 118 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص333 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص66

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 144،55 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ص 70

[8] ابن منظور : المصدر السابق ،ج4 ص16 .

[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ج2 ص 97، مارمول كربخال : المصدر السابق ج2 ص6.

[10] محمد مقر :المصدر السابق ص ص 181،179.

ذلك البرنس الذي يكون في الغالب أبيض اللون ، كما يضعون على رؤوسهم قلنسوة تلف حولها عمائم من الكتان المذهب [1]، أما المتصوفة فكانوا يلبسون سترة وكساء من الصوف ، و اعتاد الفقيه المتصوف محمد بن عمر الهواري المغراوي على لبسها ، و دخل هذا المتصوف مصر بثوب من صوف مقتديا بمن سبقه من المتصوفة [2] ، وكان لباس المتصوف الشيخ أحمد الغماري قباء من صوف يسمى بالتشامير ، وكساء وعمامة كتان خشنة [3]، أما المتصوف أبو عبد الله محمد بن حسان التاوني فكان لباسه عبارة عن جبة ومأزر [4].

النعل : هو ما وقيت به القدم من الأرض ويتكون من فراش من جلد أو ما شابه ويشد إليها بواسطة سيرين يمر أحدهما وسط الرجل والآخر بين الأصبع الأكبر والثاني الذي يليه [5] ، ويمكن أن تكون نقط الربط على مستوى الإبهام و اثنين آخرين على كل طرف باتجاه مقدمة الكعب ،و قد تتصل هذه الأربطة ببعضها مباشرة لتغلف رسغ القدم دون الكعب ، أو تكون متحدة برباط يلتف بالعرقوب مستعملا أعلى الكعب كسند [6]، و من النعال من صنع من الحلفاء ويقام بفتل هذا النبات حتى تصبح صالحة للباس لكنها لم تكون لها القدرة على المقاومة ، وهو ما دفع الحسن الوزان ومارمول كربخال إلى قول " وقبل أن يتم فتل الزوج الثاني يكون الزوج الأول قد بلي " [7] و يسمى النعل المصنوع من الحلفاء بالبلغة [8].

إشيفاد : من الأحذية التي تستعمل في منطقة القبائل ، يتكون من قطعة من جلد البقر تلف حول القدم و بها ثقوب على الأطراف يمرر منها رباط لشده يلبسه الرجال الفلاحين في فصل الشتاء [9] .

---

[1] محمد فتحة : النوازل الفقيه والمجتمع ص 128.

[2] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 58،57 .

[3] نفسه ص 199.

[4] التادلي : التشوف إلى رجال التصوف تح علي عمر ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2006 ص 304.

[5] محمد مقر : المرجع السابق ص 184.

[6] وهيبة بغلي :الأحذية التقليدية الجزائرية تر أحمد لمين مراجعة إنعام بيوض ،المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الانسان و التاريخ ، CNRPAH، الجزائر 2008 ص 49 .

[7] المصدر السابق ، ج2 ص 102-140 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 122-251 .

[8] الونشريسي ، المعيار ، ج1 ص 13،12.

[9] وهيبة بغلي : المرجع السابق ص 12.

القعه أو مَلْحَه : تصنع من قطع جلدية نيئة تطلى بالملح ثم تترك لتجف تحت أشعة الشمس ، ثم تلف قطعة الجلد على القدم وتشد بحبل رفيع من الدوم أو الديس و تغلف القدم بخرقة مشدودة بشريط قماش إلى أعلى الساق ثم يشد هذا الحبل على القماش و لا يوجد أثر للخياطة في هذا الحذاء ، و انتشرت هذه الأحذية في الأوراس و نواحي قسنطينة [1].

القرق : يقص قطعة من جلد البقر المدبوغ ، وجزمته تكون من جلد الخروف وتكون به زخرفة في جزئه الأمامي و هو مخاط بسيور من الجلد وكان واسع الاستعمال لدى بدو الأوراس والعرب الرحل[2].

2-2لباس النساء :

الخمار : وهو ما تغطي بها المرأة رأسها و ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى " وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرَهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ " [3]، و يكون الخمار على أنواع منه الغليظ و الرقيق ، وله ألوان أيضا كالأصفر كالأصفر و الأخضر [4].

الكساء : يعني به مجموع اللباس وهو قطعة من النسيـــج ويعرف عند العـــامة بالكســا ، وكان شائع الاستعمال في المغرب والأندلس [5] ، وهو عبارة عن قطعة نسيجية مستطيلة يتراوح طولها بين أربع وستة أمتار ، فيما عرضه لا يقل عن المتر والنصف ، ويمكن القول أن القياس يكون حسب الذوق وحسب البنية الجسمية للمرأة ، و تختلف المادة المستعملة في صناعته حسب الفصول ففي فصل الصيف يستعمل من الحرير [6] ، والقطن ، [7] ، والكتان [8] و رقيق الصوف [1] و في الشتاء من

---

[1] وهيبة بغلي :المرجع نفسه ص 12.

[2] نفسه ص 13.

[3] سورة النور ، الآية 31.

[4] كرم كمال الدين الصاوي : العمائم والشاشية و أغطية الرؤوس في مصر و المغرب في العصر الاسلامي (دراسة وثائقية) ،مقال في كتاب ندوة البردي و المخطوطات العربية في إفريقيا ، مطبوعات معهد البحوث و الدراسات الإفريقية ، القاهرة 2005 ص 135 .

[5] الحميري :المصدر السابق ص 607.

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 98 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص176.

[7] شهاب الدين بن فضل الله العمري ،و صف إفريقيا و الأندلس ، تح حسن حسني عبد الوهاب ، مطبعة النهضة ، تونس ص 98 ، الونشريسي : المعيار ، ج3 ص 100 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 304 .

[8] الحميري : المصدر السابق ص 236 .

من النسيج الغليظ والملف [2] أما طريقة استعماله فكانت النساء تلتحفن به من أعلى رأسها إلى قدميها [3].

المنشف أو الوقاية : وهي التي تجمع شعر الرأس ولهذا أطلق عليها أيضا " وقاية " أو " وقاية شرب " [4]، وتستعمل تحت المقنعة أو العصابة لأنها تقي الشعر و تكون من نسيج كتان رفيع الثمن ودقيق وكانت " الوقايات المنجدة المنمنمة " من أمور الزينة التي خلعها السلطان المريني أبو عنان على نساء بني مزني اللواتي أظهرن له الطاعة وقدمن له البيعة [5].

اللحاف : و يكون عريضا يلف على أجسادهن ، و يشددنه بحزام في الخصر ثم يمسكن أطرافه إلى الأعلى على الكتف و يمسكنه بحلي من الفضة و هو ما يعرف اليوم بالملاية [6].

اللثام : قطعة من النسيج الدقيق يوضع على الوجه ويربط إلى الوراء خلف الرقبة [7]، واشتهـــرت بهذا اللبـاس نساء العرب اللواتي يضعن أمام وجوههن ثوب صغير مثقوب أمام العينين [8].

البرقع : هو ما يغطى به الوجه ، و هذا اللباس مشتهرا عند النساء في البوادي و لم يكن شائعا عند نساء الحضر [9] ، غير أن الباحثة آمنة بن ميلاد ترى أن هذا اللباس هو لباس حضري و استدلت في ذلك على أن النساء في المدن فرض عليهن تغطية الوجوه و الانغلاق و ما كتبه الجغرافيون كان عن المدن دون غيرها [10].

2-3 اللباس المشترك بين الرجال و النساء :

---

[1] نفسه ص 330 ،الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص98 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 141-282.

[2] الونشريسي ، المعيار ،ج3 ص 100

[3] ابن قنفد : أنس الفقير ص 126.

[4] الونشريسي ، المعيار ،ج3ص 100

[5] النميري ، المصدر السابق ص 434

[6] آمنة بن ميلاد : نحو قراءة جديدة لتاريخ النساء المغربيات بدويات القرون الوسطى ، مقال في المرأة المغاربية الواقع و الرؤى المستقبلية ، حولية البيئة الإفريقية لدراسة البنية و التهيئة الترابية ، العدد 2 ، 1994 ، مطبعة ا داكار ، 1994 ص 54 .

[7] محمد مقر : المرجع السابق ص 121

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 64

[9] كرم كمال الدين الصاوي : المرجع السابق ص 138 .

[10] آمنة بن ميلاد : المرجع السابق ص 53 .

رغم وجد ألبسة خاصة بالرجال و أخرى بالنساء إلا أن هناك لباس مشترك بينهما نذكر منه :
القميص: ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة يوسف " وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبْ "[1] ، وهو لباس مخيط يضم مجموعة من القطع النسيجية المضمومة بعضها إلى بعض بطوق بارز في الأعلى وكُمّين طويلين في الأسفل ، يكون ممتد طولا إلى القدمين أو إلى نصف الساق وهو لباس للرجل وللمرأة على حد سواء وكانت تلبسه نساء الأعراب ويكون عادة ذو لون أسود [2].
الدراعة أو الجبة : لباس للرجل والمرأة وهي نوع من القمصان العريضة والطويلة المتخذة من نسيج دقيق وناصع البياض وهي تختلف عن جبة الرجال [3]، ويختلف أيضا عن اللباس النساء الزاهدات والتي تسمى المدرعة وهي لباس فضفاض مثل الجلباب [4].
ألبسة الحرير : كانت تلبس النساء الأردية المنتخبة من الحرير الصافي و " الدمقس المغار الفتل المحكم التقدير " [5]، ولم يقتصر الحرير على النساء فقط بل لبسه الرجال أيضا ، كما استعمل أيضا في لحف لحف النوم وستائر النوافذ والأبواب ، وحتى الموتى يسترون على النعش بالحرير ، كما كانت العمائم التي يزينها الرجال بجوزاء في وسطها تنسج من حرير ملون في طرفي العمامة ثم تشد في وسطها [6].
الكساء : و هو يختلف عن الكساء الخاص بالنساء فهذا اللباس يكون منفردا وهو لباس للرجل والمرأة وحين يتحدث ابن خلدون عن البربر يقول " لباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف ، يشتملون الصماء بالأكسية " [7]، هذا اللباس شائعا في كل بلاد المغرب وخاصة في المناطق الريفية [8]، والسبب يرجع إلى إلى أن الأكسية لا تلبس وإنما يلتحف بها [9] ، ولما كانت صناعة الخياطة من اختصاص أهل الحضر

---

[1] يوسف الآية 18.
[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 64 ، مارمول كربخال :المصدر السابق ج1 ص111.
[3] محمد مقر : المرجع السابق ص 110
[4] ابن قنفد : أنس الفقير ص85
[5] النميري : المصدر السابق ص 334.
[6] محمد حجي : المرجع السابق ص 139
[7] العبر ،ج6 ص 89 .
[8] ابن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ، تح إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2 ، الجزائر ، 1982 ص 125.
[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 97 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 6.

التحف أهل البادية الثياب " و إنما تفصيل الثياب وتقديرها و إلحامها بالخياطة للباس من مذاهب أهل الحضارة وفنونها " [1].

الجبة :وهي كما عرفها ابن منظور ضرب من معلقات الثياب [2] ، و أكثر من لبسها الزهاد والمتصوفة، والمتصوفة، مثل الشيخ علي بن محمد الذي صال وجال في كل أقطار المغرب بجبة من الصوف خضراء اللون ، وحزام من الصوف مصنوع بتلمسان ، وعمامة ونعلان [3] ، أما الجبة التي ترتيدها النساء فتكون من الصوف وعلى رأسها تليس تحت الذقن [4] ،و المادة الأولية في صناعة هذا الملبس فهو الكتان الغليظ، والملف ، والقطن والصوف [5].

القبقاب :نعل من الخشب علوه بين 10.8و 24.3سنتمتر [6] ، أخذ اسمه من الضجة الصوتية التي يحدثها عند اصطدامه بالأرض أثناء السير [7]، و يصفّح في بعض الأحيان بالحديد للحفاظ على صلابة الخشب ، ويغطى بجلد مطرز بالحرير للزيادة من جماليته والجميل هو الذي يكون مصنوع من خشب الليمون والعناب ، أما الأكثر صلابة فيكون مصنوعا من خشب التوت ، وكان لباس للرجال والنساء على حد سواء ويستعمل خارج المنازل وله دور في زيادة طول القامة [8]، و لبس في منطقة القبائل كثيرا [9].

ما يمكن ملاحظته على ملبس الريفيين أنه كان لباسا بسيطا في مجمله ، غير أنه كان في كثير من المرات يتماشى و فصول السنة حيث يكون لباس الصيف لباسا يحمي من حر الشمس و يكون لباس الشتاء واقيا من البرد القارص ، كما يمكن ملاحظة أيضا وجود لباسا موحد يمكن أن يرتديه الرجال كما يمكن أن ترتديه النساء ، وجد لباس خاص بكل منهما .

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ص 289.

[2] المصدر السابق ، ج1 ص242.

[3] الباديسي : المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تح سعيد أعراب ، ط2 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993م ص 72

[4] ابن قنفد : انس الفقير ص 126

[5] محمد مقر: المرجع السابق ص 161

[6] نفسه : ص 124.

[7] وهيبة بغلي : المرجع السابق ص 43 .

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج 2 ص 243

[9] وهيبة بغلي : المرجع السابق ص 43

3/السكن :

تختلف المساكن باختلاف أنماط العيش و المستويات المادية و الاجتماعية لأصحابها ويمكن التميز بين أنواع المساكن الخاصة بالرحل ونصف الرحل و المستقرين.

مساكن الرحل :

الخيام هي أهم أنواع السكن بالنسبة لمعظم الرحل و تعرف بالخيمة ، و هي على حسب ابن منظور بيت مستدير يبنى من عيدان الشجر [1]، و هي البيت و المنزل الذي يسكنه البدوي الذي يحترف الرعي و التنقل ، و يختلف شكلها و حجمها و لونها و المواد المصنوعة منها من مجتمع إلى آخر [2] ، فتكون الخيمة من الشجر مثل خيمة أبي الحسن الصنهاجي الزاهد [3] و هناك المصنوعة من من شعر الماعز [4] ، ومن الوبر و الجلود [5]، و ورد في القرآن الكريم ذكر بيوت البدو في قوله تعالى :"و :"و اللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ بُيُوتِكُم سَكَنًا و جَعَلَ لَكُم مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَومَ ظَعْنِكُم وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُم وَمِنْ أَصْوَافِهَا و أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثًا و مَتَاعًا إِلَى حِينْ " [6] و يسمى اجتماع الخيم بالحواء أو الحلة أو النجع أو الدوار و في الغالب تكون القرية متنقلة ومعدة لأن تزول بسرعة [7].

و الخيمة تنصب على ركيزتين طويلتين يوصل بينهما بعارضة محدبة تسمى الحمَّار ، و على أعمدة في الأطراف و تشد بحبال إلى أوتاد تغرس في الأرض و يقسم داخلها إلى قسمين متساويين يفصل بينهما أكياس المؤن و أمتعة الأسرة ، و يوضع ستار بين قسمي الخيمة في حالة زيارة أجنبي سترا للنساء ، و يخصص أحد القسمين للضيوف و مكانا لنوم الأطفال البالغين ،و القسم الآخر للأكل و الأشغال اليومية للزوجة و الأطفال الصغار و مكانا للنوم بالنسبة لهم ، و يستغل حيزا من

---

[1] المصدر السابق ، ج2 ص933

[2] محمد استيتو :الفقر و الفقراء ص308.

[3] التادلي : المصدر السابق ص206

[4] محمد الخطيب : المجتمع البدوي ،ط1 ،دار علاء الدين للنشر و التوزيع و الترجمة ،دمشق 2008 ص 138.

[5] محمد استيتو: الفقر و الفقراء ص308 .

[6] سورة النحل الآية 80

[7] محمد الخطيب : المرجع السابق ص 138.

هذا المكان لإعداد الطعام يسمى " الحصور " وعمر الخيمة يكون بين خمسة و عشر سنوات على حسب الاعتناء بها و في كل مرة يغير الجزء الذي تعرض للتلف[1].

و بيوت البدو حارة في الصيف باردة في الشتاء و لا تقي من الرطوبة و المطر ، تخفق فيها الرياح و تهزها ، وقد تسقطها العواصف على رؤوس أصحابها [2].

و انتشر هذا النوع من نمط العيش في المناطق الجنوبية ، و توسع في كل بلاد المغرب مع التغلغل الهلالي ، ثم انتشر أكثر حتى في الشمال بسبب الاضطرابات السياسية و الأمنية التي عاشتها أرياف المغرب الأوسط في فترة الدراسة[3] ، فسكان تاسلة كانوا يعيشون تحت الخيام بسب تخريبها [4].

نصف الرحل :

هم من الذين اتخذوا من كهوف الجبال مأوى لهم و لمواشيهم فمثلا جبل مطغرة رغم برودته الشديدة كان كثير السكان [5] ، وتعدد مصطلح يسكن الجبل أو جبل كثير السكان عند حسن الوزان في مواقع كثيرة [6].

بيوت المستقرين :

وهي في الغالب بيوت متواضعة للغاية و هو ما يستشف من وصف دقيق للحسن الوزان عند حديثه عن قصر إيسلي " ولا يشتمل القصر إلا على أكواخ سيئة ذات جدران من الطين وسقوف من القش " [7] وكذا مساكن تبسة كانت قبيحة [8]، لكن هذا لا يعني انعدام البيوت الجميلة فبيوت

---

1 محمد استيتو :الفقر و الفقراء ص 310

2 محمد الخطيب :المرجع السابق ص 138

3 محمد استيتو :الفقر و الفقراء ص310.

4 الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص25، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 325.

5 الحسن الوزان : المصدر نفسه ج2 ص 43 ،مارمول كربخال: المصدر نفسه ج2 ص 351 .

6 الحسن الوزان: المصدر نفسه ج2 ص ص 46،43 ،104،101.

7 الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2 ص12 ، مارمول كربخال: المصدر السابق ،ج2 ص294.

8 الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص63.

هنين في " غاية الجمال و الزخرفة "[1]،و البيوت في نقاوس "أنيقة و بهيجة "[2] وكذا البيوت التي كانت خارج قسنطينة فهي " بنايات عديدة محترمة عتيقة " [3] .

أما في بنائها فيعتبر الحجر ضروري لبناء الأسس و الأسوار إذا كان متوفرا بكثرة ، و في حالة انعدامه استعمل المقدار الذي هو يشبه الآجر متوازي المستطيلات ، يصنع من الطين المبلل الممزوج بالتبن أو بأوراق الشجر و يجفف في الشمس ، و تغطى الأسوار و البلاط بالطين المبلل الممزوج بالتبن ثم تطلى بالغراء و خاصة منها الأسوار الداخلية للحجرات ، و السبب جعل الأسوار الخارجية صعبة الاختراق على اللصوص ،أما الباب فيكون في وسط الواجهة الأمامية للحجرة و يكون قليل الارتفاع بحيث لا يدخل الفرد المتوسط القامة إلا منكفئا و تصنع في الغالب من مجموعة من " الرطايل " تكون متشابكة تشد إلى إطار مستطيل من أعمدة متداخلة في بعضها عبر فتوحات وتشد بحبال ،أما النوافذ فلا تتخذ إلا نادرا بحثا عن الأمن، و إنما تترك طيقان في أسوار الحجرات الداخلية لوضع وسائل الإنارة [4].

وقد حاول ابن مرزوق أن يعطي وصفا دقيقا للدار التي بناها أبو الحسن المريني لزوجته بنت السلطان أبو يحي الحفصي فقال " أريد دارا تشتمل على أربعة قباب مختلفة و دويرتين تتصلان بها منقوشة الجداران بالصناعات المختلفة بالجبس و الزليج و النقش في الأرز المحكم النجارة و الصناعات المشتركة ، ونقش ساحة الدار و فرشها زليجا و رخاما بما فيها من طيافير الرخام و السواري ، والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم المشتركة المدهونة ، والأبواب بالصناعات المؤلفة و الخزائن و الخوخ جميعها " [5] ، و إذا كان هناك اختلاف واضح بين مساكن العامة و مساكن الخاصة فالمواد المستعملة هي نفسها .

تكون هذه المساكن في الغالب من طابق واحد [6] ، وحتى عند الخاصة و الأمراء و الوصف السابق الذي تحدث عنه ابن مرزوق لم يحمل في معناها أن هذا المسكن فيه أكثر من طابق .

---

[1] نفسه ص15.

[2] نفسه ص53.

[3] نفسه ص58 .

[4] محمد استيتو : الفقر و الفقراء ص313

[5] المسند الحسن ،ص448 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق، ج2 ،ص53.

ويسمى تجمع المساكن بالمدشر ويختلف عدده على حسب كثرة السكان أو قلتهم ، و تكون المساكن متباعدة ، فجبل بني يزناسن يضم مداشر عديدة [1].

إذا كانت هذه هي حالة المساكن فإنها عانت من مشاكل التلوث إذ كان قضاء الحاجة في الأرياف يتم وراء المساكن للبالغين و حتى في وسط المسكن بالنسبة للصغار [2] .

وكانت محتويات المسكن بسيطة بساطة المسكن حيث اقتصر على الحاجيات الضرورية التي لم تتعدى في الغالب أفرشة و أغطية للجلوس و النوم و أواني لإعداد الطعام ، وما يمكن الجزم به أنه لا يوجد بيت يخلو من الصندوق الخشبي الذي يقتنى في الغالب ضمن جهاز العروس و يستعمل لحفظ ملابس المناسبات و الأفراح و وسائل الزينة وما غلى ثمنه وما يخشى عليه من الضياع ، في حين كانت الملابس العادية تعلق في أوتاد أو مسامير مثبتة على الحائط [3].

أما الأواني المنزلية فكانت من الطين والخشب و الحديد و النحاس ومما يستخدم لطهي وتناول الطعام ،كالقدر و البرمة و الكسكاس و الطنجية و الصحن و المخفية [4]، و استعمل للماء الأباريق [5]،كما توفرت الدور على رحى يدوية تستعمل لطحن الحبوب لاستخراج ما تحتاج إليه الأسر يوميا من دقيق ويملكون وسائل غربلته [6]، و مما وجد في البيوت وسائل الإنارة كالقناديل التي تستعمل الفتائل و الزيت [7].

ما يمكن ملاحظته على المسكن أنه يختلف باختلاف طبيعة سكانه ، فسكن المنتقل قابل للنقل و سكن المستقر ثابت ، غير أن السكن الثابت تستعمل فيه نفس وسائل البناء بالنسبة للغني والفقير و الاختلاف قد يكون في المساحة المبنية و جودة المواد المستعملة ، كما يلاحظ أيضا أن ما يوجد في البيوت أيضا بسيط بساطة المعيشة و يعتبر من ضروريات العيش .

المبحث الثالث :

---

[1] نفسه ص43.

[2] محمد استيو : الفقر و الفقراء،ص323

[3] محمد استيتو : المصدر نفسه ص328

[4] نفسه ص330

[5] البادیسي : المصدر السابق ، ص 32.

[6] محمد استيتو :الفقر و الفقراء ص331.

[7] البادیسي :المصدر السابق ص 95

العادات والتقاليد :

تعددت العادات والتقاليد في ريف المغرب الأوسط، غير أنها اختلفت في مضمونها بين عادات حميدة مستحسنة في المجتمع و شجع عليها كل أفراده و عادات قبيحة مستهجنة من كل فئاته.

العادات الحميدة :

رسخت الكثير من العادات و التقاليد الحميدة في المجتمع الريفي في هذه الفترة ، و التي منها ما اندثر و زال، و منها ماهو باقي إلى اليوم وسنحاول البحث عن هذه العادات و التقاليد و تبيانها. الكرامات :وهي من الذهنيات التي انتشرت في أرياف المغرب الأوسط ، كان يتمتع بها الصلحاء فكان أبو مسعود بن عريف من الذين يشتهرون بهذه الكرامات ، إذ كان يحدث الناس من منطقة تليك بما يرى في قسنطينة وهي تبعد عنها بمرحلتين ، ومن كراماته أنه لما بويع أبو بكر بن يحي بن إبراهيم الحفصي المتوكل على الله (711-747هـ /1311-1346م) ، في قسنطينة وضع يديه عليه في ذلك اليوم وقال له " تطول مدتك إنشاء الله وتأمن من القتل " وهو من سماه المتوكل على الله ، فكانت وفاة السلطان بعد ست وثلاثين سنة من مبايعته وكان سبب الوفاة مرض يسير أصابه سنة 747 هـ /1346م[1].

ومن كراماته أن الحاجب أبا عبد الرحمن بن عمر دفع لبعض تلاميذ الشيخ ألف دينار في اليوم الذي بويع فيه السلطان وقال له " أعط هذا لسيدي يعقوب ولا تدفعها له إلا بعد وصوله إلى زاويته " ، فخرج الشيخ مسافرا فلحق به تلميذه والمال معه ، فصار الشيخ يردد ما هذا الشوك الذي معنا في الطريق فأعلمه تلميذه بالمال فأمره برده إلى عبد الرحمن ابن عمر ، فرده التلميذ ورجع إلى الشيخ وقال قد فعلت ما أمرتني به فتحرك الشيخ وقال الطريق الآن نقي[2].

وهناك طلب البركة حيث كان الناس يتبركون بوجود ثلاث كتب على الأقل في منازلهم وخيمهم ،وهي المصحف الشريف ، و صحيح البخاري ، ودليل الخيرات ، ولهذا تنافسوا في

[1] ابن قنفد القسنطيني : أنس الفقير ص 78 .
[2] نفسه ص 79.

استنساخها باليد واعتنوا بزخرفتها و، كانوا يعلقونها في وسط السقف وذلك للدلالة على العناية والتشريف والتقدير والتعظيم [1].

وأما العادات التي تتعلق بالمواسم ، فهناك عادة تسبق شهر رمضان تسمى شعبانة يقوم الناس فيها بتحضير الولائم في شهر شعبان ، و شاعت هذه العادة خاصة عند طلبة العلم [2]، أما العادات التي صاحبت فريضة الصوم فوضع أبواق "مفزعة ولذا ينفر منها الحمار، لهذا جرى عليها العمل أنها تستعمل في المساجد والجوامع في شهر رمضان ليستيقظ النائم للسحر " [3] ،كما صاحب هذا الشهر قيام الأسر بإعداد أشكال من الحلوى والمعجنات ، وكانت لليلة القدر مظاهرها الخاصة إذ كانت الأسر تسعى لأن يصوم أبنائهم صيامهم الأول ، فيتزينون ويخرجون إلى المساجد والزوايا وزيارة الأهل والأقارب قبل أن يحين موعد آذان المغرب ، وربما كان القصد من ذلك تسليتهم و إلهاؤهم عما يكونون قد شعروا به من جوع ، ويتوج صيام شهر رمضان الاحتفال بعيد عيد الفطر فكانوا يقومون بإخراج زكاة الفطر ثم الذهاب إلى المصلى لأداء الصلاة مكبرين مهللين ، ثم يكون تبادل التهاني والزيارة ، و تقدم مأكولات خاصة منها العصيدة والرغايف والبغرير والمخرقة [4].

أما عيد الأضحى فكان مصاحبا لفريضة الحج التي هي من أركان الإسلام ، و كانت لها مكانة خاصة عند سكان الريف إذ اجتهدوا أثناء الإعداد لها بتهيئة الثياب البيض والتزين بالحناء ،[5] و مما يرويه العبدري في رحلته عن كيفية التعامل مع الحجاج أنه لما كان بتلمسان شاهد مجموعة من الحجاج يزيدون عن الألف فقام ملكها وأعطى كل واحد منهم دينارا ، ومن أغرب ما شاهده حسب قوله أن المنصور صاحب مليكش قدم عليه جماعة من نحو عشرين حجاج وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم فرحب بهم واحتفل في الترحاب بهم ثم قام و نادى :" يا أهل الدوار هؤلاء

---

[1] أحمد حدادي : نماذج من عادات المغرب الشرقي وتقاليده ،مقال العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007 ص 291.

[2] محمد بن شريفة :المرجع السابق ص 85.

[3] العقباني : المصدر السابق ص 41 .

[4] عباس الجراري : الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية ، مقال في كتاب العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007 ص57.

[5] نفسه ص 59.

ضيفان الله من يحمل منهم إلى بيته واحدا وجعل يكرر ذلك فلم يجبه أحد لذلك "[1]، يمكن أن نستنتج من كلام العبدري المكانة التي تمتع بها الحاج في رحلته إلى بيت الله جعلت من حاكم مليكش يضيف هؤلاء عند أهل منطقته غير أنه يرجع و يقول أن أهل الدوار لم يجيبوا طلب حاكمهم والسبب يرجع ربما إلى الفقر الذي كان يعيشه هؤلاء أو يمكن إدراجه تحت النقد الذي وجهه إلى كل بلاد المغرب فهو في كتابه يحاول ذكر المساوئ التي وجدها في بلاد المغرب دون الحديث عن المحاسن.

وتظهر مكانة الحاج عند عودته من الحج حيث كان يستقبل بالأناشيد ومنها :

الحمد لله

والشكر لله

ما خاب عبد

قصد مولاه [2]

ومن عادات عيد الأضحى إحياء السنة بتقديم الأضاحي غير أن ذلك صاحب عادات أخرى منها أن بعض الأسر كانت تترك تفصيل الأضحية إلى اليوم الثاني الذي يوافق أول أيام التشريق ، وأطلق على هذه العملية التسطير أو التشطير، وهناك أسر أخرى عمدت إلى " جرح " الأضحية ومعناها قطع كتفها لأكلة الكسكوس في عشاء العيد [3]، و كانت تقدم الأضاحي للفقراء والمساكين في هذا العيد [4].

ومن العادات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، فكان هناك احتفال رسمي بهذا العيد و قام به الأمراء الزيانيون الذين كانوا يقومون بدعوة الأشراف و أعيان المجتمع و عامة الناس إلى هذا الاحتفال فيقومون ببسط " نمارق مصفوفة و زرابي مبثوثة و شمع كالاسطوانات ...و تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون ، و بأيدهم مباخر ومرشات ينال منها كل بحظه " ، ثم تقدم مدائح في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم [5] ، و لم يكن الاحتفال بالمولد فقط ، بل حتى احتفلوا بالليلة

---

[1] أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري : الرحلة ،تح علي إبراهيم كردي ، تقديم شاكر الفحام ، ط1 ، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع ، دمشق ، 1999 ص 48.

[2] عباس الجراري : المرجع السابق ص60

[3] عباس الجراري : المصدر نفسه ص60

[4] النميري : المصدر السابق ص 332

[5] مجهول : زهر البستان ص 58 ، التنسي : المصدر السابق ص 162 .

السابعة للمولد في عهد الأمير أبو تاشفين الثاني (791-795هـ/1389-1392م) و كان " بمثل احتفاله لليلة المولد أو أعظم ".

أما الاحتفال الشعبي فتعددت طرقه ومنها زيارة الأشياخ والعلماء ، ومن الأشياخ الذي كانت لهم زيارة الشيخ إبراهيم بن محمد بن علي التازي الذي نزل بضواحي مدينة وهران وكانت له هناك زاوية [1] ، و كذا إيقاد الشموع وتعطير المحيط بأنواع العنبر والورد وبماء الزهر والورد ، ويحضر المغنون لامتداح الرسول صلى الله عليه وسلم [2]، وما كان في مدح الرسول إنشاد قصيدتي البردة والهمزية للبوصيري وكانت تنشد في البيوت والمساجد والزوايا وكذا تلاوة القرآن الكريم والأذكار و الأدعية [3] ، كما يؤكل فيه الطعام بشكل جماعي [4]، ومن الأطعمة التي كانت تقدم في هذا اليوم بعض المعجنات مثل الرغايف و البغرير ، ويكون الفطور في هذا اليوم بالعصيدة التي تعد بالحليب والدقيق تيمنا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول المغاربة أنه أول طعام تناوله الرسول ، وهناك من عمد إلى تقريب الذبائح والقرابين عند الأضرحة ، وهو ما دفع العلماء إلى رفض ذلك واعتبروه من البدع المنكرة [5].

ومن طرق الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كما قال بعض العلماء ومنهم الشيخ عيسى بن محمد بن عبد الله -الذي يعرف بابن الإمام- بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة "وإحيائها بأنواع البر ومعونة آله وتعظيم حرمهم وإحياء سنته أفضل مما سواها مما أحدث "[6].

ومن الاحتفالات الاحتفال بعاشوراء ويكون ذلك بالإنشاد ومن ذلك ما أنشده الشيخ إبراهيم التازي قال انشدها أبو الفتح قال انشدها أبو الفضل العراقي وما فيها :

استفتح العام بالصيام　　لله في شهره الحرام

وعاشر الشهر صم يكفر　　عنك ذنوبا مضت عام

ووسع العيش فيه مما　　يحسن من طيب الطعام

---

[1] ابن صعد التلمساني :المصدر السابق ص 168.

[2] النميري : المصدر السابق ص 332

[3] عباس الجراري : المرجع السابق ص 61

[4] النميري : المصدر السابق ص 332.

[5] عباس الجراري : المرجع السابق ص61.

[6] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج 1 ص 232 .

واغتنم العمر فهو ضيف   لا تطعمن منه بالمقام
يمر عام من بعد عام   وأنت في لهو والتعامي
فارجع إلى الله من قريب   فقد دنت صرعة الحمام
وخف بياتا على اغترار   واحذر صباحا لذي انتقام
ولا تكن يائسا قنوطا   فالعفو من شيبة الكرام
فأضرع إليه بصدق وقصد   فغنه غافر الظلام
وأسأله عفا لما تقضي   وحفظ الصون على الدوام [1]

كما كانت عاشوراء مناسبة لإخراج الزكاة ، وهو يوم سن الصيام فيه والتوسعة على العيال مع حث الأطفال على تجريب الصيام وإلهاء الذكور منهم بألعاب خاصةً النارية وتلهى الإناث بالدمى ، و انتشر في هذا اليوم التخضيب بالحناء مع استعمال الكحل والسواك ، واستعمال البخور وأكل الفاكهة المجففة ، وهو فرصة لزيارة المقابر و رواية حكاية مقتل الحسين ، والطعام الغالب في يوم عاشوراء الكسكوس المفور ب" اللّية " التي هي مؤخرة الخروف وذنبه التي يحتفظ بها من أضحية العيد [2] ، وفي هذا اليوم كانت تقام عمليات ختان أطفال الفقراء وتقدم مساعدات لذويهم [3] .

و إن كان هذا اليوم فرصة لإظهار بعض العادات المستحسنة ، ظهرت فيه أيضا بعض العادات الذميمة المخالفة للشرع ، إذ كانت بعض النساء تحتفظن بكتف خروف العيد ، ويتخذونه لقراءة الحظ قبل أن يقمن بدفنه في هذا اليوم ، واتخذت نساء أخريات في هذا اليوم مرآة تسمى " أمرايت إبليس " لمعرفة الحظ ، و خصص هذا اليوم إلى عمل السحر أو لفكه ، و فيه أو اليوم الذي يليه ينظم استعراض للفتيات وهن متزينات بغرض طلب الزواج [4] .

ومن الذهنيات المعروفة والتي أثارت ضجة كبيرة قراءة الفاتحة دبر كل صلاة وذكر الله في الجماعة والتداول به والإعلان به وتعين أوقات لذلك ، والتصافح في كل وقت والذكر بطريقة السبحة و التي اعتبارها البعض من الأمور المبتدعة ، غير أن الشيخ أبو يوسف السنوسي اعتبارها من الأمور الخيرة واستدل في ذلك بالقول بأن العلماء اتفقوا على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل

[1] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 178 .
[2] عباس الجراري : المرجع السابق ص57، 58.
[3] النميري : المصدر السابق ص 332.
[4] عباس الجراري : المرجع السابق ص 59

الأعمال وهذه كلها نوافل ومن الأمور الخيرة التي يتقرب بها إلى الله ، وهذا بصريح الحديث القدسي " لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن أعاذني لأعيذنه " [1] .

ومن العادات المعروفة أيضا الاجتماع للذكر والزيارات في الله والقيام بالإعلان بالذكر إذا أشرفوا على دور إخوانهم وتكون أيضا فرحة بتوبة العاصي [2].

ومن العادات الدعاء في أوقات معلومة ، ومن ذلك ما قال به الفقيه الثعالبي ويقول أنه جربها وهي أنه من أراد أن يستيقظ وقت ما شاء من الليل فليقرأ عندما يغلبه النعاس بحيث لا يتجدد له بعده خواطر أواخر سورة الكهف من قوله تعالى " أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا " [3] إلى نهاية السورة فإنه ينتبه في الوقت الذي شاءه بلا شك ، ومن أراد أن يستيقظ ساعة الإجابة التي في الحديث فليقرأ عند نومه " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا " [4] إلى آخر السورة فإنه ينتبه فيها بإذن الله وربما يتكرر تيقظه لأمر أراده الله تعالى [5].

ومن الأمور التي أثارت الجدل الصلاة عند الدخول إلى المسجد بعد الغروب وقبل إقامة الصلاة، إذ كان الفقيه أبو عمران المشدالي إذا دخل المسجد قام وثبت قائما حتى تقام الصلاة دون أن يُعلم هل هو يصلي أم لا ، و هناك من يقول ومنهم المقري يجوز الصلاة قبل إقامة الصلاة لانتهاء وقت المنع بالغروب[6] .

ومن العادات التي استحدثت قول " أصبح ولله الحمد " والتي كانت تقال بعد الفراغ من آذان الفجر و ظهورها كان على عهد الموحدين ، و استمرت رغم موقف الفقهاء الرافضين لهذه البدعة المستحدثة [7].

---

[1] محمد بن يوسف السنوسي : رسالة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير ص 413.

[2] نفسه ص 418 .

[3] الكهف الآية 102-110

[4] الكهف الآية 107-110 .

[5] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج1 ص 202

[6] نفسه ص 291.

[7] عباس الجراري : المرجع السابق ص 54.

ومن التقاليد التي أحدثت والتي اعتبرت من البدع المستحسنة قراءة القرآن جماعة يوم الجمعة عقب الصلاة وكانت هذه العادة مغربية خالصة [1]، في حين انتشر قراءة حزب من القرآن والمواظبة عليه في سائر الأيام و كان الفقيه الشريف التلمساني من المواظبين على قراءته [2]، و كان هذا الورد من الأمور التي اعتبرها بعض الفقهاء من البدع و اعتبرها ابن رشد مكروهة في حين أفتى بعض الفقهاء بجوازها واستحبابها إذ نقل التنبكتي عن أبو سعيد بن لب قول " ثم إن العمل بذلك قد تضافرت عليه أهل هذه الأمصار والأعصار ، وهذه مقاصد من يقصدها فلن يخيب من أجرها، منه تعاهد القرآن حسب ما جاء فيه من الترغيب في الأحاديث ، ومنها تسميع كلام الله لمن يريد سماعه من عوام المسلمين ، إذ لا يقدر العامي على تلاوته فيجد بذلك سبيلا إلى سماعه ، ومنها التماس الفضل المذكور في الحديث إذا لم يخصص وقتا دون وقت " [3] .

وفي يوم الجمعة كان يرفع علم أزرق فوق الصوامع ، و سبب هذه العادة أنه كان يوضع علم أبيض على الصوامع يعلق وقت دخول الصلاة لإخبار الناس وتنبيههم بحلولها وفي الليل توقد القناديل لأجل ذلك ، وتميزا ليوم الجمعة غير اللون إلى الأزرق و أول من أحدث هذه العادة هو أبو عنان المريني [4] .

كما انتشرت ظاهرة المسح على الخفين والتي أثارت جدالا بين الفقيه سليمان الونشريسي وأحد تلامذته ، إذ قال الإمام أن ابن رشد قد قال بذلك ونفى التلميذ ذلك ولما أعطاه كتاب ابن رشد وتأكد التلميذ اعتذر من الإمام [5].

ومن العادات التي انتشرت إيداع الودائع عند أهل العلم ، حيث تم إيداع وديعة عند إمام أهل برشك أبو الإمامين أبو زيد و أبو موسى ، الذي قتله صاحبها يومئذ زيوم بن حماد بحجة أنه أمسك بوديعة أعدائه [6] ، ومن الذين كانوا أمناء للودائع الفقيه الشريف التلمساني الذي استودعه قاضي قسنطينة حسن بن باديس أمانة في قرطاس فوضعها في بيته ، ولما طلب صاحب الوديعة وديعته

---

[1] نفسه ص 54 .

[2] التنبكتي كفاية المحتاج ، ج2 ص 77 ، التنبكتي : تطريز الديباج ، ج2 ص96 .

[3] الونشريسي : المعيار ، ج7 ص236

[4] عباس الجراري : المرجع السابق ص 54 .

[5] الونشريسي : المعيار ، ج1 ص 197

[6] نفسه ص 268

أخرجها وقرأ ما في القرطاس فوجد مكتوبا على ظاهره مائة قطعة ذهبية ولما عدها وجدها خمس وسبعون فزاد خمس وعشرين قطعة من عنده وبعث بها إلى صاحبها ، فمكث يومين ورجع إليه وقال يا سيدي وجدت في الأمانة زيادة خمس وعشرين قطعة فرد عليه لم أعدها حين أخذتها ولما طلبتها وجد مكتوب مائة فعددتها فوجدت خمس وسبعين فظننت أنها ضاعت عندي ، فقال بل وضعت خمس وسبعين فرد إليه الزيادة وحمد الله على وجود مثله [1].

كما انتشرت عادة تزاحم الأطفال على تقبيل يد العلماء تبجيلا وإكراما لهم ، و كان العلماء كرد على ذلك يوقرون الكبير ويقفون مع الصغير ويتواضعون للضعفاء ومن الأشهر العلماء الذين اتصفوا بهذه الصفات الجليلة العالم محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي [2].

ومن العادات نجد الزهد والإعراض عن الدنيا ومن ذلك أن الفقيه محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي عرض عليه السلطان أخذ جزء من غلّات مدرسة الحسن أبركان فاعتذر وألحوا عليه في ذلك فاعتذر بكتاب وكان يقول : " الولي الحق من لو كشف له عن الجنة وحورها ما التفت إليها ولا ركن لغير الله ، فهذه حقيقة العارف " [3].

ومن العادات التي انتشرت في تلك الفترة الولائم وكان يدعى إليها مختلف فئات المجتمع وحتى العلماء [4] ، و تحت الولائم يمكن إدراج إطعام الطعام حتى في الأوقات العصيبة ، فالتادلي يذكر لنا حادثة مفادها أن شخصا قدم على أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي فدعاه إلى المبيت عنده فذّكرته أمه أنه لا يوجد ما يطعم به الضيف ، فقال أن الله سيرزقه وهو ما كان ، إذ جاءت مملوكة بطاجين فيه لحم طحان ورغيفان من الدرمك [5]،كما كان أهل قصر إيسلي يقدمون " الطعام والشراب في غالب الأحيان مجانا و بسماحة إلى كل من مر من هناك " [6] ،و أهل دلس يصيدون السمك و يهدونه لمن يرغب فيه [7]، و يمكن ضم الصدقة إلى إطعام الطعام إذ كان الفقيه محمد بن

---

[1] نفسه ، ج2 ص98.
[2] نفسه 253.
[3] الونشريسي : المصدرنفسه ،ج2 ص 253.
[4] نفسه ص 254.
[5] التادلي : المصدر السابق ص305.
[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص12.
[7] نفسه ص42

يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي يأمر أهله بالصدقة وخاصة في وقت الجوع ويقول من " أحب الجنة فليكثر الصدقة خصوصا في الغلاء " [1].

ومن العادات المنتشرة الصيام حيث هناك من يصوم صوم داود عليه السلام ، فالعالم الجليل محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب يصوم يوما ويفطر يوما وكان يفطر على ما تيسر وقد يبقى ثلاثة أيام من غير أكل ولا شرب ، وكان إذا سئل أصائم أم مفطر كان يجب لا مفطر ولا صائم ، فيقال لم لا تذكره لنا ؟ فكان يبتسم ومن أخلاقه أنه لا يرفع صوته ويمازح أصحابه ويصافح الناس ولا يمنع من تقبيل يده ،ويلبس اللباس المعتاد وكان من الذين يقومون الليل وقد نذر نذرا إن عاد إلى النوم بعد استيقاظه يصوم عام فصار يحي الليل كله إلى الفجر فأثر في وجهه[2].

ومن العادات المنتشرة الإيثار إذ روي أن الفقيه أبو علي عمر بن العباس الصنهاجي المعروف بالحباك كان يجالس بعض الفقراء على السطح من دون حصير فقدم عليه رجل وقال له أشتري لكم حصير تفترشونه فقال له نعم ، فجاء الرجل بالحصير وجلسوا عليه فدخل عليهم فقير فقال له أبو علي ألك حصير في البيت ؟ فقال نعم فقال أيهما أجود هذا أم حصيرك ؟ فقال هذا فقال له خذ هذا وأحضر لي حصيرك ، فدخل عليه فقير ثان فقال له أعندك حصير في البيت ؟ فقال نعم فقال أحصيرك أجود أم هذا ؟ فقال هذا فقال له خذ هذا واحضر حصيرك ، فدخل فقير ثالث فقال أعندك حصير في البيت فقال لا ؟ فقال له خذ هذا الحصير [3].

و من الأخلاق الحياء ومن ذلك أن السلطان طلب من الفقيه محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي أن يأتي إليه ويقرأ عليه التفسير على عادة المفسرين ، فامتنع من ذلك ولما ألحوا عليه كتب إليه معتذرا بغلبة الحياء له وأنه لا يقدر على الكلام في حضرة السلطان فاعفي من ذلك [4].

ومن العادات المنتشرة أيضا إعارة الحلي ، إذ كانت النساء تستلفن مجموعة من الحلي وهو ما أدى إلى نشوب الكثير من النزاعات بسب إنكار بعض النساء استلافهن للحلي ، وهو ما أدى إلى عرض مثل هذه القضايا على القضاء [5].

---

[1] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص256.

[2] التنبكتي :كفاية المحتاج ، ج2 ص 211 ، التنبكتي : المصدر نفسه ص257.

[3] التادلي : المصدر السابق ص 365.

[4] التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص 154

[5] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 119 ، التنبكتي : المصدر نفسه ، ج1 ص168

على كل ومن خلال عرضنا للعادة الحميدة المنتشرة في أرياف المغرب الأوسط ، نلاحظ أنها في الغالب عبارة عن أخلاق إسلامية جاءت بها الشريعة غير أن المغاربة قاموا بصبغها بصبغة محلية وسمات مغاربية.

العادات الذميمة :

عرفت أرياف المغرب الأوسط انتشار للكثير من العادات الذميمة في المجتمع ، و التي أثرت تأثيرا مباشرا على تركيبته و بنيته الاجتماعية منها :

الاحتفالات بأعياد غير المسلمين ، إذ احتفل بأعياد النصارى حيث سئل أبو الأصبغ عيسى بن محمد عن "ليلة ينير التي يسمونها الناس الميلاد ويجتهدون في الاستعداد لها ويجعلونها كأحد الأعياد، ويتهادون بينهم صنوف الأطعمة و أنواع التحف والطرف المنوية لوجه الصلة، ويترك الرجال والنساء أعمالهم صبيحتها تعظيما لليوم ويعدونه رأس السنة " ، ورغم رفض الفقهاء رفضا مطلقا لمثل هذه الاحتفالات واعتبارها من البدع المحرمة مستدلين في ذلك بأحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم " إنكم مستزلون بين ظهراني عجم فمن تشبه بهم في نيروزهم ومهرجانهم حشر معهم "[1] وقال أيضا " من تشبه بقوم فهو منهم "[2]،هذه العادة استمرت في العصر الوسيط وبقيت مستمرة حتى يومنا هذا.

ومن الأمور التي تقام في هذا اليوم أنواع من الحلوى ، كما يعمد التجار إلى غلق حوانيتهم وخاصة حوانيت العطارين [3].

وهناك الاحتفال بيوم العنصرة وهو اليوم الذي ولد فيه يحي عليه السلام و يوافق اليوم الرابع والعشرين من جوان ومن مظاهر الاحتفال به إشعال النار والقفز فوقها [4]، كما كانوا يجرون بالخيل ويتبارزون ، وتقوم النساء في هذا اليوم بوشي بيوتهن و إخراج ثيابهن للندى في الليل وترك العمل في

---

[1] لم نعثر على هذا الحديث في كتب الحديث .

[2] أبو داود السجستاني : سنن أبي داود ،ج4، دار الكتاب العربي بيروت ص 78 ، الونشريسي : المعيار ، ج11 ص 150،151.

[3] محمد بن شريفة : المرجع السابق ص 80.

[4] نفسه ص 83.

ذلك اليوم والاغتسال له ، وهو ما اعتبره الفقهاء مخالفا للشرع واعتبروا من فعل هذا فقد أشرك في دم زكريا عليه السلام [1].

من العادات المذمومة في الريف انتشار الرذائل منها الدعارة والفساد ، وما يؤكد هذا الوصية التي أوصى بها أبو حمو موسى الزياني حين قال " وأما النار فيكون مثلها في الحدة على أهل الدعارة والفساد وأصحاب الشر ولا يبقي أحدا منهم ولا يذر ولا يترك لهم عينا ولا أثر " ، ثم عاود الوصية فقال " وينبغي للملك أن يباغت عدوه من حيث لا يشعر به ، ويفاجئ أهل العداوة والدعارة في حال غفلاتهم كما يفعل الموت " [2].

كما انتشرت عادة النظر إلى النساء إذا مررن في الطريق ، و وقعت هذه الحادثة مع الفقيه محمد بن عمر أبو الفتوح التلمساني الذي نظر في امرأة فقالت اتق الله يا أبا الفتوح " يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُدُور " [3]، وهو ما كان سببا في زهده عن الدنيا وخروجه من وطنه[4] .

و انتشرت ظاهرت الوشم وهو غرز الإبرة في البدن وذر النيلج عليه وهو دخان الشحم ، أو تغرز الإبرة حتى يسيل الدم ثم يحشى الكحل في موضعه [5] ، و كانت منتشرة لدى نساء العرب في بعض البوادي والتي وشمت أشكال هندسية بسيطة ورسوم جميلة مثل بعض الأزهار أما أماكن الوشم فهي العنق والذقن والوجه والثدي والذراعين واليدين والرجلين والساقين [6] ، و عرف سكان برشيك وجبال بجاية و الجزائر انتشارا واضحا للوشم إذ كانوا يرسمون صليبا أسودا على الخدين و الأيدي [7].

ومن العادات الذميمة منع المرأة من الميراث وهو عرف تعارف عليه الناس في بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي ، ولذلك رفعت إلى الفقهاء عدة أسئلة حول هذا الموضوع ، وقد أجاب الفقيه محمد بن يوسف السنوسي بما نصه " وما ذكر من تواطؤ الناس في تلك

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج11 ص151 .

[2] أبو حمو موسى بن زيان العبد الوادي : واسطة السلوك في سياسة الملوك ، تقديم : عبد الرحمن عون ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ط1 ، 1990 ص 134.

[3] سورة غافر الآية 19.

[4] التنبكتي ، كفاية المحتاج ،ج1 ص 136

[5] الفيروزبادي : القاموس المحيط ،دار الجيل ، بيروت ص 1506.

[6] الحسن الوزان :المصدر السابق ج1 ص 64 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج1 ص 94

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ج2 ، ص 33 ، ص 102 مارمول كربخال : المصدر نفسه ص94.

البلد على منع النساء من الميراث في القرن الخامس إلى الآن دعوى لا سبيل لتحقيقها ،وقصارى ما يستند إليه فيها الامتناع من توريثهم في الحال ، فدل أنه كان عادة لهم فيما مضى أو كونه لم يشاهد للنساء نصيب بالإرث في ربع ولا عقار ، وكلا المستندين ضعيف ، فهو عمل باستصحاب الحال فيما مضى قبله وهو باطل على ما حقق في الأصول " [1] ، أما الفقيه إبراهيم العقباني فأجاب بما نصه : "هذه المسألة يتحرى للسائل موضعها والتثبت على أصولها وفروعها وهو حقيق بذلك ، إذ لم يجر في فرضها على أسد المسالك ، بل أساء الظن بأهل بلد من بلاد المسلمين ، ونسب لجميعهم ما يكاد يخرجهم ، ويستحيل عادة أن يتمالأ أهل بلد كلهم صالحهم وطالحهم على منع فريضة من فرائض الله في الميراث ، ولا يوجد فيهم قوام بأمور الدين يُتمسك به للنصرة ويغاث ، وتتأكد الاستحالة فيما عزا ذلك إلى القرون الماضية ، إذ لا يكاد المرء يصل إلى علم ذلك فيما يقرب من أسلافه فكيف يدرك من الأمم الماضية " [2].

ما يمكن ملاحظته على هاتين الإجابتين الإجابة الأولى كانت تأكد وجود تأكيد مطلق تقريبا على أن النساء منعن منعا تاما من الميراث ، غير أن الإجابة الثانية حاولت أن تبين أن هناك استثناء و ربما يكون الاستثناء هو الغالب ، لأن الفقيه حاول في نهاية فتواه أن يبين أن كل ما قيل عن القرون السابقة هو كلام مجانب للصواب مستدلا في ذلك على أن الخبر القريب لا يمكن التأكد من صحته فكيف يمكن أن نتأكد من خبر غبر.

ومن العادات الذميمة السرقة إذ شهد المجتمع المغربي ما اصطلح عليه باللصوصية ومن المناطق التي عرفة هذه العادة القبيحة الأرياف المغربية ولم تكن هذه الظاهرة منعزلة بل كانت منتشرة انتشارا واسعا.

حيث سئل الفقيهان أبو عبد الله محمد بن مرزوق وسيدي أبو الفضل القاسم العقباني عن خمسة رجال من أهل السرقة و الخيانة وقطع الطريق و غير ذلك من أنواع الفساد معروفين بذلك مشهورين به قدموا على مجشر و أرادوا السرقة وهم بالسلاح ثم قتلوا رجلا من أهل مجشر ، و تمكن أهل المجشر من القبض على رجلان [3]، من هذه النازلة يمكن أن نستنتج أن عملية السرقة كانت

[1] الونشريسي : المعيار ، ج11 ص 296.

[2] نفسه 249.

[3] الونشريسي : المصدر نفسه ج2 ص402.

منظمة وقد تفضي إلى القتل إذا كانت هناك مقاومة ، كما أن عصابات السرقة مسلحة و لا تتوانى في استعمال القوة ، ثم إن أهل القرى و الأرياف كانوا في خوف دائم من العصابات وهو ما دفعهم إلى التكتل لمواجهة هؤلاء .

ولتأكيد انتشارها تحدث الحسن الوزان عن هذه الظاهرة أثناء حديثه عن معسكر و قال أنه سرق منه في معسكر عنان فرسه و أنه لما حكا ذلك لنائب الملك رد عليه أن اللصوص من الذين يشتغلون بغّالين " إنهم يسرقون دائما لأن كافة البغّالين ببلادنا تعودوا على ذلك منذ طفولتهم ، فنتركهم يسرقون و تعسا لمن لا يحترس منهم " [1] ،كما أكد ذلك أثناء حديثه عن صحراء أنكاد حيث قال : " و هي مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك " [2] ، و تحدث عن هذه الظاهرة عبد الباسط خليل " دخلا لمكان سكني اثنان من السراق و اختفيا بالمنزل من غير أن أشعر بهما ثم ثارا علينا ليلا و جرى لي معهما أنا و مملوك لي خطب كبير " [3].

و بالانتشار الواسع لهذه العادة القبيحة سنت عقوبات رادعة لمحاربتها و التي يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أنواع عقوبات السلطة أو ما يسمى بالعقوبات الشرعية ، وهناك العقوبات العرفية وإن كان بعضها مستنبط من الشرع ، ثم عقوبات متخيلة فرضها الأولياء على اللصوص عبر مجموعة من الكرامات [4] .

فالعقوبات الشرعية هي التي أشرفت السلطة في الغالب على استصدارها و تطبيقها منها قطع اليد وهي العقوبة الشرعية للسرقة استنادا للآية القرآنية الكريمة " و السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعَوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " [5] ،و هناك الضرب و استعملت هذه العقوبة في الأماكن التي لا تقطع فيها يد السارق، واشترط في الضرب أن يكون موجعا و أن يكون النكال شديدا على قدر الجرم[6] ، ومن العقوبات السجن فالسارق الذي إذا قوبل ولم يقاتل من قابله وفر

---

1 الحسن الوزان :المصدر السابق ، ج2 ص27.

2 نفسه ص11.

3 عبد الباسط بن خليل : المصدر السابق ص 42 .

4 محمد ياسر الهلالي : لمحة عن العقوبات العرفية للصوصية في المجال القروي المغربي خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، مقال في كتاب الأعراف بالبادية المغربية ، تنسيق البضاوية بلكامل و أحريات ،منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ، ط1 ،طبع دار السلام للطباعة والنشر و التوزيع ، الرباط ، 2004 ص 159 .

5 سورة المائدة الآية 38

6 الونشريسي : المعيار ،ج2 ص405.

فيجب سجنه [1] ، وهناك القتل وهو عقوبة كان يصدرها السلطان على من يسرق زمن الأزمات [2] ، و وصل الحد إلى قطع الرؤوس وتعليقها على أبواب الأسوار [3]، وغيرها من العقوبات الشرعية وسبب القول أنها شرعية كونها استصدرت من قبل الفقهاء الذين يمكن اعتبارهم ممثلي الشرع و الناطقين باسمه .

العقوبات العرفية وهي التي تعارف عليها مجتمع أو إقليم من الأقاليم فالبكري يتحدث عن عقوبات عرفية كانت في الصحراء إذ كانوا " يعمدوا إلى عود فيشق باثنين و يشد على صدغي اللص في مقدمة رأسه و مؤخره فلا يتمالك أن يقر و لا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته " [4] وربما تكون قد استمرت إلى فترة الدراسة ما دامت المدة الزمنية ليست بعيدة ثم لا يوجد ما يوقف العمل بهذه العادة .

ومن العقوبات العرفية عقوبات مالية على اللصوص من أجل ردعهم عن السرقة " فمن جعل يده في مال رجل بالغصب فعليه خمسون دينارا لسبب تعديته في مال المسلمين " [5]، " فإن لم يكن بيده شيء يباع عليه ملكه بحضرته في ذلك جبرا ، و إن لم يكن له ملك أخذوا ما سلبه من أقاربه "[6]،كما سلطت على اللصوص و قطاع الطرق عقوبة هدم داره و إتلاف أمواله و أكلها ردعا له ولأمثاله وعلى "المتهم عندهم أن يعطي خمسين يمينا ، يعينه أقاربه في حلفها و منهم من يعطي عشرا" و ليس من الشرع أخذ القريب بجناية القريب وهو ما يحمل عليه قوله تعالى " أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " [7] و كذا تحليفه خمسين يمينا ليس من الشرع لأن الحلف لا يكون إلا بيمين واحدة [8] .

أما العقوبات المتخيلة التي فرضها الأولياء على اللصوص ، ففي البداية كإجراء وقائي إقامة بعض المرابطين أربطة لمحاربة مروعي المسافرين و إغاثة اللهفان و دفع الفساد عن أهل الأمان ، وهذا

---

[1] نفسه ، ج2 ، ص286

[2] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ص 258.

[3] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ، ص 391.

[4] البكري : المصدر السابق ، ص 170

[5] محمد ياسر الهلالي : لمحة عن العقوبات اللصوصية ، ص 162 .

[6] أحمد بابا التنبكتي : أجوبة في شأن القوانين العرفية ، مخ الخزانة الحسنية ، رقم 5813 ، ص 1 .

[7] سورة النجم الآية 38

[8] التنبكتي : أجوبة في شأن القوانين العرفية ، ص 2.

ما اعتبر من أعظم المثوبات ولا يمكن إلا أن يعتبر جهاد عظيم وشرف مقيم [1]، و إذا وقعت السرقة فقد اضطلعت كرامات الأولياء بدور كبير في معاقبة اللصوص،بل و دفعهم أحيانا إلى إعلان توبتهم .

ومن ذلك أن شخصا يسمى "الشيخ عثمان بن موسى المسعودي العامري طاغيا جدا لا يبالي بأخذ الأموال و ذبح الرجال من غير سبب " ثم إنه تعدى على بعض من ينتمي إلى الشيخ سيدي محمد الهواري فبعث لمن يعرف هذا اللص يطلب منه إرجاع ما أخذ و الكف عن ذلك لكن اللص استهزأ بطلب الشيخ ، فدعا عليه الشيخ محمد الهواري ، فكان عقابه أن " أخذه من فرسه وضرب به على الأرض فوجدوا والعياذ بالله رأسه داخل في جوفه " [2].

كما أقدم بعض الشباب من أهل العباد على جنان أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق وقالوا ليس في العباد أطيب من رمان الجنان ، فدخلوا الجنان وقطعوا الرمان لكنهم لم يستطيعوا حمله ولا ترك الجنان ، ولما قدم الشيخ في الصباح قال لهم " كفيتمونا مئونة القطع ، ثم قال لهم خذوا أجرتكم ، فأعطاهم منه و دعا لهم فانصرفوا تائبين " ، ثم إن شخص آخر اعتاد على السرقة فقيل له هلا سرقت جنان فلان فعزم على ذلك ، وأراد سرقة الايجاص فلصقت الشجرة بيده ولم يستطع إزالتها عن الشجرة ، وفي الصباح قدم الشيخ فقاله له السارق إني تائب فقال له الشيخ انطلق ، فقدم على الشيخ وقبّل يده و قال ادع لي فدعا له بصدق التوبة فكان من الصالحين [3] ،وهذه العقوبات هي في الغالب عقوبات تحمل تحتها طابع الكرامة الذي انتشر بكثرة في هذه الفترة.

من خلال عرضا للسرقة يمكن الجزم أن هذه الظاهرة كانت منتشرة انتشارا واسع في كل بلاد المغرب ، ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن السرقة تنوعت فهناك سرقة المال و سرقة الفواكه المختلفة ، كما يمكن أن نميز الحكم المستصدر الذي قد يتعدى الحكم الشرعي المعروف لحد السرقة إلى القتل و السبب يرجع إلى كون السارق قد يقتل من يقف في طريقه أثناء عملية السرقة ومن ثم يقتص منه بالقتل ، وفي كثير من المرات اعتبر أقارب السارق متورطين معه في السرقة ولو ضمنيا ومن ثم دخل أقاربه كجزء من العقوبة وتحملوا بعضا منها.

---

[1] الونشريسي : المعيار،ج2 ص 403.

[2] ابن مريم : المصدر السابق ص 232-233.

[3] أبو عبد الله محمدابن مرزوق : المناقب المرزوقية ،دراسة و تح سلوى الزاهري ، ط1 ن منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 2008 ص163، 164

و من العادات الذميمة الكهانة حيث عرفت أرياف المغرب الأوسط انتشار الكهانة والسحر من ما قبل الإسلام ، إذ كانت الكاهنة بنت داهية ذائعة الصيت في كل بلاد المغرب ، وحكمت أهلها و قادت المقاومة ضد الفتح ، و بدخول بلاد المغرب في الإسلام سعى القائمون عليه محاولة محاربتها ورفضهم لها رفضا مطلقا ، و لكن رغم ذلك ورغم أن البربر اعتنقوا الإسلام استمرت الكهانة كظاهرة اجتماعية ، فكان في قبيلة غمرت [1]كاهن يسمى موسى بن صالح مشهور عندهم ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريقة الرجز فيها أخبار بالحدثان ، وكان يتنبأ بأن يكون لزناتة من الملك والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان ،كما تنبأ " أن تلمسان ينالها الخراب، وتصير دورها فدنا حتى يثير أرضها حراث أسود بثور أسود أعور وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلمته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سني ستين وسبعمائة "، و بلغ الحد بالزناتيين إلى أن قال بعضهم إنه نبي ، في حين أقر البعض الآخر أنه كاهن [2] ، ولم يحدث شيء مما تنبأ به هذا الرجل .

وتحدث الحسن الوزان و مارمول كربخال عن رجل يعيش مع أتباعه في سهل خال من السكان بقرب من البطحاء ادعى الولاية فتعاظم ماله و كانت له مكانة خاصة عند السلطان وعند الأعراب و زاد عدد أتباعه[3] ، و روى الحسن الوزران أنه اجتمع به و كان يخلو به " كل ليلة و أتناول معه العشاء في حجرة خاصة، ومن الأشياء التي عليها بعض الكتب الخاصة بالسحر و الكمياء ، يحاول أن يبرهن لي على أن السحر علم لدرجة أني جعلت أتهمه بالسحر و ذلك لأني رأيت الناس يبالغون في تقديسه وتعظيمه دون أن يفعل أو يقول أو يخترع شيئا "[4] .

من خلال عرضنا للكهانة نقول أنها ظاهرة اجتماعية لاقت رواجا في أرياف المغرب الأوسط بسبب ضعف الإيمان من جهة و التصور القاصر من جهة أخرى ، و هو ما كان سبب في انتشار الكهانة و التصديق بما يقوله الكهنة .

المبحث الرابع :

---

[1] غمرت قبيلة بربرية وهم إخوة وجديجن من ولد ورتنيص و كانوا يستقرون قبلة جبال صنهاجة إلى الدوسن ، ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 50.

[2] نفسه ص 51

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص28،29 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص326

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص29.

نظرة أهل الريف إلى المرض و الموت :

مما ارتبط بالحياة الاجتماعية النظرة إلى المرض و الموت و محاولة تفسير هاتين الظاهرتين تفسيرا محليا ، قد يكون قاصر و ما يصاحب هذه الظواهر من سبل لمواجهتها و قد تكون مستمدة من الشرع أو العرف أو التجربة .

1/النظرة إلى المرض :

عرف ريف المغرب الأوسط انتشار رهيب لأنواع الأمراض المختلفة ، وكانت تحصد في طريقها الكثير من الأرواح، وهو ما دفع السكان إلى محاولة التصدي لها ويكون ذلك بالتداوي أو باستعمال عادات وتقاليد بعيدة عن التطبيب قد تندرج تحت السحر ، وربما هي التي تحدث عنها ابن خلدون " للبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي و عجائزه و ربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي و لا على موافقة المزاج " [1].

وقبل الحديث عن الأمراض التي انتشرت في أرياف المغرب الأوسط وطرق التداوي منها وجب تعريف المرض ، يعرفه ابن منظور على أنه هو السقم و هو ضد الصحة [2]، و هو نفس تعريف الجوهري [3] ، في حين يعرفه بطرس البستاني ب مرض الحيوان يمرض مرضا و مُرضا أظلمت طبيعته واضطربت بعد صفائها واعتدالها ، فهو حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل ويقابله الصحة ، والمرض يختص بالجسم و المـُرض يختص بالنفس [4].

و إذا أردنا إعطاء إطلالة على التطبيب في أرياف المغرب الأوسط فيجب الوقوف على فضل معرفة علم الطب و أنه شطر العلم لقوله صلى الله وسلم " العلم علمان علم أديان و علم أبدان " [5] و أورد الجزنائي : "لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطان حاضر ، وطبيب ماهر ، ونهر جار ، و قاض

---

1 المقدمة ص346

2 ابن منظور ، المصدر السابق ،ج1 ص 231

3 الجوهري : الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية ،تح أحمد عبد الغفور عطار ، ط4 ،ج3، دار العلم للملايين بيروت ،1987 ص 1106

4 بطرس البستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1977 ص 846.

5 محمد بن يوسف السنوسي : رسالة في الطب ، تح خالد زهري ،ط1 ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، 2002 ص 32 .

عادل ، وعالم عامل ، و سوق قائمة " [1] ،و انطلاقا من فضل الطب و طبيب ماهر فإننا نجد أن فترة الازدهار هي فترة القرنين الخامس و السادس الهجريين و ذلك بسبب تشجيع السلطة الحاكمة للأطباء و مساهمتها في بناء المستشفيات [2] ، أما فترة الدراسة فهي فترة ركود خاصة القرنين السابع والثامن رغم محاولات السلطة الحاكمة الاهتمام بهذا الجانب ، ليتحول الركود إلى انحطاط في القرنين التاسع و العاشر وذلك بسب التدخل الأجنبي [3] .

و من الأمراض المنتشرة مرض العيون فهناك نسبة عالية من حالات العمى و الرمد و ألم العيون، و السبب يرجع إلى المناخ الشبه الجاف المنتشر في كل بلاد المغرب والذي من ميزاته أشعة الشمس القوية و كثرة الرياح والغبار [4] ، وهناك من يفسر سبب المرض تفسيرا سطحيا فالشيخ أبو زكريا يحي بن صالح المصطاوي و هو عبد صالح " كثير البكاء و الخوف من الله تعالى ، وما زال يبكي إلى أن سقطت عيناه من كثرة البكاء " فالبكاء من أسباب مرض العيون [5] ، هذا المرض أصاب كثيرا الشيوخ فأبو إسحاق إبراهيم بن ميمون بن بهلول الزواوي كف بصره في آخر حياته توفي في شعبان سنة 686هـ /1287م [6]،و لم يسلم من هذا المرض الشباب و الأطفال أيضا فقد كان لأبي زكريا يحي بن محمد بن عبد الرحمن التادلي ولد صغير أعمى [7] ،و في الغالب من أصيب بهذا المرض كان لا يطلب العلاج و اعتبر ذلك باب من أبواب الجنة ومن ثم وجب ولوجها من هذا الباب [8] .

---

[1] علي الجزنائي : جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تح عبد الوهاب بن منصور ،ط2 ، الطبعة الملكية ، الرباط ، 1991ص33 .

[2] نادية بلحاج :التطبيب و السحر في المغرب ، ط1 ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الرباط 1986 ص 25

[3] نفسه ، ص 27،26.

[4] محمد حقي : الموقف من المرض في المغرب و الأندلس في العصر الوسيط ، مطبعة مانبال بني ملال ، المملكة المغربية ، 2007 ص 15.

[5] التادلي : المصدر السابق ص 297 ،ابن قنفد :أنس الفقير ص 70

[6] الغبريني : المصدر السابق ص 94

[7] التادلي : المصدر السابق ص 199.

[8] محمد حقي : المرجع السابق ص 15 .

كما انتشر في الأرياف المغربية مرض السل وكان انتشاره عند الصغار أكثر من الكبار والسبب يرجع إلى قلة وسائل الدفء ومن ثم انتشر السعال [1] ، و كان المصاب بالسعال يضل يسعل ثلاثة أيام أو أربعة حتى تفيض روحه [2]، و لمواجهة هذا المرض أكثر السكان من استعمال المعاجين والأدهان الساخنة [3]،كما استعملوا للعلاجه أيضا الحلبة و زريعة الكتان و خولان المكي [4] .

ومن الأمراض المنتشرة و التي صنفت في خانة الأمراض القاتلة الإسهال أو داء البطن و كل الأمراض الداخلية يمكن أن تدخل ضمن هذا النوع من المرض ، فحتى المعدة تصنف تحته و هو قاتل ومن مرض به مآله الموت ، و عانت منه كل فئات المجتمع ،[5] ولكن هذا لا يعني التسليم المطلق للقدر للقدر بل بحث المريض عن دواء لهذا الداء فمثلا كان الأطباء يعالجون المصابون بمرض المعدة بإدخال أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع [6]، كما استعمل نبات الكروية و الزعتر و الرمان والشيح لتقوية المعدة و قتل الديدان و طرد الريح [7] ، في حين ركز البعض الآخر على الوقاية من مرض مرض المعدة " فينبغي لمن كان معتنيا بحفظ صحته أن لا يمتلئ من الطعام فوق العادة ، لأن ذلك يحدث أمراضا امتلائية ، بل يأكل أقل ما يحتاج إليه ، فإنه أبقى لشهوته و أدوم لصحته "[8].

ومن الأمراض النقرس وهو مرض يصيب الرؤساء [9]، وهو عبارة عن أوجاع وآلام تصيب القدمين القدمين وتمنع الحركة [10]، ومن الذين قضوا بسبب هذا المرض عثمان بن يعقوب المريني عام 731هـ/1331م [11].

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله : العلوم الكونية والتجريبية في المغرب (كيف تطورت خلال ألف عام)ط1 ، دار المعرفة ، الرباط ، 2000 ص98.

[2] نادية بلحاج :المرجع السابق ص 32.

[3] عبد العزيز بن عبد الله :المرجع السابق ص98.

[4] نادية بلحاج : المرجع السابق ص 57،58.

[5] محمد حقي : المرجع السابق ص 17.

[6] عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص100.

[7] نادية بلحاج : المصدر السابق ، ص 57،58

[8] محمد بن يوسف السنوسي : رسالة في الطب ص 36 .

[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج1 ص 83.

[10] محمد حقي : المرجع السابق ص 21.

[11] ابن الأحمر :روضة النسرين في دولة بني مرين ، المطبعة الملكية ،الرباط ،1962 ص23،24.

كما انتشر مرض الحصبة أو ما يعرف بالحميرة (بوحمرون) و لمعالجة هذا المرض يوضع المريض في غرفة يكسى فراشها و أغطيتها و جدرانها باللون الأحمر [1].

كما شهدت أرياف المغرب الأوسط انتشارا لأمراض الأسنان ولمعالجة هذا المرض سعى بعض الأطباء إلى مضخ السن بمركب من الثوم و الملح و الفجل الوحشي ثم يملئون السن المسوسة بجذر جوز بعد غمسه في اللبن و يغطى الكل بالصمغ[2].

ومن الأمراض مرض الجذري و هو مرض جلدي معدي ، يخلف ظهور أثر على الجلد في شكل بقع حمراء وهو مميت بنسبة خمسة عشر حالة من المائة و عند الشفاء يترك ندبات لا تشفى ،و كان يظهر في المغرب كل سبع سنوات تقريبا و لمواجهة هذا الداء لجأ الناس للتلقيح ضده بحقن جراثيم بثور و دماميل العجل أو الناقة ، أو استعمال الكبريت و الملح و الخلود إلى الراحة في مكان مظلم [3].

من الأمراض المنتشرة وهددت الإنسان المغربي الجذام ، وإن لم يكن هذا المرض فتاكا وقاتلا فقد كان على المصاب به أن يعيش في عزلة تامة عن المجتمع فكان الجذامى يقيمون في سكنات بعيدة عن المناطق السكنية والمياه الجارية يبقون فيها طيلة حياتهم [4] ، ومن الأدوية لهذا المرض الخل ، ، فقد سمع يهودي حديث " نعم الإدام الخل "[5] فأنكر ذلك فأشار العلماء على الملك قطع الخل وأسبابه عن اليهود مدة سنة فتفشى فيهم الجذام [6].

وهناك داء يسمى الزهري وهو حسب الحسن الوزان" الفظيع بأوجاعه وقروحه والمنتشر كثيرا في بلاد البربر لا يكاد يسلم منه إلا القليل ... وهذا الداء لم يشاهد قط ويذكر حتى اسمه ، لكن عندما طرد الدون فرناند ملك اسبانيا اليهود من بلاده جاء كثير منهم إلى بلاد البربر فظهر فيها هذا الداء الذي حمله عدد كثير من يهود اسبانيا ، وكان لعدد من الأشقياء المغاربة اتصال مع نساء هؤلاء اليهود

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص91.

[2] نفسه ص 98.

[3] نفسه ص96.

[4] محمد الأمين بزاز :حول المجاعات و الأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط ، مقال في مجلة كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط ، جامعة محمد الخامس ، العدد 18 ، 1993 ، ط1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1994 ص 105

[5] الطبراني : المصدر السابق ، ج7 ص 159 .

[6] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج2 ص 63 ، ابن مريم التلمساني : المصدر السابق ص 159 .

وهكذا انتشر قليلا قليلا حتى لم يعد تسلم منه أية أسرة .... ويؤكدون في بلاد البربر أن أصل هذا المرض من اسبانيا " [1] .

كما تفشى في أرياف المغرب الأوسط الوباء و الطاعون ، و يعتبر البحث عن طبيعة الوباء من الأمور الملغزة التي لا تتحدث عنها النصوص بالتدقيق و إنما تتضمن إشارات عامة مثل "الوباء " " المرض " " الطاعون " وهي كلمات تستعمل للحديث عن أي وباء أدى إلى الفتك بعدد كبير من الناس وهذا دون الحديث عن أعراض هذا الوباء وهو ما يصعب تحديد طبيعته [2] ،غير أنه هناك من حاول الفصل بين الوباء و الطاعون فقال أن الطاعون يكون مصحوبا بعقدة عصبية ملتهبة في حين الوباء لا يتمخض عنه أي التهاب و يشتركان في خاصية القتل[3].

و تعددت أسباب الوباء منها " يزعمون أن تغير الهواء يكون من تغيير الفصول ، ويكون سبب فساده أيضا الأبخرة المتعفنة الصاعدة من الأرض ، وذلك أنها ترتفع أبخرة فاسدة متعفنة من السباخ ومن البطايح المتغير الهواء و الأوخام و التربة الراكدة في الهواء ، و أقذار الناس وفضلاتهم ، وجيف القتلى في الملاحم الوخيمة والدواب التي طالها الموتان ، ونحو ذلك مما يحدث البخارات المتعفنة فيتغير الهواء عنها ويتعفن ، ويحدث عنها الوباء " [4]، ومن أسباب الطاعون ظهور الفتن والحروب بسبب خروج الثوار على الأمير " فإذا ظهرت الخوارج واشتدت الفتنة فحق ظهور الغلاء لأنه ملازم لها ، وإذا كان الغلاء وطال و اشتدت أسبابه لزم عنه الوباء ، وهو علم صحيح وقانون مطرد لا يحتاج إلى تعديل ولا نظر في النجوم " [5].

ولقد تعرضت بلاد المغرب إلى وباء الطاعون ، الذي يعتبر من أشد الأوبئة فتكا و كان ذلك عدة مرات منها طاعون سنة 749هـ/1349م، الذي عاصره ابن خلدون وقال فيه " هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة، من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم، و ذهب بأهل الجيل و طوى كثيرا من محاسن العمران و محاها ، جاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج1 ص67

[2] محمد الأمين البزاز : المرجع السابق ص 102

[3] عبد العزيز بن عبد الله: المرجع السابق ص100

[4] ابن هيدور : مقالة في الأمراض الوبائية الكائنة عن فساد الهواء و الأغذية ، مخ بمكتبة آل سعود الدار البيضاء ، المملكة المغربية ، ضمن مجموع تحت رقم 1/364 ص 2-3 .

[5] نفسه ص 4.

مداها فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها ، و تداعت إلى التلاشي و اضمحلال أحوالها، و انتفض عمران الأرض بانتقاص البشر ، فخربت الأمصار و المصانع، و درست السبل والمعالم وخلت الديار و المنازل، وضعفت الدول و القبائل، و تبدل الساكن و كأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، ولكن على نسبته و مقدار عمرانه و كأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة و الله وارث الأرض ومن عليها" [1].

و كانت أرياف المغرب الأوسط عرضة للطاعون سنة 845هـ/1442م في عهد السلطان الزياني أبو العباس أحمد العاقل (834-866هـ/1431-1462م) ،وكانت عاصمة الدولة الزيانية تلمسان أكثر تضررا من غيرها ، حيث أتى على الكثير من سكانها [2] ، و هذا الوباء أصاب العامة و الأسياد و الشيوخ بدون تمييز [3].

من خلال ما سبق يمكن ملاحظة أن المرض انتشر في أرياف المغرب انتشارا واسعا ، و لم يكن مقتصرا على فئة معينة و لا على سن معين فهو مس الغني و الفقير و الحاكم و المحكوم و الصغير والكبير.

و نتيجة للانتشار الواسع للأمراض حاول الإنسان البحث عن الدواء واستعمل وسائل و صيغ متعددة لأجل ذلك ومن أشكال العلاج مايلي :

العلاج الشعبي : وهو أكثر أنواع الأدوية انتشارا و استقطابا للمرضى وهو نابع من تجربة تاريخية ولكن هذا لا يعني أنه بعيد عن الطب العلمي بل الكثير منه مأخوذ من الطب العلمي [4] ، و ابن خلدون في هذا المقام يقول " " للبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي و عجائزه و ربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي و لا على موافقة المزاج " [5] و يمارس هذا الطب من طال عمره و اكتسب خبرة ، لهذا

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ص 24 .

[2] عبد العزيز فيلالي :المرجع السابق ، ج1 ص 253.

[3] ابن أبي زرع : روض القرطاس 267.

[4] محمد حقي : المرجع السابق ص64

[5] ابن خلدون : المقدمة ص346.

نجد أغلب الأطباء الشعبيين يتكونون من هذه الفئة العمرية بإضافة إلى بعض الحرفيين كالحجامين [1] .

ومن وسائل العلاج في هذا النوع استعمال الأدوية النباتية ، و تشتمل على الاصماغ و الزهور والقشور و الأوراق ، ومنها تحضر الأدوية وذلك بوضعها في أواني فخارية و تغلّا على النار ثم تصفى وتوضع في أواني زجاجية أو فخارية ، أما صلاحية الدواء فيعتمد فيه أيضا على الخبرة و ذلك بملاحظة التغيرات التي قد تطرأ على اللون أو الرائحة أو الطعم ، وما يراعى في كمية الدواء المقدمة للمريض فهو مقدار ما يدفعه ، ومن أشهر الأعشاب النباتية زريعة الكتان ، حبة الحلاوة ، البابونج ، الحنظل ، الحلبة ، الكروية ، الشيح ، الزعتر ، الرمان ....[2].

كما استعملت الأدوية الحيوانية التي استخلصت من الحيوانات و تكلم أبو إسماعيل أحمد وهو من الذين ترجم لهم الباديسي عن ذلك حين قال :" أصابني مرض شديد فأصبحت في غاية من الضعف ...فقلت إنما يصلح حالي و يزيل مرضي مرق فلوس لو شربته " [3]، وعلى العموم فمن الحيوانات التي استعملت في الدواء " القنفد ،السلحفاة ، الحلزون ، الأفعى ،العقرب ، الذئب ، الثعلب ،الأرنب ،الحرباء و الماشية بأنواعها " ، كما استعملت بعض أعضائها كالشحوم و الدماء والمرارة و الأكباد بعد تجفيفها [4]، فمثلا في الدم يقول الزهراوي " يؤخذ الدم من حيوان صحيح الجسم غير سقيم و يذبح و يوضع الدم في زجاجة و يجفف للشمس و يرفع " [5] ويقول عن المرارة " خذ مرارة طرية و اربط فمها و صيرها في ماء مغلى و دعها فيه بقدر ما يدور الإنسان ثلاث عدوات، وأخرجها من النار ، وجففها في الظل في موضع غير ندي ، وأما المرارة التي تريد استعمالها في أدوية العين فاربط أفواهها بخيط كتان و صبها في إناء زجاج ، و صير فيه عسلا و اربط طرف الخيط بفم الإناء و غطه و اخزنه إلى وقت الحاجة " [6] وهناك أدوية من أصل معدني منها الكبريت ، ، الزرنيخ،الملح ، الكلس، الزنجار، الرصاص و الحديد [7].

---

[1] محمد حقي : المرجع السابق ص65.

[2] نادية بلحاج : المرجع السابق ص ص58،54.

[3] الباديسي : المصدر السابق ص 124.

[4] نادية بلحاج : المرجع السابق ص 58

[5] أبو القاسم خلف الزهراوي :التصريف لمن عجز عن التأليف ، مخ الخزانة العامة الرباط ، رقم ج12 ص 245 .

[6] نفسه ص245.

[7] نادية بلحاج : المرجع السابق ص60

ومن اعتمادات الطب الشعبي النار و الكي فالحسن الوزان عند كلامه عن إقليم حاحا قال " تكاد جميع الأدوية و العلاجات تكون بالكي و النار كما تعالج الحيوانات " [1]، والكي هو كي العضو المتضرر بواسطة مكواة من الحديد [2] ، وهو آخر دواء " إنه متى استعملنا ضروب العلاج في مرض من الأمراض فلم تنجح تلك الأدوية ، ثم استعملنا آخر شيء الكي فنجح فمن هنا وقع أن الكي آخر الطب الأعلى " [3]، و لا يستبعد أن تكون أرياف المغرب الأوسط استعملت الكي أيضا في علاجها خاصة أن هذا النوع من العلاج مازال مستعملا في البوادي إلى اليوم .

و قريبا من الكي نجد الفصد و يقوم على مبدأ تقليل ضغط الجسم بإخراج جزء من الدم عن طريق العروق[4]، و ذكر الزهراوي أن العروق التي جرى فصدها ثلاثون ، عرقان خلف الأذن و عرقان في الصدغين الظاهرين ، و عرقان في العينين و العرق المنتصب في الجبهة ، و العرق الذي في طرف الأنف ، و عرقان في العنق و عرقان في الشفة السفلى و عرقان تحت اللسان و خمسة عروق في كل يد ، و ثلاثة عروق في كل رجل [5]، ومن الأمراض التي كانت تعالج بالفصد البهق و الجذام و القروح، القروح، و يفصد العرق الذي يقع قرب الموضع المتضرر [6].

وهناك الحجامة التي لها نفس هدف الفصد من حيث استفراغ الجسم من الدم ، إلا أن الحجامة تتم بواسطة آلات تسمى المحجمة و التي هي من الزجاج أو النحاس أو الحديد ،و تكون العملية بأن تفرغ المحجمة من الهواء و توضع على الجلد فيحدث فيه تهيجا و ينتفخ الموضع و يحمر عند ذلك يشرط و يعاد المص فينجذب الدم بقوة [7].

كما شهد الطب الشعبي نوع آخر من التطبيب بعيد عن الوسائل الملموسة و المادية يمكن القول أنه طب روحاني وهي الرقية الشرعية لكن الإقبال المتزايد على هذا النوع من الطب استغله بعض المتحايلين لجمع الأموال فعالجوا الناس عن طريق بيع الحروز و القيام بالسحر [8]، و أدى هذا

---

[1] الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج1 ص98.

[2] نادية بلحاج : المرجع السابق ص 64.

[3] خلف الزهراوي :المصدر السابق ص 143

[4] محمد حقي :المرجع السابق ص67

[5] خلف الزهراوي : المصدر السابق ص321.

[6] نادية بلحاج : المرجع السابق ص65.

[7] نادية بلحاج : المصدر نفسه ص66

[8] محمد حقي : المرجع السابق ص 68

إلى التداخل بين ما هو مشروع كالرقية وبين ما هو محرم كالسحر و هذا ما دفع الونشريسي إلى أن يجعل من ذلك جزء من مادة المعيار فقد سئل بعضهم عن " رجل من أهل الخير و الصلاح يكتب للحمى و يرقي و يعمل النشر و لا يؤخذ على ذلك شيئا ، و يعالج أيضا أصحاب الصرع و الجنون بأسماء الله و العزائم و الخواتم و ينتفع بذلك كله من عمله " و كان جواب المفتي جواز استعمال مثل هذا العلاج دون أخذ أجر و دون كتابة حروف غير مفهومة [1] ، لكن عدم أخذ أجرة كان غير ثابت فقد أجيب في نازلة أخرى أنه يجوز للراقي أخذ أجرة على ما يقوم به خاصة إذا اشترطه [2]، وهناك من من لم يفرق بين الرقية الشرعية و الشعوذة فالكثير من المرضى لجئوا إلى العرافين الذين ينظرون في الأكتاف و الغبار و الرصاص الذائب وهو ما اعتبره الفقهاء من الأمور المحرمة تحريما مطلقا[3].

طب المتصوفة : يعتمد هذا الطب على تدخل الولي ببركته مستخدما وسائل قد تكون مجردة و قد تكون مادية ، ويستعمل فيها مثل الريق اللمس و الدعاء ، وكان اللجوء إلى مثل هذا العلاج دليل على فشل الطب العلمي ، فالكرامة تقضي بوجود أمر يتجاوز قوة البشر و عجزهم عن حله ومواجهته [4].

فيعتبر العلاج بالريق من الوسائل المفضلة لدى المتصوفة فأبو تميم عبد الواحد الأسود عالج امرأة من البرص فمسح بريقه على موضع البرص فلم يبق منه شيء [5] ، وكان أبو زكريا يحي بن ميمون الصنهاجي "يبرئ العلل بالتفل عليها " [6] و استعمل أبو الطاهر بن علام في علاج رجل تورمت عيناه بأن نفخ عليها ثلاث نفخات فعادت إلى وضعها [7]، وكان الحسن أبركان يعالج الأكلة التي تظهر في الوجه بالبصق و الريق فتزول من وقتها [8].

---

[1] الونشريسي :المعيار ،ج11 ص29.

[2] نفسه ، ج8 ص371،370.

[3] نفسه ،ج11ص382.

[4] التادلي :المصدر السابق ص217 محمد حقي : المرجع السابق ص72، 73.

[5] التادلي : المصدر السابق ص217

[6] نفسه 345.

[7] الباديسي : المصدر السابق ص91.

[8] ابن مريم : المصدر السابق ص80 .

أما العلاج باللمس و المسح بالأيدي على مكان المرض فانتشر أيضا لدى المتصوفة إذ قام أبو لقمان يرزجان بن يعقوب الأسود بالمسح على رأس صبي مريض بالصرع فشفي من ذلك المرض[1].

و لم تنته كرامات الولي و المتصوف بوفاته بل كان لقبره أيضا بركة لها وقعها في شفاء المرضى، فكان لقبر أبو سعيد الشريف الحسيني "الكرامات الباهرة و الآيات الفاخرة ما زاره ذو عاهة إلا وبرئ و لا قصده ذو حاجة إلا قضيت له بإذن الله " [2].

الطب العلمي :يعتبر الحديث عن الطب العلمي في المغرب الأوسط في هذه الفترة من الأمور الصعبة لتداخله مع الطب الشعبي في بعض الأحيان .

و بلغ هذا النوع من الطب أوجه في القرن الخامس و السادس وهو ما دفع عبد العزيز بن عبد الله إلى تشبيه تلك الفترة بالفترة الحديثة و ذلك بحديثه عن وجود مستشفيات مجهزة بأجهزة تطبيب وأدوية و أطباء ، سبب هذا التطور يرجع حسبه إلى اعتباره من العلوم التي تخدم الدين خدمة مباشرة مستندا في ذلك إلى قول الشافعي : " لا أعلم علما بعد الحلال و الحرام أنبل من الطب " [3]، لكن هذا الطب المتطور سيتراجع تدريجيا بداية من القرن السابع إلى نهاية فترة الدراسة و السبب كما أسلفنا التدخل الأجنبي [4].

يعتمد هذا النوع في تشخيص الأمراض على فحص المريض من حيث النبض و التنفس وكذا الفحوص المكملة مثل فحص البول و البراز والبصاق و العرق [5] ،و يعتمد أيضا على ما يجود به المريض عند إجابته عن الأسئلة وهذا مرتبط ارتباطا وثيقا بفطنة الطبيب و قدرته على تقدير المعلومات التي يتوصل إليها [6].

و بناء على هذه التشخيصات يقدم الطبيب الدواء للمريض ، وما كان يراعى في الدواء ثلاثة أمور الأول الكيف فيختار بين الحار و البارد و الرطب و اليابس و الثاني الكم و المقصود به كمية الدواء التي تقدم للمريض و الثالث الزمن و المقصود اختيار وقت تناول الدواء ، و هذه الاختيارات

---

[1] التادلي : المصدر السابق ص188.

[2] ابن مريم : المصدر السابق ص72

[3] عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص 17.

[4] نادية بلحاج : المرجع السابق ص 26،27.

[5] عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص 104 ، نادية بلحاج ،المرجع نفسه ص43 .

[6] محمد حقي : المرجع السابق ص98 .

هي الأخرى تخضع إلى العضو و درجة المرض و الجنس و السن و الفصل و البلد و نوع العمل وغيرها [1].

ومن ميزات الطب العلمي لجوئه إلى عمليات قاسية كانت تستهدف التخلص من العضو مصدر الألم أو جزء منه عن طريق البتر أو الكي أو القطع و الشق [2]، وهنا يمكن القول أن هناك تداخل بين الطب العلمي و الشعبي لأن هذه السبل نجدها من سبل المعالجة في الطب الشعبي .

كما قام الأطباء ببعض العمليات الجراحية، و استعملوا التخدير عن طريق عشب السيكران، ويكون تركيب دواء السيكران بأن تخلط عشبتة بالكبريت و تغلى ويكون البخار المتصاعد بمثابة المخدر الذي يستمر تأثيره أربعة وعشرون ساعة ، و إذا غاب السيكران عوض ب الأفيون أو كما ينطق عفيون و يكون استعماله كعقار صيدلي و كمخدر ، و استعمل جوز الطيب كمخدر في عملية الختان [3].

ولممارسة الطب العلمي ظهرت ما اصطلح عليه بالبيمارستانات (المستشفيات)و اختصر الاسم في بلاد المغرب ب المارستان [4] ، ومن المارستانات مارستان تلمسان الذي جعله السلطان الزياني بمناسبة مجاعة سنة 776هـ/1375م ملجأ لأهل البادية و جعل ينفق عليهم إلى أن زالت المجاعة وعاد الخصب [5] ، و كذا مارستانات بجاية التي وصفت بأنها " صروح مشيدة حسنة البناء "[6].
.[6]"

من خلال حديثنا عن المرض يمكن الوصول إلى مجموعة من النتائج منها :

تعامل المرضى مع أمراضهم بواقعية فنظروا إلى المرض على أنه مرحلة انتقالية تكون بين الحياة والموت ، وهو ما دفع إلى زيادة التعبد في فترة المرض لكن هذا لا يعني الاستسلام المطلق للمرض بل في كثير من المرات سعى المريض للبحث عن العلاج و الشفاء ومن ثم البحث عن الوسائل المناسبة ، و ارتبط اختيار شكل العلاج بعدة عوامل كالوضعية الاجتماعية للمريض و مستواه الثقافي.

---

[1] نادية بلحاج : المرجع السابق ص 43 .
[2] محمد حقي : المرجع السابق ص 100.
[3] عبد العزيز بن عبد الله:المرجع السابق ص104-105.
[4] محمد حقي : المرجع السابق ص 112.
[5] يحي بن خلدون :المصدر السابق ،ج2 ص 326 .
[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 50 .

أما موقف المجتمع من المريض فكان في كثير من المرات الاعتناء به سواء بمساعدته على التطبيب أو بزيارته ، رغم السخرية من بعض المرضى و الشماتة بهم بل وحتى رفض المجتمع لهم والمقصود هنا المجذومين .

وما يمكن استنتاجه أيضا أنه و أثناء البحث عن الشفاء من المرض وجدت أمام المريض عدة خيارات بين التطبيب الشعبي و بين التطبيب الروحي (كرامات المتصوفة) و التطبيب العلمي ، غير أن النوعين الأولين كانا لهما النصيب الأوفر لدى الباحثين عن الدواء ، كما يمكن ملاحظة تداخل بين الطب الشعبي و الطب العلمي .

ومما يستخلص أن التطبيب بصفة عامة كان مستوحى من الواقع المعاش ، ففي التطبيب الشعبي اعتمد على أعشاب و حيوانات كانت موجودة و متوفرة في المحيط الذي يعيشون فيه و لم تكن هناك صعوبة في الحصول عليها ، في حين لجأ البعض إلى المتصوفة للمكانة التي حظي بها هؤلاء و الاعتقاد السائد لدى العامة على امتلاك هؤلاء لقدرة غير طبيعية يمكن اعتمادها في معالجة الأمراض.

2/النظرة إلى الموت :

يعتبر البحث في تاريخ الذهنيات من الأمور الملغزة خاصة في ظل صيام المصادر والمراجع عن الحديث في مثل هذا التاريخ ، و تحت هذا النوع يمكن إدراج النظرة إلى الموت .

و حسب علمنا فإن الحديث عن الموت في المغرب الأوسط لم يحظ بالبحث التاريخي ، لكن هذا لا يعني النفي المطلق فباحتكاكنا ببعض المختصين في علم الآثار علمنا أن هناك الكثير من الأثريين الذين يسعون لنفض الغبار عن ما هو متعلق بالموت و يتقاطع مع علم الآثار كالبحث عن المقابر و وشواهد القبور ، وكذا سعي بعض علماء الإنثروبولوجيا لترميم ثغرات هذا الموضوع حسب ما يتماشى و طبيعة البحث الإنثربولوجي.

وإذا أردنا البحث عن تعريف للموت نجد أن المعاجم اللغوية تتفق على أنه نقيض الحياة [1] ، في حين عرّفه ابن عربي بقوله " اعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية ، وهو طارئ عليهما بعد ما كانا موصوفين بالاجتماع الذي هو علة الحياة " [2]

---

[1] ابن منظور : المصدر السابق ،ج2 ص 90، الفيروزبادي : القاموس المحيط ،ج1 ، دار الجيل بيروت ،ص 164.

[2] ابن عربي :الفتوحات المكية ،ج2 ، دار صادر،بيروت ص 618 .

وما يمكن قوله أن الموت قدر محتوم لا مفر منه لأنه خاتمة لحياة كل البشر ومن ميزاته أنه لا يفرق بين قوي وضعيف و غني وفقير و سيد ومسود و تقي وزنديق و لا يقبل فداء بمال و لا بنفس لزم على الناس القبول به و التسليم له ، وهو ما دفع إلى تشبيهه بسهم يصيب ضحاياه من بعيد دون أن يخطئ [1] .

و عكف الفقهاء أثناء حديثهم عن الموت إلى محاولة التعريف بملك الموت –أو عزرائيل كما يسميه العوام – الذي كلف بسلب الأرواح التي خلقها الله ، وأن له مساعدين من الملائكة ودورهم هو إخراج الروح من الجسد وإيداعها عند الله أو إيصالها إلى الحنجرة فيأخذها ملك الموت ، وكذا يتحدثون عن مسألة الروح [2].

كان للموت في المجتمع الريفي وقع كبير وبذلك خلف الكثير من المواقف والطقوس المتبعة في الجنائز وما بعدها .

وقبل الحديث عن الموت و ما ينتج عنه يجب الحديث عن التنبؤ بالموت والذي كثر خاصة عند المتصوفة فنظر إلى التنبؤ بالموت على أنه دليل على صدق الولاية وكرامة من الكرامات بل وعلى أنه علامة على حسن الخاتمة [3] ، ومن الذي أعلموا بيوم وفاتهم أبو زكريا يحي بن علي الزواوي إذ قام للناس ووعظهم وقال " يا أيها الناس إني راحل عنكم فظنوا أنه يسافر عنهم " وبعد صلاة الجمعة دخل موضع خلوته فلما دخلوا عليه وجدوه ميتا [4] ، ومن الذين أعلموا بسنة وفاتهم يوسف بن يعقوب البويوسفي جد ابن قنفد [5] ، كما أعلم ابن حرزهم بيوم وفاته و كان من المترددين على الحمام وفي يوم وفاته قال لخدام الحمام " اليوم بقي لكم و تستريحون مني " و خرج من الحمام إلى بيته و استلقى فجاء بعض تلامذته ليوقظه فوجده ميتا [6]،ومن الذين تنبؤا بالموت رجل مصمودي من

---

[1] محمد حقي : الموقف من الموت في المغرب و الأندلس في العصر الوسيط ، مطبعة مانبال بني ملال ، المملكة المغربية ، 2007 ص12.

[2] محمد مزين : الموت في مغرب القرن العاشر ، من خلال كتاب الجواهر للزياتي ،تاريخ وأدب النوازل دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر ، انجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط جامعة محمد الخامس ، ط1 ، مطبعة فضالة المحمدية ،1995 ص 106.

[3] محمد حقي : الموقف من الموت ص 17.

[4] التادلي : المصدر السابق ص 357

[5] ابن قنفد القسنطيني : أنس الفقير ص 83.

[6] نفسه ص47.

المتصوفة اجتمع بأربعين رجل من أصحابه فتوجه إليهم وقال " يا إخواني أما اشتقتم إلى لقاء المحبوب ؟ أما تحبون لقاء الله إن كنتم صادقين في المحبة ؟ فاسألوا الله أن لا يمر عليكم ستة أشهر إلا وجميعكم قد لحقوا به و أكون أنا أولكم "، فما حضروا من الليلة المقبلة إلا وقد دفنوه و ماتوا جميعا قبل الأجل المذكور [1] .

ومثلت الأحلام الوسيلة الثانية للتنبؤ بالموت بحيث تؤول ويحدد على ضوء ذلك موعد الوفاة فالمتصوف أحمد بن محمد الخضر الباديسي رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم يصب الماء على رأسه و أبو بكر يمشط رأسه بمشط ففسر ذلك على أنه طهارته من الدنيا ، فمات بعد أسبوع من تلك الرؤيا [2] .

و من وسائل التنبؤ بالموت سماع أصوات يسمعها الميت حيث مر المتصوف أبو ويعزان يريدن الايلاني برجلين يحفران قبرا فطلبا منه أن يقيسه لهما بقامته فلما فعل أخبراه أنه قبره [3] .

ولم يكن التنبؤ مقتصر على الميت فقط بل هناك من تنبأ له غيره ، و من ذلك أنه لما بويع السلطان أبو يحي أبو بكر سنة 710هـ /1310م في قسنطينة تقدم منه الشيخ أبو مسعود بن عريف المعروف بسيدي يعقوب وهو من جبال شلف وقال له " تطول مدتك و تأمن من القتل " فحكم مدة ستة وثلاثين سنة ومات بسبب المرض ، و كان هذا الأمير لا يحذر في حروبه ويقول " سيدي يعقوب وعدني بالموت على سرير العافية " ، وفي سنة وفاته دخل عليه في غرة رجب وقال " لا إله إلا الله دخل رجب " وكررها عدة مرات و أشار إلى الأمير بحضور أجله في ذلك الشهر فمات في رجب سنة 747 هـ /1346م [4]، و تنبأ لجد محمد بن مرزوق بوفاته بعد أن يولد له ولده وهو والد محمد فقد قال لزوجته " قيل لي : سيولد لك ولد ، وهو خليفتك ، و إنما تعيش بعدها ستة أشهر خالصة ، و تلقى ربك " [5] .

و حضور الموت بقوة في أذهان المغاربة جعل منه مصير حتمي لا مفر منه ، وهو ما جعله أكثر ألفة وصار الناس يتقبلونه بصدر رحب ، بل وأصبح هناك من يفضله على الحياة المليئة بالتقلبات ،

---

1 ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ص158.

2 الباديسي : المصدر السابق ص 127.

3 محمد حقي : الموقف من الموت ص 20.

4 ابن قنفد : أنس الفقير ص 78، 79

5 ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ص 165.

فكثيرا ما كان الناس يدعون الله بأن يميتهم بأقرب وقت ، وآخرون يقبلون على الموت ببسالة خاصة المجاهدون والحكام المدافعين عن ملكهم ، وكانت نظرة المجتمع إلى هذه التصرفات نظرة إكبار وإعجاب وامتدحت أصحابها لوقت طويل ، وعكس ذلك استهجنت الضعف أمام الموت و سخرت ممن أظهر ذلك [1] ، و سعى من تُنبأ له بالموت بالاجتهاد في العبادة فبعد أن تنبأ شخص لجد محمد بن مرزوق بوفاته بعد أن يولد له ولد بستة أشهر قضى تلك الأشهر في العبادة ولم ينم قط واجتهد فيها أيما اجتهاد فقبضت روحه وهو يقرأ القرآن [2]، وحالة التعبد لم تكن خاصة بمن تنبأ له بالموت ، بل من اقتنع بالموت سواء عندما يصل إلى الشيخوخة وما يدل عليها كالشيب أو عند تعرضه لما يدل على قرب أجله كالمرض ففي هذه الفترة بالذات يحضر الشعور بالندم وبضرورة التوبة و التراجع عن كل التصرفات المشينة التي ارتكبها في ما مضى [3].

وكان الاعتقاد السائد أن الموت يترافق بمجموعة من الأوجاع والآلام ، والتي حاول الفقهاء التهوين منها من خلال محاولة الحديث على أن لحظة الموت هي لحظة هادئة جميلة يعرف فيها المؤمن المؤدي لواجباته الراحة التامة فتكون سهلة طيبة يسهلها الأمل في الدخول إلى الجنة ، و لا تكون عصيبة إلا على الكافر [4]، ورغم محاولات العلماء التخفيف من وطأت الموت إلا أن صداه كان بالغا فاقترن بالرعب والجزع و الخوف الكبير فذكره يدفع المستمع إلى استحضار كل هذه المعاني دفعة واحدة وهو ما يمكن أن نستخلصه من هذين البيتين الشعريين :

قالوا صف الموت يا هذا و شدته فقلت و امتد مني عندها الصوت
يكفيكم منه أن الناس إن وصفوا أمرا يـــروعهـــم قـــالوا هو الموت [5]

ولم يتوقف الاستعداد للموت على الجوانب الروحية بل تجاوزه إلى الأمور المادية ، فالخطيب حسن بن الخطيب وهو والد ابن قنفد القسنطيني أعد ما يحتاج إليه بعد الموت من كـــفن ونعش وتعين نفقة [6].

---

[1] محمد حقي : الموقف من الموت ص 20.
[2] ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ص166
[3] محمد حقي :الموقف من الموت ص 24.
[4] محمد مزين : المرجع السابق ص ص 106،107.
[5] المقري : نفح الطيب ، ج6 ص50 .
[6] ابن قنفد : انس الفقير ص 87 .

في حين سعى البعض الآخر إلى البحث عن ما يدفنه معه ،فهناك من أوصى أن يدفن معه القرآن الكريم أو أحاديث نبوية أو أدعية حسنة [1]، في حين هناك من أوصى أن تدفن معه إجازته[2] .

و كانت تتم عملية التبليغ عن الوفاة وعن مكان الدفن من منابر المساجد التي هي المكان الأمثل لهذه العملية ، رغم اعتبار الفقهاء النداء من المساجد من البدع المنكرة الواجب محاربتها [3].

ومن الأمور الواجبة على الأحياء تجاه الميت :

التغسيل : ويكون على الشكل التالي " وليس في غسل الميت حد ، ولكن ينقى ويغسل وترا بماء وسدر ويجعل في الأخيرة بكافور وتستر عورته ولا تقلم أظافره ولا يحلق شعره ويعصر بطنه عصرا رفيقا، وإن وضئ وضوء الصلاة فحسن وليس بواجب ويقلب لجنبه في الغسل أحسن وإن اجلس فذلك واسع " [4]، وتكون عملية التغسيل في منزل الميت ، أما الفقراء و الغرباء والمجاذيم ومن لا أهل لهم فكانوا يغسلون في المساجد و المقابر [5].

التكفين : عمل أهل الميت على تكفينه ، و الذي يعتبر عنصرا أساسيا في عملية تجهيز الميت، وكان يراعى في عملية شراء الكفن أن يكون من مال حلال [6]، و أن يكون متماشيا مع السنة وهو على الشكل التالي "يستحب أن يكفن الميت في وتر ثلاثة أثواب أو خمسة أو سبعة وما جعل له من أزرة و قميص وعمامة فذلك محسوب في عدد الأثواب الوتر و كفن النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض سحولية أدرج فيها إدراجا صلى الله عليه وسلم ، ولا بأس أن يقمص الميت ويعمم " [7]، [7]، و سعى البعض إلى توفير كفنه في حياته فالخطيب حسن بن الخطيب أعد ما يحتاج إليه من كفن كفن ونعش وتعين نفقة قبل موته [8]، ورغم أن الموت هو انتقال من الحياة إلى الفناء استعمل البعض

[1] الونشريسي : المعيار، ج9 ص394

[2] نفسه، ج1 ص 319.

[3] نفسه ص 337

[4] ابن أبي زيد القيرواني : الرسالة ، نشر مع الترجمة الفرنسية ليون بارشي ، المكتبة العربية الفرنسية ، مكتبة الشعب العسكرية ، ط5 ، الجزائر ، 1968 ص 104.

[5] محمد حقي : الموقف من الموت ص 53.

[6] محمد حقي : المرجع نفسه ص 60.

[7] أبن أبي زيد القيرواني : المصدر السابق ص 106

[8] ابن قنفد : انس الفقير ص 87 .

الحرير والذهب في الكفن وهو ما جعل الفقهاء يحرمون هذا الكفن للرجل ويبيحونه للمرأة وهناك من أفتى بكراهيته للمرأة لما فيه من إظهار للدنيا و زخرفها [1].

في حين الكثير من الناس لم يجدوا ما يكفنون به موتاهم ، وهو ما دفع في بعض الأحيان أن يتكفل بذلك بعض المحسنين أو بعض الأمراء خاصة في أوقات المجاعات و الأوبئة [2]، وكان الكفن يحاط ببعض التصرفات الغريبة والتي شخص منها الونشريسي الحالة التالية هناك من طلب بتكفينه بثوب غسل بماء زمزم ، وهو ما رفضه الفقهاء وقالوا بوجوب غسله بالماء قبل تكفينه به [3] ، وأوصى بعض الأموات إلى دفن بعض الأشياء معهم ومنها عهد يكتب للموتى ويجعل بين أكتافهم وهو ما اعتبر محرما بإجماع من الفقهاء [4] ، ومنهم من أوصى أن يدفن معه القرآن أو جزءا منه أو أحاديث نبوية أو أدعية حسنة [5].

من الأمور التي راعاها أهل الميت أن يزف الميت و رائحة جسمه طيبة ولذلك عملوا على تحنيطه ، وما يؤكد هذا انتشار تجار يبيعون الحنوط ، رغم أنها من المهن الممقوتة في المجتمع فهناك قول شائع يقول " لا تدخل ولدك جزارا ولا حناطا ولا بائع كفن ، قيل في الجزار يلازم القسوة ، وفي الحناط أو بائع الحنوط والكفن لما يلازم ذلك من حب غلاء الأسعار على تأويل، أو حب كثرة الموت الواقع في الناس " [6]، و" الحنوط ينبغي أن يكون بين أكفان الميت وفي جميع جسده ومواضع السجود منه " [7] .

الصلاة عليه : و هي من حقوق الأموات على الأحياء ، وحتى لو دفن بدون صلاة فيصلى على قبره [8] ، و صلاة الجنازة أربعة تكبيرات ترفع اليدين في الأولى ، ولا حرج في رفعهما في كل التكبيرات ويقف الإمام وسط الرجل وعند كتفي المرأة ، وتنتهي الصلاة بتسليمة واحدة خفيفة للإمام والمأموم

---

[1] الونشريسي :المعيار ،ج1 ص345.

[2] محمد حقي :الموقف من الموت ص 60

[3] الونشريسي : المعيار ،ج1 ص9.

[4] محمد مزين :المرجع السابق ص 109

[5] الونشريسي : المعيار ، ج9 ص 394

[6] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج9 ص 56

[7] ابن أبي زيد القيرواني : المصدر السابق ص 106 .

[8] نفسه ص 112.

[1]، وتكون الصلاة على الجنازة في أماكن متعددة مثل الصلاة المفروضة ، لكن سكان بلاد المغرب اعتادوا الصلاة على الموتى في المساجد التي تحتوي غالبا على قاعة مخصصة لصلاة الجنازة يفتح لها باب يسمى باب الجنائز و اعتبره الفقهاء بأنه ليس من المسجد [2] ، ومن الذين صلوا عليهم بالمسجد بالمسجد محمد بن مرزوق (ت842هـ/1438م) وكان ذلك بمسجد تلمسان [3]،أو تكون الصلاة في المقابر وهي العادة الأكثر شيوعا ومن الذين كانت الصلاة عليهم في المقابر محمد بن النجار (ت846هـ/1442م) بتلمسان [4]، هنا يمكن القول أن المصادر تكلمت عن المدن لكن المرجح أن الصلاة على الجنازة لا تختلف عن الأرياف ، و سبب الترجيح كون المصادر لم تتحدث عن الأمور المهمة التي حدثت في الأرياف فما بالك بالحديث عن مثل هذه الأمور ، ثم كون المكانيين المذكورين للصلاة موجودين في الأرياف و إلى اليوم تقام فيهما صلاة الجنازة .

التشيع : و بعد الصلاة يكون تشيع الجنازة التي تشد إليها أكبر عدد من المشيعين ولم تكن مقتصرة على أهل الميت بل شارك فيها حتى من لا علاقة له بالميت إلا بالسكن في نفس القرية وبل وحتى من الغرباء والأعداء والمنافسين واعتبر العامل المحرك في إتباع الجنائز هو الوازع الديني [5] ، فلما توفي الشيخ الحسن أبركان في أواخر شوال سنة 857هـ /1453م كانت جنازته من" الأيام المعدودة والمحاضر المشهودة " و حضر جنازة هذا الشيخ الأمير التلمساني وامتلأت الشوارع بالنساء والرجال ، و تزاحم الناس على نعشه متبركين به وباكين على فقده [6] ، أما جنازة المتصوف أبو عبد الله بن عيسى فشهدها كل من سمع بها و لم يتخلف عن حضورها أحد ، ومما وقع في هذه الجنازة أنه لما و ضع على شفير قبره تساقط الطير عليه و أكثره من الخطاف ، و لما أدخل في قبره منع الحافرون من أن يهيلوا عليه التراب إلا بعد مدة [7].

---

[1] نفسه ص 108

[2] الونشريسي : المعيار ، ج1 ص 17.

[3] القلصادي :تمهيد الطالب ومنتهى الراغب المعروف بالرحلة ،تح محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية ، تونس ، 1978 ص 97.

[4] نفسه ص 102.

[5] محمد حقي : الموقف من الموت ص 71.

[6] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 142

[7] ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ص177.

وكان أغلب الحاضرين إلى الجنائز راجلين ، لكن هذا لا ينفي أن هناك من يأتي إلى الجنائز راكب ، ففي جنازة الفقيه التنسي الذي دفن بقرية العباد حضر جنازته الأمير المريني أبو يعقوب يوسف مع رجال دولته راكبين [1] .

خلف الموت أثار جانبية تظهر في العادات المتبعة في تشيع جنازة الميت حيث كانت مناسبة لعادات و أعراف ليست لها أي علاقة بوصايا الإسلام ، فكان الناس في طريقهم إلى المقبرة يقرؤون القرآن [2] إذ ورد في مخطوط الجواهر للزياتي ما نقله عنه محمد مزين" إنسان يوصي عند موته بأن يعطي لمن يحضر جنازته من الطلبة كذا وكذا من الدراهم أو غيرها ليقرؤوا عليه فيحضر الطلبة جنازته وفيهم من يحفظ القرآن كله ومن يحفظ نصفه ومن يحفظ ربعه ومن يحفظ أحزابا كالخمسة والستة ، ومنهم أهل الدين ومنهم المدمن لشرب الخمر " [3]، ومنهم من يهللون ويبشرون وينذرون بصوت واحد [4]، ومن الصيغ التي كانت متداولة في مثل هذه الأماكن ترديد عبارة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " [5] ، و أهل الميت من الرجال ينوحون ويصرخون ، أما النساء فكن يحلقن شعورهن ويسلخن وجوههن بالإضافة إلى الصراخ والعويل ، وكانت العادات في بعض القرى تحتم عليهن تلطيخ وجوههن بالروث والشد على رأسهن بحبل ، كما انتشر صراخ النساء وكفرهن بالله وإطلاق الزغاريد ، كما انتشرت ظاهرة استئجار محترفات للبكاء على الميت و لاقت هذه العادات استهجان من الفقهاء الذين انتقدوها بل و حرموها نهائيا [6].

الدفن : سعى المسلمون إلى توفير أماكن لدفن مواتهم تسمى المقابر حيث يعملون على تحبيس الأراضي لذلك الغرض ، إذ قام أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي المعروف بابن الميلي (ت 590هـ/1194م) ، في بلدته تاونت بأحواز تلمسان بمنح كل الأراضي التي كانت ملك له لأهل القرية باستثناء " فدانا قريبا من حصن تاونت حبسه لدفن موتى المسلمين " [7] ، و ذكر الونشريسي

---

[1] المقري : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ج5 ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، 1978 ص 13 .
[2] الونشريسي :المعيار ،ج1 ص 336.
[3] محمد مزين : المرجع السابق ص 111.
[4] الونشريسي : المعيار ،ج1 ص 313
[5] عباس الجراري : المرجع السابق ص 56.
[6] محمد مزين : المرجع السابق ص 110 .
[7] التادلي : المصدر السابق ص 303.

في المعيار قضية تحبيس الأراضي لبناء المقابر وهو دليل على انتشارها في كل أرياف بلاد المغرب [1] ، ولم يكن التحبيس فقط وسيلة للحصول على أرض للدفن بل وصل الحد حتى سلب أراضي وجعلها مقابر و أكدت على ذلك نازلة مفادها تحبيس فدان على مدرسة فدفن الناس فيها موتاهم[2].

و اعتاد سكان أرياف المغرب الأوسط على دفن موتاهم في أماكن خاصة بالأسرة ، فكانت هناك محاولات جادة من أجل لم شمل جميع أفراد الأسرة الواحدة في مكان متجاور ، وهو ما أدى إلى نقل الموتى من مكان الوفاة إلى مكان الدفن ولو كان بعيدا [3] ،و تحولت هذه العادة إلى عرف وأصبح الأحياء يدافعون عنها و كأنها ملك خاص بهم وهو ما دفع بالفقهاء إلى السماح بذلك [4]، هذه العادات أثارت بعض النزاعات بين أهل الزوجة و زوجها وأبنائها على المقبرة التي تدفن فيها [5].

و لم يكن الدفن في مقبرة الأسرة ملزما للكل ، بل هناك من تخطى هذه الأعراف و بحث عن بركة مكان الدفن وذلك بأن يوصي بمكان دفنه ، فالمتصوف إبراهيم بن عيسى بن أبي داود الذي توفي سنة 650هـ أوصى بأن يدفن في المكان الذي يسمى بوروجون بضواحي تلمسان وهو مكان يدفن فيه الصالحون حبسه أحدهم لذلك [6]، كما كان بجوار قبر أبو مدين شعيب بالعباد " قبور كثيرة متزاحمة لالتماس بركة الشيخ " [7] ، وطلبا لبركة الدفن أوصى السلطان الزياني يغمراسن بن زيان أبنائه ومنهم السلطان أبو سعيد عثمان الأول قبل وفاته قائلا " ليس لي إليكم حاجة ، إلا أن سيدي عبد الله بن مرزوق ، إذا مات تدفنوه إلى جانبي ، لعل الله أن يرحمني بجواره " [8] .

ولم تكن المقابر هي فقط أماكن للدفن فهناك من دفن بالمسجد الذي كان يؤم فيه على غرار أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد الله الصفار الذي دفن في مسجد باب القنطرة في قسنطينة[9].

---

[1] الونشريسي : المعيار ،ج7 ص150.
[2] نفسه ، ج7 ، ص 334.
[3] محمد حقي : الموقف من الموت ص 111.
[4] الونشريسي : المعيار ، ج7 ص 35-36-176
[5] نفسه ، ج1 ص319 ، محمد مزين : المرجع السابق ص 115.
[6] الباديسي : المصدر السابق ص 62
[7] ابن قنفد :أنس الفقير ص 151
[8] ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ص 167.
[9] ابن قنفد : أنس الفقير ص 57

وتخصص أناس بحفر القبور مقابل أجرة يتقاضونها من أهل الميت ، و أوجب الإسلام دفن الموتى على جنبهم الأيمن وهم مستقبلي القبلة وهو ما جعل أرجلهم إلى الشمال والرأس إلى الجنوب ومن ثم فالقبر يكون ضيق أما طولا فعلى حسب طول الميت ، والعمق يكون على حسب تقدير الحفار ومدى صلابة الأرض [1] ، ومن القبور المعروفة في العصر الوسيط القبور المسواة بالأرض فأمام ضريح أبي مدين شعيب بقرية العباد يوجد قبر أبي موسى بن يلبخت الذي توفي (703هـ/1303م) "لا طئ بالأرض وسط قبة بين قبري أبي شعيب وابنه الناسك الورع أبي محمد " [2]، ولم تكن كل القبور مسواة بالأرض وإنما هناك الكثير من القبور رفعت عنها وهذا العمل أثار حفيظة الفقهاء إذ أفتى القاضي عياض بهدم قبر رفع عن الأرض بعشرة أشبار [3] ، كما أجازوا ترك البعض من البناء بغرض تميز القبر فلا يدفن شخص آخر في موضع القبر الأول لكن القباب والسقائف والروضات محرمة ومنهي عنها حتى و إن كانت من وصايا الميت فإنها لا تنفذ [4] ، كما تسامحوا مع وضع الشواهد التي تعرف بصاحب القبر وتمنع من اختلاطه بغيره[5].

ومن العادات التي انتشرت بعد الفراغ من الدفن حمل الناس التراب من القبر بغرض التبرك واختلف في ذلك فاعتبره بعض الفقهاء من الأمور الجائزة، مستدلين في ذلك على أن الناس كانوا يحملون تراب من قبر حمزة بن عبد المطلب فكيف لا ينهاهم عن ذلك علماء أهل المدينة، وأما من نهى عن ذلك فالعلة خشية أن يكون خالطه جزء من أجزاء الميت الذين اعتبر نجاسة [6].

و إذا كان الشائع أن للمسلم الحق في الدفن بعد الموت، فإن الواقع شهد العكس في بعض الأحيان، فكل شخص يموت و هو مغضوب عليه فدفنه غير مؤكد أو يدفن في أجواء مهينة [7].

و كانت هناك علاقة خاصة و مستمرة بين الأحياء والأموات ، و هو ما جعل قبره قبلة للزيارة من أهله و أصدقائه ، و الزيارة تتم خلال السبع أيام الأولى من الوفاة [1] ،ثم بعد تلك الأيام تصبح

---

[1] محمد حقي : الموقف من الموت ص 114

[2] نفسه ص 117.

[3] القاضي عياض : مذاهب الحكام في نوازل الأحكام ، تح محمد بن شريفة ، ط1 ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 ص 301،300.

[4] الونشريسي : ج1 ص 318 ، ج9 ص395 ، ج11 ص152

[5] القاضي عياض : المصدر السابق ص 303.

[6] الونشريسي : المعيار ، ج1 ص330.

[7] محمد حقي : الموقف من الموت ص 81 .

أكثر تنظيما ويصبح لها أوقات محددة وخاصة يوم الجمعة [2]، و كانت النساء أهم زوار القبور والمعتادين عليها ، وهن في الغالب يطلن الجلوس في المقابر ووصل الحد ببعضهن إلى نصب الخيام على القبور قصد التستر على المارة [3]، و صاحب زيارة القبور الكثير من التصرفات سنحاول حصر بعضها كالبكاء العالي عند القبر فرادى وجماعات [4]، وهناك من كان يدعو عند قبور الزهاد إذ روى لنا ابن قنفد القسنطيني زيارته إلى قبر أبو مدين شعيب سنة 776 هـ /1374م ، وكانت سنة مجاعة عظيمة ، ودعا عند قبره ورحل فتحول الحال "من انقلاب الشر خيرا ما كان يتعجب من شاهده " [5]، كما كان يصلى ويقرأ القرآن ويسبح ويهلل عند القبور [6] ، و تحولت قبور الصالحين إلى مكان يقصده الناس للاستشفاء و التبرك [7].

ومن دلالات استمرارية العلاقة بين الأحياء و الأموات ، محاولة الأحياء أقامة بعض الطقوس الهدف منها تذكر الميت ، فيذكر الونشريسي في المعيار أنه كان يصنع طعام يقدم للقراء الذين يقرؤون على الميت بعد تمام يوم السابع من الوفاة وهو ما اعتبر بدعة مخالفة للسنة [8] ، وهناك من كان يقرأ القرآن ويهدي ثوابه إلى الميت وهو ما نفاه الفقيه عز الدين بن عبد السلام والذي قال أن ثواب القراءة يكون للقارئ لا للميت مستدلا بآية القرآنية " وأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى " [9]ومن ثم فالثواب لا يصل إلى الميت [10] ،في حين أبو عبد الله الحفار قال أن الثواب يصل إلى الميت إذا قرأ القارئ لنفسه ويهب الثواب الذي يجزيه الله به إلى الميت [11].

---

[1] الونشريسي : المصدر السابق ،ج1 ص319.
[2] نفسه ، ج6 ص 419.
[3] محمد حقي :الموقف من الموت ص 93.
[4] الونشريسي : المعيار ، ج6 420.
[5] ابن قنفد :أنس الفقير ص 150
[6] نفسه ص 150 الونشريسي :المعيار ،ج1ص321، 322.
[7] ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ،ص176 .
[8] الونشريسي : المعيار ، ج1 ، ص ص313،317.
[9] سورة النجم الآية 39
[10] الونشريسي، المعيار ، ج1 ص 323.
[11] نفسه ص331.

وكان انتشار ظاهرة إهداء قراءة القرآن في غالب الأحيان مرتبطة برؤى وأحلام ، [1] ومن ذلك ذلك ما رواه الونشريسي :"أن رجلا معروف بالخير والفضل ،فرأى في منامه كأنه في مقبرة ....وكان الناس قد نشروا من قبورهم وكأنه مشى خلفهم ليسألهم عن الذي أوجب نهوضهم إلى الجهة التي توجهوا إليها، فوجد رجلا على حفرته قد تخلف عن جماعتهم ، فسأله عن القوم إلى أين يريدون فقال الرحمة جاءتهم يقتسمونها ، فقال له فهلا مضيت معهم ، فقال قنعت بما يأتيني من ولدي عن أن أقاسمهم فيما يأتيهم من المسلمين فقلت له وما الذي يأتيك من ولدك ؟ فقال يقرأ " قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد " [2]كل يوم عشر مرات ويهدي إلي ثوابها "ولما سمع ابن غلبون الفقيه بهذه الرؤيا أصبح يقرؤها على والديه كل يوم عشر مرات حتى مات أبو العباس الخياط فجعل يقرأ عنه هذه السورة كل ليلة عشرة مرات ويهدي إليه ثوابها مدة من الزمان حتى عرض له عارض حبس عنه ذلك ،فرأى أبا العباس في منامه وقال له " يا أبا الطيب لم قطعت عنا ذلك الشكر الخالص الذي كنت توجه به إلينا " فأفاق من منامه ولم يقطع عنه منذ ذلك اليوم قراءة السورة " [3] .

ومن التصرفات التي ربطت الأحياء بالأموات إحياء ليلة الأربعين ، وهي بمناسبة مرور أربعين يوما عن وفاة الميت وما يصاحبها من عادات ، ومنها تلاوة القرآن وترديد الأدعية و الأذكار وكذا إطعام الطعام وما يصاحبه من احتفالية الهدف منها المباهاة و التفاخر ، وهو ما يظهر كذلك في ارتداء النساء المعزيات للجلباب الأبيض مع التفنن في اختيار نوعه ثوبا وخياطة ، وعلى ذكر اللون الأبيض فإن المغاربة ألفوا في أفراحهم و أحزانهم لبس البياض على نحو مما التزمت به النساء اللائي كن في عدتهن ، و قيل أن سبب لبس البياض كونه مرتبط بلون الكفن وكأن هناك ترابط وجداني يُربط بلون اللباس ، لكن هناك من حاول أن يثبت أن الأمر لا يتعدى أن يكون تأثيرا أمويا كونهم اتخذوا البياض شعارا لهم و الذي يقابله السواد شعارا للعباسيين [4].

و من الأمور التي أثارت الكثير من الجدل مصير الأرواح والأجساد بعد الموت، فالونشريسي يرى أن أرواح المؤمنين بعد الموت ترتفع إلى عليين على شكل طيور بيضاء تبقى إلى يوم القيامة حيث تساق إلى الجنة، أما أرواح الكفار فتصير إلى أجواف طيور سود فتبعث إلى سجين وتحمل هذه

---

[1] نفسه ص323

[2] الإخلاص الآية 1-4 .

[3] الونشريسي : المعيار ، ج1 ص332،333.

[4] عباس الجراري : المرجع السابق ص 56.

الأرواح إلى جهنم يوم الحساب [1] ، وكان الفقيه أحمد بن عيسى البجائي يصنف أربعة أرواح تكون في أربعة مراتب فأرواح السعداء تذهب إلى علين و أرواح الشهداء تطير في الجنة و تأوي إلى قناديل وأرواح العصاة و الكفار مصيرها إلى سجين [2] ، و اعتقدت العامة أن الأرواح تصير طيورا تبقى في القبر و تظهر بعض تصرفاتها وهي تعود إلى البيت في أيام السبع للمأتم وتشاهد ما يفعله الأحياء ثم تعود إلى القبر ، وهي تعيش مع الأحياء ولا يمكنهم رؤيتها إلا في الأحلام [3]، فلاتفاق كان سائد بين العلماء والعامة على أن الأرواح تتحول إلى طيور لكن الاختلاف بينهم كان حول مكان تواجدها فالعلماء يرون أنها تصير إلى الجنة أو النار أما العامة فيرون أنها تبقى في القبر .

من خلال رصدنا للمادة الخبرية المتعلقة بالنظرة إلى الموت خلصنا إلى عدة نتائج نذكر منها :

الانتشار الواسع لظاهرة التنبؤ بالموت و الذي أخذ أشكال عدة سواء من خلال الرؤى التي ترى في المنام ، أو من خلال التسريح بها دون أن يربط ذلك برؤيا أو حادثة و إنما يكون التنبؤ تلقائيا و هذه الميزة خاصة بالمتصوفة ، كما أن التنبؤ بالموت لم يخص الشخص وحده بل تعداه إلى التنبؤ لغيره بالموت .

ما يمكن الخلوص إليه أيضا من هذا العرض أن الميت نال مكانة مميزة مراعاة لمكانة الإنسان حيا أو ميتا ، وهو ما دفع أهله إلى إتباع السنة في التغسيل التكفين و تشيع الجنازة غير أن ذلك لم يكن في كل الجنائز ، فهناك من حاول ابتداع بدع سواء في التكفين أو في الدفن فسعى البعض إلى تكفين موتاهم بالحرير و البعض الآخر بثوب غسل بماء زمزم وهو ما أثار حفيظة الفقهاء و اعتبروا ذلك من البدع غير الجائزة ، وفي التشيع سعى البعض أن يدفن مع الميت القرآن الكريم أو صحيح البخاري و غيرها من الكتب المقدسة لدى المسلمين و هو ما رفضه الفقهاء أيضا .

المبحث الخامس :

الأسرة الريفية و مكانة المرأة :

تحتل دراسة بنية الأسرة الريفية و خصائصها في العصر الوسيط بصفة عامة و خلال الفترة ما بين القرن السابع والعاشر الهجريين بصفة خاصة مكانة هامة في الدراسات التاريخية ذات الطابع

---

[1] الونشريسي المعيار ،ج1 ص 324،325.

[2] نفسه ص 125.

[3] محمد حقي : الموقف من الموت ص 103 .

الاجتماعي، و هي من القضايا الهامة التي يثيرها البحث في المجتمعات البدوية ، وذلك رغم صمت المصادر و المراجع التاريخية عن الحديث في مثل هذه المواضيع.

وما يمكن تأكيده أن المصادر التاريخية اهتمت في غالب الأحيان بالحواضر و المدن ، و لم تول اهتماما بالمجتمعات الريفية إلا ما كان عرضا، و الذي لا يمكن أن يشفي غليل الباحثين حول كل تاريخ هذه الأرياف [1]، و تظهر الصعوبة في التأريخ العام للأرياف ويزداد الأمر تعقيدا إذا تناولنا جزئية الأسرة للبحث فيها .

مفهوم الأسرة: الأسرة هي " عشيرة الرجل و رهطه الأدنون لأنه يتقوى بهم " ، "و الأسرة عشيرة الرجل و أهل بيته "[2] ، و عرفها علماء الاجتماع بعدة تعاريف منها : تعريف وسترماك الذي نقله إحسان محمد الحسن فيقول أنها " تجمع طبيعي بين أشخاص انتظمتهم روابط الدم فألفوا وحدة مادية ومعنوية تعتبر من أصغر الوحدات الاجتماعية التي يعرفها المجتمع الإنساني " [3]،في حين عرفها إحسان محمد الحسن أنها عبارة عن منظمة اجتماعية تتكون من أفراد يرتبطون ببعضهم بروابط اجتماعية و أخلاقية ودموية و روحية [4]، و عرفت الأسرة عدة تسميات تشير إليها على اعتبار أنها أصغر تشكيلة أو جماعة في المجتمع [5] ومنها الأهل [6]،البيت [7]،الجماعة [8]و الدار [9] و الأسرة [1] ، و العائلة [2]،و الواضح أن

---

[1] إبراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين ،ط1 ،دار الطليعة، بيروت 1998 ص 216 .

[2] ابن منظور : المصدر السابق ،ج4 ص19.

[3] إحسان محمد الحسن : العائلة والقرابة و الزواج ، دراسة تحليلية في تغير نظم العائلة و القرابة والزواج في المجتمع العربي ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1981 ص 11.

[4] نفسه ص09.

[5] محماد لطيف : بنية الأسرة البدوية وخصائصها في المغرب الأقصى خلال القرنين 8-9هـ/14-15م مقال في، كتاب الأسرة البدوية في تاريخ المغرب، تنسيق الباضوية بلكامل و أخريات ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة المملكة المغربية ، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ،ط1 ، 2006 ص47 .

[6] عبد الحق الباديسي :المصدر السابق ص108.

[7]ابن خلدون : المقدمة ص95.

[8] أبو عبد الله محمد بن عيشون الشراط: الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس ، دراسة وتح زهراء النظام ، ط1 ،منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1997 ص209.

[9] الونشريسي :المعيار ،ج1 ص225

الواضح أن جميع المصطلحات السابقة تشير إلى مفاهيم ترتبط بالمجموعة البشرية الصغيرة التي تربطها قرابة دموية شديدة [3].

و ارتبطت الأسرة الريفية ارتباطا شديدا ودائما بالقبيلة التي هي وحدة التنظيم الاجتماعي في الريف المغربي [4] ، وما هو ثابت أن دوافع العصبية و النسب و المصلحة المشتركة هي التي دفعت الأسر و العشائر المتكتلة في إطار القبيلة إلى الشعور بشكل بديهي و تلقائي بالتضامن و التآزر والتعاون في جميع أمور الحياة اليومية [5]، و ذلك من أجل تأمين المعاش الضروري و الدفاع عن القبيلة بالحماية و المدافعة و المطالبة [6].

وتظهر تبعية الأسرة المطلقة للقبيلة في علاقات المجتمع الريفي التي قامت في بعض الأحيان على الملكية الجماعية، فالحصول على الماء و البحث عن المرعى و حماية الأرض لم يكن شأنا فرديا أو أسريا بل كانت القبيلة هي من تسعى لتأمينها [7].

خصائص الأسر الريفية:

عرفت الأسر الريفية مجموعة من الخصائص منها :

1-الانحدار الأبوي: فالأبناء ينحدرون من خط أبيهم أي أنهم يأخذون اسم الأب و يتسمون به ، مثلما تنتقل التركة أبويا من الأجداد إلى الآباء ومن الآباء إلى الأبناء [8] ، لكن هذا لا يعني أن الاستثناء غير موجود فهناك من نسب الولد للأم وهو ما دفع محمد ابن مرزوق إلى تأليف مؤلفه الموسوم بإسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم [9]،فنظام الأسرة و المجتمع الذي كان قائما في بلاد المغرب نظام ينتسب إلى الأب و الأم في نفس الوقت ، إذ يمكن للمرأة أن تحتفظ بلقبها بعد الزواج ثم تقوم بإسناده إلى أطفالها و إلى كافة القبيلة التي تنتمي إليها فيما بعد ، و ظل الانتساب إلى

---

[1] نفسه ، ج9 ص250

[2] محمد بن مرزوق : المسند الصحيح الحسن ص193.

[3] محماد لطيف :المرجع السابق ص 49 .

[4] إبراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الإجتماعي ص218.

[5] أحمد الطيب العلج : المرجع السابق ص 224.

[6] ابن خلدون : المقدمة ص98.

[7] نفسه ص30.

[8] إحسان محمد الحسن: المرجع السابق ص51.

[9] انظر محمد ابن مرزوق: إسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم2067.

الأم موجود حتى المرحلة المعاصرة و وجد أثناء عملية إحصاء الألقاب في الجزائر في الفترة الاستعمارية نحو 200 قبيلة ذات ألقاب نسائية [1].

2-كبر حجمها و امتداد فروعها حيث كانت تضم الأب و زوجاته و أبنائه و زوجاتهم [2].

3- وحدة السكن فكان جميع الأفراد يسكنون دارا أو خيمة واحدة [3]، أو في دور و خيام ملحقة بالمسكن الأصلي الذي هو ملك للأب [4]، وهو ما يفهم من نازلة " عن قوم من البادية جمعتهم دار واحدة ." [5]

4-هذا النوع من الأسر ورغم تعدد فروعه فهو يخضع للسلطة المعنوية للأب الذي كان يرأسها ، وهو من كان يتحكم في مسؤولية التسيير ، فمثلا كان هو من يقوم بعملية البيع و الشراء ، وتحديد الأرض التي يجب العمل فيها ، وهو من يمثلها في مجلس القبيلة [6]، و في حالة الوفاة كانت السلطة تنتقل إلى إلى الابن الأكبر "و لا يبرم أمر بدونه " [7] ، وهو ما يظهر جليا في نازلة عرضت على الفقيه موسى العبدوسي مفادها أن رجلا وهب أحد أبنائه أرضا فمات الأب و الابن صاحب الهبة صغير ، فكفله أخوه الأكبر منه ، ولما كبر الأخ الموهوب تزوج ورزق بثلاثة بنات فمات أبوهم فكفلهم عمهم [8] ، وهو أمر متعارف عليه في البوادي و الأرياف فهو (الابن الأكبر) ينزل منزلة الوصي [9].

5- تمثل الأسرة الريفية الوحدة الإنتاجية التي تسيطر على الملكية و على الأعمال الاقتصادية التي يمارسها منتسبوها و كان أفردها يشتركون في استغلال أملاكها في إطار جماعي تعاوني كل على حسب مهمته و تخصصه [10].

---

[1] آمنة بن ميلاد : المرجع السابق ص 56 .

[2] الونشريسي : المعيار ، ج3 ص303.

[3] محماد لطيف :المرجع السابق ص53

[4] محمد استيو : الفقر و الفقراء ص 313.

[5] الونشريسي : المعيار ، ج2 ص293.

[6] محماد لطيف : المرجع السابق ص54

[7] ابن مريم :المصدر السابق ص 29.

[8] الونشريسي : المعيار ، ج9 ص 155

[9] نفسه ص450 .

[10] محماد لطيف : المرجع السابق ص55

من خلال هذه الخصائص يمكن الوصول إلى نتائج أهمها التبعية المطلقة للأب و سلطته كانت مطلقة على الأسرة رغم اتساعها ، و في حال وفاة الأب تنتقل المسؤولية إلى الابن الأكبر ، كما أن الأسرة الريفية لا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عن القبيلة فهي النواة الأساسية لتكوين القبيلة وهي أيضا عماد اقتصاد القبيلة .

الزواج في المجتمع الريفي:

لأجل بناء هذه الأسرة كان اللجوء إلى الزواج مسألة بديهية، والغالب على زواج أهل الريف أنه كان – حسب عدد من فقهاء ذلك العصر– زواج فاسد، و السبب في ذلك أن المرأة في الريف لم يكن يؤخذ رأيها ، ثم إن من عادات أهل الريف عدم كتابة العقد و أن من يحضرون العقد يجهلون أركان الزواج [1] .

وعلى الرغم من ذلك فإن الزوج كان يتحرى في اختيار الزوجة ، و العادة أن تكون من بنات الأسرة في الغالب (ذي القربى سواء من جهة الخؤولة أو العمومة [2]) بل وقضت العادة إلى هبة بنات القبائل و أخواتهن لقرابتهن [3]، ويسمى هذا النمط الزواج الداخلي وما يشترط في هذا الزواج أن لا تكون الزوجة من الأصول و الفروع [4] ، و كان انتشار هذا النوع انتشار محدود في بعض بعض الأحيان إذ أن بعض الأسر رفضته خوفا من الآثار التي قد يسببها على الذرية ودفعهم إلى القول " بعد من دمك لا يطليك "[5] ، و يسمى هذا النوع "الزواج الخارجي" أي أن الرجل يكون محظور عليه الزواج من العائلة أو الفخذ أو البطن أو حتى العشيرة [6] .

أما عن سن العريس فقد كان في الغالب يتراوح بين 15 و 20 سنة و قلّما يتأخر إلى 30 سنة، بل وربما كان الزواج يسبق هذا السن أما بالنسبة للبنات فكن يتزوجن في سن مبكرة لأن عيش البداوة يجعل منهن ينمون بسرعة و ينضج استعدادهن في وقت قصير، وهو أيضا ما يعجل بشيخوخة المرأة

---

[1] أبو زكريا المازوني : الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، تح حساني مختار ، نشر مخبر المخطوطات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجزائر ،2004، ج2 ص 427.

[2] عباس الجراري : المرجع السابق ص63، أحمد الطيب العلج : المرجع السابق ص223

[3] الونشريسي : المصدر السابق ، ج9 ص153

[4] صلاح مصطفى الفوال :البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية ،دار الفكر العربي ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، القاهرة ص132

[5] أحمد الطيب العلج : المرجع السابق ص 224.

[6] صلاح مصطفى الفوال :المرجع السابق ص 131.

وهرمها [1] ، ومما دفع إلى تزويج البنات في سن مبكرة السعي للحفاظ على حصانة الفتاة خاصة في ظل انتشار الفوضى و كثرة الحروب ، إذ انتشرت ظاهرت خطف البنات وهي ظاهرة منتشرة بكثرة في الأرياف[2] ، وهكذا اعتبر تزويجهن من الأمور التي تؤرق الأولياء على اعتبار أنه ستر للإناث وأنجع وسيلة لحصانتهن ، وهو ما تفصح عنه الأسئلة الكثيرة الموجهة للفقهاء ومنها هذا السؤال "عمن يغيب عنها أبوها و هي بكر و يخشى عليها الضيعة و الفساد " [3] ، بل و هناك فتاوى مفادها ضرورة تزويج البكر و الغريبة حتى من غير إذن القاضي [4].

وهناك مجموعة من الشروط كان يشترطها العريس في العروس منها الحسب والنسب والجود والأخلاق الفاضلة ، أما النساء أثناء بحثهن عن زوجات لأولادهن فكن يبحثن عن الجمال القد القامة والعيون ولونها والحاجب و الأنف وموقعه في الوجه و الشفتان والأسنان و السمنة والنحافة والساق ومحزم الخصر والأرداف ، بل وصل الحد ببعض النساء أن تقدم للفتاة المخطوبة حبة لوز صغيرة تطلب منها أن تكسرها امتحانا لصحة الأسنان ، بل و أكثر من ذلك هناك من تصر على محاورتها حتى تتمكن من شم رائحة فمها ، وبعد هذه الأوصاف يقمن بتقديم تقرير مفصل للعريس المحتمل عن العروس المحتملة [5].

وغالبا ما كان العريس يبحث عن عروس بكر ، ومن ذلك سؤال وجه للفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق عن الحكمة من زواج الأبكار [6] ، وربما يرجع السبب في هذا التحري عن العروس كون الزواج هو الوسيلة العملية التي تتيح إعادة إنتاج وشائج القربى بين أفرادها و تزكية تماسكها الداخلي و المحافظة على ملكية الأسرة بإبقاء الإرث داخلها [7].

[1] محمد الخطيب : المرجع السابق ص117.
[2] المازوني : المصدر السابق ص441،ج2 ص 455.
[3] الونشريسي : المعيار ، ج3 ص 125 .
[4] نفسه، ص 232.
[5] أحمد الطيب العلج : المرجع السابق ص 225.
[6] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص 403 ، الونشريسي : المصدر السابق ،ج3 ص 05.
[7] محمد لطيف : المرجع السابق ص59.

وهناك شروط أيضا سعى أهل العروس أن تكون في العريس ومنها أن يكون قادرا على تحمل أعباء البيت وتنشئته تنشئة صالحة ومن ثم يكون التفاهم وتسود المحبة [1] ،كما سعى أهل الزوجة إلى البحث عن زوج صالح لابنتهم حيث قام أحد المتصوفة بتزويج ابنته من شخص معروف بالظلم والتعدي على الناس و أخذ أموالهم بغير حق و حتى قتل النفوس ، وكان أخ هذه البنت غائبا وبرجوعه أنكر على أبيه ذلك أشد الإنكار و قال " هذا لا يليق بمنصبنا نحن أهل زاوية و علم وخير و دين و حال هذا الشيخ موصوف بالأوصاف المذكورة و فسقه ظاهر لا يخفى على أحد و لا ينكر هو ما وصف به " [2] ،كما ثبت أن رجلا زوج ابنته من رجل فاسق و حانث بيمينه،فأنكرت الأم فعل الأب [3] ، و سئل الفقيه علي بن عثمان البجائي عن امرأة من أهل العلم خطبها رجل من أشياخ الرعية و هو معروف بالفسوق وكثرة الأيمان الكاذبة و التعرض للمغارم المخزنية فقبل أخوها الشقيق هذا الزواج ورفضه أخوها لأبيها وقال أنه معرة لهم [4].

ورغم هذا الاختلاف إلا أنه في غالب الأحيان يكون الزواج متوافقا ، فالرجل الذي له وجاهة يقصد أهل الجاه [5]،حيث سئل الفقيه العقباني عن رجل تزوج امرأة وقبل البناء بها ادعت أنه عبد ولم تثبت حريته فهل يفسخ نكاحها [6].

أنماط الزواج في المجتمع الريفي:

عرف ريف المغرب الأوسط عدة طرق للزواج منها:

زواج البدل : وتقوم هذه الطريقة أساسا على أن تتبادل جماعتان امرأتين أو أكثر بغرض أن تتزوج كل واحدة منهن رجل من الجماعة الأخرى و القاعدة العامة في هذا الزواج أن تتساوى كفة الفتاتين محل التبادل من حيث القدرة العمل الإرث ، وكان الإنجاب هو الفيصل في هذا الزواج فكان على الجماعة التي تقدم امرأة عاقرا أن تعوض زوجها بامرأة أخرى ولود ، وإذا ماتت الزوجة لسبب أو

---

[1] أحمد الطيب العلج :المرجع السابق ص226.

[2] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص 406،405.

[3] نفسه ص 412.

[4] نفسه، ص 419.

[5] نفسه ص 490.

[6] نفسه ص431.

لآخر وجب تعويض الزوج بزوجة أخرى و إلا أصبح الزواج من طرف واحد ومن ثم وجب فصم عراه [1].

زواج المهر :يعتبر هذا النوع من أكثر طرق الزواج انتشارا في كل المجتمع المغربي و يستلزم في هذا النوع من الزواج أن يقوم طالب الزواج أو من ينوب عنه بدفع مهر ، ويكون هذا المهر مقدما أو مؤجلا فمن كان ذو ميسرة وجب عليه التعجيل بدفعه قبل يوم العرس ، و أما من لم يجد فهو دين عليه و على أهله ولا يطالب به إلا بسبب الطلاق أو الموت [2]، و المهر يكون نقديا فكان بعض الأحيان خمسة و عشرين دينارا ذهبيا بالإضافة إلى الهدايا [3] ، وكان سبعون دينارا ذهبيا [4]، ووصل إلى إلى مائتي دينار مائة معجلة و مائة مؤجلة [5] ، وقد يتجاوز ذلك و يصل إلى ثلاثمائة دينار ذهبي أو أو 2400 درهم فضي [6] .

كما يمكن أن يكون المهر عينيا وفي هذا النوع عادة ما تختلف نوعية المهر من حيث الكم والكيف ، ففي القبائل الرعوية مثلت الماشية أساس المهر عندهم فمثلا كان مهر امرأة ثورين [7]، واشترط رجل كمهر لابنته كبشا وثورا بإضافة إلى النقد[8] ، وفي بعض الأحيان يكون المهر من غلة المحصول الزراعي عند الجماعات التي كان تعتمد الزراعة بصفة أساسية [9]،كما يقدم أحيانا عقار إذ قدم البعض إلى زوجاتهم أرضا كمهر [10]، وكان من عادات أهل تقرت تزويج بناتهم بمهر من العقارات[11].

---

[1] صلاح مصطفى الفوال :المرجع السابق ص133، 134.

[2] الونشريسي :المصدر السابق ، ج3 ص160

[3] نفسه ص147 .

[4] نفسه ، ص158.

[5] نفسه ص161

[6] نفسه ص154

[7] نفسه ص43

[8] نفسه ص46

[9] نفسه ص 148 ،صلاح مصطفى الفوال :المرجع السابق ص135

[10] الونشريسي : المصدر نفسه، ج5 ، ص 160.

[11] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 135

وفي بعض المرات قدم مزيج بين النقد و العين و قد يكون النقد أكثر من النصف أو أقل [1]، ومن ذلك قدم رجل لزوجته كصداق خلاخل فضية قيمتها عشرة دنانير ذهبية ، وأقراص ذهب من دينارين، و عقد جوهر قيمته ستة دنانير ذهبية و شقة كتان و فضلة خام ،و وقاية شرب من نصف رطل ، و كنبوش حرير ،و ثوب زردخان وملحفة قطن وكل ذلك من الجديد الوسط [2] ،كما أن البعض أعطى للزوجته كمهر كل ما يملك [3].

و كان الاختلاف في المهر سبب من الأسباب التي تؤدي إلى حدوث منازعات بين أهل الزوج و أهل العروس [4].

زواج الخطف : كان بعض الرجال يقومون بخطف النساء و الهروب بهن ثم يتزوجوهن [5]،و من أمثلة ذلك توجيه رجل أبناء قبيلته إلى قبيلة أخرى بغرض خطف فتاة و إحضارها إليه بغرض الزواج منها[6]، منها[6]، و سئل محمد العقباني عن رجل غصب امرأة فهرب بها وبقيت عنده نحو الجمعة [7] .

زواج الأسر : و يتم هذا الزواج بأن يتزوج الرجل من سبية أو أكثر من الذين أسرن في معركة من المعارك [8].

زواج الميراث : وهو زواج معروف لدى المجتمعات الريفية ، و يرتكز هذا الزواج على أساس أن المرأة التي يموت زوجها تصير زوجة لأقرب الناس إليه خصوصا الأخ ، و لكنه إن لم يشأ ذلك زوجها لغيره مقابل الحصول على مهرها ، و إلا خلى سبيلها وتركها للتزوج بمن تشاء على شرط أن تتنازل عن كل ما ورثته عن زوجها المتوفى [9].

---

[1] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص 451.

[2] الونشريسي :المعيار ، ج3 ص100

[3] نفسه ص145.

[4] للمزيد من التفاصيل عن المنازعات حول المهور انظر: المازوني:المصدر السابق ج2 ص ص433،471 ، الونشريسي: المصدر نفسه ،ج3 ص ص 56 ، 413.

[5] المازوني :المصدر نفسه ،ج2 ص 455.

[6] نفسه ،ج2 ص441 ، الونشريسي :المصدر السابق ،ج3 ص82

[7] المازوني :المصدر نفسه ،ج2 ص440.

[8] صلاح مصطفى الفوال :المرجع السابق ص 138

[9] صالح مصطفى الفوال :المرجع نفسه ص 139.

هذا بالنسبة لأنواع الزواج أما مدة الخطوبة فقد تطول أو تقصر على حسب ظروف العريس والعروس لكن في فترة الخطبة كان العريس يقوم بتقديم الهدايا لخطيبته في الأعياد والمناسبات [1]، وكما طالت مدة الخطوبة فقد طالت أيضا مدة البناء بالزوجة وكانت تصل في بعض الأحيان إلى سنة [2]، وكما هو معروف كان بيت الزوجية من الأمور الضرورية للزواج ، لكن من العادات التي انتشرت في بعض نواحي مازونة أن عملية البناء بالزوجة لا يكون في بيت الزوجية و إنما يكون في بيت أهل الزوجة و " هي عادة معروفة و طريقة مألوفة حتى إنه إن لم يقع منه هذا يلحق الزوجة و أهلها معرة كبيرة " [3].

ومن العادات في الأعراس تقيم الهدايا المختلفة للعروسين ، ومن الهدايا التي قدمت في العرس الشاة ليستعين بها صاحب العرس على إطعام المدعوين[4] .

الطفل في المجتمع الريفي:

بعد حدوث الزواج يكون البحث عن إنجاب الأبناء ويكون ذلك بإنجاب أكبر عدد من الأولاد لأن ذلك يتيح للأسرة الاستفادة من خدمات أبنائها في الأعمال اليومية كما يتيح لها أيضا إمكانية رفع مداخيلها مستقبلا [5] ،كل هذا يضاف له عدم وجود استقرار سياسي و كثرة الحروب جعل من الأسر تحبذ الذكور على الإناث لأن الذكر محارب يمكن أن تتقوى به الجماعة الاجتماعية سواء الأسرة أو العشيرة أو القبيلة [6]، وكانت للمرأة عانية خاصة في مرحلة الحمل واستفادة من الدعاء الدعاء لتسهيل مهمتها في الحمل والولادة [7]، ونفس المكانة تبوأتها عند الإنجاب خصوصا إذا ظهرت ظهرت على المولود بعض العاهات أو التخلف الذهني أو التشوهات الخلقية [8].

---

[1] أحمد الطيب العلج : المرجع السابق ص 226 .

[2] الونشريسي : المعيار ،ج3 ص 06

[3] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص 464.

[4] الونشريسي : المعيار ،ج3 ص156.

[5] محمد استيتو : الفقر و الفقراء ص327

[6] حميد تيتاو : الحرب و المجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ،مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود ، الدار البيضاء ، منشورات عكاظ ،2010 ص 431.

[7] عباس الجراري : المرجع السابق ص63

[8] أحمد الطيب العلج : المرجع السابق ص225

كما سعت الأسرة جاهدة لاستعمال مختلف الوسائل للحفاظ على حياة مواليدها منها ما هو مشروع كالهبة حيث قام رجل و أشهد رجلا أنه وهب لابنه الصغير مائة دينار ثم أشهد على ذلك رجل آخر [1]،كما وهبت "امرأة لابنها الصغير اليتيم المهمل جميع أملاكها لله عز و جل " [2] ، واستعملت الصدقة للتأمين على الحياة أيضا فقد قام رجل و" تصدق بمواضع من أرضه على أبنائه الصغار"[3] ، و استعمل ما هو غير مشروع وذلك باستعمال ظواهر غيبية "كالعياشـــة " [4] و ذلك ذلك لدفع العين الشريرة عن الصبيان و حمايتهم من كل مكروه قد يتعرضون له في حياتهم [5].

بعد ميلاد الطفل يعق له في اليوم السابع ويؤخذ شيء من شعره ويؤذن له في أذنيه، و صاحب هذه العادات المسنونة عادات مخالفة للشرع كأن يجعل له بعض التمائم و الحرز حفظا له من العين، أو يقومون بتعليق قطع ذهبية أو فضية ويكتب عليها اسم الله أو آية الكرسي[6].

بعد هذه الفترة من حياة الطفل تناولت المصادر قضيتين رئيسيتين أثناء حديثها الأولي عن الطفل ،النوع الأول يتعلق بحفظه للقرآن الكريم، وهو ما يتردد أثناء النظر في كتب التراجم حتى عند من ترجم لنفسه نجده لا يذكر سوى أنه حفظ القرآن ، لذا تولى الآباء إرسال أبنائهم إلى المساجد لتعلم القرآن و إذا غاب الآباء قامت الأمهات بذلك [7] ، ثم يأتي الدعاء له ليكون من أهل القرآن ، ومن ثم ينتقل الطفل من مرحلة الطفولة المتهورة إلى مرحلة المسؤولية [8].

أما النوع الثاني من الإشارات الواردة في المصادر فهي التي تتحدث عن الجانب السلبي من الطفل حيث تسعى لتبيان إبراز مظاهر شقاوة الطفل، و هذا الفعل مرتبط بحاجته الفطرية إلى اللعب ورفضه لكل الحواجز التي قد تقف في وجه تحقيق تلك الرغبة الفطرية .

---

[1] الونشريسي : المعيار ،ج9 ص160

[2] نفسه ، ج5 ص162

[3] نفسه ، ج9 ص 161

[4] العياشة :هي أن يرسم على أذقن الصبيان أو تعلق أقراطا في آذانهم محمد استيتو: الفقر و الفقراء ص 372.

[5] نفسه ص 372.

[6] عباس الجراري: المرجع السابق ص 63 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص116

[8] مصطفى نشاط :الطفل و الطفولة بالمغرب الوسيط ،نماذج من العصر المريني ، مقال في كتاب الأسرة البدوية في تاريخ المغرب، تنسيق الباضوية بلكامل و أخريات ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة المملكة المغربية ، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ،ط1 ، 2006 ص 243.

وهناك أحاديث عن شقاوة الأطفال منها أنهم كانوا يسرقون الفاكهة من البساتين [1]، كما كان الأطفال يعبثون مع المتصوفة ، إذ قام مجموعة من الصبيان بقذف الشيخ المتصوف أحمد بن سوسان بالماء والرمل وهو لا يرد عليهم ويقول "لا بأس ... الصبا شعبة من الجنون "[2].

لكن هل يمكننا الجزم أن الأطفال تحت رعاية أبائهم عاشوا حياة الطفولة السعيدة أم أنهم لم ينعموا بها ؟

على العموم يمكن الجزم على أن أطفال الأسر الفقيرة كانوا غالبا ما يجدون أنفسهم مجبرين على ولوج أبواب العمل مبكرا بسبب الحاجة ، فمن بلغ منهم الثانية عشر من عمره إلا استخدمه أبوه في استخراج الماء من البئر أو لقلب الأرض أو الرعي [3]، و إذا قلنا بتحفظ أن جل العائلات الريفية عائلات فقيرة فيكون السبب في دفع الأبناء للعمل هو السعي إلى تأهيلهم للقيام بالأعمال التي يتوارثونها جيلا بعد جيل ، ثم للاستفادة من جني موارد إضافية يجلبها الولد تكون الأسرة في حاجة ماسة إليها و كذا التخفيف من الأعباء الملقاة على كاهل الأبوين .

وعلى كل حال سعى الآباء لتعليم أبنائهم حرفة أو صنعة أو أن يجعلوا منهم طلبة علم ، ومن ثم يجد نفسه أمام خياران الأول اقتصادي مادي والثاني اجتماعي ، فطالب العلم كانت له مكانة مرموقة في المجتمع ، و الأب الذي اختار لابنه الطريق الثاني يكون في حل من النفقة عليه فنحن نعرف أن المساجد أو المدارس أو الزوايا كانت عبارة عن مكان للتعلم و المبيت و الأكل ، ففي زاوية العباد مكان للمبيت والأكل وهو ما تؤكده المدة الزمنية التي قضاها البلوي أثناء زيارته " وأقمت بالمحلة أياما ثمانية "[4].

كما عمل أرباب الزوايا على ترتيب أرزاق للطلبة على غرار المدرسين [5]، وما دام تعليم الأبناء له أعباء و لم يكن باستطاعة الآباء الالتزام بدفع نفقة المعلم سعى الآباء للبحث عن حلول منها يقومون بالتطوع لحرث الأرض المحبسة على المدرسة أو المسجد ويعصرون زيتها وكرومها ويمدون الإمام

---

[1] محمد بن مرزوق : المناقب المرزوقية ص 164.

[2] الباديسي : المصدر السابق ص121.

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص116.

[4] خالد بن عيسى البلوي :تاج المفرق في تحلية علماء المشرق،تح الحسن السائح ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة الإمارات العربية المتحدة ص 151 .

[5] محمد استيتو :الفقر و الفقراء ص381.

بمنتجها في موسم الجني [1]،وأمام هذه الصعوبات دفع الآباء أبنائهم للحرفة أو الصنعة عوض التحصيل العلمي بسبب الحاجة و الخصاصة.

ومن الأمور التي أرقت الأسرة الريفية في العصر الوسيط موقع الطفل أثناء الفترات الاستثنائية كالحرب خاصة إذا عرفنا أن فترة الدراسة هي فترة أصبحت فيها الحرب ظاهرة شبه يومية [2]، واتسعت انعكاساتها لتمس كافة الشرائح الاجتماعية والعمرية فكانت الحروب لا ترحم سنا و لا جنسا ، لكن الفقهاء حاولوا الوقوف في وجه قتل الأطفال وقت الفتن والحروب إلا إن كانوا من المحاربين [3] ، ومن سلم من القتل ربما وقع في الأسر فقد قام بنو مرين بنهب " محلة بني عبد الوادي و أموالهم وسلاحهم ، و سبوا حريمهم وعيالهم " [4]و يفهم من عيالهم الأطفال ، كما وقع في الأسر أسرة أبا إسماعيل بن أحمد المتصوف الذي " وجه إلى عياله زورق صيد ، فخرج عليه عدو البحر بمرسى يالش فأسرت زوجة إسماعيل و بنت لها منه صغيرة "[5].

و إذا نجوا من الأسر استعملوا كرهن إذ قام بعض الآباء الذين وقعوا في الأسر بوضع أبنائهم رهنا عند من أسرهم وبحثوا عن مال لفداء أنفسهم [6]، وما يمكن تأكيده أن الأطفال الذين سلموا من من سيوف الحرب و الأسر و الرهن فإنهم لم ينجوا من المجاعات و الأوبئة التي خلفتها الحرب خاصة على ضعاف الجسم [7]، ومن نجا من هذه الأزمات في المقابل قد يكون محروما من عاطفة الأبوة لموت لموت أبيه في الحرب و يسمى هؤلاء" بأيتام الحرب " [8] ، و عاش هؤلاء حياة حرجة على المستوى الاجتماعي و المادي [9].

ولذا نجد أن بعض السلاطين سعوا للاهتمام بالأيتام بصفة عامة و أيتام الحرب يدخلون تحت حكم الأيتام ، إذ كان السلطان المريني عبد الحق الأول (592هـ-614هـ/1195-1217م)

[1] الونشريسي : المعيار ، ج7 ص 112.

[2] حميد تيتاو : المرجع السابق ص 397.

[3] الونشريسي : المعيار ، ،ج2 ص 113.

[4] ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص 131.

[5] باديسي : المصدر السابق ص 111.

[6] الونشريسي : المعيار،ج2 ص 117

[7] حميد تيتاو : المرجع السابق ص 398.

[8] حميد تيتاو : المصدر نفسه ص400

[9] محمد استيتو : الفقر و الفقراء ص 192

مشهورا عنه أنه " يطعم الطعام ، ويكفل الأيتام " [1] وأمر السلطان يعقوب بن عبد الحق (656-685هـ/1258-1286 م) " بتطهير الأيتام و كسوتهم و الإحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء " [2]، أما أبو الحسن المريني (731-749هـ/1323-1348م) فكان " في كل عاشوراء ... يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان فيختن كل واحد و يكسوه قميصا و إحراما و يعطى عشرة دراهم وما يكتفي به من اللحم فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام ما لا يحصى ، وهو عمل مستمر في بلاده و سنة جارية قام بها الخلفاء من أولاده " [3] ، و إذا كان هذا حال السلاطين المرينيين المرينيين فمن المرجح أن الزيانيين قاموا بنفس العمل لكن الكتابات التاريخية التي اطلعنا عليها لم تتطرق إلى مثل هذا العمل ، أما دوافع التي دفعتنا إلى ترجيح قيام الزيانيين بذلك فأولا التنافس الحاصل بينهم وبين المرينيين بحثا عن كسب ود الرعية هذا من جهة ، و ثانيا فقد أفادتنا المصادر بتدخلهم في زمن المجاعات و الأوبئة الطبيعية [4]، ومادامت أقدمت على هذا العمل فيحتمل قيامها برعاية الأيتام .

و رغم محاولات بعض السلاطين حل بعض المشاكل التي يعاني منها اليتامى إلا أنها عجزت عن ذلك كون هذه المبادرات كانت موسمية أوقات الأعياد ، وكون أيضا الكثير من الأيتام كانوا في معزل عن مثل هذه المبادرات للبعد المكاني عن مركز القرار خاصة و أن الأسر في الأرياف كانت شبه معزولة ، وكدليل على ما نقول قدوم امرأة توفي عنها زوجها على الشيخ أبو يعقوب الشفاف وفي يدها ابنها الأصغر وقالت " يا سيدي كان عندي ابن أكبر من هذا يخدم علينا ،فأسره العدو فبقيت حائرة بهذا اليتيم ، فادع الله تعالى أن يجبر على ولدي ، فمسح الشيخ على رأس اليتيم وقال له يرجع أخوك إنشاء الله " [5].

---

[1] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 285

[2] ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص 91.

[3] محمد ابن مرزوق : المسند الحسن ص 420.

[4] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ج1 ص215

[5] الباديسي :المصدر السابق ص95.

ورغم أن الأسرة كان شغلها الشاغل الأبناء ، لكن هذا لا يعني أنها كانت تعيش كل فتراتها دون حدوث مشاكل و خلافات بين الزوجين والتي يعزى معظمها إلى أسباب اقتصادية و اجتماعية وعقدية [1].

فمن الأسباب الاقتصادية نذكر عدم استطاعة الرجل النفقة على الزوجة ، إذ سئل العقباني عن امرأة غاب عنها زوجها و أثبت الشهود أنه لم يترك لها نفقة [2]، كما سئل أبو القاسم المشدالي عن رجل له زوجة و أولاد و أراد الزواج من زوجة أخرى فاشترط عليه أهل الزوجة الجديدة أن يكون لها نصف النفقة والنصف الآخر للزوجة الأولى و الأولاد ومتى نقصت النفقة عن النصف تطلق [3].

ومن الأسباب الاجتماعية أن يكون بعض الأقارب مصدرها أو طرفا فيها و يؤدي ذلك إلى توتر العلاقات بين الزوجة و أهل زوجها و بين الزوج و أهل الزوجة وهو ما يؤدي إلى التحريض على الضرب فقد سئل سيدي إبراهيم العقباني عن رجل ضرب زوجته أو أراد ضربها فهرب لبيت أبيها [4] ، كما سئل محمد بن مرزوق عن رجل جاءت امرأة لأهلها مضروبة الظهر و الذراعين فقيل لها من فعل بك هذا فأشارت لزوجها [5]، وسئل اليزناسي عن رجل تزوج بامرأة مدة عشر سنوات ، فوقعت بينهما بينهما منازعة فوكلت أبيها ليدافع عنها أمام زوجها [6].

ومن أسباب المشاكل الزوجية مرض أحد الزوجين حيث سئل سعيد العقباني عن من تزوج امرأة وبعد مدة من الزواج قاربت الثمانية أعوام ظهر على الزوجة الجذام فسعى لتطليقها [7] وفي الجهة المقابلة سعت الزوجة إلى طلب الخلع إذا ظهرت أعراض هذا المرض على الزوج[8].

ومن الأسباب أيضا أسباب عقدية حيث تزوج رجل من طلبة العلم امرأة وليلة البناء بها وجدها جاهلة بوحدانية الله و تشك هل له ولد و أن الرسول بشر فأفتى الشيخ أبو الفضل العقباني بوجوب فسخ هذا النكاح [1].

---

[1] محمد استيتو : الفقر و الفقراء ص375.
[2] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص 466
[3] الونشريسي : المعيار ، ج3 ص55.
[4] المازوني : المصدر السابق ، ج2 ص 422.
[5] نفسه ص 423.
[6] الونشريسي : المعيار،ج3 ص93.
[7] المازوني :المصدر السابق ،ج2 ص437.
[8] الونشريسي : المعيار ،ج3 ص93.

إذا كان الزواج هو الوسيلة لإقامة الأسرة، فالطلاق هو الوسيلة لحله، و كان يحق للزوج تطليق زوجته كما كان أيضا يحق للزوجة أن تطلب الخلع من زوجها ، وكتب النوازل بها العديد من مسائل الطلاق و الخلع [2].

من خلال الحديث عن الأسرة الريفية يمكن الوصول إلى مجموعة من النتائج منها أن الأسرة الريفية كانت تخضع للسلطة الرجل الأكبر سنا ، و تنتقل منه إلى ابنه الأكبر لكن هذا لا يعني أن المرأة كانت في كل مرة تحت رحمة الرجل أو الابن الأكبر ، بل كانت المسئولة عن الأسرة في قبيلة صنهاجة .

كما عرف الريف المغربي عدة أنواع من الزواج فهناك زواج المهر ، وزواج البدل ، وزواج الميراث و زواج الأسر.

إذا كان للرجل الحرية في اختيار الزوجة فإن المرأة كانت في كثير من المرات تزوج لأسباب اجتماعية و اقتصادية.

كان الهدف من الزواج تكوين أسرة يكون عمادها الأبناء، و سعى الآباء إلى تربية الأبناء تربية سليمة يمكنها أن تعبد له الطريق ليكوّن أسرة صالحة .

الأسرة الريفية أسرة بسيطة في حياتها و في سكنها، وبساطة الأسرة الريفية لا يعني أن عيشتها خلت من المشاكل بل عرفت الكثير منها انتهت في بعض الأحيان بالطلاق.

مكانة المرأة :

يصنف الحديث عن المرأة في المجتمع الريفي المغربي في فترة الدراسة في خانة التاريخ المسكوت عنه لأن ما كتب يعتبر ضئيلا لكون المجتمع كان مجتمعا ذكوريا ، وما ورد هو عبارة عن إشارات في كتب الجغرافيا ، كما أُعتبر التأريخ للمرأة قبحا وشنعا في حق المؤرخ و جرحا في حقه [3] .

غير أن هذا لا ينفي وجود تأريخ للمرأة بجانبه الإيجابي أو السلبي و سنحاول الحديث عن هذين الجانبين ، و يجب التميز بين النساء العفيفات و النساء الدنيئات .

---

[1] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص498 ، الونشريسي : المصدر نفسه ،ج3 ص87.

[2] المازوني :المصدر نفسه ، ج2 ص ص 500،406 الونشريسي :المصدر نفسه ص10 ،120.

[3] محمد ياسر الهلالي : نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرن 8-9هـ /14-15م مساهمة في تاريخ الذهنيات ، مقال في مجلة أمل ، عدد حول حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب ، عدد مزدوج 14/13 ، السنة الخامسة 1998 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،1998 ص 76 .

تبوأت المرأة العفيفة مكانة مرموقة في المجتمع المغربي وتظهر هذه المكانة في عفتها إذ أسقطت عن هذا النوع من النساء الخدمة في بيوت أزواجهن [1] ، بل و صل الحد إلى إسقاط الرضاعة عن هذا النوع من النساء [2]، كما اكتسبت هذه المكانة من تعلمها فكانت أخوات ابن قنفد القسنطيني يتعلمن القرآن الكريم على يد العالم الفقيه أبو عبد الله بن الصّفار ولم تكن تفارقنه حتى ختمت وكررت ذلك ثلاث مرات [3].

ومن النساء اللائي نلن حظوة جراء علمهن المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية و كانت على زهد وتقشف وعبادة وورع ، و قوتها من الغزل ولا تقبل من أحد شيئا ، وكان الشيخ الصالح علي بن عبد الوهاب هو الذي يكتب لها لوحها ويبادر به ، و آثرت الانقطاع عن مخالطة الناس في رجب وشعبان ورمضان ولا تساكن أحد ولا يراها في زمن انقطاعها أحد من الناس ولا تكلمه ، حيث قصدها ابن قنفد وهي في أشهر انقطاعها فوقفت وكلمته ومنعته من الدخول وقالت له يا أحمد لولى مكانتك عندي ما كلمتك ، و أراد الفقيه العالم أبو القاسم الشريف التلمساني زيارتها فأبت ذلك وقالت له يعظم أن يقصدني شريف وهو ممن يوالي أهل الدنيا و هو من الفقهاء الذين يجالسون الأمراء ، و تولت هذه المرأة الفقيهة تأديب ابن قنفد الذي يروى أنه سألها مرة عن حاجتها فقالت أريد حسكة أخلل بها أسناني فانصرف فوجد في طريقه حملا من الحسك ، فأخذ منه ثلاث وأتى بها إليها فقالت من أين هذا، فروى لها كيف حصل عليه فقالت هلا استأذنت صاحبها فرجع إلى صاحب الحسك واستأذنه فأخبره بأنه لا حاجة له به ، فرجع إليها وأعلمها فقالت لا حاجة لي به، فعلم ابن قنفد أن الغرض كان تعليمه لآداب رفيعة وما ينتفع به ، وكانت تريد الموت في عباد تلمسان فلما قربت منيتها يسر الله لها السفر إلى تلمسان وتوفيت بها [4].

ما يمكن ملاحظته هنا أن هذه المرأة اكتسبت هذه المكانة من علمها و ورعها وكذا بأعمال الاجتماعية التي كانت تقوم بها منها الحث على مكارم الأخلاق .

---

[1] المرجع نفسه ص 93 .
[2] الونشريسي : المعيار ، ج4 ص 25-26 .
[3] ابن قنفد : أنس الفقير ص 85 .
[4] ابن قنفد : المصدر نفسه 125 .

ومن النساء العالمات الزاهدات أم الفقيه أبو بكر ابن مرزوق الحفيد وهي عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن المديوني ، وكانت لها قوة في تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثر مطالعتها لكتب تفسير الرؤيا[1] .

في مقابل النساء الشريفات وجدت نساء دنيئات كانت نظرة المجتمع إليهن نظرة احتقار وكراهية .

و نظرة المجتمع إلى هؤلاء تكون في البداية بالشك ، و نظرة الشك تكون نابعة من مخالطة المرأة للرجال (الحرفي و التاجر) ، لهذا تعالت الأصوات بمنعها من الخروج [2] ، وما زكى نظرة الشك هو منع الفقهاء منعا باتا السماح للمرأة بالخلوة بالتجار و الصناع لأنه المقصود بالحديث " إياكم و الدخول على النساء "[3] و حديث " لا يخلون رجل بامرأة إلا الشيطان ثالثهما " [4]، وحددت مجموعة من الضوابط للسماح لها بالذهاب إلى التجار و الصناع ومنها أن تكون مع زوجته أو من لا يتعرض للفساد بحضرته ، و أن لا يكون في الأوقات التي يخاف فيها الفساد كوقت القيلولة و غفلة الناس ولا يكون المكان خاليا [5].

و أمام هذا العجز عن المنع تحول الخطاب إلى الرجل محذرين إياه من التعامل معهن لأن صوتها عورة ، ومخالطتها بالبيع و الشراء طريق إلى الفتنة ، و من ثم على المحتسب أن يزجر الجالسين في خلوات الأزقة و يمنعهم من التعرض للنساء [6]، و تجلت نظرة الشك في الأسئلة التي عرضت على على الفقهاء حول منع الأزواج لنسائهن من الخروج من بيوتهن إلى مكان ما ، بل وصل الحد إلى

[1] التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ج2 ص 181.

[2] محمد ياسر الهلالي : نظرة المجتمع للمرأة ص 77.

[3] أبو بكر البيهقي : شعب الإيمان ، تح محمد سعيد بسيوني زغلول ، ج4 ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1410 ، ص 368 ، أبو القاسم الطبراني :المعجم الكبير ، تح حمدي بن عبد المجيد السلفي ، ط2 ، ج 17 ، مكتبة العلوم و الحكم ، الموصل العراق ، 1984 ص 277 .

[4] البخاري : المصدر السابق ، ج16 ص 256.

[5] الونشريسي : المعيار ، ج5 ص 198، 200.

[6] أحمد سعيد المجيلدي : التيسير في أحكام التسعير ، تقديم و تحقيق موسى لقبال ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ص 70.

منعها من الذهاب إلى أهلها إلا لفرح أو حزن [1] ، و وصل المنع إلى حد الطلاق إن غادرت المرأة بيت الزوجية وقت سفر الزوج [2] .

و لم يتوقف الشك عند هذا الحد بل تعداه إلى حد منعهن من أداء الصلاة في المساجد مخافة الشر و نبه إلى ذلك العقباني " منع شواب النساء الممتليات لحما اللواتي تخشى منهن الفتنة من مساجد الجمع و الجماعات لأن ذلك مؤد إلى منكر يعظم خطره و يهيج شره فيجب قطعه بما أمكن "[3] .

و انطلاقا من نظرة الشك تكرست نظرة تنم عن احتقار وكراهية تجاه المرأة و ذكر ذلك الحسن الوزان أثناء حديثه عن أهل فاس " إذا كان المولود أنثى يقل استبشارهم بها " [4] ، و يمكن هنا هنا أن نقول أن هذه العادة قد تكون عادة عامة على كل بلاد المغرب في المدن و الأرياف و قد تكون في الأرياف أكثر انتشارا لأن الحياة الريفية تتطلب الجنس الذكوري أكثر من الأنثى هذا من جهة ومن جهة أخرى فسبب القياس يرجع إلى أن هذه العادة عرفت في الجاهلية و صورها القرآن الكريم في سورة النحل " وَ إِذَا بُشِرَ أَحَدُ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَ هُوَ كَظِيمٌ " [5] ، و بقيت هذه العادة منتشرة و كلام الوزان دليل على ذلك ومن ثم فيمكن أن تكون موجودة في أرياف المغرب الأوسط .

و من النساء من خرجن عن الطاعة ففي جبال قسنطينة كانت من عادات النساء الفرار إلى جبل آخر إذا لم يرضين بأزواجهن و تترك المرأة أولادها، و في ذلك الجبل قد تتخذ زوجا جديدا خاصة إذا كان أهل الجبل أعداء لأهل جبل زوجها، وقد يحدث اتفاق بين أهل الجبلين و ذلك بدفع مبلغ من المال أو بأن يزوج الرجل الذي أخذ المرأة الهاربة إحدى بناته أو أخواته لزوج المرأة الهاربة [6] .

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج2 ص 78 .

[2] نفسه ، ج4 ص 211 .

[3] تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ الشعائر و تغير المناكر، تح علي الشنوفي ، Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas,Tome XIX ص 36 ، محمد ياسر الهلالي : نظرة المجتمع للمرأة ص 80 .

[4] المصدر السابق ،ج1 ص 258 .

[5] سورة النحل الآية 58 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق،ج2 ص103 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص 18.

خلف وجود نساء بمثل هذه الأخلاق المتدنية حرية كبيرة في إقامة علاقات جنسية ، فسكان المناطق الريفية لم يمارسوا الرقابة على الحياة الجنسية للمرأة حيث سمح لها بإقامة علاقات جنسية قبل الزواج [1] ، ومن ذلك ما ذكره الحسن الوزان عن قبائل الشاوية" و يمكن لجميع الفتيات أن يكون لهم قبل الزواج عشاق يذقن معه حلاوة الحب ، و يرحب الأب نفسه بعاشق ابنته أجمل ترحيب ، وكذلك يفعل الأخ بعاشق أخته ، بحيث لا توجد امرأة تزف بكرا إلى زوجها ، حقا إن المرأة بمجرد الزواج ينقطع عنها عشاقها ، ولكنهم يذهبون إلى أخرى " [2]، ما يجب التنبيه إليه هنا أن التعميم لا يمكن الجزم به فقد تكون هذه العادة منتشرة في مناطق معينة و ليست لدى كل القبائل الرعوية.

كما سعت المرأة للاعتناء بجمالها فكانت تعتني بغطاء وتسريح شعرها وتقوم بتجميله وتخضيبه بالحناء والغاسول [3]، و قامت بظفره وتتم عملية الظفر بتفريق الشعر إلى أجزاء ثم فتلها مع بعضها البعض وتلفه حول الرأس ثلاثة أو أربع مرات [4]،و نساء نقاوس كن يعتنين بأنفسهن عناية خاصة فكن كثير التردد على الحمام [5].

ومن أمور الزينة الخضاب أي التلوين و هو" ما يُخْتَضَبُ به واخْتَضَب بالحَنَّاءِ ونحوه وخَضَبَ الشيءَ يَخْضِبُه خَضْباً وخَضَّبَه غيَّر لوْنَه بحُمْرَةٍ أَو صُفْرةٍ أَو غيرِهما" [6] ، و استعملت النساء الخضاب على اليدين و أظافر الأرجل [7]، كما وضعن على خدودهن صباغا على شكل خرصة تتوسط الخدين الخدين واستعملوا الجوز لتلوين لون الشفاه [8] ، أما الكحل فهو ما يوضع في العين [9] ، ويتم بمادة الأثمد وهي نوع من الحجارة السوداء تسحق قبل الاستعمال [10]، وكان هذا الكحل شائعا لدى نساء أرياف المغرب الأوسط ، واستعمل أيضا في تزيق الحاجبين أيضا ، إذ كان يتم تدقيقهما وإطالتهما

---

[1] آمنة بن ميلاد : المرجع السابق ص 58 .

[2] المصدر السابق ، ج1 ص 88 .

[3] نفسه ج2 ص 77 ، مارمول : المصدر السابق ، ج2 ص 8.

[4] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 176.

[5] الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص53.

[6] ابن منظور : المصدر السابق ، ج 1ص 357.

[7] مارمول كربخال :المصدر السابق ،ج2 ص ص 114-177.

[8] محمد مقر: المرجع السابق ص 131.

[9] ابن منظور : المصدر السابق ، ج 11 ص 584.

[10] الفيروزبادي : المصدر السابق ص 345.

بالأثمد وتعرف هذه الطريقة بالتزجيج ، كما كانت بعض النساء تقمن بإزالة الشعر المتناثر في الوجه وهو ما يعرف بالتنمص ويعتبر ذلك من المحرمات شرعا [1].

و في تزينهن استعملن الحلي الذي يعتبر أهم وأعظم أدوات الزينة و حرصت المرأة على هذا النوع للتزين به فالمرأة التي لا تمتلك حليا " كأنها جسد بلا روح " ولو امتلكت أفخر الملابس، لأن الحلي تزيد في جمالها وتحفظ مالها لوقت الشدة [2]، و اشتهر اليهود بصناعة الصياغة والسبب في عدم ممارسة المسلمين لهذه المهنة الاحتياط من الربا الذي يكمن في بيع المصوغات الذهبية والفضية بأعلى من ثمنها [3].

ومن أنواع الحلي نجد:

الأقراط : والتي تكون من الذهب تستعمله نساء الأعيان ، فيما اتخذت متوسطات الحال أقراط من فضة ، أما نساء العامة فاستعملتها من النحاس أو الحديد [4].

الخواتم : تصنع من الذهب والفضة والحديد ويعتبر النوع الفضي الأكثر انتشارا [5].

الأساور : توضع في معصم اليد ، و اتخذتها النساء الميسورات من الذهب فيما اتخذ من الفضة والحديد عند المرأة المتوسطة والفقيرة [6].

الخلاخل : يطلق على ما يلبس في الساق من الحلي [7] ، و اتخذت من الذهب والفضة والحديد على حسب المكانة الاجتماعية [8] ، وكانت من الأمور التي يقدمها الزوج كصداق لعروسه [9] ، كما يقدمها يقدمها لها ليلة البناء بها وتسمى هذه العادة ب " حل السراويل " وأصبح يقال في العادة " فلان

---

[1] محمد مقر :المرجع السابق ص 131.

[2] المرجع نفسه ص 132

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق، ج1 ص 283.

[4] نفسه ، ج1 ، ص ص 252،254، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ، ص ص 2،7، 109، 176 ، 181.

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج1ص ص 84، 185، 294.

[6] نفسه ص 252 ، مارمول : المصدر السابق ص ص 7، 57، 109.

[7] ابن منظور: المصدر السابق ، مج11 ، ص 221

[8] الحسن الوزان: المصدر السابق،ج1 ص 46، 110، 252 ، مارمول كربخال : المصدر السابق، ج1 ص11.

[9] الونشريسي ، المعيار ،ج3 ص 100.

صبح زوجته بكذا " ، و أثارت هذه الهدايا جملة من الخلافات إذ اعتبرتها النساء هبة لها وملكا ، غير أن بعض الفقهاء أفتوا لصالح الرجل واعتبروا ذلك معروفا لهن وإحسانا و إظهارا للرضا بهن [1] .

و رغم المكانة التي تبوأتها المرأة في المجتمع إلا أن هذا لا يخلو من بعض الممارسات السلبية ضد المرأة ،كالضرب حيث سئل عبد الله بن مرزوق عن رجل جاءت امرأته إلى أهلها مضروبة الذراعين والظهر وادعت أن زوجها ضرها و نفى هو ذلك وقال أن قاضي مازونة من ضربها لعدم احترام زوجها ووقاحتها عليه [2]، و في بعض من المرات تعرضت المرأة للضرب من زوجها فاحتمت بأهل زوجها و بأبيه الذي لم يستطع منع ابنه من هذا العمل و جعلها تقيم معه في بيته و يبحث عمن يمنع ابنه من هذا الشر [3].

كما كانت المرأة في كثير من المرات معرضة للطلاق إذ سئل العقباني عن زوجين تشاجرا وتفاقم بينهم الشجار فغضبت الزوجة و رجعت إلى بيت أهلها فوكل الزوج رجلا على طلاقها [4] ، كما سئل سئل عن تزويج المرأة من رجل كثير الأيمان بالطلاق فأجاب بأنها لا تزوج من هذا الرجل لأن كثر الحلف بالطلاق يجعلها معه في حالة زنا [5]،كما سئل أيضا عن امرأة تزوجت من رجل و سمعت عنه أنه مطلاق [6].

ما يمكن ملاحظته على مكانة المرأة في الريف المغربي :

أنها تبوأت مكانة مرموقة حيث أنها مثلت المرأة العادية التي تقوم بخدماتها البيتية ، ومنها الانتقال إلى ما هو أكبر من ذلك بكثير وهو التعلم، ومنه إلى التعليم حتى ذاع صيت بعض النساء وأصبح ذوات باع طويل في هذا المجال .

في مقابل النساء العالمات ظهرت نساء أخريات تجردن من الحدود الشرعية و وصل بهن الحد إلى درجة ترك بيت الزوجية و الفرار إلى جهة أخرى ، و حتى الزواج دون أن تكون طلقت من الزوج الأول و إن كانت طلقت فيمكن أن تتزوج دون أن تنقضي مدة العدة .

---

[1] محمد مقر: المرجع السابق ص 137 .

[2] المازوني :المصدر السابق ،ج2 ص423 ، الونشريسي:المعيار ، ج4 ص 312،311.

[3] المازوني : المصدر نفسه ،ج2 ص422.

[4] نفسه ص466.

[5] الونشريسي : المعيار ، ج3 ص56.

[6] المازوني : المصدر السابق ،ج2 ص448.

ما يلاحظ أيضا على المرأة أنها سعت إلى الحفاظ و التغني بجمالها و إن كان ذلك فطرة في المرأة، فإنها سعت لذلك بالطرق الشرعية كالكحل كما استعملت أيضا الطرق غير المشروعة كالتنمص .

ما يلاحظ أيضا رغم المكانة التي حظيت بها المرأة فإنها تعرضت في كثير من الأحيان إلى التعسف من خلال الضرب و الطلاق وكذا تزويجها بشخص قد تكون أخلاقه متردية من غير استشارتها.

الفصل الثالث :

مساهمة الريف في الحياة الاقتصادية :

عمل الفقهاء على تحبيب العمل للنـــاس ومن ذلك ما كان يقوم به الفقيه سيدي أحمد الغماري إذا جاءه أحد الناس يسأله الاستخارة في سفر معين بغرض التجارة أو القراض كان يسأله عن الفائدة من ذلك ثم يوصيه بحسن المعاملة ، وكان هذا الفقيه يحبب الناس إلى العمل ويحضهم على التجارة والفلاحة ويفضلهما على الجلـــوس للعبادة والزهد ، وكـــان يشير في ذلك إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه : " لا خير في من لا يحب المال ليصل به رحمه ويستغني به عن الناس "[1] .

اختلفت و تعددت الأنشطة الاقتصادية الممارسة في أرياف المغرب الأوسط و ذلك للاختلاف الناتج عن التنوع الجغرافي و كذا التنوع العرقي و محاولة كل عرق الاستئثار بمهنة معينة فمثلا اليهود استأثروا بالتجارة و الأندلسيون ببعض الزراعات ، و سنحاول هنا الحديث عن أهم المهن التي مورست في أرياف المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة .

المبحث الأول :

الفلاحة :

يمكن أن ندرج تحت هذا المبحث عنصرين رئيسيين هما الزراعة و الرعي ، و قد عرفت أرياف المغرب الأوسط انتشارا واسعا لهذين النشاطين ، و سنحاول هنا إماطة اللثام عنهما من خلال الحديث عن انتشارهما و أهم ما رافق هذين النشاطين ، فالزراعة تحوي أدوات للقيام بها و أنواع من المزروعات و المغروسات و سبل سقيها ، أما الرعي فسنتكلم فيه عن أنواع الحيوانات التي ملكها السكان و مناطق تواجدها .

1-**الزراعة :**

تعتبر الزراعة العصب الرئيسي لاقتصاد الريف وهي تشتمل على زراعات عديدة منها الحبوب والقطاني والمقاتي وغراسة الأشجار [2] ، و تطورت بفعل القيام بإصلاحات زراعية و إحياء أراضي

---

[1] البيهقي : المصدر السابق ، ج2 ص 92 ، ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 217 .

[2] محمد حجي : نظرات في النوازل الفقهية ،ط1 ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999 ص 149.

الموات و البور و توسيع المساحات الزراعية و كذا تعميم استعمال التقنيات الفلاحية المعروفة في تلك الفترة [1]، كإقامة المصاطب على الأودية والمدرجات على الجبال و سقوها بمياه الجداول والينابيع [2] ، و كذا البحث عن الماء و استغلاله في تطوير الزراعة ،" فالنباتات لا قوام لها إلا بالتراب و الماء ، وليس يمكن أن يتم أمره بهما دون الهواء و النار ، فإذا أخذنا بذرا و وضعناه في ماء و تراب و منعنا عنه الهواء و الشمس لم ينبت ، فإن جعلناه في الأرض بحيث يلقى الهواء و الشمس ، و سقيناه بالماء نبت و نما و أثمر " [3].

ومما تقدم فالأرض هي أهم ما قامت عليه الزراعة وكانت في أرياف المغرب الأوسط أنواع من الأراضي من حيث الملكية فهناك أرض مملوكة يمكن لأصحابها كرائها وتوريثها وبيعها وهبتها وهي محدودة جدا في أعيان البربر و شيوخهم ، و وجدت هذه المليكة نتيجة استحواذ هؤلاء على هذه الأراضي و أراضي أخرى جديدة نتيجة لنفوذهم داخل قبائلهم و خاصية هذه الأراضي أنها ملكيات كبيرة تشبه ملكيات الأمراء و السلاطين ، كما وجدت ملكيات صغيرة تحيط بالقرى و المداشر ، وكذا أراضي ملكت عن طريق الشراء ، و كان هذا النوع قليل لأنه خاص ببعض الأمراء و أصحاب الأموال الطائلة [4] ، وهناك أراضي حبسية أو أراضي إقطاعية تنازلت عنها السلطة لفائدة جماعة أو فرد لقاء خدمة أو إصلاح أو تجنيد أو بالانتماء إلى العصبية الحاكمة [5]،و وجدت أراضي ملكت عن طريق إحياء أراضي الموات [6] ، كما وجدت الأراضي الجماعية التي تكون ملكا للقبيلة و تكون طرق

---

[1] محمد حجاج الطويل : التجارة الداخلية و أثرها على ضعف الدولة الموحدية ، مقال في أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع و الدولة عبر تاريخ المغرب ،المنعقدة في جامعة عين الشق بالدار البيضاء من 21إلى 23 فبراير 1989، القسم الثاني ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1989 ص 146 .

[2] محمد حجاج الطويل ، الري والزراعة المسقية في الجنوب ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول تاريخ الري في الجنوب المغربي ، أغادير 27 28 أكتوبر 2000 ، العدد 24 السنة الثامنة ، مطبعة النجاح الجدية الدار البيضاء 2001 ص 10.

[3] سعيد بن حمادة : التراث الفلاحي الإسلامي بالمغرب و الأندلس خلال العصر الوسيط مقوماته ومراحل تطوره ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، جمع و إشراف حسن حافظي علوي ، منشورات عكاظ ، 2011 ص 60 .

[4] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ص 66 .

[5] محمد فتحة :النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6هـ/9هـ 12-15م ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، 1999ص 333 .

[6] الونشريسي : المعيار ، ج5 ص 117 .

الاستفادة فيها مختلفة على حسب العادات و التقاليد و ليس لغير أفراد القبيلة أن ينازعوهم فيها [1]، فعادة ما كان " أهل بلد بينهم و بين جيرانهم حرب ، ووقع بينهم قتل ، فصالح شيوخ ذلك البلد القوم الذين حاربوهم على نصف الوادي الذين يسقون به أهليهم و أراضيهم و جميع الوادي لخلق كثير "[2]، كما و جد " قوم بينهم أملاك يتوزعونها و يحرث كل واحد منهم أرضا على سبيل التوسع "[3] ، من خلال الإشارتين السابقتين التي أوردهما الونشريسي نستنتج وجود أراضي جماعية فمصطلحي و جميع الوادي لخلق كثير ، و قوله أملاك يتوزعونها تدل على وجود الملكية الجماعية للأراضي .

و ارتبط حكم الأرض بالتشريعات الإسلامية التي بدورها تحكمت فيها عوامل تاريخية ، و لقد اهتم الفقهاء منذ وقت مبكر بمحاولة معرفة أرض بلاد المغرب هل هي أرض صلحية أم أرض عنوية ، والسبب يرجع إلى نوعية الضرائب التي يمكن أن تفرض على ملاك هذه الأراضي وتصرف لبيت المال [4].

ويرتبط السؤال عن نوعية أرض المغرب ارتباطا وثيقا بالتطورات السياسية لهذه المنطقة فكان انتقال الحكم من عصبية إلى عصبية أخرى يصاحبه اقتسام جديد للمجال ومن ثمن يظهر مستفيدون جدد من المنضوين تحت العصبية الحاكمة ومتضررون من المتغلبين القدامى ،وعلى هذا الأساس كان المغلوبون يحاولون رفض الوضع الجديد ومن أشكال الرفض استفتاء الفقهاء الذين أنصفوهم في كثير من المرات [5]مثل " العادة جرت ببيع الأرض القانونية بالمغرب وإرثها ، والظاهر من حالها أنها مملوكة "[6].

و بعد معرفة نوعية الأرض وجب الحديث عن عناصر العمل الزراعي .

عناصر العمل الزراعي :

الأرض :

[1] محمد مزين : المرجع السابق ص 445 .

[2] الونشريسي : المعيار ،ج6 ص 518 .

[3] نفسه ج9 ص151 .

[4] نفسه : ج6 ص134 ، محمد حجي : المرجع السابق ص 150 ، محمد فتحة ، النوازل الفقيه والمجتمع ، ص 333.

[5] محمد فتحة : المرجع نفسه ،ص 335 .

[6] الونشريسي : المعيار ، ج 1ص565.

تنوعت الأرض التي قامت عليها الزراعة في أرياف المغرب الأوسط بتنوع تضاريس المنطقة ، فوجدت في السهول و في الهضاب و على سفوح و منحدرات الجبال و على ضفاف الأودية والأنهار و حول نقاط الماء و في المناطق الصحراوية [1].

تنوع هذه التضاريس جعل من الأرض الريفية المغربية متنوعة بين أراضي خصبة و أراضي متوسطة الخصوبة و أراضي غير صالحة للزراعة فهي متعددة لاختلاف مناطقها منها التربة السوداء وتعتبر أجود الأراضي [2] ، و توجد غالبا على ضفاف الأنهار و السهول، فكانت على ضفاف نهر التافنة أراضي جيدة تزرع فيها حاجيات السكان [3] ، و أراضي إقليم بني راشد من جهة الجنوب تقع على السهول و هي صالحة للزراعة [4]، كما توجد التربة الحجرية و هي قليلة الفائدة و تكون صعبة الاستغلال ، و وجد هذا النوع من الأرض في المناطق المحيطة بتبحيرت و هي أرض هزيلة لا ينبت فيها سوى القليل من الشعير و الدخن [5]، و لا تختلف أرض جبل مطغرة عن أراضي تبحيرت فهي أرض جبلية لا ينبت فيها غير الشعير [6]، و هذا النوع من الأرض غالبا ما يكون في الجبال و هي تقريبا نفس الصفة التي تتميز بها كل الأراضي الجبلية ، و هي ملاحظة تكرر ذكرها عند الحسن الوزان و مارمول كربخال عند حديثهم عن جبال المغرب الأوسط ، غير أن الاستثناء موجود في الأراضي الموجود في القل كلها جبلية غير أنها منتجة [7]،كما توجد أيضا التربة الرملية ومنها ما هو صالح للزراعة للزراعة إذا سقيت و سمدت بالأسمدة فأراضي صحراء تيكورارين بهذه الأوصاف [8]، إلاّ أن مارمول كربخال يناقض الحسن الوزان و يرى أن أراضي هذه المنطقة رديئة للغاية و قلما يجد أهلها أرض

---

[1] يوسف نكادي : خصوصيات و تحولات المجال الريفي في بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري ، مقال في المجال البدوي المغربي ، الخصوصيات و التحولات ، تنسيق حليمة بنكرعي و آخرون ، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية سلسلة ندوات و منظرات رقم 3 ،ط 1 ، مطبعة مكتبة دار السلام ، الرباط ، 2007 ص19.

[2] مؤلف مجهول : مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، تح و دراسة محمد عيسى صالحية ،إحسان صدقي العمد ، ط1 ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 1984 ص 107 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 12 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 293 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 26 ،مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 324 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 15 .

[6] نفسه ص 43 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ، ص 351 .

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 54 .مارمول كربخال : المصدر نفسه ج3 ، ص 06 .

[8] الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2 ص 133 .

ليزرعوها [1] ، هذا التناقض يجعلنا نبحث عن أي الرأيين أقرب للحقيقة و قد يكون رأي مارمول كربخال هو الأصح لأنه وكما هو معروف فالتربة الرملية قليلة الخصوبة عموما هذا من الجهة ومن جهة ثانية فمن ميزات التربة الرملية أن الماء فيها ينفذ بسرعة وهو ما يجعلها بحاجة إلى كمية كبيرة للماء ، و الصحراء معروفة بفقرها إليه .

وتعتبر أراضي بلاد الزاب من الأراضي الرملية التي لا يوجد بها إلا القليل من الأراضي الصالحة للزراعة [2].

و يجب على المشتغل بالفلاحة معرفة الأرض معرفة جيدة " فأول مراتب علم الفلاحة هو معرفة الأرض و ميزها و علم جيدها من دنيها و من لا يعلم ذلك فقد أضاع الأصل و استحق في هذه الصناعة اسم الجهل "[3].

على كل فإن التربة تنشأ و تتكون تحت تأثير عوامل مختلفة ، بعضها بيولوجي مرتبط بمكونات التربة نفسها ، و بعضها مناخي مرتبط بكميات التساقط و درجة الحرارة و الرطوبة ، هذه العوامل تحدد طبيعة التربة و مستوى خصوبتها [4].

و لم يقل دور الإنسان عن العوامل السابقة ، فكان له دور في تدني مستوى خصوبة التربة بفعل الاستغلال غير العقلاني لها و هو ما يؤدي إلى إجهاد التربة ، كما يمكنه المحافظة على استمرارية خصوبتها عن طريق الاستغلال العقلاني و استعمال المواد المخصبة لتعويض ما فقدته التربة من مواد عضوية [5] ، كما على الفلاح إراحة الأرض و ذلك ببذر أقسام منها و ترك أقسام أخرى تستريح [6].

---

[1] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج3 ص163 .

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 138 ،مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 167 .

[3] ابن العوام الإشبيلي :كتاب الفلاحة ،نشر و ترجمة خوسي أونطونيو بانكيري ، ج1 ، مدريد ، 1802 ص 37 .

[4] يوسف نكادي : الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ،ط1 ، مطبعة الجسور وجدة ، المغرب ، 2007 ص 237.

[5] نفسه ص 237 .

[6] محمد حسن : أصناف الإنتاج الزراعي بإفريقية من القرن 6ه/12م إلى القرن 9ه /15م ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، تحت إشراف حسن حافظي العلوي ، منشورات عكاظ ، 2011 ص 270 .

الحرث :

يسمى تقليب الأرض في أرياف المغرب الأوسط ب الميّالي [1]، وهو لا يختلف إلا في أمور بسيطة ، فيبدأ أولا بحرث الأرض [2]، و يتم على مراحل بواسطة المحراث الذي يتكون من أجزاء خشبية و أخرى من حديد و هي السكة و قد تتعرض أداة الحرث للتلف وتنكسر تحت العود ويرجع السبب في ذلك أن يتكأ على المحراث بقوة ، كما يحتاج الفلاح إلى الأداة أو الماعون و يتكون من عناصر عدة منها المضمد على الزوج و القرن بالحبال و الرسن و القتب و الشكال [3] .

كما استعمل أيضا الزوج الذي يكون من الثيران و البقر وهو ما يستشف من نازلة أوردها الونشريسي في المعيار مفادها من اشترى ثورا للحرث فوجده جاهلا لا يحرث ، و يكون الحرث عند الثور برؤوسها و عند البقر بأعناقها [4] ، و خلف استعمال هذه الحيوانات في الحرث الكثير من المنازاعات ، فإذا اشترى رجل ثورا بغرض الحرث لكن ليس في وقت الحرث و لما بلغ الوقت تبين أنه لا يحرث فليس له رده ، بخلاف لو اشتراه في وقت الحراثة [5] .

ولم يكن أصحاب الأراضي كلهم ملاك لثيران الحرث لذا انتشرت عادة استعارة أو استئجار الثيران لذلك ، وما يشترط على المستعير أن يضمنها [6] ، و ربما يرجع السبب في انتشار هذه العادات العادات مع وجود منازعات دعت إلى عرضها على الفقهاء للبت فيها لكون عددها قليل و ثمنها غالي.

و لا تختلف طريقة الحرث في العصر الوسيط عن الحرث التقليدي اليوم مع و جود بعض الاستثناء في الزوج الذي قد يستعمل الحمير محل الأبقار ، و أشار الحسن الوزان إلى استعمال الحمير في الحرث أثناء حديثه عن إقليم حاحا " و لا يحرث الحاحيون إلا بالحمير و الخيل " [7] ، وما دام استعمل مثل الحيوان في هذا الإقليم بالمغرب الأقصى فيرجح أنه استعمل في أرياف المغرب الأوسط ،

---

[1] محمد حسن : أصناف الانتاج الزراعي بإفريقية ص 269 .
[2] الونشريسي : المعيار ،ج1 ص 138 .
[3] محمد حسن : أصناف الانتاج الزراعي بإفريقية ص 268 .
[4] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 55 .
[5] البرزلي : المصدر السابق ، ج3 ص 267 .
[6] الونشريسي : المعيار ، ج9 ص ص 110،108.
[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج1 ص97 .

و سبب الترجيح كون بيئات المغرب متشابهة هذا من جهة و استعماله في الحرث التقليدي اليوم قد يكون استمرار لما وجد من قبل .

و اثّر التغير في الزوج على مردودية الإنتاج ، فالأبقار أصلح لعملية الحرث من غيرها فهي تجر المحراث بقوة و عمق و بطء و التحكم فيها أثناء الحرث أسهل [1].

و قد يكون هناك استعمال للعبيد في الحرث إذا لم نبالغ في تأويل النازلة التي تتحدث " عما يقع من إجارة الحيوان و العبيد بطعام غير موصوف ، و هل أجل الحرث كأجل الحصاد أم لا " [2] ، و يرجع السبب في عدم تأكيدنا لاستعمال العبيد في الحرث (حلوله محل الزوج)كون ذلك يعتبر تعسفا و مخالفا لتعاليم الشرع الإسلامي ، و هناك احتمال استعماله في الأعمال التي يمكن له القيام بها كتعهد الأرض و تنقيتها .

و تختلف عدد السكك حسب طبيعة الأرض و نوع الحرث و الزرع ، و بعد الحرث تعدل الأرض بمستوى جري الماء عليها و بعد التعديل تخطط الأرض للغراسة و تتباعد الغروسات على حسب نوع الثمار [3] ، و يمكن أن يكون الحرث أكثر من مرة على حسب نوعية الأرض ونوع الزرع " فينبغي لمن أراد الغراسة أن يبدي باعتمار الأرض التي تزمع غراستها بالحرث المعمق المضموم ثلاث مرات أو أربعة ومن أكثر من عمارتها كان أفضل "[4].

وأحيانا يستعاض عن الحرث المتكرر بأن يزرع الفلاح بعض النباتات التي تزيد التربة خصوبة مثل الفول و الترمس و اللوبيا و قد يزرع محصولين في وقت واحد مثل البقول و الغروس [5].

التسميد :

اعتبر صاحب مفتاح الراحة تسميد الأرض بمثابة الدواء للإنسان " لما كانت الأدوية المركبة يعالج بها الناس لدفع الآلام ، كذلك احتيج لدفع العوارض عن النباتات بأدوية مركبة من الأزبال والأتبان و الأرمدة ، و إنما سبب ذلك المضارعة و المشابهة بين الحيوان و النبات في الأمراض

---

[1] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 80 .

[2] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 229 .

[3] يحي أبو المعاطي : الملكيات الزراعية و أثرها في المغرب و الأندلس (238-488هـ /852-195 دراسة تاريخية مقارنة ،ج2 رسالة دكتورا بقسم التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية كلية دار العلوم جامعة القاهرة، 2000 ص 427 .

[4] ابن العوام : المصدر السابق ص 197 .

[5] يحي أبو المعاطي : المرجع السابق ، ج2 ص 427 .

والعاهات "[1]و لتسميد الأرض و تخصيبها عمد علماء الفلاحة إلى تبيان أهم أنواع الزبول التي تخصب بها الأرض ، إذ اعتبر خرو الحمام أجود أنواع الزبول ثم تأتي الأنواع الأخرى " أحسن زبل الطير زق الحمام فبحرارته يميت الأعشاب ، ثم زبل الحمير ثم زبل الغنم ثم زبل البقر " [2] ، و تعود جودة خرو الحمام لكون كميات قليلة منه تكفي لإنعاش أي نوع من النبات قد يكون في طريق الاحتضار ، كما أنه يقضي على بيض الجراد قبل تفريخه [3] .

و أوردت كتب الجغرافيا بعض النماذج حول التسميد فأهل تيكورارين كانوا يقومون بتسميد أراضيهم ، و لذلك يسكنون الغرباء في بيوتهم من غير أجر " ليحصلوا على سماد الخيل و رجيع الناس "[4] ، و إذا حدث و إن انعدم السماد وصل الحد إلى شراءه و أجاز الفقهاء بيع الأزبال للتسميد [5] ، في حين حددت مواعيد زمنية لاستعمال الأسمدة ومنها ما نقله إبراهيم بوتشيش و عبد الهادي البياض عن الطغنري قوله : "أنه رأى جماعة من الجنانين و قد استعملوا كمية من زبل الغنم لتخصيب بعض أحواض الياسمين في فصل الشتاء فاحترقت عن آخرها "[6] ، كما يجب مراعاة كمية محددة في عملية التخصيب ، " فالسرجين (الزبل)، يزيد في طيب الأرض الطيبة ، و أما الأرض الرديئة فإنه يصلحها إصلاحا كثيرا و يقويها و الأرض الطيبة لا تحتاج إلى سرجين كثير و أما الأرض المعتدلة فإنها تحتاج إلى سرجين أقل قليلا مما تحتاج إليه الأرض الطيبة و أما الأرض الضعيفة الرقيقة فإنها تحتاج إلى سرجين كثير و ليس ينبغي أن تسرجن الأرض دفعة واحدة لكن ينبغي أن تسرجن قليلا قليلا مرات متواترة فإن الأرض التي لا تسرجن باردة و الأرض التي تسرجن بأكثر من المقدار تحترق "[7].

---

[1] مجهول : مفتاح الراحة ص 112 .

[2] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 100 .

[3] يوسف نكادي : الزراعة في الأندلس ص 240 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 135 .

[5] الونشريسي :المعيار ،ج6 ص 314 .

[6] إبراهيم القادري بوتشيش عبد الهادي البياض : التربة آفاتها ، و تقنيات علاجها و تدابير استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية الأندلسية ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، تحت إشراف حسن حافظي العلوي ، منشورات عكاظ ، 2011 ص 233 .

[7] ابن العوام : المصدر السابق ص 98 .

و اعتبر إحياء الأرض الموات من عمليات الاستصلاح التي عرفها الريف المغربي في هذه الفترة، و نقل لنا الونشريسي في المعيار نازلة مفادها " أن رجلا و جد أرض بمقربة من العباد مضت عليها سنون و هي دائرة لا يعلم لها مالك و افتتحها و خدمها و غرسها " [1]، و تكلم ابن العوام في كتابه الفلاحة عن استصلاح الأراضي و أعطى لكل أرض السبيل لاستصلاحها و قال " أن جميع الأرضين الفاسدة من أي شيء كان فسادها من الملوحة أو الحرارة و الحدة أو النتن أو الرقة أو الثقل و التصاق العرق و الحموضة أو إفراط القبض فإن الماء الكدر من الماء السيل إذا أقام فيها زمانا وخلف فيها ترابا كثيرا أصلحها و كلما كان أكثر كدرا كان إصلاحه لها أكثر و ذلك أنه يغسل الأرض و يبردها إذا احتاجت إلى تبريد و يخلف فيها ترابا غريبا لطيفا عذبا لأن الماء ليس يحمل من التراب إلا لطيفه " [2].

العمل :

على الفلاح أن يقوم ببعض أعمال التهيئة ليكون الإنتاج على أحسن وجه ، وتختلف تلك الأعمال على حسب أنواع المنتوجات ، فإذا تعلق الأمر بأحد أصناف الحبوب أو القطاني فالأرض هنا لا تحتاج إلى أعمال تهيئة كبرى ، أما إذا كان المراد غراسته خضر أو كروم أو أشجار مثمرة فإنها تحتاج إلى جهد كبير و إمكانيات مادية و تقنية لقلب التربة و تسويتها و إزالة الأحجار و الأعشاب الضارة منها ، و كذا ربطها بمصدر الماء ، ومن أهم أعمال التهيئة إزالة الأعشاب الطفيلية [3] مثل نباتات النجم و اليتمة و أشجار البراري [4].

غلب على استغلال الأراضي في أرياف المغرب الأوسط في العصر الوسيط طابع البساطة ، ويظهر ذلك جليا من خلال توزيع و تنظيم المزارع من حيث القرب و البعد عن السكن و تزيد نسبة الخصوبة و الاهتمام حسب نفس المقياس ، فأخصب الأراضي هي التي تقع قرب المسكن لكونها تستفيد من فضلات الحيوانات و تحركاتها التي تساعد على تخصيبها ، كما أن قربها من المنازل يجعلها

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج5 ص 117 .

[2] ابن العوام : المصدر السابق ص 75،74 .

[3] يوسف النكادي : أساليب الزراعة و الغراسة و التناوب بين الاستغلال و الاستراحة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، تحت إشراف حسن حافظي العلوي،منشورات عكاظ ، 2011 ص 145، 246 .

[4] محمد حسن : أصناف الإنتاج الزراعي بإفريقية ص 270.

سهلة للاستغلال و غالبا ما تكون هذه الأراضي محصنة و تخصص لما تحتاجه الأسرة في حياتها اليومية كالخضر ، ثم يأتي المدى المتوسط حيث تنصب الضيعات التي تحتاج إلى الحراسة الدائمة و تكون مخصصة لزراعة القطنيات كالفول و الحمص و تكون عادة قريبة من المياه ، ثم يأتي بعدها المجال الثالث و هو البعيد نسبيا و يكون مجالا لزراعة الحبوب التي غالبا ما تكون في الأراضي البورية [1] .

و كانت خدمة الأرض في أرياف المغرب الأوسط في شكل منفرد أو في شكل شركات أو مؤاجرة ،ويرجع سبب وجود مثل هذا التنوع نتيجة لاختلاف ظروف الأرياف من الناحية الديموغرافية و علاقة الفلاحين بالسلطة الحاكمة خاصة في مجال الجبايات [2] ، ومن الأمثلة الدالة على وجود العمل الفردي حديث ابن الزيات عن بعض المتصوفة فأبا محمد بن جلداسن كان له بستانا " يخدمه بنفسه و لا يخدم له أحد " [3] ، أما الشركة ففي الغالب تكون بين رب الأرض والعامل فيها على النصف أو الثلث أو الربع أو الخمس على حسب الاتفاق [4]،و عنيت كتب النوازل بالشركات الفلاحية ، إذ وجدت شركة في الحرث مختلفة الأجزاء و هي تقاس على أساس المساقاة [5]، ومن الشروط الواجب توفرها في شركة الحرث الاعتدال ، حيث سأل أبو عبد الله الزواوي عن الشركة في الحرث إن لم يعتدلا،فأجاب "لا تجوز الشركة في الحرث حتى يقوما و يعتدلا في القيمة ، وإن لم يعتدلا فيما أخرجا فليرد أحدها على صاحبه ما زاد عنده ، و حينئذ تصح الشركة فإن لم يقوما فالشركة بينهما و يتراجعان فيما بينهما " [6] ، ومن أوجه الشركات في الحرث أن يتساوى الشريكين في في البقر و الآلة و الأرض و الزريعة و العمل [7].

كما عرف الريف المغربي انتشار الخماسة أو المزارعة بالخمس و هي أن يساهم الخماس بعمله و يقدم الآخر الأرض و البذور و آلة الحرث و المصاريف [8] ، ولم تكن مهمة الخماس محددة تحديدا واضحا إذ كان الاتفاق بينه و بين صاحب الأرض يتم مشافهة في الغالب و طيلة سنة زراعية من

---

[1] محمد مزين : المرجع السابق ج2 ص 386 .

[2] محمد فتحة : النوازل الفقهية و المجتمع ص 374 .

[3] التادلي : المصدر السابق ص 183 .

[4] محمد حجي : المرجع السابق ص 149.

[5] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 155 .

[6] نفسه 156 .

[7] نفسه ص 147 .

[8] محمد فتحة :النوازل الفقهية ص 380 .

الخريف إلى الصيف[1]، و أثار هذا النوع من الزراعة الكثير من التساؤلات حول مشروعيته و زخرت كتب النوازل بالعديد من الأسئلة حول الخماسة و التي تكون الإجابة عنها أحيانا بالجواز و أحيانا أخرى بغير ذلك [2] ، غير أن الخماس في حد ذاته تمسك بالخماسة و تفضيلها عن العمل بالأجرة ، و السبب يرجع إلى ما كانوا يتقاضونه و الذي كان يزيد بكثير عن الخمس ومنها الإقامة و القوت وأضحية العيد و الملابس ، وما قد يحصل عليه كسلف و الذي يتحول مع مرور الزمن إلى هدية لا يمكن استرجاعها [3] ، في حين عمل الخماس مقابل ذلك " أن يحرث و ينقي و يرفع الأغمار و يحصد يحصد و يدرس و ينقل السنبل إلى الأندر ، و إن شرط عليه غير ذلك لا يجوز ، و جرت العادة اليوم في البادية أن يشترط عليهم القيام بالبقر و الاحتشاش له و حمل الحطب و استقاء الماء إن احتاج إليه ، وهذا يفسدها " [4] ، و رغم و جود صراع بين الخماس و رب الأرض استمرت هذه الشركة لوجود مصلحة مشتركة بين الطرفين [5].

الزريعة :

اهتم الفلاحون المغاربة بالزريعة و البذور الجيدة و لهذا سعوا إلى البحث عن أصلح و أجود و أسمن البذور و تحاشي الرقيق و الهزيل منها ، و عمدوا إلى البحث عنها في شتى الأقطار[6] ،فمثلا ،فمثلا في الحبوب فالأجود هي التي حال عليها حول على حصادها ، و كلما زادت المدة قلة جودتها [7].

و بالنسبة لعنصر الزريعة لم ترد النصوص التي تتحدث عن عدم توفرها ، بل حديث النصوص عن كثرة الإنتاج يستخلص منها توفر الزريعة ، و يستثنى هنا أوقات الكوارث الطبيعية من جفاف وجليد و جراد و سيول ، و تحدثت كتب النوازل عن مشاكل تتعلق بجودة ورداءة الزريعة ، ومنها عدم نبات الزريعة ومن ذلك " الزريعة المشتراة لم تنبت و لم يبق منها ما يجرب هل على البائع يمين أنه ما

---

[1] محمد حسن :المدينة و البادية بإفريقية ، ج2 ص 426 .
[2] البرزلي : المصدر السابق ، ج3 ص ص 407 ،427 ، الونشريسي : المعيار ، ج8 ، ص ص 151 ،157 .
[3] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج8 ص 151 ، محمد فتحة : النوازل الفقهية و المجتمع ، ص 181 .
[4] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج8 ص 150 .
[5] محمد فتحة : النوازل الفقهية و المجتمع ص 381 .
[6] يحي أبو المعاطي : المرجع السابق ،ج2 ص 429 .
[7] مجهول : مفتاح الراحة ص 125.

باع إلا ما ينبت " و كانت إجابة الفقيه بأن التجربة تظهر صدق المشتري و إن كان البائع لا يعرف ذلك يعوض بقيمة الضرر إما إن كان مدلسا فعليه التعويض بجميع الثمن [1]،كما اشترى رجل شعيرا على أنه زريعة فلم ينبت و تبين له أنه غرر به [2] ، و عمد بعضهم إلى بيع زريعة البصل على أنها جيدة فتبين بعد زرعها أنها لا تنبت ، و لم يعرف ذلك إلا من قول المشتري و البائع ينكر ذلك ، والحل هنا إن كانت البينة لم تفارق المشتري حتى زرعها في أرض ناعمة ، و لم يضيع سقيها في وقتها، فعلى البائع رد الثمن إلى المشتري ، و لا يعوض عليه بالزريعة إذ لا فائدة منها ، و إن لم يكن للمشتري بينة ، و شهد عدول على أن الأرض لا يصلح نباتها و حلف البائع أنه أعطاه زريعة جيدة في علمه و أنه لم يغرر به فلا شيء عليه [3]،كما أورد الونشريسي نازلة مفادها أن رجل باع زريعة حناء و أخبره أنها لا تنبت ، فإن كان غرض المشتري غرس هذه الزريعة لا يجوز هذا البيع أما إن كان لغير ذلك جاز البيع [4] ، و إذا وجد من صرح بالزريعة التي لا تنبت فقد وجد من كتم ذلك وكلف وكيل لبيع زريعة الحناء على أنها تنبت ، فلما اشتراها المشتري وجدها لا تنبت و أقر الوكيل أنها الزريعة التي باعها و أنكر صاحبها أنها زريعته فالقول هنا قول الوكيل مع يمينه [5].

كما حدثت أيضا منازعات بين الشركاء ومن أوجه ذلك أن يزرعا أرض فينبت زرع الواحد ويبطل زرع الآخر ، فمصيبة الذي بطل عليهما و الذي سلم لهما ، " و إن بطلت زريعة أحدهما في إبان الزراعة لم يلزمه أن يخلفها ... لأنهما لو خلطاها و زرعاها و جاد بعضهما من إبان الزريعة " فهم شركاء و عليهما تحمل النتائج معا ، في حين رأي آخر يرى أن لكل واحد منها ما زرع من زريعته جادت أو ركدت [6] .

الحصاد :

استعمل في الحصاد المنجل و الأدوات المرافقة له في الحصاد كالتباندة و هي صدرية من الجلد توضع لوقاية الحصّاد من الشوك ، و أغطية من خشب أو قصب توضع على أصابع اليد اليسرى

---

[1] البرزلي : المصدر السابق ،ج3 ص 266 . الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 56 .

[2] البرزلي : المصدر السابق ، ج3 ص 266 .

[3] نفسه ص 267 ، الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 168 .

[4] الونشريسي : المصدر نفسه ، ج6 ، ص 56 ، ج10 ، ص 327 .

[5] نفسه ، ج10 ، ص 327 .

[6] نفسه ، ج8 ص ص 168، 169 .

وقاية لها من ضربات المنجل ، و يكون الحصاد في الاستغلاليات الصغيرة و الواحات و المناطق الجبلية عن طريق الاقتلاع [1]، أما في الاستغلاليات الكبيرة فيتم العمل باستئجار الحصّادة مقابل أجرة عينية ومن ذلك أن يأخذ نصيبا من المحصول [2]، أو نقدية ، أو عن طريق التضامن بين القبائل (التويزة) ، ويبدأ العمل من طلوع الشمس إلى الزوال ، أما الدرس فاستعملت فيه المدرات و المجرفة و التي تصنع من الخشب الصلب نسبيا كالبقس أو الزبوج أو من أخشاب سريعة التشكيل كالأرز و العرعار ، في حين استعملت المدرات في نقل أغمار الزرع إلى الأندر و تستعمل أيضا لتصفية الزرع [3]، و عمد الفلاح لمواجهة أي طارئ إلى الادخار و تكلمنا عن الادخار أثناء حديثنا على مواجهة المجاعات والأزمات التي تعرضت لها أرياف المغرب الأوسط .

ما يمكن استخلاصه من عناصر العمل الزراعي هو أن العمل فيها يبدأ بإعداد الأرض التي تختلف من حيث الخصوبة من منطقة إلى أخرى ومن تربة إلى أخرى و يتطلب هذا العمل الكثير من الجهد و الخبرة التي يجب توظيفها توظيفا دقيقا لتعطي الأرض ما ينتظر منها فتكون البداية بالاستغلال العقلاني للتربة و بما يخدمها دون إجهاد ، ثم تلي عملية الحرث و هنا يستعمل الفلاح الأدوات المتعارف عليها في تلك الفترة من محراث و حيوانات مخصصة لهذا الغرض، و قد تتطلب طبيعة الأرض الحرث أكثر من مرة حتى تصبح جاهزة لاستيعاب ما يزرع فيها ، غير أنه يمكن أن يستعاض عن الحرث المتكرر و تعويضه بزراعة بعض المزروعات (الفول و الترمس و اللوبيا) التي تعمل على جعل الأرض أكثر استيعابا للمزروعات المراد زرعها ، و ربما يرجع السبب في زرع مثل هذه المزروعات إلى كون عملية الحرث تتطلب جهدا مضاعفا ، كما أن أدوات الحرث قد لا تتوفر عند كل الفلاحين خاصة إذا اعتبرنا أن جل الفلاحين كانوا فقراء في الغالب ، ثم يكون العمل على تسميدها و إصلاحها و يكون ذلك في وقت معلوم و بقدر معلوم ، وهذا يعني أن استعماله في غير وقته أو استعمال كمية أكبر من الكمية التي تحتاجها التربة فالنتائج قد تكون كارثية على التربة و المحصول ، وكان العمل في الفلاحة يكون منفردا أو يكون على شكل شركات ، و إذا كان العمل المنفرد يكون دون حدوث مشاكل فإن العمل في إطار الشراكة خلف الكثير من المشاكل أهمها على الإطلاق :

---

[1] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ، ص 84 .

[2] الونشريسي : المعيار ،ج8 ص 232

[3] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص ص 83، 87.

هل الخماس يعتبر شريكا أم عاملا ، كما سعى الفلاح في بحثه عن المنتوج المميز البحث انتقاء أجود البذور ، و خلف البحث عنها الكثير من المنازعات بين الفلاح و بائع البذور خاصة إذا زرعها الفلاح في وقت الزرع و ظهر أنها لم تنبت ، و تأتي بعد ذلك عملية الحصاد و الدرس وهي تعتمد على أدوات بسيطة بساطة أدوات الحرث ، ثم يكون تخزين المحصول و الذي يكون في أماكن بسيطة كالجرار و المطامير .

الماء وأهميته :

الماء مشتق من "ماه " [1]، يتشكل في جوف الأرض قبل أن يعرج إلى السطح وذلك لأن " الأبخرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل في الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل ويتحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها " [2] ،وتخرج على شكل أنهار وعيون وأنهار وآبار وحمامات تختلف من حيث جودتها على حسب التركيبات التي مر بها هذا الماء [3].

و قام الماء على ثلاث أسس وهي " التشارك "" نفي الضرر "" العرف "[4].

والأساس الأول قام على أساس تشريع رباني لقوله تعالى " وَنَبِّئْهُم أَنَّ المِاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرْ "[5] ، فيشترك الناس " في الماء لشفائهم و منافعهم من الاغتسال وغيره مما يرتفق فيه ، ويسقي دوابهم "[6] وما يترتب عن ذلك من إباحة ومساواة في الانتفاع [7] ،لكن هذا لا يعني أبدا أن الحيازة الفردية للمياه منعدمة ، بل كان الهدف هو تقنين وترتيب استغلال المياه على حسب نوعية الماء ، لهذا سعى الفقهاء جاهدين من أجل التميز بين حاجة الإنسان والحيوان إلى الشرب والسقي و الري ثم الطحن [8].

---

[1] ابن منظور :المصدر السابق ،ج3 ص543 .

[2] أبو العباس أحمد القلقشدي : أصبح الأعشى في صناع الانشا ، ج2 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1340 ه ، 1922 م ص179 .

[3] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان في الأندلس خلال القرنين 7-8ه /13-14م إسهام في دراسة المجال و المجتمع والذهنيات ، ط1 ، دار الطليعة بيروت ، 2007 ص 18.

[4] نفسه ص 19.

[5] سورة القمر الآية 28

[6] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان ص 19

[7] الونشريسي ، المعيار ، ج8 ص 35.

[8] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان ص 20.

أما دفع الضرر فيكمن في حماية الشركاء لأن أهميته تبرز عند نشوب النزاعات مما جعل منه مقياسا لفض النزاعات[1].

أما العرف فكان في حالات قليلة وجرت به عادة السكان في بعض المناطق على خلاف ما اشتهر في المذهب المالكي وكله يدخل تحت العرف الذي يعتبر مصدرا من مصادر التشريع[2] لقوله تعالى " خُذِّ العَفوَ و أَمُرْ بالعرُفِ و أَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ" [3].

المسؤولية عن المياه :

خضع الماء في تقسيمه إلى السلطة المركزية التي حاولت استيعاب خطورة نقص الماء لذا أصدرت تعليمات تتعلق بالعدل في الاستفادة من المياه وذلك بالعمل على خلق توازنات بين المجموعات المستفيدة من السواقي [4] .

نظام السقي :

من الأنظمة المعروفة في إدارة المياه :

نظام المساقاة : وهي أن يدفع " الرجل شجره لمن يخدمها وتكون غلتها بينهما " [5]، و تكون في في الضياع و الحقول الكبرى وسميت ب " وكالة التفويض " [6] ، و كان هناك عقد يوقع بين الساقي وبين صاحب البستان ، على أن يقوم الأول بخدمة كل ما يتعلق بالثمار وما يلحقها من حفر الآبار وكنس العيون و السواقي ، وفي المقابل يحصل على نسبة من الإنتاج بين الثلث والربع والنصف على حسب طبيعة الحقول و الاتفاق [7] .

نظام الري :

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج8 ، ص 381 ،382 ، ج9 ص 290.

[2] محمد حجي : المرجع السابق ص 149.

[3] سورة الأعراف الاية 199.

[4] المصطفى عيشان : مياه الري بين السلطة الدينية والسلطة السياسية أو إعداد التراب الوطني ودرس التاريخ ،مجلة أمل ، العدد24 السنة الثامنة ، عدد خاص حول تاريخ الري في الجنوب المغربي ، ندوة الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي أغادير 27-28 أكتوبر 2000 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2001 ص 63.

[5] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان ص 39.

[6] عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، تح حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 ، 1997 ص 527 .

[7] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 154.

تعددت أنظمة الري و اختلفت من منطقة إلى أخرى و المتحكم في الاختلاف المساحة المغروسة و وفرة المياه و ندرته و كذا أدوات التحكم في المياه .

نظام الري الكبير :

والذي يجب أن تتوفر فيه المساحات المغروسة الشاسعة كما يجب فيه توفر الموارد المائية وشبكات التوزيع حسب طبيعة المكان كل هذه الأمور سهلت من أمور الاستغلال و قضت على كل النزاعات [1] ، و يكون الاعتماد فيه على الأودية و تكمن الفائدة الهيدروليكية للأودية في تخصيب السهول الفيضية الممتدة على ضفافها [2]،و تعددت الأودية و السهول في أرياف المغرب الأوسط ، فمستغانم يخترقها ماء [3] ،و في شرقها يمر نهر الشلف [4] ، و كانت تنس تقع بين نهرين " بين مصب مصب نهر الشليف أو مصب كارطينا و مصب نهر الزعفران "[5] ، كما يوجد أيضا نهر بالقرب من قسنطينة [6] ، وفي نظام الري الكبير يتم الاعتماد على :

القنوات الكبرى : القنوات هي من الشواهد على تطور نظام الري وهذا النظام يعتمد على قناة رئيسية وسواقي فرعية لتوزيع المياه [7].

السدود : الوظيفة الأساسية للسدود هي تحويل المياه إلى القنوات وإدارة النواعير والرحى[8]، وكذا للحد للحد من الفيضانات ولهذا وجدت سدود للتخزين وسدود للتحويل [9] ، و وردت عبارة تحريك

[1] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان ص 49،48 .

[2] نفسه ص 49.

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص32

[4] مارمول كربخال : المصدر السابق ج2 ص 350 .

[5] نفسه ص 353 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ص،ج2 58 .

[7] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان ص 51.

[8] ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب قسم الموحدين ص 329.

[9] بن حمادة : الماء و الإنسان ص 53

الطاحونات و الأرحاء أثناء حديث كتب الجغرافيا عن مستغانم [1] ،و قرب مدينة الجزائر " من الجهة الشرقية نهر نصبت عليه طاحونات " [2] .

و كانت السلطة الحاكمة هي المسؤولة عن بناء نظام الري الكبير و هذه المنشآت موجهة نحو البذخ والترف الذي تتمتع به الحياة الأرستقراطية والأسر الحاكمة والقبائل المتغلبة ولم تكن موجهة نحو البناء الاقتصادي ، ومن ثم سعت الارستقراطية الحاكمة إلى إقامة منتزهات سميت بالرياض ، وهي حدائق غناء تضم أنواع متعددة من الأشجار المثمرة وصهاريج المياه ، يعيش أصحبها الغناء الفاحش فيما كانت الرعية المستضعفة تعيش الفقر المدقع وهو ما ترتب عنه حدوث شرخ اجتماعي متزايد بين الطبقتين والذي كانت له نتائج سلبية منها عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي و الذي يتلوه خراب منشآت الري ، ولم يكن للتعاقب الدوري للاعتمار والخراب تراكم في تقنيات الري وتطورها وإنما التطور كان يتم بشكل دوري ويكرر نفسه [3] .

نظام الري المتوسط :

ويظهر هذا النظام في البنيات العقارية الصغيرة والمتوسطة الحجم والتي تتعدد فيها الأساليب التقنية الضعيفة الفعالية وتتداخل فيها الحقوق المائية ، ويكون دور السلطة المركزية فيها محدودا [4]، وفي وفي هذا النظام يكون الماء هو العنصر الرئيس في العملية التي قد يكون فيها ثلاثة أنواع من الملكيات فوق قطعة أرض واحدة : مالك الأرض ، مالك المحصول ، ومالك الماء [5] تعدد الملكية كان من المفروض دافع إلى وجود تضامن أكثر من الاهتمام بالإنتاج والمحصول [6] ، لكن الذي حدث هو العكس فكان هناك توتر دائم لبعد السلطة عن التحكم فيه ، وهو ما دفع بالفقهاء لاستصدار الفتاوى والتي لم تكن ملزمة ، هذه الظروف جعلت من المنشآت السقوية هشة ومعرضة للإتلاف

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2ص 32 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 350 .

[2] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 37 .

[3] الحسين أسكان : تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط ، مجلة أمل ، عدد خاص تاريخ الري في الجنوب المغربي أغادير 27 28 أكتوبر 2000 ، العدد 24 السنة الثامنة ، مطبعة النجاح الجدية الدار البيضاء 2001 ، ص 25،26 .

[4] الونشريسي : المعيار ،ج8 ص 292.

[5] سعيد ابن حمادة : الماء و الإنسان ص 55.

[6] الونشريسي : المعيار ،ج8 ص 382.

بسب القدم وكثرة الاستعمال ومشاكل الصيانة والكنس [1] ، و أدت مثل هذه المشاكل إلى تذبذب الموارد المائية وجعل من الحصص السقوية تتميز بصغرها وهو ما لا يتناسب وحاجة بعض المزروعات من الماء [2].

الري الصغير:

يعتمد فيه على العيون والآبار وغالبا ما تكون هذه التقنيات للشرب ولهذا توجد على طول الطرق التجارية [3] ، و يكون هـــذا النـــوع في مناطق التواجد السكاني ففي نقاوس توجد " لجميع الدور تقريبا سقاياتها الخاصة " [4] ، في حين ينبع من جبل الأوراس عدة عيون " ينتشر ماؤها في السهل " [5].

توزيع الماء :

اعتمد في توزيع الماء على تقنيات عرفية تمثلت في آلات قياس نحاسية وفخارية ويتم تقسيم المياه اعتمادا على تلك الأواني وتكون تحت إشراف " رجلين مأمونين يأخذان قدرا من الفخار أو شبهه ، فيثقبان في أسفله بمثقب يمسكانه عندهما ثم يعلقانه ويجعلان تحته قصرية للماء في جدار ، فإذا انصدع الفجر صب الماء في القدر فسال الماء من الثقب ، مهما فرغ الماء صب حتى يكون سيل الماء من الثقب معتدلا النهار كله والليل كله إلى انصداع الفجر ، ثم ينحّيانه ويقسمان ما اجتمع على أقل المستفيدين سهما كيلا ووزنا " [6] ، كما استعملت الساعة المائية التي تتخذ من أواني الكيل التي تحسب به زكاة الفطر ، ويعمل فيه ثقب من الأسفل ويوضع في منبع الماء ليحسب به توزيع الماء

---

[1] بن حمادة :الماء و الإنسان ص 55.

[2] نفسه ص 56.

[3] الحسين أسكان : تكنولوجيا التحكم في الماء ص 20.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 53 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 383 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 102 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه 390.

[6] سعيد بن حمادة: الماء و الإنسان ص 68.

للسقي بين المستفيدين بوحدات قدر وقت كل واحد ما يستغرقه امتلاء الإناء ، و يسمى هذا المقياس عند أهل الزاب بالفادوس [1] .

وكان البعض يقوم بتسليف نصيبه من الماء أو يكتريه إلى شركيه، و جرت العادة أن يأخذ بعضهم ماء صاحبه يوما كاملا وطوال الليل على أن يعطيه مثل ما يؤخذ بعد أربعة أيام أو خمسة على حسب الاتفاق ، و أباح الفقهاء هذه العملية إذا لم تتدخل فيها المنفعة كأن يستلف منه في الفصل الذي تقل فيه الحاجة إلى الماء وهو فصل الشتاء ويرجع في الفصل الذي تكثر فيه الحاجة إلى الماء وهو فصل الصيف [2].

و فرض الجفاف استعمال عدة تقنيات لاستغلال الماء لأن الأرض تتطلب تحكما إضافيا في الماء لندرته ، وتختلف تقنيات التحكم في الماء و تعبئتها على حسب نوعيتها بين مياه المطر و المياه السطحية والمياه الجوفية .

فمثلا تعبئة مياه الأمطار يدخل تحت إطار التحكم في المياه إذ أن الإنسان حاول تعبئة أكبر كمية من المياه لشربه الخاص أو لشرب حيواناته ، واستعمل في ذلك الخزانات أو سدود التحويل ، والخزانات نوعان الخزانات المغطاة وهي تقنية واسعة الانتشار في الجنوب [3]، وهناك الخزانات المكشوفة وهي شبيهة بالسدود اليوم وتسمى المواجل وهي منتشرة في المناطق المفتقرة للمياه مثل المواجل الموجودة في قسنطينة [4] ، كما وجدت المواجل في شقبنارية [5] و تحدث عنها صاحب الاستبصار " وبقي فيها مواجل عظام ما تغير منها شيء" [6] ،في حين وجدت في عنابة صهاريج لخزن مياه المطر سماها الحسن الوزان " نطـــافي "، وأسباب إقامتها عدم وجود عيون فيها [7] ، أما في طبنة فوجدت الصهاريج لتحزين مياه الجدول الذي يمر بها [8] .

[1] الحسين أسكان : تكنولوجيا التحكم في الماء ص 22.

[2] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 394، 395.

[3] الحسين أسكان : تكنولوجيا التحكم في الماء ص 18 .

[4] البكري : المصدر السابق ص 26 ، مجهول : الاستبصار ص 115 .

[5] شقبنارية : تقع في طرف جبل الأوراس و بها آثار عظيمة ، مجهول : المصدر نفسه ص 164 .

[6] نفسه ص 164 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 62 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص 08.

[8] مجهول :الاستبصار ص 172 .

أما سدود التحويل فكانت بسيطة و تقام على الأنهار والروافد ذات الجريان الموسمي بهدف تحويل جزء من مياه الوديان لسقي ضفاف هذه الأنهار والتي زرع فيها بالدرجة الأولى الحبوب [1] ، ووجد مثل هذه الأنهار في منطقة هنين " البساتين الواقعة على ضفة النهر القريب من المدينة "[2] ، وكذا و جد بالمتيجة سهل " يبلغ طوله حوالي خمسة و أربعين ميلا و عرضه ستة وثلاثين ميلا ، حيث ينبت القمح الجيد بكثرة " [3] ، كما يمر بالقرب من قصر ايسلي " جدول ماء يسقي المزروعات، إذ لا ينبت أي شيء في هذه البلاد دون سقي لشدة الجفاف "[4] .

كما استعملت الآلات الميكانيكية للتحكم في الماء كالناعورة ومنها الصغيرة و الكبيرة، و يكون المحور فيها أفقي أو عمودي ومنها من يدار بالتيار المائي أو بالطاقة الحيوانية .[5]

و أمام هذا الوضع عمل الفقهاء على مسايرة العادات والعرف من أجل تمتين الرضا أثناء الاستغلال الجماعي للمياه خاصة في فترات ندرة المياه وذلك بإعادة النظر في توزيع المياه إذ جرت العادة " إذا شح الماء وتعارضت الحقوق .... لا يستوفي أهل ساقية ما كان يستوفيه عند كثرة الماء ، بل يكون النقص منقسما بينهم ، فيقسمون الماء على قدر الحاجة "[6] ، وللحفاظ على العلاقات وجب هنا توظيف الشرع والعرف لمنع تحويل حيازة الماء إلى ملكية و الحيلولة دون تدمير التضامن الاجتماعي ، ولهذا تم تحريك نظام الشفعة لسد الطريق أمام استغلال الأجانب للمياه الجماعية [7]، والشفعة تكون فيما هو مشاع ولا تكون فيما قسم[8].

و سعى الفلاحون إلى استنباط المياه الجوفية خاصة في المناطق التي تشح فيها المياه السطحية ، وكان اللجوء إلى حفر الآبار من الأمور المستعصية على الفلاحين الصغار و المتوسطين ، فلجأ الفلاحون إلى أشخاص يدعون معرفة المياه الباطنية والكشف عنها فيشيرون عليهم بالحفر في أماكن يحددونها ، وتعتمد عملية الكشف على أساليب تقليدية وبسيطة تدخل فيها الشعوذة فيعتمدون على

---

[1] الحسين أسكان : تكنولوجيا التحكم في الماء ص 19.

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 16، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 296.

[3] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 37 .

[4] مجهول : الاستبصار ، ص 134 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 12 .

[5] الحسين أسكان : تكنولوجيا التحكم في الماء ص 21.

[6] سعيد بن حماة :الماء و الإنسان ص 68 .

[7] نفسه ص69 .

[8] ابن أبي زيد القيرواني :المصدر السابق ص 230.

سعف النخل و أغصان الزيتون والتين الطرية وحفنة الشعير وليقة الصوف ، وفي بعض الأحيان يكتفون بملاحظة المكان وتفحصه في وقت شروق وغروب الشمس [1]، و تكلم البكري عن مثل هذه العملية والتي عايشها " وأخبرني غير واحد أنه رأى بمرسى بادس رجلا قصير القامة مصفر اللون يكرمه أهل ذلك الموقع ويقدمونه و يذكرون أنه ينبط المياه في المواضع التي لم يعهد فيها ماء عيون وآبار ، وأنه يخبر بقرب الماء وبعده و أنه يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموقع لا غير " [2].

يمكن القول أن الماء من أهم الثروات التي سببت صراعات ونزاعات وترجع الأسباب إلى :

الماء يعتبر أكبر مشكلة اقتصادية في المغرب الإسلامي [3] ، و يعتبر العامل البشري أحد أهم العوامل التي أدت إلى الخصومات حوله وبتوفره تزول تلك التوترات [4] ، وهذا ما أكده صاحب الاستبصار حين قال " إذا رأيت قوما يتخاصمون وقد علا الكلام بينهم ، فاعلم أنهم في أمر ماء "[5]، ومن أسباب النزاعات وجود نسبة كبيرة من المستوطنين حول الماء وهو ما جعل الاستغلال الفلاحي يقوم على وحدات ضيقة خصوصا وأنها بنت حياتها الاقتصادية على المجرى المائي الواحد ، إذ في كثير من الأحيان يرغب البعض في توسيع النشاط الزراعي أو يقوم بإضافة مزروعات تحتاج إلى كميات إضافية من الماء أو يسعى إلى استبدال بعض وسائل الري القديمة بوسائل حديثة أو يقوم ببناء أرحية جديدة [6]، و ظهرت نزاعات بين المزارعون وأصحاب المطاحن حول من له أحقية استغلال المياه فالمزارعون " أحق بالماء لسقي جناتهم من أصحاب الأرحاء ، وإن كانوا أنشئوا جناتهم بعد إنشاء أهل الأرحاء لأرحيتهم " [7] وترجع أسباب التفضيل إلى أن " الثمرات إذا لم تسق في وقت وقت سقيها هلكت ، و الأرحاء لا تهلك بقطع الماء عنها وإنما تنقطع المنفعة في ذلك الوقت " [8] ،

---

[1] محمد حاج طويل : الري والزراعة المسقية في الجنوب ص 8.

[2] البكري ، المصدر السابق ص 102 .

[3] عز الدين موسى ، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ط1 ، دار الشروق ، بيروت ، 1403هـ - 1983 م ص 60.

[4] سعيد بن حمادة :الماء و الإنسان ص 74.

[5] مجهول : الاستبصار ، ص 152، 153.

[6] سعيد بن حمادة : الماء و الإنسان ص 80.

[7] الونشريسي :المعيار ج8 ، ص ص 16-389.

[8] نفسه ص 389.

كما حدث نزاعات بين أصحاب الأرحاء إما بسب إنشاء أرحاء جديدة إلى جانب القديمة [1] ، أو تغير ساقية أو سد إحدى المطاحن أو رفعها إلى أعلى [2].

ما يمكن قوله عن الماء أنه عنصر مهم متحكم في الزراعة ، و قد تأرجح هذا العنصر بين الوفرة و الندرة ، و أمام هذه الحتمية وجب اتخاذ إجراءات للاستثمار في ما هو متوفر و الحفاظ عليه أو البحث عن مصادر جديدة للمياه كحفر الآبار و استنباط المياه الجوفية ، و ما يمكن ملاحظته على طريقة الحفر أنها طريقة بسيطة و استمرت إلى يومنا هذا ، كما خلّف استغلال الماء الكثير من المشاكل و السبب يرجع إلى عدم وجود استغلال عقلاني له أو بسبب شحه كونه لا يكفي لسقي الأراضي ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كثرة المجالات التي يستعمل فيها الماء ، إذ خصص للشرب و للسقي و للأرحاء ، و هو ما دفع بالفقيه إلى التدخل لفك مثل هذه النزاعات و ترتيب أولويات استغلال الماء و كانت الأولوية للشرب ثم السقي و يأتي في الأخير الأرحاء لكون الشرب والسقي لا يمكن تأخيرهما و الضرر الذي يترتب عن التأخير لا يمكن جبره ، في حين الأرحاء يمكن تأخير وقتها إلى وقت معين ، و أمام هذا الوضع تحتم إيجاد وسائل لاستغلال المياه بطرق عادلة فاعتمد على ساعات نحاسية و فخارية لتوزيع المياه و يشرف على العملية أشخاص أمناء و ربما يكون اشتراط الأمانة في الرجلين سببه الحاجة الملحة للماء و كذا وقوع العديد من المشاكل التي قد يتسبب فيها المشرف على تقسيم المياه ، ومن ثم وجب غلق أي باب قد يؤدي إلى حدوث مشاكل مائية .

المحاصيل الزراعية :

تنوعت المحاصيل الزراعية في أرياف المغرب الأوسط بتنوع أراضيه و مناخه ، فوجدت الحبوب والبقوليات و الخضر و الفواكه و غيرها من المحاصيل .

و غلبت زراعة الحبوب على غيرها من الزراعة كون هذه الزراعة لا تحتاج إلى السقي الدائم وإنما تعتمد على ما تجود به السماء في غالب الأحيان .

1-الحبوب : كثرت زراعة الحنطة (القمح و الشعير) في أرياف المغرب الأوسط ، و ينبغي أن يزرع في الأرض العميقة و تسمى الأرض السهلة ، كما يزرع أيضا في الأرض الصلبة و التي تسمى

---

[1] نفسه 380.

[2] نفسه ص 380،381 ، ج9 ص 290.

الشديدة ، و يزرع أيضا في الأراضي الرقيقة و الدسمة [1]، و زراعة القمح تتطلب مساحات زراعية واسعة و ظروف مناخية ملائمة [2]، و تكون زراعته في منتصف شهر سبتمبر إلى شهر جانفي ، و ما يزرع في ديسمبر و يحصد في أفريل يكون اسمن و أجود ، وما زرع في ديسمبر يحصد في ماي [3] ،ولم تكن زراعته تحتاج الكثير من العناية كالبستنة [4]، وهو ما كان سببا في انتشاره في مناطق متعددة من أرياف المغرب الأوسط غير أنه أقل انتشارا مقارنة بأرياف المغرب الأدنى و المغرب الأقصى [5]، واكتست الحبوب أهمية بالغة كونها سهلة التحويل إلى دقيق الذي يعتبر الغذاء الرئيسي لسكان بلاد المغرب الأوسط بصفة عامة و سكان الأرياف بصفة خاصة [6].

مناطق إنتاج الحبوب :

لم تسعفنا المصادر التي اطلعنا عليها على المساحة الإجمالية التي كانت تخصص لزراعة الحبوب و لا الكمية التي تعطيها المساحة المغروسة إلا ما كان عاما ، لكن ما يمكن الجزم به هو أن مساحة أراضي زراعة الحبوب تفوق المساحات المخصصة للأنواع الأخرى كالخضر و البقول و الأشجار المثمرة ، و يرجع سبب الجزم إلى أهمية هذا المنتج للإنسان و الحيوان على حد سواء فالشعير استعمل كعلف و هو ما أشار له الحسن الوزان " فلم أجد الشعير لفرسي " [7] ، يضاف إلى ذلك كونها زراعة سهلة و لا تحتاج إلى عناية كبيرة ، وكذا الانتشار الواسع لهذه الزراعة إلى يومنا هذا أكثر من غيرها .

ومن المناطق التي يزرع القمح فيها الأراضي المجاورة لتفسرة التي تعتبر جيدة لزراعة القمح [8] ، وكان ينبت في تسلة قمح جيد جميل اللون غليظ الحب يمكن وحده أن يزود تلمسان بما تحتاجه من حبوب [9] ، و البطحاء تقع في "سهل سفيح ينبت فيه القمح بكثرة ، و كانت تحقق لملك تلمسان

---

1 مجهول : مفتاح الراحة ص 125.

2 مزاحم علاوي الشاهري : الأوضاع الاقتصادية في المغرب في عهد المرينيين (668-759هـ/1269-1358م) ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2001 ص 84 .

3 مجهول : مفتاح الراحة ص 125.

4 محمد حسن :المدينة والبادية ص451.

5 ATALLAH DHINA : opcit . p 336 .

6 يوسف نكادي : الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس ص 260 .

7 الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 52 .

8 نفسه ص24 ،مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 323 .

9 الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 25 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ص325 .ATALLAH DHINA :Opcite ,p 337

دخلا يقدر بعشرين ألف مثقال " ، و خربت هذه المنطقة ثم عمرها أحد النساك و زرع أراضيها وتكلم عنها الحسن الوزان بقوله " و أخبرني كثير من أتباعه أن عشر أراضيه يصل إلى 8000كيل من القمح في السنة "[1]، و ينبت في سهل المتيجة القمح الجيد بكثرة[2]، وتعتبر أرض جبل ورنيد صالحة لزراعة القمح[3] ، و لا تختلف دلس عن المناطق المذكورة فأهلها يملكون أراضي زراعية كثيرة تنتج القمح بوفرة[4] ، كما حاول سكان جبل ولهاصة زراعة القمح رغم أنه لا ينبت فيها إلا قليل[5]، [5]، و في سفح جبل كوكو ينتج قمح كثير[6]، و السهول المحيطة بنقاوس تصلح كلها لزراعته[7]، أما أما الشعير فتتحدث كتب الجغرافيا عنه مستقلا عن القمح و مع القمح ومن المناطق التي يزرع فيها مع القمح جبل بني ورنيد الذي تصلح تربته لزراعتهما على حد سواء[8] ، وكانت منطقة تنس تنتج القمح والشعير ومنها ينقل إلى غيرها من المدن[9] ، وهو ما كانت عليه أرض بريشكار[10] ، أما التي يزرع فيها دون القمح فربما يرجع السبب في ذلك كون الشعير أكثر مقاومة من القمح سواء من حيث مقاومة الجفاف أو نوعية التربة وهو ما يفهم من قول الحسن الوزان أثناء حديثه عن قصر إيسلي " و تحيط به بعض الأراضي التي يزرع فيها الشعير ... إذ لا ينبت أي شيء في هذه البلاد دون سقي لشدة الجفاف "[11] كما أشار إلى ذلك أيضا صاحب مفتاح الراحة " ينبت في الأرض المالحة و النزة والعرقة و الحامضة و الرقيقة و الرخوة ، و يصبر على العطش "[12]، ومن مناطق زراعته منطقة تبحيرت التي ينبت فيها و لكنه قليل[13] ، وتختلف برشيك عن تبحيرت فباديتها تنتج الكثير

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 28 .

[2] نفسه ص 37 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص364 .

[3] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2ص 352.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ، ص 42 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 372 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 44

[6] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 374 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 53 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 383 .

[8] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 352 .

[9] نفسه ص 354 .

[10] نفسه ص 355 .

[11] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2ص 12 .

[12] مجهول : مفتاح الراحة ص 126 .

[13] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 15 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 296 .

من الشعير [1] وهو نفس حال جبل بني بوسعيد [2]، في حين لا ينبت في جبل مطغرة إلا الشعير [3] وهو وهو حال أراضي جيجل فأراضيه وعرة لا تصلح إلا للشعير [4] ، ولا تختلف عن ذلك الأراضي المحيطة المحيطة بمزغان التي ينبت فيها الشعير و لا ينبت فيها القمح إطلاقا [5].

ونال القمح و الشعير مكانة كبيرة جدا دفعت ابن عبدون إلى القول " و في الحنطة تذهب النفوس و الأموال ، و بها تملك المدائن و الرجال و ببطالتها تفسد الأحوال و ينحل كل نظام " [6]، و انطلاقا من هذا القول استعمل القمح في بعض المرات للمعاوضة بالدنانير إذ وردت في المعيار نازلة مفادها رجل غاب عن زوجته و لها عليه عشرة دنانير فقال لها يوم أسافر خذي في العشرة دنانير ثلاثة أثمان قمحا و هي في المطمورة ، و أفتى الفقيه بجواز ذلك إذا أخذت القمح متى أرادت [7] ، كما جرى أيضا بيع القصيل (القمح الأخضر) بالطعام إلى أجل ، سواء تأخر الطعام أو تعجل إذا شرع في رعيه أو جزه ، و لا يمكن أن تتم العملية لصغر الزرع و يجب تركه حتى يرتفع و يزيد [8].

ومن الحبوب التي وجدت بالريف المغربي الدخن وهي من الحبوب القليلة انتشارا في أرياف المغرب الأوسط إذ انتشر في قصر ايسلي الذي " تحيط به بعض الأراضي التي يزرع فيها الشعير والدخن " [9] وتنتج هذا المنتوج منطقة تبحيرت [10].

كما يرجح وجود أنواع أخرى من الحبوب في أرياف المغرب الأوسط و إن كانت المصادر صامت عن الحديث عنها غير أن كتب الفلاحة تحدثت عنها ، لكن حديثها لم يكن عن مناطق

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 33 .

[2] نفسه ص 45

[3] نفسه ص43 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 351 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 52 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 381 .

[5] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 350 .

[6] ابن عبدون :رسالة في القضاء و الحسبة ،نشر ليفي بروفنسال ، الجريدة الأسيوية أفريل جوان 1934 ص 195.

[7] الونشريسي : المعيار ، ج5 ص 89 .

[8] نفسه ص 251 .

[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 12.

[10] نفسه ص 15 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 296 .

زراعتها و إنما عن التربة الملائمة لغراستها و أوقات غراستها و طريقة الاهتمام بها ومن هذه الحبوب الذرة البقلاء و الحمص و العدس و الجلبان و اللوبيا و الترمس و الحلبة [1].

2-الخضروات و البقول و الفواكه : تعتبر الخضروات و الفواكه من الزراعات التي حظيت بأهمية بالغة في أرياف المغرب الأوسط كونها كانت تدعم الحبوب في تغذية أفراد المجتمع ، و إذا كانت النصوص التي بين أيدينا تتحدث بإسهاب عن الفواكه و الأشجار المثمرة فإنها على العكس من ذلك لم تول نفس العناية بالخضروات بالرغم من أهميتها في مجال التغذية [2] ، وأوردت كتب النوازل بعض الأسئلة حول بعض الخضروات منها سؤال وجه للوغليسي عن بيع اللفت و البصل في أحواض [3] ، كما سئل الفقيه علي بن محسود البجائي عن الفول الأخضر يسلف [4] ،و وردت نازلة مفادها من باع زريعة بصل أنها جديدة و لم تنبت ، فأجاب الفقيه إن قامت بينة على أنه بذرها و لم تنبت و شهدوا على عين الزريعة أنها هي و أنها لم تنبت فلا شيء عليه ،و إذا لم يعاينه الشهود حتى بذرها فلا رد عليه [5]، كما أشار ابن البناء إلى غراسة البصل [6].

على كل و إن لم نجد في المصادر المطلع عليها ذكر مناطق بعينتها كانت توجد بها غراسة الخضر و البقول إلا أن هذا لا ينفي وجودها ، و هنا نرجح انتشار مثل هذا النوع من المغروسات على أساس الانتشار الواسع لهذه الأنواع في وقتنا الحاضر و نحن نعرف أن الزراعة اليوم هي امتداد للزراعة في العصر الوسيط ، كما أن كتب الفقه و النوازل تحدثت عن هذه الأنواع من الغراسات و إن كان طرحها في شكل أسئلة نتجت عنها مشاكل ، و وقوع المشاكل ناتج عن كثرة الانتشار و كذا كثرة ممارسة مثل هذا النشاط ، و هذا ما يمكن استنتاجه من النوازل و أجوبتها فمثلا السؤال حول الفول الأخضر يسلف يفهم منه أن الذي استلف يرد الفول ومن ثم فهو مغروس ومن استلف سيغرسه و يرجع إلى صاحبه، كما أن الانتشار الواسع أدى إلى بيعها ، و لو كان الانتشار

---

[1] مجهول : مفتاح الراحة ، ص ص 127-131 .

[2] يوسف نكادي : الزراعة في الأندلس ص 273 .

[3] الونشريسي : المعيار ،ج5 ص 90

[4] نفسه ، ج 6 ، ص 44 .

[5] نفسه ص 57 .

[6] ابن البناء : الإعلان بأحكام البنيان ، تح فريد بن سليمان ، تقديم عبد العزيز الدولاتي ، مركز النشر الجامعي 1999 ص 219 .

محدودا لخصص للاستهلاك دون البيع ، و يلاحظ في الجواب الذي أوردناه عن النازلة الأخيرة كلمة أنها عين الزريعة و أنها هي ويفهم من هذا أنه قد تكون هناك الكثير من الزريعة وقد تختلط ببعضها البعض.

أما بالنسبة للفواكه فمصدرها الأشجار المثمرة ، و عرف ريف المغرب الأوسط انتشارا واسعا لهذه الثمار، إذ ورد ذكرها في كتب الجـغرافيا مع مناطق انتشارها ، و ذكرت في مرات بـذكر اسم الفاكهة ، و ذكرت في مرات أخرى مجملة دون ذكر نوع الفاكهة ككلمة و بها بساتين " فحـول ندرومة بسـاتين عديدة " [1] ، و كانت المناطق المحيطة بمستغانم عدة بساتين جميلة [2]، هذه البساتين الجميلة فصّل مارمول كربخال ما بها فقال " وحدائق بها أشجـار التـين و الكروم "[3] ، و تحيط بالجزائر عدد من البساتين و الأراضي المغروسة بأشجـار الفواكه [4] ، و لا يختلف حال المدية عن ما سبق تحيط بها جداول ماء كثيرة و بساتين [5] ، و المناطق التي تحيط ببجاية وخاصة جهة الشرق عبارة عن بساتين [6] ، أما السهل القريب من قسنطينة فعلى طوله بساتين في غاية الجمال و صفها عبد الباسط خليل بـ "وتحتها واد عظيم كثير الخصب والأجنَّة والبساتين ذات الأشجار ذوي الثمار المتنوعة، وبها النعَم والخيرات، والرخاء الغالب "[7] غير أن وصف من جاء بعده من الجغرافين كان مناقضا لما أورده ، " إلا أنها لا تنتج كثيرا من الثمار لأنهم لا يحسنون خدمتها " [8] و وردت كلمة حديقة كوصف مارمول كربخال لهنين حين قال " و حدائق و أرض صالحة للزرع " [9] ، وإذا كان مارمول وصف محيط بجاية بالبساتين فقد وصفها الحسن الوزان بالحدائق العامرة بالأشجار [10] ، كما ورد لفظ الجنان فمارمول كربخال أثناء حديثه عن جبال كوكو ذكر أن بها " أجنة تحتوي على مختلف الثمار "

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 14 .

[2] نفسه ، ج2 ص 32 .

[3] المصدر السابق ،ج2 ص 350 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 37 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 41 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 373 .

[6] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 377 .

[7] المصدر السابق ص 82.

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 58 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص 08 .

[9] المصدر نفسه ،ج2 ص 296 .

[10] المصدر السابق ،ج2 ص 50 .

[1]،في حين أورد الحميري مجموعة من الأوصاف لسطيف " وهي رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه والثمار والثمار غزيرة المياه و الأنهار و البساتين و الأشجار "[2].

أما الفواكه التي ذكرت بعينها ففي المناطق المجاورة لهنين تجود أشجارها بكميات وافرة من الثمار " كالكرز و المشمش و التفاح و الاجاص و الخوخ وما لا يحصى من التين و الزيتون " [3] ، وهو نفس حال المناطق المحيطة بتلمسان " ففي خارج تلمسان ... ، الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعنابا من كل لون طيبة المذاق جدا ، و أنواع الكرز الكثير التي لم أر لها مثيلا في جهة أخرى ، و التين الشديد الحلاوة ، و هو أسود غليظ طويل جدا ، يجفف ليؤكل في الشتاء ، و الخوخ و اللوز والبطيخ و الخيار و غيرها من الفواكه المختلفة " [4] ، هذا التنوع في فواكه أرياف تلمسان دفع مارمول كربخال إلى تشبيهها بأوربا " و جميع أنواع الفواكه مثلما هو الحال في أوربا " [5] .

و إذا كانت هناك مناطق عرفت تنوعا و تعددا من حيث الفواكه فقد اشتهرت مناطق أخرى بفواكه معينة ، سنحاول هنا الحديث عن أصناف الفواكه و مناطق انتشارها .

التفاح و الاجاص :بالنسبة للتفاح فهو أنواع منه الحلو و الحامض و تحبذ غراسته في الأرض الباردة و الندية و الأرض السوداء [6]، أما بالنسبة للاجاص فهو نوعان جبلي و بستاني و هو أنواع منه السكري و الذكري و القرعي و السراجي و منه الحلو و المر و قليل الماء و كثيره ومنه المتوسط والصغير [7]، و يكثر هذين النوعين من الفواكه في ميلة ، و نقل الحسن الوزان أنه يظن أن اسم ميلة مشتق من الاسم اللاتيني ميلة و معناه التفاح غير أن محقق الكتاب اعتبر هذا الاشتقاق مجانب للصواب [8] ، كما وجد الاجاص في قرية العباد في جنان سيدي أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق [9].

---

[1] المصدر السابق ،ج2 ص 374 .

[2] المصدر السابق ، ص 318 .

[3] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 16 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 20 .

[5] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 299 .

[6] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 331 .

[7] نفسه ص 260 .

[8] المصدر السابق ،ج2 ص 60

[9] محمد بن مرزوق ا: المناقب المرزوقية ص 163 .

الكروم : و هي على عدة أصناف و ألوان و لكل لون أرض يغرس فيها فالعنب الأبيض توافقه الأرض السوداء و الحمراء و كذا البيضاء ، أما العنب الأحمر و الأصفر توافقه الأرض الرقيقة ، " والعجب في العنب أن أي نوع منه يؤدي عصيره على لون أرضه لا على لونه " [1] ، و اشتهر إقليم بني راشد بانتشار الكروم [2] ، و وجدت بنقاوس إذ لجميع الدور فيها تقريبا كروم معروشات [3] ، واستعملت كفواكه كما عصر و استعمل عصيرها كمشروب [4] ، و إذا كان العصير يحل شربه فقد استعملت الكروم بعد تخميرها كمشروبات مسكرة ، ولقد تحدثنا أثناء حديثنا عن الطعام عن هذا النوع من الأشربة .

التين : و يكون غرسه بأن يؤخذ فرعا من التين الذي جف على شجره و يبس ، ثم تأخذ منه تين وتنقع في لبن شاة أو لبن امرأة إلى أن يخضر اللبن و يتغير ثم يجعل في حفرة و تغطى بالتراب و يسقى حتى ينبت [5] ، ومن المناطق التي كثر فيها التين برشيك و اعتبر أهم منتجاتها وهو ما دفع إلى البحث البحث عن تسويق فائض الإنتاج فبيع في الجزائر و بجاية و تونس [6] ، كما يكثر أيضا في المهدية [7]و [7]و لذلك يجفف و يباع في كل الجهات [8] ، و يجود جبل بني ورنيد بهذا المنتوج[9] ، و وجد التين أيضا أيضا في جيجل ومن كثرته أنه يجفف و يباع [10] ، و يوجد في نقاوس أيضا [11] ، ومن المناطق التي وجد بها جبال بجاية [12]، و جبال قسنطينة [1] .

---

[1] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 351 ، مجهول : مفتاح الراحة ص 208 .

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 26 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 324 .

[3] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 53 . مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص384 .

[4] الونشريسي : المعيار ، ج5 ، ص 22 .

[5] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 298 ، مجهول : مفتاح الراحة ص 219 .

[6] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 33 .

[7] المهدية تقع بالقرب من مدينة الجزائر تحيط بها قرى يسكنها البربر من قبيلة زواوة ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 372 .

[8] نفسه ص 372 .

[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 44 .

[10] نفسه ص 52 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 381 .

[11] الحاج النميري : المصدر السابق ص 470 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 53 . مارمول كربخال : المصدر نفسه ج2 ص 383 .

[12] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 102 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 381 .

الزيتون : وهو نوعان بري ينبت في الجبال و لا ينبت في شطوط الأنهار أما النوع الثاني فهو أهلي أي الذي يغرسه الإنسان وهو أكثر حبا من البري و أوفر دهنا [2]، و كان لهذه الشجرة أهمية بالغة في الحياة اليومية ، و ازدهرت هذه الغراسة في ريف المغرب الأوسط نظرا للظروف الطبيعية الملائمة و قلة المجهود أثناء العناية بها [3] ، و انتشر هذا النوع من المنتوج في المناطق المجاورة لهنين [4] ، كما يكثر أيضا في جبال قسنطينة " و هذه الجبال كلها كثيرة الإنتاج لأن الأراضي الواقعة بينها في السهل في غاية الخصب ، تعطي الكثير من الزيتون و التين و غيرهما ، بحيث تزود جميع المدن المجاورة كقسنطينة و القالة و جيجل ، و تزود الأعراب كذلك " [5] ، كما وجد الزيتون في سفوح و جبال بجاية و يمكن القول أنه وجد بكثرة هناك لأنه اعتبر كسلعة من السلع المصدرة نحو أوربا [6] ،و تكلم البكري وصاحب الاستبصار– وهما سابقين لفترة الدراسة – و الحاج النميري عن وجوده في بلاد الزاب وكان وصفهم متشابها فيقولون عن بسكرة " كثيرة النخيل و الزيتون و أصناف الثمار " [7].

و يرجع سبب إدراجنا لمصدرين جغرافيين قبل فترة الدراسة ثم لمصدر من فترة الدراسة لكوننا نسعى إلى تأكيد أن هذه النوع من الأشجار وجد خلال فترة الدراسة و قبلها خاصة إذا عرفنا أن البكري عاش في القرن الخامس و صاحب الاستبصار عاش في القرن السادس أي عاشا في القرنين الذين يسبقان فترة الدراسة ، فشجر الزيتون من الأشجار المعمرة التي قد تعيش أكثر من قرن ، غير أن تأكيدنا اصطدم بقول الحسن الوزان الذي يقول " أراضيهم لا تنتج شيئا غير التمر " [8] ، فنكون هنا مجبرين على التعليل بالقول أن ابن الحاج النميري الذي عاش في القرن الثامن الهجري رأى هذه الأشجار مادام أنه رافق السلطان المريني أبو عنان فارس أثناء توسعاته في المغرب الأوسط ، أما

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 103 .

[2] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق 225 .

[3] سيدي محمد العويض : الزيتون و الزيت في المغرب القديم مقال في مجلة أمل ، العدد 17 ، عدد خاص حول التغذية و الأزمة في تاريخ المغرب ، السنة السادسة ، 1999 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999 ص 99 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 16 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 296 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 103 .

[6] الحميري : المصدر السابق ص 81 ، صالح بعيزيق : بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية ، منشورات كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية بتونس ، جامعة تونس ، 2006 ص 134 .

[7] البكري : المصدر السابق ص 53 ، مجهول : الاستبصار ص 173 ، النميري : المصدر السابق ص 440 .

[8] الحسن الوزان : لمصدر السابق ،ج2 ص 138 .

الحسن الوزان فعاش في القرن العاشر الهجري و تكلم في رحلته عن المناطق التي زارها بالمغرب الأوسط غير أنه لم يذكر زيارته لبلاد الزاب، و هو ما يدفعنا إلى الحديث عن احتمالين الأول هو أنه ربما حديثه عن بلاد الزاب كان قياسا بما شاهده في المناطق الصحراوية التي زارها و لم يجد بها غير التمر ، أو أنه زار بلاد الزاب و فعلا لم يجد بها إلا التمر و قد اندثرت الأنواع الأخرى من الأشجار و ذلك راجع إلى هرم تلك الأشجار من جهة وعدم وجود من يجددها ، و من جهة أخرى قد يكون للإنسان دور في ذلك من خلال الحروب وما تسببه من خراب على كل المستويات .

كما أورد الوشريسي في المعيار نوازل تتحدث عن بيع شجر الزيتون [1]، ومن كل ما أدرجنا يمكن أن نستنتج كثرة هذا النوع من الأشجار وهو ما أدى إلى بيعه .

الجوز و اللوز : هو شجر جبلي بري ينبت بلا إزراع و لا إفلاح ، ومن أراد زرعه فليأخذ من جوزتين إلى خمس جوزات و يحفر لها في الأرض و يضعها ثم يطمر عليها التراب و يسقيه قليلا قليلا حتى ينبت [2]، أما اللوز فيزرع في الأرض المحجرة و الرملية و الخشنة و الوعرة ، و يغرس الفسيل الصغير من أصله و إن غرس من أطرافه فلا بأس ، ومن أراد أن يغرس حبه فعليه تقشيره ، فإذا نبت و مرت عليه سنتان وجب نقله " فإنه يفلح بعد النقل " [3]، و من المناطق التي عرفت انتشار مثل هذا هذا الشجر جبل مليانة الذي هو " مكسو بأشجار الجوز ، حتى إن الجوز هناك لا يشترى و لا يقتطف " [4] ، و ما يمكن فهمه من قول لا يشترى و لا يقتطف كثرة هذا النوع حتى أن أهالي المنطقة كانوا يعتبرونه ثمرة لا تستحق البيع و إنما تترك في أشجارها ، كما اعتبرت جيجل من مناطق انتاج الجوز [5]، وهو نفس حال نقاوس [6]، والطريق المؤدية إلى تبسة على مسافة أربع أو خمسة أميال أميال عبارة عن غابة ليس فيها سوى أشجار الجوز الكبيرة [7] ، و عرفت جبال بجاية التي يسميها

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 176،177 .

[2] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 294 ، مجهول : مفتاح الراحة ص 163 .

[3] ابن العوام الاشبيلي : المصدر نفسه ص 281 ، مجهول : المصدر نفسه ص 161 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 35 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 360 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص52 . مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 381

[6] النميري : المصدر السابق ص 470 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 53 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 383 .

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 64 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ج3 ص 17 .

الحسن الوزان جبال زواوة و يسميها مارمول كربخال جبل بني جبير انتشارا لهذا النوع من الشجر [1]، كما يكثر بسطيف ومنها ينقل إلى سائر الجهات [2].

التوت : و هو أنـــواع يـختلف في الطعـم و فيــه ألوان منــه الأبيـض و الأسـود و الأزرق و الأحمر والأصفر و الأغبر ، وطعمه فيه الحلو و المر [3] ، ووجدت الكثير من أشجار التوت الأبيض والأسود في شرشال و التي استعملت كغذاء لدودة القز التي تدر حريرا صنّعه الأندلسيون المقيمون هناك [4] .

الكرز : وهو نوعان أسود و أحمر ومنه الجبلي و البستاني [5] و من المناطق التي عرفت هذه الفاكهة جبل بني ورنيد [6] كما وجد أيضا في المناطق المحيطة بهنين [7].

الليمون و البرتقال : يصنف هذان النوعان في خانة الحوامض و اشتهرت عدة مناطق بإنتاجه فشرشال بها أشجار البرتقال و الليمون على حد سواء [8] ، و اشتهرت نقاوس بإنتاج " أشجار البرتقال و الليمون و غيرها من أشجار هذا الصنف " [9].

الرمان : يصلح في الأرض اليابسة القليلة الماء و لا يصلح في الأرض الباردة ، و يغرس و يزرع ، وطريقة غرسه أن يؤخذ من حبه الجيد اليابس تم تحفر له حفائر صغار و يجعل في كل حفرة من سبع إلى أربع عشرة حبات ، أما غراسته فيأخذ بأحد أغصانه و يبرى كما يبرى القلم و يغرس في حفرة من غصن إلى ثلاثة إلى تسعة [10] ، و عرفت أرياف المغرب الأوسط هذا النوع من الفواكه ، فكان

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 102 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ج2 ص 381

[2] الحميري : المصدر السابق ص 318 .

[3] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 289 ، مجهول : مفتاح الراحة ص 223 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 34 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 362 .

[5] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 269 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 44.

[7] نفسه ص 16 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 296 .

[8] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص362 .

[9] نفسه ص 384 .

[10] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 273 ، مجهول : مفتاح الراحة ص 168 .

في قرية العباد جنان لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق به الكثير من الرمان " ليس في العباد أطيب فاكهة من جنانه " [1]، كما وجد الكثير من بساتين الرمان بإقليم الزاب [2].

الخروب : و هو نوعان ذكر لا يثمر و الآخر يثمر و ثمره عريض كما أنـه شجر جبلي[3] ينتشر في العديد من جبال المغرب الأوسط فجبل بني يزناسن الذي يسمـــيه مارمول كربخال جبل بنو زناتة " تكسوه غابات كثيرة تنتج كمية وافرة من الخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان " [4] ، كما يكثر يكثر في جبل مطغرة [5] ، و جبل ولهاصة [6] ، و يعتبر الخروب الذي ينبت في ندرومة ثمارا لسكانها الذين يأكلونه بكثرة [7].

النخيل : أسماؤه و أنواعه كثيرة منه البري و العجوة و الشهربر و الكسنة ، و لغراسته تحفر حفرة قدر ذراعين في العمق و العرض ثم تملأ تراب مخلوط بالأسمدة على قدر نصف ذراع ثم توضع نوى التمر في وسط التراب ، و لا توضع قائمة و لكن توضع مضطجعة و يلقى عليها التراب ، ثم تسقى يوما بعد يوم حتى تنبت [8]، و يعتبر النخيل من أكثر الأشجار انتشارا في المنطقة الجنوبية للمغرب الأوسط ، كإقليم الزاب [9] يتكلم عنه الحسن الوزان مجملا بقوله " عدد حدائق النخيل بها لا تحصى " [10] ، وفي تفصيله تحدث عن طولقة و قال " تنتج أراضيها كثيرا من التمر " [11] ، أما وصف مارمول كربخال لنخيلها فكان " أهلها يملكون عددا هاما من النخل يجود عليهم بكميات وافرة من التمر " [12] ، كما

---

[1] محمد بن مرزوق : المناقب المرزوقية ص 164 .

[2] الحاج النميري : المصدر السابق ص 440 .

[3] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 246 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 43 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 351 .

[5] يقع هذا الجبل بالقرب من ندرومة ، الحسن الوزان :المصدر نفسه ،ج2 ص 43.مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 351 .

[6] يقع هذا الجبل بالقرب من هنين الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 44 .

[7] نفسه ص 14 .

[8] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 344 .

[9] النميري : المصدر السابق ، ص 440.

[10] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 138 .

[11] نفسه ص 140 .

[12] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص 169 .

وجدت واحات للنخيل في تقرت [1] ، و في تيكوراين " يوجد ما يقرب من خمسين قصرا و أكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل " [2] ، ما يفهم من مائة قرية بين النخيل هو الانتشار الواسع لزراعة النخيل في هذه المنطقة و كما هو معروف فالصحراء تتميز بحرارتها ، و لتلطيف الجو وجب البحث عن السكن وسط الواحات التي لها مهمة غذائية متمثلة في إعطاء التمر و مهمة ثانية متمثلة في تلطيف الجو ومن ثم لجأ أهل الصحراء إلى السكن وسط الواحات .

و ما دمنا نتحدث هنا عن الأشجار المثمرة فإن صاحب البستان أو الجنان سعى إلى تحسين إنتاجه و الحفاظ عليه و يكون ذلك بأن يقوم العامل بتلقيح غرسه و القيام عليه [3].

3-المزروعات الصناعية :

المقصود بالمزروعات الصناعية أنواع المنتجات التي كانت تستعمل في صناعة بعض البضائع الاستهلاكية كالكتان و القطن اللذان يخضعان إلى عملية التحويل ينتج عنها الحصول على الأقمشة و المنسوجات ، و كذا الورود التي تستخلص منها مواد معطرة تستعمل في الزينة ، إضافة إلى أعشاب تستعمل في الزينة و التطبيب كالحنة .

زراعة الكتان و القطن و الحرير : استطاع المسلمون بصفة عامة تحقيق نجاح فيما يخص زراعة هذه المنتجات، إذ أنهم لم ينطلقوا من فراغ ، بل استفادوا من الإرث الروماني [4] ، و كانت أرياف المغرب الأوسط من المناطق التي عرفت انتشارا لهذه الأنواع فندرومة ينبت القطن حولها بكثرة و هو ما أدى إلى ازدهارها على حسب الحسن الوزان " و ندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع فيها ، و ينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية " [5] ، أما مارمول كربخال فوصفها بقوله "ويصنعون أجمل ما في بلاد البربر كلها من أقمشة القطن " [6] ،و لا يختلف هذا الوصف عن وصفه لأهل جبل كوكو فهم "يصنعون أجود المنسوجات ببلاد البربر " [7] و السبب لأن الكتان و القنب

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ص ،ج2 135 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 165 .

[2] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص 133 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ص 163 .

[3] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 202 .

[4] يوسف نكادي : الزراعة في الأندلس ص 291 .

[5] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 14 .

[6] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 295 .

[7] نفسه ص 374 .

ينبت بها بكثرة غير أنه خشن [1] ، و توجد زراعة القطن في هنين و إن كانت المصادر الجغرافية لم تتكلم عن زراعته هناك و إنما عن تصنيعه [2] ، و السبب الذي دفعنا للقول أنه موجود هناك هو أن المصدرين المعتمدين لم يذكرا أن القطن الذي يستعمل في التصنيع جلب إليها من مناطق أخرى وإنمـــا اكتفيـــا بالحديث عن تصنيعـــه هناك ، و لا يختلف الأمر عن مستغـــانم التي فيهـــا " صنـــاع كثـــيرون ينسجـــون الأقمشة " [3] و كذالك الحـــال بالنسبة لأهل برشيك إذ "يشتغل معظمهم بحياكة الأقمشة " [4] غير أنها من النوع الخشن [5] ، ومن المناطق التي يوجد بها القطن مازونة مازونة التي يعمل أهلها بصناعة " المنسوجات القطنية أو الصوفية " [6] ، كما وجد في ميلة عدد من الصناع في مجال نسج الصوف الذي تصنع منه أغطية الأسرة [7].

أما مناطق إنتاج الكتان تبحيرت وميزته أنه قليل الجودة و هو ما يفهم من كلام مارمول كربخال " لهم بعض الكتان يصنعون منه قماشا غليظا " [8] ، بينما حديث الحسن الوزان كان مبهما دون أن يعطي وصفا لا للمنتوج ولا للنوعية و أهل تبحيرت نساجون إلا القليل منهم [9]، كما أن أرياف برشيك من حولها كثيرا من الكتان و الشعير [10] و أهل مقرة " يزرعون الكتان وهو عندهم كثير "[11]، و عرفت أرياف كل من بونة و بجاية انتشارا لهذا المنتوج [12]، و بلاد جيجل " لا تصلح إلا للشعير و الكتان و القنب الذي ينبت فيها بكثرة "[13] و القنب من المواد المهمة في صناعة القماش.

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 102 .

[2] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 15 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 296 .

[3] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 32 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 350 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 33 .

[5] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص355 .

[6] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 359 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 60 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ج3 ص 15 .

[8] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 296 .

[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 15 .

[10] نفسه ص 33 .

[11] الحميري : المصدر السابق ص 556 .

[12] ابن سعيد المغربي :المصدر السابق ص 109 .

[13] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص52 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 381.

الحرير : وهو من المنتجات التي تدخّل في تصنيعه الإنسان و الحيوان و النبات مهمة النبات المتمثل في التوت تغذية الحيوان المتمثل في دودة القز ، بينما مهمة الإنسان التصنيع ، ومن المناطق التي عرفت بتصنيعه منطقة شرشال إذ قام أهلها " بغرس عدد من أشجار التوت تقتات منها دودة القز ، وصار الحرير أهم مواردهم لأن البلد طيب لمثل هذا النشاط " [1] ، و أورد الحسن الوزان وصفا مشابها لوصف مارمول كربخال غير أن الاختلاف فيمن غرس أشجار التوت فالحسن الوزان يرى أنها غرست قبل أن يعمر الأندلسيون المنطقة و هو ما يفهم من قوله " و اشتغلوا بصناعة الحرير إذ وجدوا هناك كمية لا تحصى من شجر التوت الأبيض و الأسود " [2] ، و ربما تكون عمليات تصنيع الحرير من الأمور الصعبة و هو ما دفع إلى إنشاء شركات مختصة في علوفة الحرير [3] ، إذ أقيمت شركة في العلوفة العلوفة بحيث يكون الورق على واحد و على الآخر الخدمة و تكون الزريعة بينهما على نسبة الحظ المتفق عليه [4] ، و كانت تربية دودة القز من الصعوبة بمكان إذ و صل الحد إلى درجة مبادلة ورق التوت (طعام دودة القز) بالحرير و أفتى الفقهاء بعدم جواز هذا البيع [5] ، كما أباح الفقهاء بيع وشراء ورق التوت داخل بستان بمجرد أن يبدأ بالظهور و لا يجب هنا أن تظهر كل أوراق البستان [6]، و ربما يرجع السبب في تساهل الفقهاء مع هذه المسألة – لأن الفقهاء رفضوا مثلا بيع الثمار قبل قبل بدو صلاحها و هنا يمكن تشبيه نمو ورق التوت ببدو صلا الثمار –كون الضرورة ألحت على ذلك أو العرف ، ونحن نعرف أن العرف مصدر من مصادر التشريع عند المالكية .

الورود : يذكر الحسن الوزان و مارمول كربخال أن أهل نقاوس كانوا من الذين اشتغلوا بغراسة الورود فوجد بها " لكل واحدة منها حديقة مليئة بمختلف الأزهار ، و خاصة الورد الدمشقي و الآس والبنفسج و البابونج و القرنفل و غيرها من الأزهار المماثلة لها في البهاء " [7] ،و رغم أن المصدرين لم يذكرا هل الهدف من غراسة الورد هو إعطاء منظر بهي لنقاوس أم استعماله كان للعطور ، والمرجح

[1] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 356 .
[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 34 .
[3] الونشريسي : المعيار ، ج5 ص 36.
[4] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج5 ص 62 .
[5] نفسه ص 238 .
[6] نفسه ، ج6 ص 73 .
[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 53 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 384 .

هو الاحتمال الثاني و يرجع سبب ترجيحنا هذا هو كلام الحسن الوزان عن أهل نقاوس و اعتنائهم الكبير بأنفسهم و خاصة النساء منهم فيقول " و النساء جميلات بيض البشرة سود الشعر اللامع ، لأنهن يترددن على الحمام و يعتنين بأنفسهن "[1] ، فما يفهم من هذا الوصف هو استعمالهن كل الطرق والسبل للعناية بأنفسهن ، و استخراج العطور من الورود يدخل تحت ذلك .

الحناء : تعريفه : " الحناء بالمد و التشديد شجر معروف ، و هو جمع واحده حنات و قال الفراء هو جمع الحنا حِنّات بالكسر "[2]، و شجر الحناء ينمو حتى يصبح مثل الشجر وهو ما ذكر الجغرافيون ومن ذلك ما ذكره البكري عند حديثه عن هذا الشجر في أودغشت قال " و أشجار الحناء و هي في العظم كشجر الزيتون "[3]،و كان وصف الإدريسي مشابها لوصف البكري أثناء حديثه عن درعة قال " و نبات الحناء يكبر بها حتى يكون في قوام الشجر يصعدون إليه "[4] ، وهو تقريبا نفس وصف صاحب الاستبصار الذي وصفها ب " و شجر الحناء بها شجر كبير يحتمل أن يرقى فيها الراقي "[5] ، و كان استعمال الحناء في عدة مجالات منها التطبيب و التجميل و حفظ المنسوجات و استسقينا هذه المعلومات من مخطوط الروضة الغناء في منافع الحناء .

1-التطبيب :يستعمل الحناء في علاج العديد من الأمراض ومنها الصداع ، " فإذا كان الصداع من حرارة ملتهبة و لم يكن من مادة يجب استفراغها نفع الحناء نفعا ظاهرا لاسيما إذا عجن و أكل بالخل " و إذا كان الصداع سببه البرد " عجن بالماء الحار و ضمد به الرأس في الحمام "[6]، و يداوى به مرض الجذام وذلك بأن يغمر في الماء العذب ثم يعصر و يداوم على شربه مع أكل لحم الضأن الصغير ينفع عند ابتداء الجذام[7] ، و استعمل في مداواة مرض الجدري " إذا طلي في أسفل الرجلين أول خروج الجذري آمن على العين منه "[8] ، أما استعماله في علاج الحروق فيكون بأن يعجن بماء

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 53 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 384 .

[2] زين العابدين الغمري المرصفي : الروضة الغناء في منافع الحناء ، مخطوط ضمن مجموع بالخزانة الحسنية تحت رقم 12131 ز ، ص 161ب .

[3] البكري : المصدر السابق ص 168 .

[4] الادريسي : المصدر السابق ص 129 .

[5] مجهول : الاستبصار ص 207 .

[6] زين العابدين الغمري المرصفي : المصدر السابق ص 162 ب .

[7] نفسه ص 162ب .

[8] نفسه ص 162ب .

القزبرة و يستعمل لطوخا ، وله نفس المفعول " إذا أضرب بالخل و طلي به حرق النار برئ و لم ينفط "[1]، ومن مجالات استعماله علاج أوجاع الجنب و ذلك بأن يخلط مع السمن و دهن الورد[2]، الورد[2]، كما استعمل أيضا في صيانة الأطفال من الأمراض " فإذا أضمد جباه الأطفال و أصداغهم منع الضباب المتولد في أعينهم ، و إذا سحق مع الزيت و عجن بزيت أو بدهن و جعل على قروح رؤوس الأطفال جففها "[3].

2- التجميل: " فإذا عجن بخل وزيت و طلي به الإبط أذهب رائحتها" [4]، و يمكن لزهر الحناء أن يذهب روائح العرق [5] ، و تحدث الحسن الوزان عن نساء العرب وقال " ومن عادة هؤلاء النساء أنهن أنهن قبل الزفاف إلى أزواجهن يخضبن بالحناء وجوههن و صدورهن و أذرعهن و أيديهن إلى رؤوس الأصابع ، لأن ذلك مستحسن عندهن ، و اتخذت العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا إلى سكنى هذه البلاد الإفريقية و لم تكن معروفة لديهم من قبل غير أن الحضريين و أشراف البلاد لم يتبعوا هذه العادة " [6] ما يفهم من كلام الحسن الوزان أن هذه العادة عادة بربرية أخذها العرب عنهم بفعل الاحتكاك بهم ، كما أنها كانت خاصة بالعرب الذين سكنوا الأرياف أو كانوا رحل و لم يأخذ بها أهل الحواضر .

3-حفظ المنسوجات : للحناء خاصية فعالة في قتل الحشرات التي تبلي المنسوجات ، فإذا وضعت الفاغية (زهر الحناء) " في ثياب الصوف طيبها ومنع العث من إفسادها "[7].

و كما كان للحناء إيجابيات كان لها سلبيات ، فالمرأة الحامل إذا شربت مرقة نقع الحناء ألقت الجنين ، و إذا خضبت بها الأرجل أصبح البول أحمر كبول المحموم [8].

و نتيجة لكثرة استعمال الحناء أدى ذلك إلى التدليس فيها نبهت إلى ذلك كتب الحسبة فابن عبدون أشار إلى أن العطارين " يستعملون ورق الجلب في تحضير الحناء فإنها تغطي الحناء و هي

---

[1] نفسه ص 162ب .
[2] نفسه ص 163أ .
[3] نفسه ص 162ب .
[4] نفسه 162ب
[5] نفسه ص 163أ .
[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج1 ص 64 .
[7] زين العابدين الغمري المرصفي : المصدر السابق ص 163أ .
[8] نفسه ص 162ب .

دلسة " [1] ، كما تكلم السقطي عن العطارين و أنهم يغشون الحناء بقشور الرمان و ما سقط من ثماره مع ورق الخبازي و بأوراق السدر و بأوراق القنب [2] ، إذا كان هذا التدليس في الحناء فهي أيضا استعملت في التدليس ومن مواضع استعمالها للتدليس في الخادمات و إخفاء عيوبهن الجمالية من قبل النخاسين ، خاصة السود منهن المتقدمات في السن اللواتي كان النخاسون يخضبون أجسادهن بالحناء ، فتختفي تجاعيدهن بما تحدثه الحناء كمادة قابضة من تكثيف و انقباض في عضلات الجلد فيظهر اللحم المهتري بأجسادهن ممددا يانعا و يزداد لون الجلد سوادا و لمعانا ، فتظهر الخادمة المخضبة أقل عمرا من عمرها الحقيقي و أكثر جاذبية [3].

2-الرعي : و المقصود بالرعي هو كل ما يتعلق بتربية الحيوانات و رعايتها و القيام بحالها .

تربية الحيوانات :

يمثل البربر جل سكان بلاد المغرب و معظمهم من البدو الرحل و كانت بلادهم فسيحة فلا غرابة إن كانت لهم معرفة بتربية الحيوانات و دراية بكيفية علاجها [4] ، و احتل النشاط الرعوي وتربية وتربية المواشي في أرياف المغرب الأوسط مكانة مهمة إذ " أن صفة الرعي تغلب على فلاحة المغرب الأوسط " [5] ، من خلال هذه الإشارة يمكن اعتبار تربية المواشي هي الدعامة الأساسية للنظام الفلاحي في المغرب الأوسط و هناك نوعين من الرعي المختلط بالمناطق الزراعية و الرعي شبه الصحراوي وهنا عادة ما يكون صاحب الماشية هو المزارع أو صاحب الأرض ، وهناك نوع ثان لا يمارس صاحب الماشية مهنة أخرى غير الرعي [6] ، و سمى عز الدين أحمد موسى النوع الثاني بالرعي شبه الصحراوي [7] ، و هنا يمكن ملاحظة وجود تداخل بين ما جاءت به الأستاذة فاطمة بلهواري

---

[1] ابن عبدون : المصدر السابق ص 48 .

[2] السقطي : في آداب الحسبة ، المطبعة الدولية باريس ، 1931 ص41 .

[3] نفسه ص 51،50 .

[4] محمد سويسي : نماذج من التراث العلمي العربي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 2001 ص 195 .

[5] الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية و الاجتماعية (3-4هـ /9-10م) ، الدار التونسية للنشر تونس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1978 ص 132 .

[6] فاطمة بلهواري : النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري –العشر الميلادي ، مقال منشور في دورية كان التاريخية ،السنة الثالثة ، العدد الثامن ، جوان 2010 ص 28 .

[7] عز الدين أحمد موسى : المرجع السابق ص 198 .

والأستاذ عز الدين أحمد موسى ، فالأخير قسم ما تكلمنا عنه أولا إلى قسمين و أعتبر الرعي شبه الصحراوي هو ما لا يمارس صاحبه إلا الرعي ، بينما تكلمت الأولى عن النوعين على حسب الأخير على أنهما متشابهين من حيث المهام ، في حين لم تعط اسما للنوع الثاني و إنما ذكرت أن في النوع الثاني لا يمارس أي نشاط غير الرعي ، و نحن هنا نحاول التقريب بين الرأيين فوصلنا إلى أن نقطة الاتفاق هي أن النوع الأول يكون الرعي مقترن مع الزراعة و في النوع الثاني يكون منفردا عنها مع وجود اختلاف في التسمية فقط .

و لقد توفرت المراعي في أرياف المغرب الأوسط خاصة في التل إذ غالبا ما تتحول الأراضي والمساحات المزروعة بعد عملية الحصاد إلى مراعي ، كما وجدت مراعي عامة مشاعة بين الرعاة وهذا النوع أكثر شيوعا من النوع الأول [1] .

استعمل الرعاة نظاما خاصا في الرعي ففي فصل الشتاء يبحثون عن المناطق الدافئة و في فصل الصيف يبحثون عن المناطق الباردة ، فكانت صحراء أنكاد قبلة للرعاة في فصل الشتاء[2] كما تكلم صاحب الاستبصار عن سكان جبل راشد و طريقة رعيهم " و هو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر ، و يطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي ، وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل " [3] ، من حديث صاحب الاستبصار يمكن القول أن أهل جبل بني راشد بحلول الشتاء يقومون بالبحث عن مناطق يمكن لمواشيهم أن ترعى فيها لسببين الأول لأن المراعي تكون مكسوة بالثلج ، كما أن البرد الذي يسببه الثلج و الذي يكون له تأثير عن الإنسان والحيوان على حد سواء يكون له دور في البحث عن مراعي جديدة في منطقة ملائمة لذلك .

أما الرعي عند أهل المناطق الحارة (الصحراء) ، فكانوا يتنقلون وراء قطعانهم صيفا نحو الشمال و يعودون إلى مواطنهم شتاء لأن الأمطار و الثلوج تؤثر سلبا على الحيوانات خاصة حديثة العهد بالولادة [4] .

و كانت ملكية المواشي تختلف من فلاح إلى آخر ، فقد تكون أربعين رأسا من الماعز والغنم[1]، والغنم[1]، و هناك من امتلك عشرون بقرة ، و لآخر إثان و عشرون [2] ، كما وجد من امتلك ثلاثة

[1] فاطمة بلهواري : المرجع السابق ص 28 .
[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 11 .
[3] مجهول : الاستبصار ص 187 .
[4] فاطمة بلهواري : المرجع السابق ص 29 .

بغال [3] ، وبلغت مواشي أحد النساك الذي سكن البطحاء و عمّرها عشرة آلاف من الغنم و ألفين من البقر و خمس مائة من الخيل ذكورا و إناثا [4] ، من خلال هذا العرض الذي يتكلم حول ملكية المواشي يمكن ملاحظة التباين الواضح في الملكية من شخص إلى آخر ، و ربما يكون العامل المتحكم في ذلك هو المكانة في المجتمع فالفقير قد يكون له عدد قليل من الرؤوس ، بينما من له مكانة في المجتمع يكون له عدد كبير من الرؤوس و أكبر دليل على ما نقول ما أورده الحسن الوزان عن الناسك الذي سكن البطحاء " إذ لا يؤدي هو ولا ذويه أية إتاوة للملك ولا للأعراب "[5] " يعظم الأعراب هذا الرجل و يقدرونه إلى حد أن الملك أصبح يخشاه " [6] ، وهو ما دفع ابن خلدون إلى اعتبار أن ملاك الحيوانات يصنفون في طبقة الأثرياء إذ يقول " و يظعن أهل العز منهم و الغلبة لانتجاع المراعي فيها قربا من الرحلة ، و لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء و القفر الأملس ، و مكاسبهم الشاة والبقر و الخيل في الغالب للركوب و النتاج و ربما كانت الإبل من مكاسب أهل النعجة منهم شأن العرب " [7] .

وكان ملاك المواشي الذين ليس لهم عمل آخر يقومون برعي مواشيهم بأنفسهم ولا يستأجرون عمالا لرعي و حراسة أغنامهم [8] ، أما في المناطق التي تكون محاذية للأراضي الزراعية فاستعمل فيها من يرعى لهم مواشيهم و هي خاصية للملاك الكبار[9] ، و عرف البويعقوبي الراعي المشترك ب " الذي يرعى كل ما يأتي له أما إن كان يرعى لجماعة فليس بمشترك " [10] في حين يرى البعض أنه يكون باستئجار الراعي بشكل انفرادي أو بشكل مشترك و ذلك حسب حاجيات الأفراد أو

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج1 ص401 .

[2] نفسه ، ج8 ص 179 .

[3] نفسه ص 181.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 28

[5] نفسه ص 28 .

[6] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 29 .

[7] العبر ، ج6 ص 104 .

[8] عزالدين أحمد موسى : المرجع السابق ص 201 ، محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 111 .

[9] عز الدين موسى : المرجع نفسه ص 201 ، محمد حجاج الطويل : المرجع نفسه ص111 ، فاطمة بلهواري : المرجع السابق ، ص 29 .

[10] تحفة القضاة ببعض مسائل الرعاة ، مخطوط بالخزانة العامة الرباط ، تحت رقم د 1079 ، ص 13 .

الجماعات ، وهنا يقوم الرعي المشترك و ذلك بأن يقوم بتجميع دواب و مواشي عدد من الملاك و أصحاب القطعان لمدة معينة ، و ينتقل دور الراعي إلى رعي ماشية كساب آخر و هكذا ، و يسمى الرعي هنا بالرعي المشترك بالدولة و يعرف مكان تجميع المواشي قبل خروجها للرعي و عودتها منه بمجمع الدولة ، و لم يكن الرعي مختلطا بل كان متخصصا، فكان هناك تخصص في رعي الغنم و رعي الماعز و رعي البقر و رعي الدواب [1].

و تكلم البويعقوبي على بعض العقود التي كانت تتم بين الرعاة و ملاك المواشي و التي وصفها بالفاسدة منها اشتراط الضمان على التلف بغير تفريط في راعي البقر ، كما وجد من يتفق على رعي البقر بالنوبة و يشترطون على من ظل شيء من البقر في نوبته ضمانه و لا عبرة بشرطهم المذكور ، كما يعمد الحضري على تسليم غنمه للبدوي ليرعاها و يشترط عليه أن يأتيه بعلامة على ما يدعيه من موت الغنم كجلدها أو أذنها فلا عبرة بهذا الشرط ، و لا ضمان عليه سواء أتاه بتلك العلامة أو لم يأته بها ، وتفسد الإجارة بالشرط المذكور ، كما اشترط على الراعي أنه إذا خرج قبل تمام المدة من غير عذر فلا شيء له من أجرته ، و إن أخرجه رب الأجرة أعطاه جميع الأجرة و يسمى هذا العقد ب " يوم بعام و عام بيوم و هي عقدة فاسدة تفسخ متى عثر عليها " [2].

هذه العقود التي معظمها فاسد دفعت إلى طرح العديد من الأسئلة على الفقهاء حول ضمان الرعاة منها :

راعي خرج بالغنم إلى مكان الرعي و تركها هناك ثم انصرف إلى المدينة و لما رجع و جدها نقصت و هو لا يدري متى نقصت هل قبل رجوعه أم بعدها ، هنا لا ضمان عليه حتى يقيم عليه صاحب الغنم البينة على أنها ضاعت في وقت تركه لها [3].

راعي بقر دفعها إلى غيره بدون علم صاحبها فرعاها له يوم فلما كان آخر الشهر ذهب الراعي إلى البقر فقبضها من الآخر الذي رعاها فضاعت منه بقرة فقال الراعي إنما ضاعت بعد أن قبضتها و قال صاحب البقر إنما ضاعت عند الذي رعاها لك و إنما تعديت ، و يكون الحل هنا إن قامت لصاحبها بينة بأنها ضاعت عند الآخر فالراعي ضامن ، و إلا حلف الراعي بالله أنها ضاعت

---

[1] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 111 ، و تحدث الونشريسي عن الرعي بالدولة وما يسبب من مشاكل كأن يستأجر مالك راعي و يتناوب هذا الراعي مع راعي آخر و تضيع الشاة في زمن الدولة من يضمنها : المعيار ، ج8 ص 330 .

[2] المصدر السابق ص 14 .

[3] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 330

منه بغير تفريط فإذا حلف لا يضمن [1] ، و أورد البويعقوبي مسألة مشابهة حين تكلم عن راعي يضيع منه كبش فيبقي قطيعه مع رعاة آخرين و يبحث هو عن الكبش الضائع فلما رجع به وجد أن بعض القطيع ضاع بسبب الإهمال فهنا لا ضمان عليه لأنه أوصى الرعاة [2] .

راعي يضرب بقرة أو شاة بعصا أو حجر فيكسرها أو يقتلها فهو ضامن لها و" إن رمى بناحية من الغنم فارتفع العصا أو الحجر أو نفرت الشاة أو بقرة فوقعت في مهوات فانكسرت أو ماتت فلا ضمان عليه " [3] ، يفهم من هذا أنه إن كانت النية هي الضرب وحدثت معها الوفاة أو الكسر وجب عليه الضمان و إن كان القصد غير الضرب و إنما إبعادها عن ذلك الموقع فلا ضمان عليه.

راعي ينام فتضيع منه الغنم فهنا عليه الضمان لأن " أرض المغرب ليس فيه محل للنوم لأنه يخاف من السرقة في أقل مدة و يضمن متى نام " [4] ،كما وقعت مشاكل أخرى بين الرعاة ومستأجريهم منها نازلة أوردها الونشريسي مفادها رجل استأجر راعي يرعى له مدة عام مقابل عشرة دنانير ، وبعد مدة باع صاحب الغنم غنمه ، وبقي الراعي بلا عمل أو عمل عند آخر بقية السنة ، وبعد سنة جاء يطلب أجرته ، فقال صاحب الغنم ليس لك إلا ما رعيته ، فهنا على صاحب الغنم أن يأتيه بغنم مثلها ، و إن لم يفعل ذلك و لم يعمل الراعي عند غيره فالأجرة كلها للراعي [5] .

هذا بالنسبة للمشاكل التي تقع بين الرعاة و ملاك المواشي و وجد نوع آخر من المشاكل التي وقع فيها خلاف حول الضمان منها ما تفسده البهائم ، ورد حديث للرسول صلى الله عليه وسلم " ما أفسدت المواشي بالليل فالضمان على أصحابها و ما أفسدت بالنهار فلا ضمان عليهم " [6] ، وانطلاقا من هذا الحديث جاءت الفتاوى على أنه لا ضمان لأصحاب المواشي سواء سرحا عمدا أو خطأ و على أصحاب الزروع حرز زروعهم ، أما إذا تعمد الراعي بأن ألقى بقره أو غنمه في زرع الرجل فهو ضامن هنا [7] ، غير أن أبو عمران الفاسي – من القرون التي سبقت فترة الدراسة (القرن

---

[1] نفسه ، ج8 ص 331 .

[2] أحمد البويعقوبي : المصدر السابق ص 08 .

[3] الونشريسي : المعيار ،ج8 ص 332 .

[4] أحمد البويعقوبي : المصدر السابق ص 08 .

[5] المعيار ، ج8 ص 263 .

[6] مالك بن أنس : الموطأ ، تح محمد مصطفى الأعظمي ، ط1 ،ج4 ، مؤسسة السلطان زايد بن آل نهيان ، 2004 ص 1082 .

[7] الونشريسي : المعيار ،ج8 ص 338 .

5هـ)- يرى أنه " لا يجوز عدم حفظها لا ليلا و لا نهارا و أنه متى غلب شيء منها على الزرع والشجر وجب غرمه على الراعي و رب الغنم " [1].

و لم تكن مهمة الراعي الرعي فقط و إنما لا بد أن يمتلك بعض المهارات لممارسة مهنته على أحسن وجه منها معرفة كيفية حلاب الغنم و وقت الحليب و كيفية جزازها و وقت الجزاز [2].

أما عن أجرة الراعي فتختلف من مالك إلى آخر ومن راعي إلى آخر و تكون على حسب الاتفاق و يكون باليوم أو السنة فقد تكون رغيفين في اليوم [3] ، و عشرة دنانير في السنة [4]، أو يعطى يعطى بقرة على أن يأخذ نصف زبدها ، و اعتبر محمد المشدالي أن ما يأخذه الراعي من الزبد بالعادة على رعايته مفسدا لعقد الإجارة ، و يقضى له بأجر مثله لأنه لم يدخل معهم على تحديد ما يأخذه من الزبد بالوزن و إنما دخل على أن يأخذ مخضة في الشهر [5] .

ما يمكن ملاحظته من خلال عرضنا لحال الرعاة هو كثرة النزاعات بين المستأجِر و المستأجَر ، و يكون السبب راجع إلى محاولة سيطرت أصحاب المواشي على مستأجريهم سيطرة مطلقة ، و بذلك تحميله كل ما تتعرض له مواشيه ، كون الراعي يمكن أن يصنف في مرتبة اجتماعية أقل من مالك الماشية ، وكذا محاولة صاحب الماشية هضم حق الراعي من حيث الأجرة التي يحصل عليها ، ويظهر تسلط الصاحب الماشية على الراعي ظاهرا في ما أورده البويعقوبي حين تكلم عن الحضري الذي يجبر الراعي على إحضار جلد أو أذن الغنم إذا هلكت ، وهو ما اعتبر تسلط لأن التعامل يكون مبني على الثقة ، و انطلاقا من هذا فالراعي لا يكون ضامنا في كثير من المرات غير أن الفقهاء ركزوا في مسألة الضمان على عدم تفريط الراعي فإذا فرط الراعي وجب عليه الضمان .

إيواء الحيوانات :

و ما يدخل تحت تربية الحيوانات إيواؤها التي تختلف من منطقة إلى أخرى ففي الجبال غالبا ما تستخدم المغارات و الكهوف لإيوائهم خاصة عند سقوط الأمطار و الثلوج [6]، كما أن هناك من

---

[1] نفسه ، ج9 ، ص 548 .

[2] حافظي علوي لحسن : المرجع السابق ص 538 .

[3] عز الدين أحمد موسى : المرجع السابق ص 201 .

[4] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 263 .

[5] الونشريسي : نفسه ،ج8 ص 261 ، أحمد البويعقوبي : المصدر السابق ص 10 .

[6] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 112 .

آوى الحيوانات في بيوت ملاصقة لسكن الإنسان وخاصة من له عدد قليل من الماشية ومن طرق بناء مساكن المواشي أن يحفر أساسا فينزل فيه قدر قامة وراء الحائط الذي يكون صدر البيت ويرفع حائطا من تحت الأرض نحو خمسة أشبار في حين يكون عرض الحائط شبرين ويكون بينه وبين الحائط الذي هو صدر البيت نصف شبر و الفرق بين الحائطين تحت الأرض خمسة أشبار [1] ، أما عند الرحل و أصناف الرحل و في غير فصل الشتاء عند المستقرين فتأوي المواشي في المساء إلى زرائب معدة لهم تكون أمام المنازل و كانت لهذه الزرائب فوائد عديدة منها حفظ المواشي من الضياع والتشتت ليلا و كذا حمايتها من الوحوش المفترسة ، و جمع ورثها في مكان معين حتى تتم الاستفادة منها في تزبيل المزارع و البساتين [2].

ما يمكن ملاحظته على أماكن إيواء الحيوانات فهي في معظمها بسيطة و تتحكم فيها الظروف ففي المناطق الجبلية تتخذ الجبال بيوتا لها و في المناطق الحارة تكون في العراء و إنما يجب التسيج فقط ، و بقيت هذه العادة منتشرة إلى يومنا هذا .

الثروة الحيوانية :

تزخر أرياف المغرب الأوسط بمختلف الحيوانات الأليفة ، و التي تكلمت عنها المصادر الجغرافية غير أن كلامها جاء مجملا بذكر كل الحيوانات التي تربى فيها ، و سنحاول هنا أن نتكلم عن كل صنف على حدا .

أنواع المواشي و الدواب :

استعملت كلمة المواشي للدلالة على الأغنام و الأبقار و الماعز و الإبل في حين استعملت كلمة الدواب للدلالة على الحيوانات المخصصة للركوب غير الإبل كالخيول و البغال و الحمير .

أ-المواشي : تحدثت المصادر الجغرافية عن المواشي و أماكن تواجدها ومن هذا الحديث يمكن الاستنتاج أن تواجدها كان بكثرة .

أ-1 الأغنام : كانت أكثر أنواع المواشي انتشارا في أرياف المغرب الأوسط الأغنام ، و ساعدت عدة عوامل على انتشار هذا النوع فبالإضافة إلى توفر المراعي التي تحدثنا عنها سابقا و جدت عوامل أخرى منها كون هذه الحيوانات مثلت ممول رئيسي للإنسان بما يحتاجه في استهلاكه اليومي من

---

[1] ابن رامي البناء : المصدر السابق ص 65.

[2] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 112 .

حليب و مشتقاته كالزبد و لحم و صوف [1]، كما كان لتصدير الغنم و الصوف دورا في هذا الانتشار إذ تكلم صاحب الاستبصار عن المغرب الأوسط بقوله " كثيرة الخصب و الزرع كثيرة الغنم و الماشية ، طيبة المرعى و منها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب و الأندلس لرخصها و طيب لحومها "[2]، في حين تكلم عطاء الله دهينة على أن في مايوركا نوع من الصوف يسمى صوف مزغان الذي أخذ اسمه من ميناء مزغان الذي يصدر منه هذا الصوف [3] .

ومن المناطق التي عرفت انتشارا لهذا النوع من المواشي المناطق المحيطة بصحراء أنكاد غير أن الأغنام في هذه الصحراء معرضة للسباع " التي تفترس أو تعطب كمية وافرة من الغنم و حتى الناس إن استطاعت "[4]،كما وجدت الأغنام في البطحاء فكان عند أحد النساك " عشرة آلاف من الغنم " [5] ،و اعتبرت المدية من المناطق التي تكثر بها و هو ما دفع بأهلها لتقديمها للحسن الوزان أثناء حلوله بها [6]، كما أن أرياف بونة من أكثر مناطق المغرب الأوسط تواجدا للغنم [7] ، وجبل بنو زناتة من الجبال التي يوجد بها الكثير من الماشية [8] ، وكانت دلس من المناطق التي عرفت تواجدا لهذا النوع من من المواشي [9] ، و تحدث عبد الباسط خليل عن وهران بقوله " بيع بها كل أربعة من جياد الغنم بدينار " [10] ، وما يفهم من قوله أن بأرياف وهران الغنم الكثير و هو ما كان سببا في رخص سعرها رغم أن نوعيتها من الجيدة .

وتعتبر الكباش الدمانية من أجود الأغنام التي يقول عنها الحسن الوزان "هذا الحيوان شكله شكل خروف إلا أن قامته قامة حمار قصير و أذانه طويلتان متدليتان"ومن سمات هذا النوع القوة التي وصفها بقوله " أردت أن اختبر قوة هذا الحيوان فركبت كبشا فحملني ربع ميل" والمناطق التي

---

[1] محمد حسن : المدينة و البادية ص 454 .

[2] مجهول : الاستبصار ص 179 .

[3] ATALLAH DHINA : opcit , p367 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 11 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 293 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 28 .

[6] نفسه ،ج2 ص 42.

[7] نفسه ، ج2 ص 62

[8] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص351 .

[9] الحميري : المصدر السابق ص 132 .

[10] عبد الباسط خليل : المصدر السابق ص 56.

وجد فيها هذا الحيوان صحراء نوميديا [1]، هذا يعني إمكانية وجوده في صحراء المغرب الأوسط لأن الحسن الوزان صنفها في هذا الإقليم .

أ-2 الماعز :يبدو أن تربيته و حجم قطيعه اختلفت من منطقة إلى أخرى ، كما أن الإشارات التي تتحدث عنه كانت قليلة مثل التي سنذكر لاحقا ، و قد يكون غير مقصود بالعبارات التي تذكرها المصادر كالماشية ، والسبب الذي دفعنا إلى هذا الحكم أنه في كثير من الأحيان لا يجتمع مع الأغنام في المرعى ، فالغنم يحبذ الأراضي المستوية المكشوفة بينما الماعز يحبذ الجبال و الغابات [2] ، ومن المناطق التي عرفت انتشار هذا النوع جبل بني بوسعيد [3] ، كما كانت جبال بجاية من المناطق التي يوجد عدد كبير من قطعان الماعز [4] ، كما وجدت أيضا في تيكورارين " الذي يربى من أجل اللبن [5]".

أ-3 الأبقار :تكثر تربية الأبقار في المناطق الدائمة الاخضرار و العشب ، وأرياف المغرب الأوسط من المنــاطق التي بها هذه الصفات [6] ،و لم يقتصر تواجد هذا النوع من المواشي في هذه المناطق فقط بل وجدا أيضا في المناطق الجبلية [7] ، و من الأسباب التي أدت إلى انتشـار هذا النوع من الماشـية كون الذكور منها استعملت في الحرث و تحدثنا عن هذا الاستعمال أثناء حديثنا عن الحرث، ومن أسبـاب تربيتها أيضا كونها اعتبرت ممونا للإنسان بالحليب و اللحوم و الجلود [8].

غير أن تربية الأبقـار عرفت تراجعا كبيرا بعد القرن الثـامن الهجري بسبب تقلص الاستهلاك نتيجة التراجع الديمغرافي و كذا انعدام الاستقرار السياسي [9] ،و لم تعد قطعان البقر كبيرة إلا في يد بعض المرابطين و النساك [10] ، و سنحاول الحديث عن المناطق التي عرفت هذا النوع من

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ص 264

[2] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 119 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 45 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 101 .

[5] نفسه ص 134 .

[6] يحي أبو المعاطي : المرجع السابق ، ج2 ص 473 .

[7] محمد حجاج الطويل :الفلاحة المغربية ص 117 .

[8] محمد حسن : المدينة و البادية ص 454 .

[9] محمد حجاج طويل : الفلاحة المغربية ص 118 .

[10] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2ص29 .

المواشي ومنها منطقة البطحاء [1]، كما يوجد عدد كبير " من البقر و الثيران " ببونة [2] ،و من مناطق مناطق تواجدها دلس [3] كما وجدت في أرياف شرشال و جزائر بني مزغنة ، وجيجل و قسنطينة و تلمسان [4].

من خلال وجود هذا الكم و النوع من الماشية يمكن القول أن أرياف المغرب الأوسط عرفت العلف أي أن ملاك المواشي في كثير من المرات استعملوا العلف و إن كان من البداية يجب التسليم بأن استعماله كان محدودا و لم يكن عند كل الملاك وهو ما يفهم النازلة التي أوردها الونشريسي حول البقر التي لا تأكل التبن و لا العلف فهو عيب إذا عرف عن ذلك البلد العلف ، أما إذا كان أهل البلد لا يعلفون و المشتري يعلم ذلك فهو ليس بعيب [5].

أ-4 الإبل : تعتبر الصحراء و المناطق الجافة عموما مرتعا ملائما للإبل و اختلف في تاريخ دخول الجمل إلى بلاد المغرب ، فرأى بعض الدارسين أنه ظهر في الصحراء الكبرى منذ فجر التاريخ و أن الأفارقة القدامى هم من دجنوه [6] ، في حين هناك من يقول أنه ظهر بلاد المغرب منذ العهد الروماني [7]، و هناك ثلاثة أنواع من الإبل يدعى النوع الأول هُجْنا ومن صفاته الضخامة و الطول ، ولا يستطيع هذا النوع أن يحمل أي مثقال قبل أن يصل إلى سن الرابعة ، لكن بعد هذه السن تصبح حاملة ممتازة " و حينئذ يصبح أضعفها قادر على حمل ألف رطل إيطالي " أما النوع الثاني فيدعى بُخْتاً و له سنامان كلاهما صالح لحمل الثقل أو الركوب ، لكنه لا يوجد إلا في آسيا ، أما النوع الأخير فتسمى رواحل ، و تكون نحيلة الجسم رقيقة الأعضاء لا تصلح إلا للركوب ومن صفاتها السرعة الكبيرة فهي قادرة على قطع مائة ميل أو أكثر في اليوم ، مع مواصلة العدو لثمانية أو عشرة أيام متتالية و بأقل زاد [8].

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 29 .

[2] الحميري : المصدر السابق ص 115 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ،2ص 62 .

[3] الحميري : المصدر نفسه ص132 .

[4] عز الدين أحمد موسى : المرجع السابق ص 198 .

[5] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 190 .

[6] حافظي علوي لحسن : المرجع السابق ص 552 .

[7] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 119 .

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 260 .

و ربما يوجد في بلاد صحاري المغرب الأوسط النوع الأول و النوع الثالث ، فالنوع الأول استعمل خاصة في حمل المثاقيل ، و ربما يكون هذا النوع هو الذي استعمله التجار في نقل منتجاتهم خاصة إلى المناطق الواقعة في الصحراء و جنوبها ، أما النوع الثالث فربما يكون استعماله في الحروب لسرعته وكذا لنقل الأخبار وهو ما أكده الحسن الوزان " و إذا أراد ملك تمبكتو إبلاغ أمر هام إلى تجار نوميديا ، أرسله بواسطة ساع راكب أحد هذه الجمال التي تقطع مسافة تسعمائة ميل بين تمبكتو و درعة أو سجلماسة في ظرف سبعة أيام أو ثمانية "[1] .

و إن كان من الصعوبة بمكان الحديث عن مناطق تواجد النوع الأول و النوع الثالث ، فإننا سنتحدث عن مناطق تواجد الإبل انطلاقا من قول ابن حوقل في معرض حديثه عن البربر من سكان الصحراء "وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم و سكان صحرايهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب "[2]، سنحاول أن نركز على مناطق تواجده في أرياف المغرب الأوسط و ستكون بداية حديثنا عن المناطق الشمالية التي وجد بها إبل ومنها إقليم بني راشد " و لهم عدد وافر من الجمال و الخيل "[3]، أما في المناطق الصحراوية فوجد في تيكورارين و هو ما يفهم من كلام الحسن الوزان " و يؤكل لحم الجمال التي تشترى من الأعراب على الأسواق التي تقام بهذه المنطقة ، و هي جمال معطلة لم تعد صالحة للركوب "[4] ،كما تعتبر ورقلة من المناطق التي يوجد بها [5] ، وكذلك ببلاد ميزاب[6] .

على كل و إن كانت هذه الأمثلة لا تعطي الحجم الحقيقي لتواجد هذا النوع من المواشي في المغرب الأوسط ، فإننا نميل إلى القول أن العدد أكبر بكثير خاصة إذا عرفنا أن هذا الحيوان هو أكثر الحيوانات تواجدا في الصحراء و صحراء المغرب الأوسط صحراء شاسعة و كبيرة و يمكن أن تكون فيها قطعان من الإبل .

رغم أننا حاولنا جاهدين الفصل بين أنواع المواشي فإن ذلك من الصعوبة بمكان لأن المصادر التي اطلعنا عليها ، و إن فصلت في بعض الأحيان بين المواشي فإنها في كثير

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 260 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ص 95 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 26 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 324 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 134، مارمول كربخال : المصدر نفسه ج3 ص 163 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 136 ،مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 166 .

[6] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 164

من المرات لم تفصل بين هــذه الأنواع و أوردت عدة مصطلحات تدل عـــلى هذه المـــواشي منـــها مصطلح القطعان [1] المواشي [2] الكلأ [3]، المراعي [4] ،كثيرة اللحم [5] و إذا كنا قد تحدثنا أثناء أثناء تصنيفنا على المواشي عن الإبل فإن ذكرها مع هذه المصطلحات مستبعد كون تواجدها في غالب الأحيان يكون في الصحراء و المصادر التي اعتمدنها عند ذكر الإبل في الشمال تذكره باسمه و قد يكون سبب ذلك للتواجده الاستثنائي و ذكرنا تلك المناطق أثناء حديثنا عن هذا النوع .

ب- الدواب : تناولت المصادر الحديث عن مناطق تواجد الدواب و تحدثت عن كل نوع على حدا في كثير من المرات .

ب -1 الحمير : يرجع سبب انتشار الحمير إلى كثرة استعمالها، و صبرها ، و قلة تكاليفها فهي تستخدم في الركوب و النقل كما استعمل أيضا في الحرث و الدرس [6] ، غير أن المصادر المطلع عليها عليها لا تشير إلى هذا النوع من الدواب و لم يأتي ذكرها إلا عرضا ، ومن المناطق التي عرفت تواجد الحمير أحواز وجدة التي يربي أهلها " عددا من الحمير الجميلة الكبيرة القامة التي تنتج لهم بغالا جميلة عالية تباع في تلمسان بأغلى الأثمان " [7] ، و إن كان مكان تواجدها في وجدة فهي بيعت في تلمسان ومن ثم أصبحت من مناطق تواجد هذا النوع .

ب-2 البغال : تأتي من حيث القيمة و الأهمية بعد الخيول و لها عدة استعمالات منها الركوب خاصة في المناطق الجبلية و تستعمل كذلك في نقل الأحمال ، و ارتكزت عليها قوة الدولة وجيوشها في نقل الأموال و الأمتعة و الأسلحة[8] ، و كانت تعنى بعناية خاصة و يخصص لها نظار خاصين يسمون البغالين لكنها " مهنة وضيعة و شاقة ، بالإضافة إلى الأجرة التافهة التي ندفعها لهم و التي

---

[1] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 293 ، 352 .

[2] الحميري : المصدر السابق ، ص 163 ، 340 ، الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص ص 26،27 ، 46، 62 مارمول كربخال : المصدر نفسه ، ج2 ص ص 326 ،351، 353، 359 ، 372 ،374، 376، 381، 383، 384 ، ج3ص 07 .

[3] مارمول كربخال : المصدر نفسه ج2 ص 364 .

[4] مجهول : الاستبصار ص177.

[5] الحميري : المصدر السابق ص 147 .

[6] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 124 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 13 .

[8] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 123 .

لا تكفيهم قطعا " [1] ، و تخصصت بعض المناطق في إنتاجها كوجدة التي كانت بغالها من أحسن وأجود البغال و هو ما جعل من ثمنها مرتفعا في تلمسان [2] ، كما وجدت أيضا في معسكر[3].

ب-3 الخيل : تعتبر الإشارات التي تتحدث عن إنتاج الخيول قليلة جدا مقارنة بالإشارات التي تتحدث عن وجودها التي هي كثيرة جدا ، و يكفي الرجوع إلى عدد الفرسان المتواجدين في المغرب الأوسط لمعرفة أعداد الخيل لكنها لا تعطينا الأماكن التي جلبت منها .

ويوجد في بلاد المغرب نوع خاص من الخيل أطلق عليه اسم الخيل البربرية وأطلق عليه الأوربيون اسم " بارب "[4] و هذا النوع هو ناتج حسب الحسن الوزان عن الأفراس الوحشية وأن العرب جعلوا يدجنونها منذ عهد إسماعيل عليه السلام وانتشرت في كل بلاد المغرب [5] ، ومن ميزات الحصان المغربي أنه صغير الحجم هزيل الجسم لا يبهر منظره وهو أقل قوة وحجما من الخيول الأوربية ولا يصعب على الخيال امتطاؤه وهو أبطأ منها على المسافات القصيرة لكن له قدرة كبيرة على الاحتمال حيث أنه قادر على قطع أزيد من ثمانين كيلومتر دفعة واحدة رغم قلة غذائه و هو على استعداد لمعاودة الكرة في اليوم الذي يليه[6].

أما المناطق التي أنتجت الخيول إقليم بني راشد فسكانه " يقيمون في البادية و يعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم ، و لهم عدد وافر من الجمال و الخيل "[7] ، كما كانت جبال الجزائر من المناطق التي توجد بها تربية للخيل [8] ، و وجدت في جبل بني جبير غير أنها قليلة العدد لكنها من أجود الخيل [9] ، و لا يختلف الوضع في أشتورة عن هذا الوضع فأهلها " يمتلكون عددا من الخيل " [10] و بلغت عدد خيول الناسك الذي عمر البطحاء " زهاء خمسمائة من الخيل ذكورا

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 27 .

[2] نفسه ، ص 13 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص295 .

[3] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 27 .

[4] نفسه ص 263 ، مارمول كربخال ، المصدر السابق ، ج1 ص 71.

[5] الحسن الوزان :المصدر نفسه ،ج2 ص 263.

[6] شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، تع محمد مزالي ، بشير بن سلامة ، تونس 1969ص 207.

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 26 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 324 .

[8] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 46

[9] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 384 .

[10] نفسه ، ج3 ، ص 07 .

وإناثا " [1] ، و تعتبر جبال بجاية من المناطق التي تكثر فيها[2] ، كما كثرت تربيتها بجبال قسنطينة و هو هو ما يفهم من كلام مارمول كربخال عن هذه المنطقة بقوله " لا يؤدون الإتاوة إلا إذا خرج إليهم عسكر الملك في طلبها ، و هم يعطون فيها عدد من المنسوجات و الخيول لأنهم لا يروجون إلا قليلا من النقود " [3] ، ما يفهم من هذا الكلام هو كثرة الخيول دفعت بأهل هذا الجبل تسديد الإتاوة بهذا النوع من الحيوان ، و لو لم يكن منتشرا بكثرة لسددوا بنوع آخر من ما يسدد به، و هو ما يمكن فهمه من لا يروجون إلا قليلا من النقود ، فالقلة تعني التشبث بها و الكثرة تعني إمكانية الاستغناء عنها.

ونتيجة للاستخدام الواسع للدواب حاولت كتب الفقه و النوازل تبيان العيوب في الدواب و التي تستوجب الرد في البيع ومنها " النفار في الفرس إذا كان مفرطا و الحران ،و قلة الكل و الانتنشار وهو انتفاخ العصب ، و الشظر و هو عظم ناتئ في الذراع ، و الجرد و هو كل ما يصيبه في عرقوبه من تزايد و انتفاخ عصب ، و الرمص و هو ورم يكون في أطراف حافره ، و الزوائد و السرطان و هو داء يأخذ في الرسغ ، و الحك و كذلك العشش و هو شيء يشخص في وظيفه حتى يكون حجما ليس له صلابة غيره من العظام ، و الرهصة ، و الحبرة و القلف ، و قطع الرسن و الأوتار و النملة وهو شيء في الحافر و أن يبل المخلاة و الشبكة و التعسيل و البياض في العين و إن لم يكن على الناظر منه شيء و أكل الشكل و القيود و الأزمة و أكل أرواثها و الصهولة و التنكيب و الذي إذا رب خرج الماء من أنفه و القاطع للمخلاة التي يعلف فيها ، و الذي لا يأوي إذا رأى اللجام عليه والباطىء في سيره و الذي تقرقر بطنه و الذي تدمع عينه و الذي يرقد إذا حمل عليه من غير ثقل "[4].
.[4]"

من خلال عرضنا لتربية المواشي و الدواب في أرياف المغرب الأوسط يمكن القول أن الحظيرة كانت غنية بالحيوانات ، وكان انتشارها في كل أقطار المغرب الوسط من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، و يمكن أن تكون منطقة واحدة بها كل أنواع الحيوانات المذكورة .

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 28 .
[2] نفسه ص 101 .
[3] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 16 .
[4] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 49

ج- تربية الدواجن :كان الفلاحون يربون الحمام والدجاج بغرض أكلها و بيعها و الاستفادة من زبلها في إصلاح الأرض [1]، و كان ينظر إلى من يربي الدواجن على أنه من الطبقة الفقيرة في المجتمع " و معاش المستضعفين منهم بالفلح و الدواجن السائمة " [2] ، و سعى مربي الدواجن إلى البحث عن أهم الأغذية لدواجنهم و كان ذلك من مهارة أهل الفلاحة "[3] .

رغم أننا عرضنا تربية الدواجن دون أن نذكر أماكن تربيتها كون المصادر صامت عن الحديث عن ذلك ، و يرجع سبب إدراجنا لها انطلاقا من كونها تربى من قبل الطبقة الفقيرة و هو حال سكان أرياف المغرب الأوسط ، وكذلك الانتفاع برجيعها في استصلاح الأراضي الزراعية ، وكذا سهولة الاعتناء بهذا النوع من الحيوانات والاستنفاع ببيضه و لحمه ، يضاف إلى ذلك بقاء تربية هذا النوع في أرياف المغرب الأوسط إلى يومنا هذا .

د- تربية النحل : هناك نوعان من النحل ، النحل البري المصطاد و النحل المربى الذي نحن بصدد الحديث عنه ، وإن كانت المصادر تتكلم عن العسل و وفرته دون أن تتحدث عن مصدر هذا العسل هل هو نحل مربى أم اصطياد الأجباح .

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار تربية النحل في أرياف المغرب الأوسط هو الاتجاه نحو البستنة التي تسهل عملية التحكم في النحل و تساعد على كثرة الإنتاج [4]، ومما ساعد أيضا على تربيته سهولة العناية به وقلة تكاليفه [5]، وما يمكن أن نرجحه أن العسل كان منتشرا بكثرة و ترجع أسباب ترجيحنا إلى كونه كان غذاء المتصوفة و نحن نعرف أنهم كانوا يعيشون حياة متقشفة والمتصفح لكتب المناقب يستكشف ذلك [6] .

أما إذا أردنا البحث عن المناطق التي أنتجت العسل دون أن نجزم هل كان هذا الإنتاج نتيجة لتربية النحل أم هو مستخلص من النحل البري ، فإنه وجد في ندرومة التي يقول الحسن الوزان عن

---

[1] عز الدين أحمد موسى: المرجع السابق ص 202.

[2] ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 104 .

[3] ابن خلدون : المقدمة ، ص 263.

[4] عز الدين موسى : المرجع السابق ص 202 .

[5] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 125 .

[6] التادلي : المصدر السابق ص 270 ،الباديسي : المصدر السابق ص 80 ،81 ، ابن قنفد القسنطيني : أنس الفقير ص 87.

أهلها " كما يتغذون بالعسل الموجود بها بكثرة "[1] ، وإذا كان الحسن الوزان لم يذكر مصدر هذا العسل فإن مارمول كربخال ذكر أنه مستخرج من شجر الخروب [2] ، إلا أنه و حسب رأينا هذا مستبعد و ذلك راجع إلى كون الحسن الوزان فصل بين الخروب و بين العسل واعتبر هناك التغذية بالعسل إضافة إلى التغذية بالخروب و لم يعتبرهما من أصل واحد عكس مارمول كربخال و لو كان حقيقة استخلاص العسل من الخروب لكانت كل المناطق التي تجود بالخروب تحوله إلى عسل و رغم إشارة مارمول كربخال إلى عديد المناطق التي بها الكثير من الخروب إلا أنه لم يشر إلى تحويله إلى عسل سوى بندرومة .

ومن المناطق التي يكثر بها العسل منطقة تبحيرت [3] ، كما أنتجت أرياف تنس الكثير منه[4]، ويوجد أيضا في جبل بني بوسعيد [5] ، ، وشرشال من المناطق التي تجود به [6]، أما جبال كوكو ففيها "كثير من أجباح النحل التي تعطي العسل " [7] .

من خلال هذه الإشارات عن مناطق تواجده يمكن ملاحظة وفرة هذا المنتوج من خلال انتشاره في عدة مناطق من أرياف المغرب الأوسط ، كما يمكن ملاحظة أيضا عدم القدرة على ضبط هل العسل المنتج كان من النحل المربى أم النحل البري ، و إن كانت الإشارة الأخيرة تتكلم عن تربية للنحل ، يمكن أيضا إعطاء مصدر جديد للعسل و هو الخروب و إن كان هذا كما سبق و أن قلنا مستبعدا أن يكون منتشرا بكثرة .

وقد البحث عن إشارات تدل على أن العسل هو نتاج لتربية النحل ومن ذلك سؤال وجه إلى الفقيه سيدي عبد الله العبدوسي عن رجل أراد شراء أجباح النحل من غير الكشف عنها [8]، كما

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 14.

[2] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 295 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 15 .

[4] نفسه ص 36 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص354 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص45 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 360

[6] الحميري : المصدر السابق ص 340 .

[7] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 374 .

[8] الونشريسي : المعيار ،ج5 ص 270

وجد من اشترى نحلا مقابل الطعام [1]، كما وجدت شركة للنحل و وجه هذه الشركة أن يكون للأول النحل و يكون لشريكه عمل يده فقط ، و للشركة الشرعية في الأجباح مجموعة من الشروط منها أن يشتري من ربها جزءا منها بعد معرفة عادتها و قوة نحلها و ضعفه و كثرة عسله و قلته ، ويتولى هذا الجزء بجميع ذلك كله من مبتاع أو وكيله بثمن معلوم إلى أجل على أن تكون الخدمة عليهما على حسب أنصابهما [2].

من هذه الإشارات يمكن القول أن العسل الذي وجد في أرياف المغرب الأوسط جله كان من تربية النحل وما كان من النحل البري فهو قليل ، كما أن هناك عسل استخرج من الفاكهة غير أن هذا النوع من العسل يكون قليلا جدا كوننا عثرنا على إشارة واحدة عن هذا النوع من العسل هي التي تكلم عنها مارمول كربخال .

التعامل مع الحيوان :

ما يمكن قوله عن تعامل الإنسان مع الحيوانات السابقة الذكر أنها معاملة حسنة بل و تعدتها إلى أكثر من حسنة بل إلى معاملة شفقة و هو ما يمكن أن يفهم من تصرفات الفقيه محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي إذ أنه مر به ذئب تجري وراءه كلاب فحبسوه وذبح فلما رآه ملقى على الأرض بكى وقال : " لا إله إلا الله أين الروح التي يجري بها " ويقول ينبغي للإنسان أن يرفق في مشيه وينظر أمامه لا يقتل دابة في الأرض ، وكان إذا رأى من يعنف دابة تغير لون وجهه ويقول أرفق يا مبارك ويقول " لله تعالى مائة رحمة لا مطمع فيها إلا لمن أشفق على جميع خلقه "[3]، و لم تكن تصرفات الفقيه محمد بن يوسف بن عمر معزولة و إنما هي تصرفات نابعة من الشريعة الإسلامية إذ ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث مفاده " إن الله كتب الإحسان في كل شيء ، فإن قتلتم فأحسنوا القتلة ، و إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، و ليحد أحدكم شفرته و ليرح ذبيحته " [4] ، ينص هذا الحديث على ضرورة التعامل مع الحيوان معاملة حسنة هذا وقت الذبح فما بالك في أوقات الانتفاع بها في الأعمال اليومية ، لكن هذا لا يعني أن كل ملاك الحيوانات تميزوا بهذه الصفة بل هناك من تعامل معه بالعنف الشديد ومن ذلك من ضرب حيوان من الحيوانات السابقة

---

[1] نفسه ،ج6 ص 67 .

[2] الونشريسي : المصدر نفسه ، ج8 ص192 ، 193 .

[3] التنبكتي :كفاية المحتاج ، ج2 ص 206.

[4] البيهقي : المصدر السابق ، ج7 ص482 .

الذكر فأدى إلى هلاكها [1] ، كما نبهت كتب الحسبة إلى مثل هذه الأعمال فاعتبرت أنه من مهام المحتسب مراقبة حمل الدواب ومن وجد أنه أثقل كاهل الدابة بالحمل فعليه تأديبه [2].

الجوائح :

ما دمنا نتحدث عن الفلاحة فهي كانت عرضة للكثير من الجوائح التي كانت تؤدي في كثير من المرات إلى مجاعات و سنين شداد على من أصابته و سنحاول هنا الحديث عن أهم الجوائح التي حلت أرياف المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة .

مفهوم الجائحة : في اللغة هي " المصيبة العامة المذهبة لمال أو نفس أو غيرهما " [3]وفي الشرع هي " ما أتلف من محجوز عن دفعه عادة قهرا ، من ثمر أو نبات بعد بيعه " [4] و عرفت أيضا ب " كل ما جاء من قبل الله عز وجل فهو جائحة كالجراد و النار و الريح و الغرق و البرد و المطر و الطير الغالب و الدود و عين الشجرة في الحر و السموم " و أضيف " الجيش و السارق جائحة إن لم يُعرف " [5].

كـــانت النظرة إلى الجوائح مختـلفة فهناك من يرجعـــها إلى سبـب ديني فاعتبر الجفـاف والقـحط عقاب رباني لاقتراف المعاصي[6]، كما اعتبر الجراد الذي يكثر وقت الجفاف " جند من جنود الله " [7]، وهناك من يرجعها إلى أسباب علمية ويمثل هذا الطرح ابن خلدون الذي أرجع السبب السبب إلى المناخ و العمران ، فالعالم به سبعة أقاليم منها المعتدل والمنحرف " [8] ، وفي العمران يتحدث عن " وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات " [9] .

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص ص 284 - 331 .

[2] ابن عبدون : المصدر السابق ص 39 .

[3] ابن منظور : المصدر السابق ،ج6 ص 737 .

[4] الرصاع : شرح حدود ابن عرفة ، المطبعة التونسية ص 290.

[5] البرزلي : المصدر السابق ، ج3 ص 392 .

[6]ابن بشكوال : كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس ذيل كتاب تاريخ ابن الفرضي ، تقيم و شرح صلاح الدين الهواري ط1 ،ج2 ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، صيدا لبنان ، 2003 ،ص 484 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ص 86.

[7] التادلي : المصدر السابق ص204 .

[8] ابن خلدون : المقدمة ص ص37،57 .

[9] نفسه ص 212

و تحت الجوائح تدخل المجاعات و التي لها نوعان من الأسباب، طبيعية و بشرية تتفاعل كل واحدة مع الأخرى بدرجات متفاوتة في حدوث هذه الكارثة .

الأسباب الطبيعية :

من بين الأسباب الطبيعية نذكر الجفاف الذي كان من الظواهر المألوفة في أرياف المغرب الأوسط، إذ كان ينجم عن عدم تساقط الأمطار خلال موعدها المحدد إلا أن سنة واحدة من الجفاف نادرا ما كانت تنجم عنها المجاعة، لأن الناس تعودوا مواجهة الجفاف بما يدّخرونه من أقوات، أما إذا توالت سنتان من الجفاف، فإن ذلك كان يؤدي إلى المجاعة كما حدث عام (616هـ-617هـ/1219-1220م) " و في سنة ست عشر و ستمائة كان المحل العظيم و المجاعة التي شكاها الضاعن و المقيم و تناهى الحال في مزيد السعر إلى ما لا نهاية له و كان ابتداء الحال فيه السنتين المتقدمتين " [1] ، ثم كانت مجاعة سنة 617 هـ/1220م التي خلفت غلاء شديدا [2] .

و إذا استمر الجفاف ثلاث سنوات فتلك لا محالة هي الكارثة، إذ كانت تنفد المؤن والمدخرات وترتفع الأسعار، و تنبه ابن خلدون إلى هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله "فيقل احتكار الزرع غالبا وليس صلاح الزرع وثمر بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، و المطر يقوى و يضعف و يقل و يكثر و الزرع و الثمار و الضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا" [3].

من هذا يمكن القول أنه في كثير من الأحيان كانت سنوات الرخاء والازدهار متبوعة بسنوات القحط والجفاف وهو ما صوره لنا القرآن الكريم في سورة يوسف في قوله تعالى " وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّيّ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانٌ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرُ يَابِسَاتٌ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُأْيَّايَّ إِنْ كُنْتُمْ لِرُؤْيَا تَعْبُرُونَ ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ، وَقَالَ الذِّي نَجَا مِنْهُمَا وَ اِدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُم

---

[1] ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب قسم الموحدين ، ص 266،267 .

[2] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 273، 274 ، عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني، ج1 ص253.

[3] ابن خلدون: المقدمة ص 212.

يَعْلَمُونَ ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدتّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " [1]، فسنوات الجفاف وسنوات الرخاء كانت متتالية فمهما طال الرخاء يأتي بعده الجفاف ومهما طال الجفاف يأتي بعده الرخاء .

و لمواجهة الجفاف قام المغاربة بأداء شعيرة صلاة الاستسقاء والتي أداها الرسول صلى الله عليه وسلم فعن شريك بن عبد الله بن أبي تمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هلكت المواشي وتقطعت السبل فادع الله فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة فجاء رجل إلى رسول الله فقال تهدمت البيوت وانقطعت السبل وهلكت المواشي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم ظهور الجبال وأكام الجبال ، وبطون الأودية ومنابت الشجر قال فانجابت عن المدينة انجياب الثوب " [2].

وتقام صلاة الاستسقاء في مصلى خارج المدينة وتكون ركعتين مسبوقة بخطبة [3]،و يكون فيها تحويل الرداء ويخرج إليها الصبيان وحتى غير المسلمين من اليهود ، و أضيفت في بلاد المغرب بعض الأقوال تردد عند الخروج إلى مكان الصلاة كقولهم : " مولانا نسعاو رضاك ، و على بابك واقفين ، لا من يرحمنا سواك ، يا أرحم الراحمين " أو كقولهم " غيثك غيثك يا ألله ، ارحم عبيدك يا ألله " [4].

و من الطرق التي استعملها المغاربة طلبا للغيث اللجوء إلى الأولياء وطلبوا منهم التوجه إلى الله بالدعاء حتى ينزل المطر ومن أمثلة ذلك أن الناس لجئوا مرة إلى الولي أبو يعزى يشتكون إليه احتباس المطر ، فرمى بشاشيته وبقى رأسه أبيض ونظر وقال " يا مولاي هؤلاء السادة يطلبون من هذا العبد المطر ما قدري أنا حتى يطلب مني المطر " ثم بكى فنزل المطر[5] .

و اعتبرت قبور الأولياء مكانا لطلب الغيث ومن ذلك الالتجاء إلى قبر الشيخ أبو مدين والدعاء عنده ولقد روى ابن قنفد القسنطيني أنه زاره في قبره سنة 776هـ/1374م وكانت مجاعة عظيمة وعم الخراب كل بلاد المغرب فلجأ إلى قبره وقرأ القرآن وصلى ركعتين وصلى على النبي صلى

---

[1] يوسف الآيات 43-49 .

[2] مالك بن أنس : المصدر السابق ، ج2 ص 267 .

[3] نفسه ص 265 .

[4]عباس الجراري : الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية ص 55

[5] التادلي : المصدر السابق ص 176 ابن قنفد : انس الفقير ص 59 .

الله عليه وسلم ثم قال " يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك ، ولنا معك وسيلة عهد وسند متصل قريب غير منفصل ، والغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال ، اللهم إنا نتوسل إليك بأنبيائك و أوليائك ، يسر لنا في ذلك يا قريب ، يا سميع الدعاء يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام " فيسر الله طلبه ، و انقلب الشر خيرا و البلاء رخاء يتعجب كل من شاهده [1].

كما لجأ المغاربة طلبا للاستسقاء إلى عادات قديمة وبقيت مستمرة حتى في وجود البديل الشرعي ومنها " تاغنجة " وهي عبارة عن دمية تتشكل من مغرفة مغطاة بلباس يطوف بها النساء والصبيان وهم يبتهلون وينشدون طالبين المطر ويقومون بتبليل هذه الدمية تفاؤلا بهذه الممارسة ،ومن الأمور المصاحبة لتاغنجة جمع الطعام وهي عادة قرطاجية قديمة [2].

وبمقابل الجفاف أعتبر المطر الشديد والفيضان من الآفات التي تتعرض لها المزارع ولهذا كان الفلاح إذا طلب المطر طلب أن يكون نافعا لقوله صلى الله عليه وسلم " اللهم صيبا نافعا "[3] ، وكتب النوازل اعتبرت نزول المطر الكثير من الجوائح [4] ، و تكلم الحاج النميري عن فيضانات أعاقت السلطان أبو عنان المريني أثناء توجهه إلى قسنطينة عام 758هـ /1357 م و كانت سببا في أزمة عصفت بأرياف المغرب الأوسط " أرسل الله المزن مثقلة عشارها ، متراكمة أمطارها مترامیا تیارها ...و كادت تترك الجبال دكا و تبك الأكمات بكا ، وتفك مفاصل الهضاب فكا ، و ترامت أيدي الرياح بكل عارض غيداق ... فما كان بأسرع من انحدار السيول الرواعب ، مترافعة على الأباطح والأهاضب ،ملهية الضراغم عن أغيالها ، حائلة بينها و بين أشبالها ، داخلة الأنفاق مخلخلة الأطباق، يسمع لها دوي يذعر الجنان عن صريمه ..." [5] و كتب الفلاحة ترى أن الأرض إذا تشبعت تشبعت بالماء اعتبرت مريضة و لا يصلح أن يزرع فيها شيء [6].

---

[1] ابن قنفد : المصدر نفسه ص 150،149.

[2] عباس الجراري : الحضور الديني في العادات و التقاليد ص 55 .

[3] محمد بن حبان : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تح شعيب الأرنؤوط ، ط2 ،ج3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1993 ص 286 .

[4] البرزلي : المصدر السابق ،ج3 ص 389 .

[5] الحاج النميري : المصدر السابق ص 258 .

[6] ابن العوام الاشبيلي : المصدر السابق ص 134 .

و كانت الرياح القوية خاصة تلك القادمة من الجنوب تؤدي إلى إحراق المحاصيل الزراعية وحدوث المجاعات كما حدث عام 776هـ/1374م في عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م حيث حدثت مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا لريح ذات إعصار أهلكت زرع صائفتها و حيوانها ، فافتقر الناس إلى ما عند الخليفة فتصدق بنصف جباية حضرته " [1].

و لم تكن الرياح الحارة فقط تعتبر جوائح بل حتى العواصف التي تحدث خلال فصل الشتاء تتسبب في إتلاف المحاصيل الزراعية وقتل البهائم والبشر، كما حدث عام (679هـ/1280م)، حيث "كانت الريح الشرقية بالمغرب دامت ستة أشهر فأعقبها الوباء العظيم والأمراض الكثيرة " [2].

ومن الجوائح التي مست أرياف المغرب الأوسط الجراد الذي مثل هاجسا حقيقيا للفلاح المغربي، بحيث يمثل انتشاره في الحقول مقدمة لاستفحال المجاعات [3] ، هذا ما دفع بابن أبي زرع إلى وصفه بقوله " أكل الشجر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الأرض " [4]،و إذا كان الهاجس الأكبر هو المجاعات فقد وجدت مخاوف لدى مكتري الضيعات و البساتين من آثار اجتياحه ، فسعى الفقهاء إلى محاولة تبديدها ومن ذلك " لو أتى الجراد إبان الحرث فعلم الناس أنهم إن زرعوا شيئا أكله الجراد ، فامتنعوا لذلك فلا شيء عليه في تلك المدة "[5]، و خلف الجراد الكثير من الذهنيات لدى الفلاحين و هو ما دفعهم إلى الحديث عن تأثيراته و محاولة تبيان نتائجه فما ظهر الجراد في أول الخريف إلا وخافه الناس ولم يحرثوا زرعا في ذلك الموسم ، أما إذا ظهر في أواخر فصل الربيع وما زال الزرع أخضرا و لإنقاذ ما يمكن إنقاذه قام المزارعون بحصاد زرعهم أخضرا [6] ، و كان لهذا الحيوان أضرار كثيرة فبالإضافة إلى التلف الذي يخلفه فهناك أثار أخرى يخلفها كالمجاعات وغلاء الأسعار ففي سنة 617 هـ/1220م .كان غلاء شديد بسب القحط والجراد ، كما اشتد الغلاء في كامل المغرب

---

[1] يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ص 326 .

[2] أبي زرع : الروض القرطاس ص102.

[3] عبد الهادي البياض : الكوارث الطبيعية و أثرها في سلوك و ذهنيات الإنسان في المغرب و الأندلس (ق 6-8هـ/12-14م) ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 2008 ص 177 .

[4] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 405.

[5] البرزلي : المصدر السابق ،ج3 ص 390 ، الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 164 .

[6] الدباغ : معالم الإيمان ، ج4 ،المطبعة الرسمية العربية ، تونس ، 1320 هـ ص 175.

والأندلس في سنة 624 هـ /1226م ، حتى بيع قفيز القمح بخمس عشرة دينار و كان الجراد سببا في ذلك [1]،ومن السنوات التي اكتسح الجراد بلاد المغرب سنة 630هـ/1232م "عظم الجفاف، وعصفت الريح الرجف، تنقل الهضب قبل ارتداء الطرف، و تبدأ أعيان الأرض، وتعاجل حلاق لمم النبت، فصيرت وجه الأرض كمطارح خبث الحديد أما مضارب البيد يبسا وقحلا و عقرا للأرجل وعصيانا على السنابك، و أحرقت ما كان قد نجم من باكر البذر و نشط النبات و دامت، فاستأصلت الأوراق من الشجر الدهين، الذي لا يسقط و نشفت البشرات وأثنيت الجلود" [2] ، وارتفعت الأسعار بسب هذا الجفاف فوصل سعر القمح إلى 30 دينارا للقفيز [3]، أما سعره في أوقات الرخاء فكان بين 6 درهم للصحفة[4] و 20 درهم للصحفة [5]، كما أن سنة 679 هـ /1280م كانت سنة عاث فيها الجراد فسادا و لم يترك بها مخضرا وقد نتج عن ذلك مجاعة شديدة وصل القمح فيها عشرة دراهم للصاع [6].

لم يبق الفلاح متفرجا أمام هذه الجائحة بل اجتهد الفلاح في محاربتها فكان الفلاح إذا بذر الزرع في الأرض يقوم ويقرأ الآية القرآنية الكريمة " أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ " [7]، ثم يقول بل الله الزارع والمنبت والمبلغ اللهم صلي على محمد و ارزقنا ثمره و جنبنا ضره و اجعلنا لأنعمك من الشاكرين [8] ، كما قام الفلاحون لدفع الجراد بغربلة البذر بغربال من جلد الدلدول قبل البذر [9].

و تدخل المتصوفة لمحاربة الجراد فقد إلتقى أبو عبد الله محمد بن محيو الهواري بقوم يدفعون الجراد فقال ما بكم فقالوا " خرجنا لهذا الجراد ،فقال لا تحاربوه فإنه جند من جنود الله و لكن

---

[1] أبن أبي زرع : الروض القرطاس ص 273- 274 ، عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني، ج1 ص253.

[2] لسان الدين ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق و تقديم السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1989 ص61.

[3] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 276.

[4] نفسه ص 302

[5] نفسه ص 384

[6] نفسه ص 405 ، الناصري : المرجع السابق ، ج3 ص 89 .

[7] الواقعة الآية 63-64

[8] البرزلي : المصدر السابق ،ج3 ص 404 .

[9] نفسه ص 390.

ناولوني منه واحدة ، فقلبها ونظر إلى بطنها ثم رماها بالأرض و قال :انصرفوا عنه و لا تحاربوه ... فانصرفنا ثم خرجنا عشية النهار فلم نجد منه جرادة واحدة " [1].

و لم يكن الجراد نقمة دائمة فهناك من الفلاحين من استبشر به ولهذا يقال " عام الجراد ولا عام القراد " والقراد هو حيوان مثل القمل للإنسان وسبب هذا التفاؤل بالجراد أنه يأكل كل شيء في المقابل يأكله كل شيء فهو علف جيد للحيوانات والزواحف والطيور ، و ريق هذا الحيوان يساعد على نمو النبات ،بالإضافة إلى ما فيه من دواء و غذاء لأنه يأكل الحلو والمر و المز والحامض [2].

الأسباب البشرية :

أما الأسباب البشرية فنقصد بها الفتن والاضطرابات التي ليد الإنسان فيها دخل و هناك عدة أمثلة عن الدمار التي كانت تخلفه الإضرابات ، من ذلك ما يصفه ابن أبي زرع الفاسي حول الحملة التي قام بها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق (656-685هـ /1258-1286م)على تلمسان سنة 670هـ /1271، و قيام قبائل بني توجين التي كانت مناوئة للسلطة الزيانية باستغلال الفرصة، حيث راحت تعمل التخريب بجهات تلمسان "... فقطعوا الثمار، و نسفوا الآبار و خربوا الربوع و أفسدوا الزروع ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة و الدوم " [3] وكانت لهذه الحروب أثار سلبية حيث كانت تتوقف الزراعة وتهجر القرى ويدمر جزء من ما يرتبط بمورد الغذاء وعلى الخصوص البهائم التي عجز الفلاحون عن إيجاد أماكن لإبعادها عن ما قد يجعلها فريسة سهلة في أيدي المحاربين وهو ما اثر سلبا على الاقتصاد الريفي خاصة إذا اعتبرنا أن الحيوان (الأبقار والخيول) يعتبر قطعة أساسية في العمل الفلاحي [4] ، كما كان للضرائب المفروضة من قبل الدولة دور في هذه الأزمات إذ يقول ابن خلدون " المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخروج لهرم الدولة " [5] ، ومن المجاعات التي كان للإنسان دور مباشر فيها المجاعة التي تعرضت لها تلمسان و أحوازها بسبب

---

[1] التادلي : المصدر السابق ص 147 .

[2] أحمد حدادي :المرجع السابق ص 290،291.

[3] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص ص 131،132.

[4] محمد الأمين البزاز : المرجع السابق ص 99.

[5] ابن خلدون : المقدمة ص 212 .

حصار السلطان المريني أبو يعقوب يوسف(685-706هـ/1286-1306م) لها،من يوم 2شعبان 698هـ/1299م إلى ذي القعدة سنة 706هـ/1306م، أي أنه استغرق مدة ثماني سنوات وثلاثة أشهر، فقدت فيه الدولة الزيانية جل مناطقها بالمغرب الأوسط، و نتيجة لذلك نال سكان تلمسان الجوع ، فمن هلك من الجوع أكثر من من هلك فيها من الخوف [1]، ووصف ابن الأحمر هذه المجاعة بقوله: "...حتى أكلوا الجيف و الحشرات و جميع الحيوانات من الفئران والعقارب و الحيات والضفادع و غير ذلك، حتى أكل بعضهم بعضا، و كانوا يفرطون و يجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه و يأكلونه، وهو في ذلك يشدد عليه من الحصر ويقول لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعا...".[2].

ومادمنا قد تكلمنا عن أسباب المجاعات و بعض منها فيمكن القول أن المدة الفاصلة بين مجاعة وأخرى فهي بين حدود دنيا تتراوح بين 3 و 18 سنة وحد متوسط بين 25 و 37 سنة وحد أقصى بين 52 و 82 سنة ، أما عمر المجاعة فكان يتراوح بين سنتين وأربعة سنوات [3]، ونجد رواية نادرة عن مجاعة امتدت مدة زمنية كبيرة يوردها ابن أبي زرع حول مجاعة دامت من 619 هـ -637 هـ / 1222م -1239 وهذه المجاعة امتدت 17 سنة [4]، و هناك مجموعة من المقدمات بها يتم الحكم على السنة فمثلا في شهر يناير إذا " كسفت الشمس أو القمر في هذا الشهر يكون جوع ببلاد المغرب ، ويقل المطر ويكثر الثلج والجليد ، وتموت الوحوش و يأتي الجراد " [5] ومما كان ينتج عن الجوائح مشاكل اجتماعية كالإرث والطلاق والهجرة ، واقتصادية مثل المشاكل التي تقع بين الشركات الفلاحية والتجارية والحرف [6] .

مواجهة المجاعات :

---

[1] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 220.

[2] ابن الأحمر ، روضة النسرين ص61.

[3] محمد الأمين البزاز : المرجع السابق ص 94.

[4] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 41.

[5] ابن هيدور: المصدر السابق ص 1.

[6] الحسين بولقطيب :جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،2002 ص 42

اتخذت مجموعة من التدابير لمواجهة المجاعات والأوبئة منها ما أقدم عليه الخليفة الموحدي المستنصر في مواجهة مجاعة 616هـ/1217م إذ " أمر بفتح المخازن المعدة لخزن الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء ، وبالجملة فإنه صدّق منها شيئا كثيرا و أعطى من الأموال عطاء جزيلا فحسنت أحوال الناس بذلك "[1]، و في سنة 718هـ /1318 و هي سنة تولية السلطان الزياني أبو تشفين بن أبي حمو(718هـ-737هـ/1318م-1337م) قام برفع الضرائب المبتدعة عن العامة[2]، كما قام السلطان المريني أبو سعيد عثمان بخطوة مشابهة في مواجهة مجاعة سنة 724هـ/1323 م أوردها ابن أبي زرع " وصنع أمير المسلمين في هذه الشدة والمجاعة مع رعيته من الخير ملا يقدر واحد على وصفه ففتح لهم أهراء الزرع وأخرجه للبيع ، فبيع 4 دراهم للممد ، والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما ، و أمر بالصدقات ، فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة "[3] ، كما أقدم السلطان المريني أبو الحسن على بن عثمان (731-752هـ/1331-1352م) سنة 737هـ/1337 على مايلي "ورفع فيها من المغارم ما كان شائعا خسيسا، و يجتمع فيه أموال المغرم على الحطب و الدجاج و البيض و التبن و سائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف... و رفع فيها أيضا تضعيف المخازن في الإختفاء... و مما رفع رضي الله عنه وظيفة مغرم الماء، و كان سقي الجنات يضطر فيه المغرم للبراءة ولصاحب الحوز و الحراس و يجري من المصائب والخسارات و الغبن ما لا يدخل تحت حصر ... و أسقط عن أحواز تلمسان و ما اشتمل عليه المغرب الأوسط من الحوادث و الظلمات ما يضاعف به الله الحسنات ويرفع له الدرجات"[4]، في حين حين أصدر السلطان أبو حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ/1359م-1389) -بسب مجاعة 776هـ -1374م قرارا بالتكفل بالضعفاء والمساكين والفقراء، ، و عكف على تقديم الطعام لهم طوال فصلي الشتاء والربيع ، و فتح للرعية مخازن الزرع و أباح بيعه، و خفض لهم سعره لظروف المجاعة وأحكامها، و كان أبو حمو موسى الثاني، كغيره من سلاطين بني زيان حريصا على تخزين

---

[1] ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، قسم الموحدين ص 267 .

[2] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص215.

[3] ابن أبي زرع :الروض القرطاس ص 401.

[4] ابن مرزوق : المسند الحسن ، ص 285-286.

المال والمؤن تحسبا لمثل هذه الظروف و لغيرها، و كان يحث الناس على الاقتصاد و تخزين المؤن كل سنة [1].

و لم تكن السلطة الحاكمة وحيدة في مواجهة هذه المجاعات و القحوط بل تدخلت أيضا سلطة الفقهاء و المتصوفة لشد أزر السلطة الحاكمة و سعت هذه الفئة لربط جسور التكافل و مد يد المساعدة للمتضررين ، و بما أنهم اختاروا الزهد كمنهج حياة فإنهم مقتوا الشح و البخل و آثروا الجوع على الشبع [2] ، و وصفهم الباديسي بقوله " يشفقون على يتامى المسلمين و يطعمون المسكين ويفرجون كروب المعسرين " [3].

و بناء على هذا عمل الفقهاء والميسورون والمتصوفة على مساعدة المتضررين إما بمدهم بالمال أو شراء مواد وسلع توزع عليهم ، وترميم ما هدمته السيول ومواساتهم بالدعاء [4] ، كما سعوا إلى إعداد الطعام و استقبال الجياع في " المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين " [5]،و روي أن الزاهد أبو زكريا يحي بن علي الزواوي قام أثناء مجاعة شديدة باكتراء فندق كبير بنحو ثلاثمائة دينار ثم طاف على أعيان بجاية يكلمهم في معونة المساكين فيدفع له كل على حسب استطاعته ، ثم مشى بطرق بجاية وكلما صادف مسكينا إلا وأمره بالتوجه إلى الفندق المكترى فلما اجتمع المساكين بالفندق اشترى لهم ما يلزمهم من لباس وطعام وجعل لهم قيّما يقوم بهم وأغناهم عن ذل السؤال حتى عاد الخصب في العام الموالي [6]، و كان الشيخ يحي بن عبد الله بن محمد بن عبد عبد العزيز يقوم بالزرع زمن الغلاء وكان ينفد الزرع من العامة و لا يبق إلا عنده وقع في زمنه " غلاء كبير في تلمسان حتى تعطلت المساجد وانغلقت وبعث السلطان لأهل البلد وطلبهم في الزرع للشراء فلم يجد عند أحد فقال له سيدي يحي أنا أعطيك كل ما يخصك من الزرع وهذا كله من بركته " [7]،

---

[1] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ،ج2 ص326 .

[2] عبد الهادي البياض : المرجع السابق ، ص 266 .

[3] المصدر السابق ، ص 21 .

[4] سعيد بن حمادة: الماء و الانسان ، ص 187.

[5] ابن مرزوق : المسند الحسن ، ص 413 .

[6] التادلي : المصدر السابق ، ص 358 .

[7] ابن مريم : المصدر السابق ص 307

أما محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي فكان يأمر أهله بالصدقة وخاصة في وقت الجوع ويقول من " أحب الجنة فليكثر الصدقة خصوصا في الغلاء " [1].

وعلى العموم فمن القواعد المعروفة في مواجهة الآفات " ما لم يوجد يستغنى عنه " وهي قاعدة يتبنها الفقهاء بقولهم " كم حاجة قضيناها بتركها " ، فالفلاحون كانوا يحاولون تحقيق الاكتفاء الذاتي حيث كانوا يقتصرون على إنتاج أرضهم ولا يمدون أيديهم لما للغير ، وهو ما كان له دور بالغ في تحمل أيام القحط والشح و الحرب والمجاعات والكوارث الطبيعية [2].

لكن هذه التدابير لم تكن كافية في مواجهة هذه الأزمات ، فكان الضعفاء والجائعون يعودون إلى الطرق البدائية لسد رمقهم فاعتمدوا على الالتقاط والقطف ، ومما كانوا يقتاتون به نواة الزيتون بعد طحنه ، ونبات التبودا وهو شبيه بالقصب ينبت عادة في الصهاريج و الأنهار والسواقي فيجفف ويصنع منه الخبز [3] .

و رغم كل هذه المحـــاولات الجـــادة من قبل السلطة و الفقهاء و حتى العامة فهذا غير كاف ولهذا كان الادخار و الخزن هو السبيـــل لمواجهة هذه الأزمـــات ،و اختلفت باخـــتلاف منـــاطق و أحوال سكان بلاد المغرب الأوســـط ، فاستعمل مثلا قصر تمزيزدكت مكـــانا لحفظ القمح [4] ، ومن طرق الادخـــار الخزن في مطامير وهو تقليد عريق ، فسكان بجاية كانوا يختزنون الحنطة في المطامير " فتبقى العام والعامين لا يدخلهـــا فســـــاد و لا يعتريها تغير "[5] ، أما مطـــامير قسنطينة فتوضع فيهـــا الحنطة مـــائة سنة و لا تفسد [6] ، في حين مخازن تلمسان يخزن فيها فيها القمح مدة ستة سنوات وتزرع بعد ذلك فتنبت [7] ،كما وجدت ببلاد الزاب مخازن للحبوب حبست بها أعواما [8]، في حين استعمل الفقراء الجرار لخزن الحبوب [9] ،أما الفواكه فخضعت إلى

---

[1] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص256.

[2] أحمد حدادي :المرجع السابق ص 289.

[3] ابن عذارى المراكشي :البيان المغرب قسم الموحدين ص 326.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 12، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 293 .

[5] الإدريسي : المصدر السابق ص 162 .

[6] نفسه ، ص 166 ، القلقشندي : المصدر السابق ، ج5 ص 110 ، الحميري : المصدر السابق ص 481 .

[7] القلقشندي : المصدر نفسه ،ج2 ص150

[8] النميري : المصدر السابق ص 452 .

[9] محمد حجاج الطويل : الفلاحة المغربية ص 83 .

التجفيف فسكان بونة كانوا يجففون العناب لأكله في فصل الصيف [1]، كما عمل سكان جبل زواوة على تجفيف ما يحتاجونه من المأكولات ليستهلكونه طوال السنة [2] ، و قام سكان المهدية بتجفيف التين وبيعه لأهل المناطق القريبة منهم [3] ، و أهل تلمسان يجففون التين الأسود ليؤكل في الشتاء [4]، كما جفف أهل نقاوس الثمار لغرض بيعها في أسواق قسنطينة [5].

أثر القحوط و المجاعات على الفلاحة :

كان لتوالي المجاعات و القحط على أرياف المغرب الأوسط الكثير من المشاكل التي أدت في النهاية إلى زعزعة الأسس المادية للنشاط الفلاحي و كانت عائقا أمام تطور الزراعة و الغراسة والرعي و تأتي في مقدمة العوائق قلة اليد العاملة في الزراعة و الذي يؤدي إلى نقص الأراضي المحروثة بسبب الموت الذي يضرب البلاد بسبب المجاعات [6] ، و لم يكن الموت السبب الوحيد في نقص اليد العاملة العاملة بل كذلك تسليم الأراضي المتضررة من المجاعات لغيرهم بل و حتى للنصارى مقابل الحصول على الطعام [7].

ولم يكن حال الرعي بأحسن من الزراعة إذ أدت المجاعات إلى نفوق العديد من رؤوس الماشية، كما كانت أيضا سببا في حدوث نزاعات بين القبائل حول مناطق الرعي [8].

من خلال عرضنا للجوائح يمكن القول إن جلها يأتي من الله عز وجل و قليل منها فقط من أفعال البشر كالحرب و السرقة المجهولة ، و تعددت أوجه الجوائح لكنها متشابهة في نتائجها و هي المجاعات التي تخلفها ، و قد يجمع عام واحد لعدة جوائح دفعة واحدة ، و كانت هذه الجوائح وخاصة الجفاف مألوفة عند سكان أرياف المغرب الأوسط و يمكن استنتاج ذلك من خلال كثرة

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 61 .
[2] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 376 .
[3] نفسه ، ج2 ص 372 .
[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص20
[5] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 383 .
[6] محمد ياسر الهلالي : أثر القحط و المجاعات و الأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط ، مقال في كتاب المجاعات و الأوبئة في تاريخ المغرب ، تنسيق بوبكر بوهادي ، بوجمعة رويان ، كلية الآداب و العلوم الانسانية الجديدة ، بالتنسيق مع الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2002 ص 177 .
[7] الباديسي :المصدر السابق ص 61 .
[8] محمد ياسر الهلالي : أثر القحط و المجاعات ص 183 .

الحديث عن أماكن الخزن و المطامير التي وجدت في أرياف المغرب الأوسط ، و كذا المدة التي يبقى فيها القمح مخزنا دون أن يعتريه الفساد أو التغير ، أما الفواكه فكانت تجفف لاستغلالها في وقت الحاجة إليها ، و المقصود بالتجفيف استعمال طرق تحافظ على الفاكهة من أن يصبها العفن و نحن نعرف أن الفواكه سريعة التلف ، و سعى إنسان العصر الوسيط جاهد إلى مواجهة هذه الحالات الاستثنائية فكانت البداية بالسلطة التي قامت بإجراءات يمكن القول عنها أنها إجراءات ساهمت كثيرا في التخفيف من الأزمات إذ فتحت المطامير و رفعت الضرائب ، كما كان لسلطة الولي دور في التخفيف من الأزمة وذلك بالسعي للمساعدة بما هو متاح لديه فإذا كان باستطاعته المساعدة المادية يقوم بذلك و إذا عجز عن ذلك حث الناس على الصبر و ذلك بدعوتهم إلى ترك ما هو مفقود ، أما العامة و التي لم يكن أمامها سوى مسايرة الوضع و التأقلم معه فسعت في كثير من المرات إلى التغذي بما تجود به الأرض من حشائش و هذه الإجراءات اتبعت في أوقات المجاعات .

المبحث الثاني :

الصيد :

وهو من المهن التي مارسها إنسان العصر الوسيط و خاصة ساكن الأرياف ، على اعتبار أنه كان يعايش الحيوانات التي يصيدها ، و كان الغرض من الصيد الأكل من المصيدات أو التخلص من خطرها إن كانت لها أخطار و حرم الشرع أكلها .

و الصيد من صاد الصيد ويصيده ويصاده إذا أخذه وتصيده واصطاده وصاده إياه ، ويقال فلان يتصيد الوحوش بمعناه طلب صيدها أو يقال اصطاده أي أوقعه بالحيلة والمَصيدَة و المَصيَدَة هي الآلة التي يصطاد بها وجمعها مصايد ، والصَيُود معناه الصياد الماهر [1].

و كلمة الصيد تطلق على صيد البر و البحر و هو ما نستشفه من القرآن الكريم في قوله تعالى " أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ ، وَ لِلسَّيَّارَةِ و حُرِمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِ مَادُمْتُمْ حُرُمًا "[2].

تعدد طرق الصيد و الوسائل المستعملة فيه و يرجع السبب في التعدد إلى تنوع الحيوانات المصيدة فلكل حيوان طريقة لصيده ، كما أن لكل صيادة طريقة في الصيد .

الوسائل المستعملة في الصيد :

---

[1] ابن منظور ، المصدر السابق ،ج3 ، ص 260.

[2] المائدة الآية 96 .

الصيد بالفخ : الفخ هو المصيدة التي يصاد بها وهي عبارة عن " آلة مقوسة لها دفتان تفتحان قسرا وتعاقان في طرف شظاة و نحوها إذا أصابها الصيد انطبقت عليه " [1].

الصيد بالشبكة : كان الهدف من نصب الشباك الإيقاع بالصيد ، والشبكة هي المصيدة في الماء وغيره وهي عبارة عن آلة تعقد من الخيط وتنصب لاقتناص الصيد [2] ومن المصيدات التي صيدت بالشبكة الفرس الوحشي الذي من النادر أن يصاد بالخيل والكلاب بل تصنع حبالا توضع عند مورد الماء الذي يقصده هذا الحيوان وتغطس بالرمل وبمجرد ما يضع قوائمه في هذا الفخ يقع فيه ولا يمكنه الحراك [3] ، و استعملت هذه الوسيلة في صيد الحمار الوحشي حيث يقتنصها أعراب الصحراء بالأشراك [4] .

الصيد بالتطريب : أي الغناء و استعملت هذه الوسيلة لاصطياد الضبع فالصيادون إذا اكتشفوا الجحر الذي يأوي إليه قصدوه وهم يضربون الطبل و يغنون فيطرب هذا الحيوان إلى هذا الصوت حتى أنه لا ينتبه إلى الرجل الذي يدخل إلى جحره ويربط أحد أرجله بحبل متين فإذا شد وثاقه أخرج من الجحر وقتله الصيادون دون أن يأكل ، وهذا الحيوان جبان قليل الحيلة لا يؤذي غيره من الحيوانات يخرج الجثث من المقابر ويأكلها وهو كريه و بليد [5].

الصيد بالحيوان : اعتمد الإنسان على الحيوان لصيد الحيوان ، و تعدد هذه الحيوانات المستعملة في هذه المهمة نذكر منها :

الصيد بالكلاب : قبل الحديث عن الصيد بالكلاب وجب معرفة رأي الشرع في اتخاذ الكلب إذ سئل عن ذلك الفقيه عبد الرحمن الوغليسي فأجاب " يجوز اتخاذ الكلب للماشية ليلا و نهارا ، ولم أقف على جواز ذلك لغير الماشية و الزرع و الصيد " [6] و بحث الإنسان على أجود أنواع كلاب الصيد ، و تعتبر الكلاب السلوقية الأشهر على الإطلاق وتنسب إلى قرية سلوق من قرى اليمن ،

---

[1] القلقشندي : المصدر السابق ، ج2 ص 138 .

[2] نفسه ص 138 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 263 ، مارمول كربخال ، المصدر السابق ، ج1 ص 72.

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 264 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 74 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 267 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 78.

[6] الونشريسي : المعيار ، ج2 ص 07 .

هذا النوع مولد بين الكلاب و الثعالب ، و لها أنساب كأنساب الخيل ، وقلما تصاب هذه الكلاب بمرض الكلب [1] .

ومن الحيوانات التي استعمل الكلب في صيدها الأرانب و الثعالب و اعتمد على قدرته في الجري و المطاردة و صبره على ذلك ، كما استعمل حاسة الشم العالية عنده فهو " يعرف حجرة الأرانب و الثعالب و إن ركبها الثلج و الجليد بشمه فيقف عليه و يثير ما فيها من الوحوش " [2] ، كما يصطاد بها البقر الوحشي [3].

الفهد : من الحيوانات التي تصاد ثم تؤّنس حتى تصيد [4]،و عرف الصيد بهذا الحيوان في كل بلاد المغرب وهو ما يفهم من كلام ابن خلدون عند حديثه عن المستنصر الحفصي " بعد اختطاطه للمصيد بناحية بنزرت و ذلك سنة خمسين و ستمائة كان يخرج للصيد في لمّة من مواليه المختصين وأصحاب بيزيرته بما معهم من الجوارح بزاة و صقورا و كلابا سلوقية و فهودا يرسلونها على الوحش في تلك القوراء " [5]، و وجد هذا الحيوان في جبال بجاية [6]، ومن سمات هذا الحيوان السرعة و لهذا يرجح يرجح أنه كان تصاد به الحيوانات التي تتميز بالسرعة الكبيرة ، ومن الحيوانات التي صيدت و كانت سرعتها كبيرة نذكر اللمت و هو حيوان يشبه الثور في الشكل لكن أصغر منه في الحجم [7] .

الصيد بالحصان : عرفت بلاد المغرب خيولا من نوع خاص تسمى الخيل البربرية ويطلق عليه الأوربيون اسم بارب[8] ويختلف عن الحصان الأوربي فهذا الأخير أسرع منه [9]، ولم يستعمل هذا الحصان البربري البربري في الصيد و إنما استعمل في ذلك الأحصنة العربية التي " لا يستعملونها للسفر و لا للحرب بل للصيد فقط و لا يطعمونها غير لبن النياق مرتين في النهار و الليل "[10] و طريقة استعمالها في

---

[1] القلقشندي : المصدر السابق ، ج2 ص 43 .
[2] نفسه ص 42 .
[3] ابن بطوطة : المصدر السابق ص 383.
[4] القلقشندي : المصدر السابق ،ج2 ص 40
[5] ابن خلدون : العبر ، ج6 ص 281.
[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 51 .
[7] نفسه ، ج2 ص 263 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج1 ص 73 .
[8] الحسن الوزان : المصدر نفسه ص ،ج2 262 ، مارمول كربخال المصدر نفسه ،ج1 ص 71.
[9] شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 207.
[10] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 263 .

الصيد تختلف عن استعمال الحيوانيين السابقين فكان هذا الحيوان وسيلة غير مباشرة للصيد إذ يختبر هذا الحصان اختبار الجري وراء حيوان يدعى "اللمت " أو وراء نعامة فإذا أدركهما بيع بألف مثقال أو بمائة بعير [1] ، و يستعمل في الحالات النادرة في صيد الفرس الوحشي [2] ، غير أن مارمول كربخال كربخال نفى ذلك بقوله " يستحيل أن تلحقها الخيل " [3] ، نحن هنا أمام تأكيد الحسن الوزان و نفي نفي مارمول كربخال لصيد هذا الحيوان بالحصان ، و إذ حولنا نحن أن نؤكد أو أن ننفي صيد الفرس الوحشي بالحصان فنرجح صيده لأن الشائع هو ذلك و لذا حاول مارمول كربخال نفي ما هو شائعا بالنفي المطلق ، و تأكيد الحسن الوزان فيه نوع من التحفظ لأنه تكلم عن الحالات النادرة للصيد بهذا الحيوان دليل على وجوده ولو كان قليلا .

ومن الحيوانات التي صيدت نذكر:

الغزال : يوجد هذا الحيوان بكثرة في صحراء أنكاد و في أرياف تلمسان [4]، و كان صيده صعب للغاية ، فهو "لا يأمن على نفسه في المكان المكشوف إن لم يكن على أحد المرتفعات أو السهول ، فإذا رأى رجلا آتيا على فرسه أو كلبا هرب بكل ماله من قوة وسبقهما في العدو، و مهما كان صيده صعبا فإن الأعراب لا يفتؤون يقتلون منه الكثير " [5] ، وتكون طريقة صيده بوضع الشباك فيقع فيها هذا الحيوان [6] ، و تسهل عملية صيده في فصل الصيف خاصة لأنه يفقد أظلافه وسرعة عدوه بسبب حرارة الرمل حتى يمنعه الألم من العدو[7].

الوعل : وهو التيس الجبلي ويعيش عادة في الصحاري والأدغال ومن المناطق التي عاش فيها صحراء أنكاد و بالقرب من تلمسان [8] ، كما يوجد أيضا في صحراء نوميديا [9] ، و إن كنا نجهل طريقة صيد صيد هذا الحيوان فقد تكون باستعمال الحيوان كالكلب و الفهد و قد تكون أيضا بنصب الفخاخ

---

[1] نفسه ص 263 .

[2] نفسه ص 263.

[3] المصدر السابق ،ج1 ص 72 .

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ص 11 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ص 74 .

[5] مارمول كربخال : المصدر نفسه ، ج1 ص 74 .

[6] روبار برنشفيك : المرجع السابق ، ج2 ص 236 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص 263 ،

[8] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص11 .

[9] نفسه ص 129 .

والأشراك و ربما تكون الطريقة الثانية هي الأصح لكونه حيوانا يعيش في الأماكن المكشوفة (الصحاري) ، و من ثم فمجال الرؤية واضح أمامه فهو يحذر من الإنسان و الحيوانات ، و لهذا عمل الإنسان على نصب الفخاخ لصيده .

اللمط :وهو حيوان يشبه الثور لكنه أصغر منه يميل لون جلده إلى البياض إلا أن أظلافه شديدة السواد وهو سريع جدا لا يسبقه حيوان آخر إلا بعض الأحصنة المغربية وتصطاد هذه الحيوانات في فصل الصيف ويكثر تواجد هذا الحيوان في الصحراء [1] ، وكلما كبر الواحد منها طال قرناه حتى يكون أكبر من أربعة أشبار [2] ، و يكثر هذا الحيوان في صحراء نوميديا ، و لحمه جيد جدا [3].

البقر الوحشي :ويشاهد هذا الحيوان كثيرا في الصحاري وتخومها يسير جماعات قد تتعدى المائة والمائتين وخاصة في دكالة وأحواز تلمسان جريه سريع ولحمه طيب [4] ، ويتم صيده بالكلاب والنشاب ، ويتميز لحمه بأنه يولد العطش عند أكله لهذا يتحاشى أكله كثيرا [5].

الحمار الوحشي : وهو شديد السرعة لا تسبقها إلا الخيول المغربية ، وعندما تبصر إنسانا تأخذ في النهيق و الرفس و تمكث في مكانها إلى أن يقترب منها و حتى يوشك أن يمسها بيده فتفر حينئذ ، ولحمها عندما يكون ساخن تفوح منه رائحة الوحوش لكن إذا ترك يبرد مدة ساعتين أصبح ممتازا ولذيذا ، و طريقة صيده بأن تنصب له الأشراك عند ورودها مورد الماء [6].

الطيور : قبل الحديث عن الطيور التي صيدت في أرياف المغرب الأوسط وجب الحديث عن وجود إشكال حول أكل الطيور التي صادها الصيادون ، إذ أنهم يصيدونه في الليل ثم يوضع في قصب ثم يذبح و يتحفظ على ذبحه و يستدل على ذبحه بمنقاره ، فإذا أزال القصب أزيلت رؤوسها و انتفعت بها و جاءوا بها إلى السوق من غير رؤوس ، و لدفع الإشكال إذا كان الذابح مسلما و يعرف طريقة الذبح الشرعية ولا يشدخ الرؤوس قبل الذبح فيجوز البيع و الشراء [7] .

---

[1] مجهول : الاستبصار ص 214 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 263 ،مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج1 ص 73.

[2] مجهول : المصدر نفسه ص 214.

[3] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج1 ص 73 ، ج3 ص 142 .

[4] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 264 ،مارمول كربخال : المصدر نفسه ج1 ص 73.

[5] ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 383

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ص ،ج2 264 ، مارمول كربخال :المصدر السابق ،ج1 ص 74 .

[7] الونشريسي : المعيار ، ج2 ، ص 7،6 .

ومن الطيور التي صيدت :

النعامة : هي حيوان يصنف في خانة الطيور رغم أنه لا يطير ، لأن له ريش و يبيض ، و إن كانت النعامة لا تستعمل جناحيها في الطيران فإنها عندما تعدوا تستعين بخفق الجناحين و الذنب ، وهي تعيش في العادة في المناطق اليابسة التي لا ماء فيها ، و لحمها لزيج يثير القيء و خاصة لحم الفخذين و رغم ذلك " تؤكل كمية وافرة منها في أقاليم نوميديا ، حيث تصطاد و هي صغيرة فتعلف و تسمن "[1] ، و يوجد الكثير من النعام في المناطق الواقعة بين فاس و تلمسان[2] ، و إن كنا نجهل الطريقة التي يصاد بها هذا الطائر فلدينا إشارة تكلم فيها الحسن الوزان عن استعمال الحصان في تعقب هذا الحيوان[3]غير أننا نجهل الكيفية التي يتعامل معها بعد أن يدركها الحصان .

طائر الكيكل : و يسمى أيضا بالخوّاص يعيش هذا الطائر على وجه الماء و فيه يضع عشه و يفرخ ، و إذا أحس بإنسان أو حيوان يقترب منه أخذ عشه بفراخه حتى يضعه وسط البركة ، و هو طائر حسن " تباع بأثمان غالية " و يوجد الكثير منه ببونة[4].

السماني : وهو من الطيور التي تكثر في سواحل بلاد المغرب وهو فوق العصفور ، له صوت حسن يسكت في فصل الشتاء و يصيح في فصل الربيع[5] ، ومن المناطق التي وجد بها هذا الطائر مرسى الدجاج[6] .

الحيوانات المحرم أكلها :

الخنزير : يوجد بكل بلاد المغرب[7]ورغم تشدد الشريعة الإسلامية في تحريم صيده وأكله إلا بعض سكان بلاد المغرب اصطادوه لبيعه للنصارى[8]،لكن يرى أحد الباحثين أنه لا يمكن تصديق العبدري في بيع الخنزير لأنه لا يوجد لحم الخنزير حتى في الفنادق التي يأوي إليها النصارى[9] ، و انطلاقا من

---

[1] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج1 ص 118 ، ج2 ، ص 276 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج1 ص 85.

[2] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص85 .

[3] الحسن الوزان :المصدر السابق ، ج2 ص 263 .

[4] مجهول : الاستبصار ص 127 ، الحميري : المصدر السابق ص 115 .

[5] القلقشندي : المصدر السابق ، ج2 ص 76 .

[6] مجهول : الاستبصار ص 131 ، الحميري : المصدر السابق ص 539 .

[7] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص ص 105،129،283.

[8] العبدري : المصدر السابق ص 74 .

[9] روبار برنشفيك : المرجع السابق ، ج2 ص 234 .

هذا يعتبر صيد الخنزير من الأعمال المناهضة للشريعة ولحاميها السياسي و بالتالي يعتبر صائد الخنزير مناهض للسلطان ولحكمه ويعرض نفسه لأشد العقوبات تصل أحيانا إلى القتل مثلما حدث لقائد الأمير الحفصي أبي زكريا ويدعى أبوبكر بن الوزير سنة 679هـ حين ثار على السلطان في قسنطينة فأرسل أهلها كتابا إلى السلطان يؤكدون فيه أكله للخنزير فقام السلطان أبو فارس بن أبي إسحاق بقتله [1].

القردة : هي حيوانات شبيهة بالإنسان ، تتغـــذى على الأعشاب و الحبوب و هي تقوم باختـلاس الفـــواكـه من الحـــدائق و يقـــــوم أحـــد القردة بالحراسة فإذا رأى صاحب الحـــــقل أطـــلق صيحـــــات تحذيرية تفـــر معها القــــردة التي في الحــــــديقة و هي من الحيوانات المفسدة [2]، ونظرا لذلك عمد أهل المغرب إلى صيدها و رغم ما كانت تتمتع به من حيطة و حذر فقد صيدت بكثرة [3]، ومن المناطق التي توجد بها قردة في المغرب الأوسط جبال قسنطينة [4] ،وكذا جبال ببجاية [5]. [5].

الأسود : و هي من السباع و لها قدرة عالية على الصبر على الجوع و قلة الحاجة إلى الماء ، و من صفاته إذا شبع ترك فريسته و لا يعود إليها و إذا تعدى صبره على الجوع ما يستطاع ساءت أخلاقه [6] ، و وجدت الأسود في مناطق عدة من بلاد المغرب الأوسط منها جبال بجاية [7] ، و تعيش أيضا أيضا في المناطق التي توجد بين تلمسان وفاس وفي صحراء أنكاد كما توجد في المنطقة الممتدة من بونة إلى تونس وهي أشهر أسود إفريقيا كلها وأكثرها شراسة حيث تتقاتل فيما بينها عند فترة التزاوج ويشاهد أحيانا عشرة أسود أو اثني عشرة تتبع لبؤة واحدة [8] ، وهناك نوع من الأسود يخاف من الإنسان ففي قرية أكلا وهي من إقليم فاس هناك أسود جبانة لدرجة أن النساء و الأطفال يضربونها

---

[1] ابن قنفد القسنطيني : الفارسية ص 139-140.

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 267،268 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج1 ص 78 .

[3] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 79.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 267 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 78 .

[5] مجهول : الاستبصار ص 130 ، الحميري : المصدر السابق ص 82 ، الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2ص 51 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 78 ، ج2 ، ص 377 .

[6] القلقشندي : المصدر السابق ،ج2 ص 36 .

[7] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ، ص 377 .

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 265،266 ،مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 76.

بالعصي كالكلاب [1]،لكن يستبعد أن تكون هذه الأسود موجودة في أرياف المغرب الأوسط و قد تكون صفة خاصة بأسود هذه المنطقة لأنه أصبح يضرب بها المثل في الجبن .

و استعملت عدة طرق لصيدها منها نصب بيوت لذلك الغرض أو ضربها بالنشاب والقسي و من الأسباب التي أدت إلى صيده كون سكان بلاد المغرب يلاعبونه كما يلاعبون الثيران في إسبانيا[2].

الفنك : من الحيوانات التي تعيش في الصحراء و اشتهر عن سكان بلاد المغرب صيد هذا الحيوان الذي يتميز بجلد ثمين و جميل [3].

صيد الجوارح :انتشر صيد الجوارح والضواري في المناطق الصحراوية وخاصة لدى الأعراب الذين كانوا مستقرين في الصحراء على حدود إقليم تلمسان ويكون صيد هذا في فصل الربيع[4].

الصيد البحري :

يكاد الصيد البحري يكون مقتصرا على صيد الأسماك في ساحل البحر ، و كان يمارسه سكان المناطق الساحلية [5] ، و تكلمت المصادر الجغرافية عن المناطق الساحلية التي كانت مهنة أهلها صيد السمك و نذكر منها عنابة " وهي من أنزه البلاد و أكثرها لبنا و لحما و عسلا و حوتا " " و فيها سمك كثير جليل " [6] ، و بجيجل " الحوت الكثير العدد المتناهي في الطيب و القدر "[7] ، وتعود أهل دلس على " اصطياد السمك بالشباك فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع و لا تشترى و إنما يهدونه لمن يرغب فيه " [8].

ولم يكن السمك موجودا في السواحل فقط بل وجد أيضا في البحيرات و الأنهار التي تقع في المناطق الداخلية ومن ذلك السمك الموجود في المسيلة " و هي على نهر فيه ماء كثير مستنبط على وجه الأرض و ليس بالعميق وهو عذب ، و فيه سمك صغير ، فيه طرق حمر حسنة ، و لم ير في

[1] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص195.
[2] نفسه ، ج1 ص76.
[3] مجهول : الاستبصار ، ص ص 112 ، 159 ،214 .
[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج1 ص 63 ،مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج1 ص 111 .
[5] روبار برنشفيك : المرجع السابق ، ج2 ص 237 .
[6] مجهول : الاستبصار ص 127 .
[7] الإدريسي : المصدر السابق ص 169 .
[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 42 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 372 .

بلاد الأرض المعمور سمك على صفته ، و أهل المسيلة يفتخرون به ، و يكون مقدار هذا السمك من شبر إلى ما دونه ، و ربما اصطيد منه الشيء الكثير " [1] ، كما يوجد السمك في نهر التافنة غير أنه " سمك صغير جدا لا قيمة له " [2] ، و يصاد في مصب نهر الشلف كمية وافرة من السمك الجيد منه الكبير و الصغير [3] ، ولا يختلف حال واد يسر عن الوديان السابقة الذكر [4] ، أما الواد الكبير القريب القريب من بجاية ففيه السمك الكثير لكن السكان القريبين من هذا الواد لا يصيدون سمك الواد إلا نادرا لكونهم اعتادوا على صيد سمك البحر [5] .

و لم يكن صيد السمك وحده في بحر المغرب الأوسط بل اصطيد أيضا المرجان و عرف مرسى الخرز بمرجان ذا جودة عالية ، تكلم الإدريسي عن طريقة صيده بقوله " و معدن هذا المرجان من هذه المدينة مخدوم في كل سنة و يعمل به في كل الأوقات خمسون قاربا و الزائد و الناقص ، و في كل قارب العشرون رجلا و ما زاد و نقص ، و المرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر بين جبلين عظيمين ، ويصاد بآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب تدار هذه الآلة في أعلى المراكب ، فتلف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان ، فيجذبه الرجال إلى أنفسهم و يستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بأموال طائلة " [6] ،و إذا كان الإدريسي قد أعطانا طريقة صيد المرجان فإن فإن الحسن الوزان حدد من يصيده و ربما يكون خاص بوقته فقط " إلا أنه ليس لأحد الحق في صيده من البحر أو التقاطه من الشاطئ لأن الملك أكرى هذا الشاطئ للجنويين "[7] .

من خلال حديثنا عن الصيد يمكن ملاحظة مايلي :

تعدد أنواع المصيدات وهو دلالة واضحة على أن أرياف المغرب الأوسط كانت غنية بأنواع عديدة من الحيوانات تنوعت بتنوع أقاليم المغرب الأوسط ، ويلاحظ أن الدافع من وراء الصيد كان يختلف من واحد إلى آخر ، و يمكن القول أنه من دوافعه التغذية كصيد الحيوانات التي تؤكل ، وكان

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 156 .

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 250 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج1 ، ص 38 .

[3] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 251 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 38

[4] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1 ص 39 .

[5] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 252 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج1ص 40 .

[6] المصدر السابق ، ص 191 .

[7] المصدر السابق ،ج2 ص 62 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص 08.

بغرض المتعة و هو ما يلاحظ عند أهل دلس إذ كانوا يصيدون السمك ثم يعيدونه إلى البحر وهو ما جعلنا نقول أن الصيد عندهم كان بدافع المتعة ، و قد يكون بغرض دفع الضرر ومن ذلك صيد الخنازير فلولا الضرر الذي تحدثه لما صيدت ، و نحن نعرف أن الشريعة الإسلامية متشددة في قضية صيد و أكل لحم الخنزير .

المبحث الثالث :

الصناعة :

اعتبرت الصناعة عصب الاقتصاد في المدن غير أنها في البوادي و الأرياف كانت تصنف في المقام الثاني بعد الزراعة و رغم ذلك فهي تكتسي أهمية بالغة لأنها أكثر التصاقا بالحياة اليومية للإنسان فقوته اليومي من الحنطة لا يأتي إلا بعملية الطحن و العجن و الطبخ و كل هذه الأعمال تحتاج إلى أواني و آلات [1] و التي " لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد و نجار و فاخوري " [2] و عرفت أرياف المغرب الأوسط العديد من الصناعات نذكر منها .

صناعة المنسوجات :

عرفت هذه الصناعة رواجا كبيرا في ريف المغرب الأوسط و السبب يرجع إلى توفر المراعي التي تربى فيها الحيوانات التي هي مصدرا للوبر و الصوف ، أضف إلى ذلك القطن الذي هو من أصل هندي أدخل إلى المغرب عن طريق الفاتحين و انتشر بسرعة في الجهات ذات التربة الطميية و الغزيرة المياه [3]، كما اعتبر طائر الكيكل من المادة الأولية في صناعة الملابس ذات اللون و النوع الجيدين وما يتميز به هذا الطائر من لين وجمال جعله يباع بأعلى الأثمان وتعتبر بونة وضواحيها أشهر مناطق التصنيع [4] ، و انتشرت صناعة الملابس من ريش النعام الذي يصبغ ريشه بمختلف الألوان ويتم بيعه بيعه ليصنع منه العديد من المفروشات ثم أصبح يستعمل في تزين القبعات وتجميل الشعر والقلائد

---

[1] محمد الهادي القرقوطي : كتاب العبر و أهميته في دراسة تاريخ المغرب الاقتصادي زمن المرينيين ، مقال منشور في مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، 2007 ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ليبيا ، 2007 ص 193 .

[2] ابن خلدون : المقدمة ص 284 .

[3] موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول القرن 8-11م (2-5 هـ) تر و تعليق إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ص 270 .

[4] الحميري : المصدر السابق ص 115

والأساور [1] ، و استعمل فرو الأرانب في تصنيع الفراء [2] ، و يعتبر الكتان من المواد الأساسية في مثل هذه الصناعات و الذي مورست زراعته في أرياف المغرب الأوسط و الملاحظ على هذه الصناعات أنها اعتمدت على مواد أولية محلية ،حيث ذكر الحسن الوزان أثناء حديثه عن منطقة ندرومة كثرة الصناع فيها ، و ينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية [3]،كما كان سكان هنين كلهم تقريبا يعملون في القطن و المنسوجات [4] ، و لم يختلف حال أهل برشيك عن حال أهل هنين إذ " اشتغل معظمهم بحياكة الأقمشة "[5]و صفة هذه الأقمشة أنها من النوع الخشن [6]، و امتهن سكان مليانة هذه المهنة أيضا " فيكاد يكون سكنها كلهم صناعا نساجين "[7] ،و في ميلة " عدد كبير من الصناع ، و خصوصا من يعملون في نسج الصوف الذي تصنع منه أغطية الأسرة "[8] كما انتشرت بها صناعة العباءات الصغيرة و الزرابي [9] ، في حين اشتغل سكان جبال بجاية في صناعة كميات كبيرة من القماش الخشن و عرفت هذا النشاط لأن القنب و الكتان ينبتان هناك بكثرة [10]، و انتشرت في صحراء فكيك صناعة النسيج حيث تنسج النساء ثيابا من الصوف على شكل أغطية السرير ، لكنها دقيقة و رفيعة حتى يظن أنها حرير ، و تباع بثمن مرتفع في مدن بلاد البربر كفاس و تلمسان [11] ، و اشتغل أهل شرشال -بعد أن عمرها الأندلسيون بعد سقوط غرناطة إذ بقت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة بسبب الحروب بين بني زيان و بني حفص – في صناعة الحرير لوجود المادة الأولية في صناعته " إذ وجدوا هناك كمية لا تحصى من أشجار التوت

---

[1] مارمول كربخال : المصدر السابق، ج1 ص 85.

[2] روبار برنشفيك ، المرجع السابق ، ج1 ص 235.

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 14 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 15 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص296 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2 ص 33 .

[6] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 355 .

[7] الحسن الوزران : المصدر السابق ،ج2 ص 35 .

[8] نفسه ، ج2 ص 60.

[9] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 13 .

[10] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 102 .

[11] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 132 ، مارمول كربخال :المصدر السابق ، ج3 ص 162 .

الأبيض و الأسود " [1] و هذه الصناعة تستخدم أكثر من غيرها المعادن النفيسة على شكل خيوط فضية و ذهبية توشى بها الأقمشة مما يزيد في قيمتها و يجعل استعمالها مقتصرا على الفئات الاجتماعية المترفة وهو ما جعل من هذه الصناعة حرفة ثانوية محدودة الإنتاج و الزبائن [2] .

وفي غالب الأحيان النساء هن من يقومن بهذه الصناعة و هو ما يفهم من نازلة أوردها الونشريسي في المعيار مفادها : أن رجل حلف لزوجته أن لا يشتري لها كتانا و لا يطلع في عنقه ثوبا من غزلها و كانت هي تنسج و هو يبيع ، و قامت هذه الزوجة بنسج ما يوضع على السرير [3] ، [3] ، و غالبا ما كانت تمارس هذه الصناعة في البيوت وتكون للاستعمال الشخصي أو للتجارة ، إذ يقوم صاحب الغنم بجز صوف غنمه وتقوم النساء بنسج الصوف ليباع منسوجا أو يحتفظ به لسد الحاجة ولا يكاد يخلو بيت من أدوات لغزل الصوف كالمغزل [4]، المكب [5] ،النير [6] المنسج [7] المشط المشط والنول أوالمنوال و كانت هذه الأدوات متوفرة عند الأسر الميسورة أما الأسر الفقيرة فكانت تستأجرها [8] ، و لم تكن هذه الصناعة حكرا على النساء بل اشتغل بها الرجال ، حيث اشتغل الفقيه الفقيه أحمد بن محمد بن زكري المناوي التلمساني في الحياكة ثم تحول إلى طلب العلم بعد أن أدرك الفقيه أحمد زاغو قدرته على تحصيل العلم فقال لأمه أنه أهل علم وليس أهل حياكة [9].

ورغم أن صناعة النسيج من الصناعة الذائعة الصيت في كل بلاد المغرب في العصر الوسيط وذلك راجع إلى توفر المواد الأولية إلا أن هذه الصناعة في الأرياف كانت تعطي إنتاجا ضعيفا لا يعدو أن يكون للمنفعة الشخصية و في أحيان قليلة يباع محليا فقط [10] .

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 34 .مارمول كربخال : المصدر نفسه ج2 ، ص 356 .

[2] عبد العزيز العلوي : صناعة النسيج في المغرب الوسيط (الإنتاج و المبادلات) ، مقال في مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية بفاس ، عدد 02 خاص دراسات في تاريخ المغرب ، السنة 1985 ص 57 .

[3] الونشريسي : المعيار ، ج4 ص 128

[4] محمد مقر: المرجع السابق ص84

[5] ابن عبدون : المصدر السابق ص 55.

[6] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 295.

[7] السقطي ، المصدر السابق ص 32

[8] محمد مقر: المرجع السابق ص84 .

[9] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 137.

[10] عبد العزيز العلوي : المرجع السابق ص 58.

و تعددت مشاكل بيع الثياب ومن ذلك دفع رجل لآخر ثيابا ليبيعها بالنقد ، و خرج صاحب الثياب إلى بلد آخر فباعها المأمور إلى أجل ، إذ لم يجد من يشتريها منه بالنقد ، و كتب إلى صاحبها يعلمه بذلك ،ثم مات المأمور فادعى وارثه على صاحب الثياب أنه أمره أن يبيعها إلى أجل إن لم يجد من يشتريها منه بالنقد ، و وكل الوارث من يقبض أثمان الثياب فقبضها ، و ادعى أنها تلفت بيده [1].

و أوردت كتب النوازل العيوب المتعلقة بالثياب ومن ذلك وجود القمل في الثوب هذا يعد عيبا إذا لم يستطع التخلص منه لكثرته [2].

الصباغة :

ارتبطت الصباغة ارتباطا وثيقا بالمنسوجات، لأن الصباغة آخر مرحلة في صناعة النسيج، وتكون دور الصباغة في الغالب بعيدة عن المساكن و قريبة من الأنهار [3].

و عملية الصباغة تكون بأن يقوم صاحب هذه المهنة برصد مادة ملونة على نسيج ما ، ويشترط أن لا يغير اللون عند تعريضه إلى الهواء وأشعة الشمس والماء ،و التي من خصائصها التقليل من جمالية اللون، أما بالنسبة للأدوات التي تستعمل في معالجة المادة الخام المستعملة في النسيج والحياكة فالمعلومات حولها ناقصة ، لكن المعلوم أنها كانت تستعمل مواد نباتية ومعدنية ويتداخل معها الماء والضوء في تكوين الألوان ، فعند عرض الأقمشة المصبوغة لهذه العناصر يفتح اللون أو العكس ، ومن مواد الصباغة نذكر الحناء تستخدم في صباغة القماش باللون الأحمر [4]، النيلة أو النيلج وهو نبات موطنه الأصلي الهند وأدخلت زراعته إلى بلاد المغرب مع الفتوحات الإسلامية وهي كالحناء تحتاج إلى الحرارة والماء [5]، كما استخدم لحاء شجر الجوز للحصول على اللون الأسود ، يكون لونه أخضر قبل النضج وبعد قطفه وتعريضه للهواء يصير أسمر اللون و هو كثير الاستعمال في المصابغ [6] ،و اعتمدت أيضا على بعض السلع المستوردة و خاصة الصمغ و الشب فالصمغ كان

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج10 ص 337 .

[2] نفسه ج6 ص 427 .

[3] يحي أبو المعاطي : المرجع السابق ، ج2 ص 491 .

[4] محمد مقر : المرجع السابق ص 81 ، عبد العزيز العلوي : المرجع السابق ص 50.

[5] محمد مقر : المرجع السابق ص 81،80.

[6] نفسه ص 82.

يستعمل لتبيض الأقمشة بعد حياكتها و صبغها و هي مادة نباتية كانت تجلب إلى بلاد المغرب من أودغشت [1] ، أما الشب فكان ضروريا لتثبيت الأصبغة في المنسوجات [2] ، و كان هذا الحجر يصل إلى بلاد المغرب من الصحراء الواقعة بين تدمكة و غدامس [3] .

و عرفت منطقة العباد انتشارا واسعا لهذه الصناعة فكان معظم سكانها من الصباغين [4]، وكان جل سكان دلس من الصباغين لكثرة العيون و الجداول بها [5].

صناعة الجلود :

اعتمد على جلود الحيوانات كمادة أولية لهذه الصناعة ومن مستخرجات هذه الصناعة الأحذية والمفروشات وعدة الخيول أما استعمالها في مجال اللباس فكان محدود جدا [6] ، و كانت مهنة مهنة سكان مليانة " صناعة الجوخ و السروج على عادة المغاربة " [7].

الصناعة المعدنية :

قامت الصناعة المعدنية في المناطق التي توفرت فيها المواد الأولية ، فالحديد مثلا وجد بالقرب من بجاية [8] ، كما انتشر في تفسرة العديد من مناجم الحديد لكثرته بها و كل أهلها " لا يشتغلون بغير خدمة الحديد و نقله إلى تلمسان "[9] ، و وجد في جبال هنين " معادن كثيرة كالحديد و الفولاذ الفولاذ " [10] في حين وجد القليل من هذا المعدن في جبل ترارة (جبل ولهاصة) [11] ، أما في جبل الونشريس فوجدت " كمية وافرة من معدن التوتيا (الزنك)[12].

---

[1] البكري : المصدر السابق ص 158 .

[2] عبد العزيز العلوي : المرجع السابق ص 50 .

[3] الحميري : المصدر السابق ص 600.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 24 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 323 .

[5] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 42 .

[6] محمد مقر: المرجع السابق ص 80.

[7] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 360 .

[8] الحميري : المصدر السابق ص 80 .

[9] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 24 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 323 .

[10] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص 296 .

[11] نفسه ص 352 .

[12] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 45 .

ومن الصناعات المعدنية صناعة العملة و لاقت هذه الصناعة رواجا كبيرا في جبال بجاية لتوفر معدن الحديد بها الذي " تصنع به سبائك صغيرة تزن الواحدة منها نصف رطل و تستعمل كعملة ، و تضرب نقود صغيرة من الفضة وزنها أربعة حبات "[1].

الصناعة الخشبية :

عرفت أرياف المغرب الأوسط نشاطا واضحا في مجال الصناعات الخشبية ، إذ كان غنيا بالأخشاب، و إن كنا نجهل حجم النشاط في هذه الصناعة فيمكن أن نستنتج ذلك من خلال ما تنتج ، فمثلا و جدت الكثير من الطاحونات الخشبية ومن ذلك الطواحين الموجودة في هنين [2]، ومستغانم [3].

كما ورد أيضا مصطلح حطابون وهو مصطلح أطلق على سكان جبل بني ورنيد [4].

و اعتمدت صناعة الخراطة على الخشب كالمادة الأولية فصنع منها الأواني و التي كانت في غاية الحسن و الجمال[5].

كما اعتمد على الخشب في الصناعات الحربية و إذا تكلمنا عن هذا النوع من الصناعات فنحن نعرف أن بلاد المغرب كانت منطقة بها الكثير من الحروب سواء الداخلية أو الحروب الخارجية وخاصة الصراع الزياني المريني و الزياني الحفصي ، و كانت صناعة السفن من أهم الصناعات في بلاد المغرب بسبب تواجد الخطر المسيحي في حوض البحر المتوسط وبذلك كانت بجاية معروفة بانتشار صناعة الأجفان [6] ، كما وجدت بمرسى هنين دار الصنعة [7].

ومن الأسلحة الحربية التي صنعت المجانيق القاذفة للحجارة و النار ، و استخدمت هذه الأنوع من الأسلحة في نطاق حصار المدن ، و تكلم ابن خلدون عن نوع من المجانيق معروفة بقوس الزيار استعملها السلطان المريني يوسف بن يعقوب أثناء حصاره لتلمسان سنة 697هـ/1297 م

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 102 .

[2] نفسه ص 16 .

[3] نفسه ص 32 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ، ص 350 .

[4] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 44

[5] نفسه ص 35 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 360 .

[6] النميري : المصدر السابق ص 266 .

[7] خالد بن عيسى البلوي : المصدر السابق ، ج1 ص 148 .

بقوله " و نصب عليها القوس البعيدة النزع ، العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار ازدلف عليه الصناع و المهندسون لعملها و كانت توقر على أحد عشر بغلا "[1]، وما دام هذا النوع من السلاح موجود عند بني مرين فيرجح أن يكون موجودا عند بني زيان ويصنع في بلادهم ، ويرجع سبب هذا الترجيح كون الأسلحة في العصر الوسيط متشابهة في كل المناطق و كذا وجود الاحتكاك بين أقطار المغرب يرجح وجود تشابه بين الأسلحة .

و إذا كانت صناعة الأسلحة منتشرة في بلاد المغرب فإن ذلك دفع إلى بيعها و هو ما أدى بالفقيه إلى التدخل بغرض وضع الأطر لبيعها ، فعلى بائعها التحري إلى من يبيعها فلا يبيعها إلاّ لأهل الخير [2] ، يمكن الفهم من هذا الجواب الانتشار الواسع لبيع الأسلحة و حتى لمن وصف بأنه من أهل خير كان له حظ من هذا السلاح ، و ربما يرجع ذلك إلى الوضع غير المستقر في هذه الفترة و من ثم وجب عليه كسب هذا السلاح لاستعماله وقت الحاجة ، خاصة و أننا نعرف أن أهل الزوايا الذين هم في الغالب من أهل الخير من مهامهم تأمين المستجير .

صناعة الخبز و عملية الطحن :

يعد طحن الغلال من الصناعات الغذائية الرئيسية ، و كان يعمل في المطاحن و الأرحاء العديد من العمال، و لا يمكن أن نتصور قرية تخلو من مطاحن الغلال لأنها ترتبط بغذاء الإنسان .

ولجأ الطحـانون إلى الغش و الخداع و بطرق متعددة و مختلفة ومن ذلك سقي القمح بالماء والاستنثار بما يعادل وزنه قمحا ، ومنهم من يخلط سيء الحنطة بجيدها و قديمها بجديدها [3]، و ربما يكون سبب تعدد أساليب الغش فيها إلى كثرة الإقبال على تناوله في وجبات الصباح و الزوال والمساء .

و استعمل الخبز من مواد مختلفة كالقمح و الشعير و العدس و الجلبان و الذرة و الفول والحمص و اللوبيا و الأرز و البلوط و غيرها و يعتبر خبز القمح أجود الخبز [4] ، و تكون طريقة صناعة الخبز بأن يخلط دقيق الخبز بالماء الفتر و مقدار من الملح و ما يحتاج من خمير ثم يعرك جيدا ثم

---

[1] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 220 .

[2] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 191 .

[3] السقطي : المصدر السابق ص ص 24،16 .

[4] عبد العالي احمتي : المرجع السابق ص 268 .

يقرص اقراصا في منديل و يترك حتى يتخمر [1]، و قد أفردنا عنصرا خاصا بصناعة الخبز في أرياف المغرب الأوسط أثناء حديثنا عن الطعام .

صناعة الحلوى :

حاول صانعوا الحلوى في أرياف المغرب الأوسط تحويل دقيق الحبوب إلى حلوى ذات أشكال وأذواق متنوعة كالكعك المحشو بالسكر و اللوز أو بالعسل ، و عرفت هذه الأنواع بعدة أسماء منها : أقراص محشوة ، و مثردة الأميرة القطايفة العباسية ، و الزلابية و غيرها [2].

فصناعة الحلوى كانت تعتمد على الحبوب كمادة أساسية بالإضافة إلى العسل و السكر ، وتجملت موائد المواسم و الحفلات بالحلويات المختلفة و سنحاول إعطاء طريقة صناعة نوع من الحلويات فمثلا الرخامية " يحل السكر الأبيض بماء قليل و تزال رغوته على نار لينة و يدرس اللوز المقشر و يجف حتى يصير كالسميد فإذا قارب انعقاد السكر يوضع فيه مقدار ثلاثة من ذلك بعد حله بماء ورد و كافور و سنبل و قرنفل و يحرك دائما حتى ينعقد ثم يمد على رخامة مدهونة و يغطى عليه بلوح أملس مدهون حتى يصير رغيفا أملس و يقطع بسكين أقلاما رقاق أو قطعا أخرى " [3] ، و قد أورد ابن رزين التجيني أزيد من سبعة عشر نوعا من الحلوى و طريقة صنعها [4].

صناعة الزيوت :

استخدم الزيت في مجالات مختلفة من حياة الإنسان ، كالطعام و الإضاءة و صناعة الصابون و في الزينة و كدواء [5]، و تحدث الإدريسي عن استخدامات الزيت بقوله "فيخرج منه (الزيتون) دهن كثير صافي اللون عجيب المنظر ، إلا أنه ليس بعذب الطعم ، فيه أدنى حرافة ، و هذا الزيت كثير جدا ... و لكثرته يسرجون به قناديلهم ، ويقلي به الدخانيون الإسفنج في الأسواق ...و النساء يدهن رؤوسهن به على المشط فتحسن شعورهن بذلك " [6] ، ويعتبر زيت المسيلة أطيب الزيوت [7].

---

[1] التجيني :المصدر السابق ص 8،7 .

[2] نفسه ، ص ص 31 ،42 .

[3] نفسه ص 169 .

[4] نفسه ص ص 166 ،172 .

[5] عبد العالي احمتي : المرجع السابق ص 257 .

[6] المصدر السابق ص 134 .

[7] البكري : المصدر السابق ص 144 .

صناعة المشروبات :

تكتسي المشروبات مكانة مهمة في النظام الغذائي ، وهي متنوعة بتنوع مصادرها ، و قد أثارت بعض المشروبات جدلا فقهيا ألقى بضلاله على الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية ، و هو ما دفع الفقهاء إلى محاولة رفع اللبس بين ما هو محرم وما هو حلال و خاصة بين الخمور والأنبذة [1]، ولقد تكلمنا عن أهم المشروبات التي وجدت في أرياف المغرب الأوسط أثناء حديثنا عن الطعام .

المبحث الرابع :

التجارة :

من المهن التي مورست في الريف التجارة و مارسها حتى العلماء ، ومن الفقهاء الذين مارسوها الفقيه أحمد بن عمران اليانيوى البجائي الذي دخل إلى تلمسان تاجرا [2] ، و وفد على مجلس للعلم كان يؤمه أبو زيد بن الإمام و كانت للفقيه أحمد بن عمران مداخلة في الموضوع المدرس وهو ما دفع صاحب المجلس إلى السؤال عنه فلما تعرف عليه أخبر به سلطان تلمسان أبا تاشفين وهو ما دفع بالسلطان إلى إعفائه من المغارم و وظائف السلع وأكرم عليه بمائتي دينار من الذهب [3].

ومن السلع التي بيعت الحطب الذي يجلب من الغابات والجبال [4] ، و كانت هذه المهنة منتشرة منتشرة في الريف المغربي في العصر الوسيط و مورست على نطاق واسع وشملت حتى العلماء إذ مارسها العالم الفقيه أبو العباس سيدي أحمد الغماري بعد عودته من الحجاز إلى تلمسان وأخذ نفسه بطلب الحلال فخرج إلى الجبال والأراضي التي هي أراضي من غير مالك ويجعل حزم من حطب ثم يأتي بها لسوق الحطب ويبيعها هناك وإذا اشترط عليه المشتري أن يحملها له إلى منزله فعل [5]، كما جعلها العالم الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن يسول الإشبلي الذي نزل تلمسان واستقر بها مصدرا للرزق فإذا فرغ من تعليم الصبيان كان يذهب إلى الجبل ليحتطب من العزف الذي يصنع منه

---

[1] عبد العالي احمتي : المرجع السابق ص 257 .

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 34 .

[3] التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ج1 ص 90.

[4] التادلي : المصدر السابق 238.

[5] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 202.

حصرا للصلاة ويقوم بيعها ويقتات من ثمنها [1]، و اشتهر أهل جبل أغبال بأنهم حطابون يحملون حطبهم إلى وهران لبيعه كما أن سكان جبل بني ورنيد حطابون و فحامون و جنوا جراء هذه التجارة ما مقداره اثنا عشر ألف مثقال في السنة [2] و كان الحطب يحول إلى فحم و خاصة المستخرج من شجر الخروب ويباع في الأسواق و اشتهرت سكان جبال مطغرة بهذه المهنة [3] و كذا هي مهنة سكان جبل ترارة الواقع قرب هنين [4].

و اشتهر سكان بريشك بتسويق أهم صناعاتهم المتمثلة في الأقمشة و الكتان إلى أسواق الجزائر و بجاية و تونس و يجنون جراء ذلك أرباحا كثيرة [5].

و انتشرت في تنس تجارة القمح و الشعير و العسل و الشمع التي تحمل منها إلى الجزائر وغيرها من الآفاق و سبب انتشار هذا النوع من التجارة فيها كونها بلاد يكثر فيها " الزرع و الخصب والمرعى و العسل و الشمع " [6]، في حين جلبت إلى تنس من مليانة الفواكه كالبرتقال [7].

و أنتجت المناطق المحيطة بجيجل التين و الجوز الذي كان يجفف و يسوق إلى الشريط الساحلي من جيجل وصولا إلى تنس [8].

من المبيعات في الريف الصحراوي نجد بساتين النخل [9].

ومن المبيعات الحيوانات و المقصود بها هنا الحيوانات التي تخصص للعمل أو للذبح للاستفادة من لحمها ، ومن التي خصصت للعمل نذكر البغال التي كانت تباع في تلمسان بأغلى الأثمان [10] ، وكانت جبال الجزائر تقام بها أسواق تباع فيها البهائم [11] ، كما عرفت تجارة الثيران التي استعملت

---

[1] التادلي : المصدر السابق ص 238.

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 44 .

[3] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص351 .

[4] نفسه ص 352.

[5] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص33.

[6] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 354 .

[7] نفسه ص360.

[8] مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج2 ص381 .

[9] ابن البناء : المصدر السابق ص 209.

[10] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 13 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 295 .

[11] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 46 .

لغرض الحرث حيث أورد الونشريسي نازلة مفادها من اشترى ثورا للحرث فوجده جاهلا لا يحرث ، ويكون الحرث عند الثيران برؤوسها و عند البقر بأعناقها [1]،كما اشترى رجل آخر ثورا بغرض الحرث الحرث لكن ليس في وقت الحرث و لما بلغ الوقت تبين أنه لا يحرث [2] .

أما ما كان بغرض الذبح فيدخل تحت هذا النوع الأضاحي و عند كلامنا عن الأضاحي فنحن نعرف مكانة الأضحية عند المسلمين ومن ثم الانتشار الواسع لهذه السُنة [3] ، و لم تكن الأضحية هي الوسيلة الوحيدة للحصول اللحم بل تعددت طرق الحصول عليه ومن ذلك قيام جماعة بشراء بهيمة للذبح ثم يقومون بتوزيع لحمها بينهم و هذا النوع من اللحم يسمى لحم الوزيعة [4]، وجوز وجوز الفقهاء بيع البهيمة بطعام إلى أجل إذا كان البيع بغرض الذبح [5] ، و كان الجزارون في الريف يبيعون اللحم جزافا دون وزن و هي عادة متعارفة عندهم ، وقد يكون المشتري غير عارف بطريقة الكيل الجزافي ، و الجزار لا يصلي و لا يتحرى في بيعه [6] ، أما بتلمسان فالمعتاد " أن ما يبيعه الجزار من اللحم يدخل في وزنه شيئا من الكرش والمصيَّر على قدر شدة الثمن وقلته، إلا أن ذلك لا ينضبط تساويه بين جميع الناس على نسبة محفوظة من كل ثمن ومثمون، وإنما يختلف بحسب اختلاف من يُتّقى بأسه من المستضعف الذي لا ناصر له إلا الله ، فالأول يحمل القليل من الكرش، وقد لا يحمل شيئا بحسب اختلاف درجاتهم، والآخر يحمل الكثير في مصابته كرشا ومصرانا" [7].

كما انتشر بيع الغصب إذ يقوم شخص بغصب أرض مثلا ثم يقوم ببيعها لرجل يجهل أنها أرض مغتصبة[8].

الأسواق : عرفت الأرياف عدة أنواع أسواق نذكر منها :

الأسواق العسكرية : و هي الأسواق التي تتنقل مع الجيوش الغازية و تتبع سيرها و تحط رحالها أمام معسكراتها [1] ، وتحدث برنشفيك عن أسواق تنصب في الهواء الطلق بعيدا عن أي مسكن قار[2]، ربما

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 55 .

[2] البرزلي : المصدر السابق ، ج3 ص 267 .

[3] الونشريسي : المعيار ،ج6 ص 268 .

[4] نفسه ،ج5 ، ص 92 ، ج6 ، ص 125 .

[5] نفسه ، ج6 ، ص 126 .

[6] نفسه ، ج5 ، ص 96 .

[7]العقباني: المصدر السابق ص 114.

[8] البناء : المصدر السابق ص 216.

ربما يكون المقصود ببعيدا عن أي مسكن قار معناه في الأماكن التي تعسكر فيها الجيوش في تنقلاتها وتكون بعيدة عن المساكن .

الأسواق الأسبوعية : يفهم من اسمها أنها تنعقد في أيام معينة من الأسبوع ، و هذا النوع كان منتشرا في أرياف المغرب الأوسط ، ومن ذلك سوق كان يقام في إقليم بني راشد بقرية المعسكر و كان يقام يوم الخميس و يباع في هذا السوق الأسبوعي كل ما يحتاج إليه السكان الريفيين من ماشية و حبوب و زيت و الملابس و غيرها من الحاجيات [3] ، في حين ذكر مارمول كربخال أن هذا السوق كان يعقد يوم الاثنين و تباع فيه هذه البضائع [4] ، ما يمكن ملاحظته هنا هو الاختلاف في يوم انعقاد هذا السوق بين الخميس و الاثنين ، وهو ما يجعلنا نعتقد أن هناك سوق يوم الإثنين و آخر يوم الخميس و إذا كان سوقا واحد فالمرجح أنه ينعقد يوم الخميس لأن الحسن الوزان لما تحدث عنه ذكر أنه ذهب إلى هذا السوق لشراء بعض الضروريات [5]، أما مارمول كربخال فلم يذكر أنه دخل هذا السوق .

و كان هناك سوق أسبوعي يقام في زمورة كل يوم اثنين ، يكون مقصدا لسكان كل الجهات القريبة منها لتصريف بضائعهم [6] ، كما كانت تعقد في جبال قسنطينة سوقا كل أسبوع و في أيام مختلفة يكون مقصدا لعدد من تجار قسنطينة والقالة و عنابة ، غير أنه على قاصديه أن يدخلوا إليه بخفارة من أحد أهل البلاد ليكون ضامنا لهم ،إذ بدونه لا يمكن أن ينصفهم أحد إذا خدعوا [7]، و اختلف مارمول كربخال مع الحسن الوزان في هل يعقد سوق و احد أم أسواق متعدد في هذه الجبال فالحسن الوزان يقول سوق أسبوعي واحد في أيام مختلفة في حين مارمول يرى أن هناك عدة أسواق و تعقد في مناطق مختلفة من هذا الجبل ، وهنا يمكن أن نقول أن هناك أسواق في أيام متعددة و ليس سوقا واحدة في أيام متعددة ، لأنه وكما هو معروف فأيام الأسواق الأسبوعية معروفة ومقصودة من سكان

[1] إبراهيم القادري بوتشيش : إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي و تاريخه الاقتصادي و الاجتماعي ،ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 2002 ص 98 .

[2] روبار برنشفيك : المرجع السابق ، ج2 ص 245 .

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 26 .

[4] المصدر السابق ، ج2 ص324 .

[5] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص27 .

[6] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 383 .

[7] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 103 ، مارمول كربخال :المصدر السابق ج3 ص 16 .

الجبال و المناطق القريبة و التغير في الأيام قد يخلط الوضع على القاصدين إليه ، فيرجح انعقاد الأسواق في أماكن و أوقات معلومة .

كما كانت تقام في جبال الجزائر أسواق و معارض تباع فيها البهائم و الحبوب و الصوف وبعض الأنواع من الأقمشة [1] ، و في جبال زواوة تقام أسواق تقام على الدوام يباع فيها كل ما يحتاجه أهل الجبل [2]، كما يقام في ربض تيفاش سوق كل أسبوع يقصده سكان تلك الضواحي لشراء ما يحتاجون إليه من بضائع [3] ، و في ورقلة أسواق يقصدها التجار من قسنطينة إلى تونس ، يزودونها بالقمح و اللحم المالح والشحم و الأقمشة و المنسوجات و الأسلحة [4]، و كان في تيكورارين تيكورارين سوقا أسبوعية يتوافد عليها أهل المنطقة ، و من السلع التي تباع في هذا السوق لحوم الخيول و لحوم الجمال الهرمة التي عكف على بيعها التجار الأعراب ، و يرجع السبب في بيع مثل هذا النوع من اللحوم إلى الجفاف الذي تعيشه المنطقة ، و لا ننسى أنها منطقة لا تتوفر على أغنام و أبقار[5] ، و كانت تقام في قصر بلزمة سوقا أسبوعية[6].

و عرفت الأسواق تنظيما على مستوى الأمكنة و نوعية البضائع المعروضة للبيع أو حسب الحرف مثل سوق الغزل و سوق الدرازين و العطارين و سوق الحدادين و سوق الخضر و الفواكه وسوق الخرازين و الخياطين و النساجين و الصباغين [7] ، و ذكر الحسن الوزان أن قرية العباد تتوفر على مختلف الدكاكين معظمها للصباغين [8] .

ومن صفات بعض الأسواق أنه يغلب على روادها التعامل بالحرام ومن ثم وجب على من يدخلها التحري في التعامل مع هؤلاء [9] ، بل وصل الحد ببعض التجار إلى ترك صلاة الجماعة ثم ترك

---

[1] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 46 .

[2] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 373.

[3] مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج2 ص 14 .

[4] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص 136 .

[5] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص 163.

[6] الحميري : المصدر السابق ، ص103 .

[7] خالد بلعربي : الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ، مقال في مجلة كان التاريخية ، السنة الثالثة ، العدد السادس ، ديسمبر 2009 ص 33 .

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 24 .

[9] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 187.

ترك صلاة الجمعة و هو ما نبه إلية العقباني " فقلما توجد اليوم امرأة أو عبد أو وليد فوق السبع يصلي إلا نادرا ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ، ومن ذلك إهمال كثير من الناس وأهل الأسواق والحِرَف والأجراء شهود صلاة الجمعة، ... وقد ساعدهم على ذلك كثير من الخاصة والأعيان الذين يستعملونهم استكثارا لعملهم في الوقت المستحق لحضور الصلاة، وربما كان في هذا النوع من لا يصلي أصلا جمعة ولا غيرها ما دام على شغله " [1] .

و ما يمكن ملاحظته على أسواق المغرب الأوسط أنها تشبه في تنظيمها كل أسواق البلاد الإسلامية سواء من حيث أوقات انعقادها ، أو من حيث ترتيبها على حسب السلع .

العملة :

كانت المعاملة التجارية تعتمد أساسا على التعامل النقدي ، و يتمثل في الدينار الذهبي والدرهم الفضي ، و أسند السلاطين الزيانيين في المغرب الأوسط مهمة سك النقود إلى أسرة بني ملاح التي قدمت إلى تلمسان من قرطبة و كانت حرفتها سك الدنانير ، و كان يتم ذلك في دار السكة الموجودة بتلمسان ، و وزن الدنانير الزيانية يتراوح بين 4.48غ ، و 4.95غ و طول القطر بين 31ملم و 34ملم ، أما الدرهم فكان وزنه 1.5غ [2] ، و ظهرت مشكلة كبيرة في التعامل بالعملة وهي وجود العملة المزيفة و هو ما يفهم من سؤال وجه إلى الوغليسي حول مراطلة الدراهم الناقصة بالدراهم الوازنة فأجاب بأنه "جائز و إن لم يعرف مقدار نقص الدرهم إلا أن تختلف الأغراض و النَّفاق في آحادها باختلاف الكثرة و القلة " [3] ، كما ذكر القلقشندي أن هناك الدراهم القديمة و الدراهم الجديدة التي هي من الفضة الخالصة أما القديمة ففضتها مخلوطة بالنحاس [4].

وتكلمت كتب الحسبة عن ظاهرة الغش في السكة ومن ذلك ما ذكره العقباني بقوله " و أقول إن فساد سكة المسلمين و غش دراهمهم قد عم وقوعه بهذه البلاد المغربية بأسرها و لم يقع لمادة ذلك حسم و لا إزالة حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم بغلاء الأسعار في كل شيء لطي

---

[1] العقباني : المصدر السابق ص 32 .

[2] خالد بلعربي : المرجع السابق ص 34 .

[3] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 45 .

[4] المصدر السابق ، ج5 ص 114 .

العدد في المبيعات بالزيوف عن قيم العدل حتى في الأكرية و الاستئجار فإنا لله و إنا إليه راجعون "[1].

وحاول الفقهاء التدخل من أجل المحافظة على سلامة السكة و ذلك من خلال محاولة تبيان عقوبة مزور العملة وهو ما أورده الونشريسي " ومن هذا المعنى ضارب الدراهم و الدنانير المدلسة كان الشيخ الإمام ابن عرفة يشدد أقوى التشديد فيمن يتهم بضربها ، و أفتى فيمن يتهم بذلك أن يخلد في السجن حتى يموت " [2].

ما يلاحظ على هذه الفتوى التي صدرت عن فقيه تونسي عاش في فترة الدراسة أنها فتوى عامة لكل بلاد المغرب و السبب الذي دفعنا إلى القول بذلك كون الكثير من الأسئلة تكون غير محددة بالمكان و لا بالزمان وهناك من النوازل من وقعت في المغرب الأقصى وسئل عنها فقهاء المغرب الأوسط و المغرب الأدنى و العكس ، ومن جهة أخرى فالملاحظ على الفتوى أنها جاءت صارمة وفرضت عقوبة السجن مدى الحياة على المزور و السبب يرجع إلى كون ذلك يجمع أكثر من جريمة تحت هذا الغطاء ومن ذلك الغش و التدليس و أكل أموال الناس بالباطل ، وكذا الضرر الاقتصادي الذي يلحق الدولة .

ولم يكن التعامل النقدي موجودا لوحده في الأرياف و خاصة عند الفقراء المحتاجين في سنين الجفاف و ذلك " أنهم يحتاجون في سنين إلى الأقوات من الطعام و يشترونه بالدين إلى الحصاد ، فإذا حل الأجل قالوا لغرمائهم ما عندنا إلا الطعام و لا نقدر على الذهب ، و ربما كانوا صادقين في ذلك فيلتجئ أرباب الديون إلى أخذه منهم خوفا إن تركوه في أيديهم أن يذهب منهم بالأكل و غيره لفقرهم و لاضطرار من كان من أرباب الديون حضريا من الرجوع إلى حاضرته و لعدم الحكام منا أيضا مع ما في المذهب من ذلك من الرخصة إن لم يكن في ذلك شرطا و لا عادة " [3].

الأسعار :

عرفت أرياف المغرب الأوسط اختلافا في الأسعار بين فترة و أخرى و المقصود بالفترة هنا وقت الرخاء و وقت الشدة ، ففي أوقات الرخاء تكون الأسعار منخفضة و ترتفع في أوقات الشدة كالمجاعات و الزلازل و الحروب و غيرها من الظروف الاستثنائية .

[1] العقباني : المصدر السابق ص 105 .
[2] الونشريسي : المعيار ، ج2 ص 414 .
[3] المصدر نفسه ، ج6 ص 308 .

أوقات الرخاء : بعد رفع الحصار عن تلمسان من قبل بني مرين في سنة 706هـ/1306م " ففي ساعة واحدة بيع عندهم القمح ثمانية صيعان بثمن دينار ، و الشعير ستة عشر صاعا بثمن دينار "[1].

أوقات الشدة : ومن أسعار وقت الشدة أنه في أيام الحصار الأكبر لتلمسان ارتفع ثمن القمح إلى دينارين و ربع دينار للصاع في حين ثمن صاع الشعير كان نصف هذا الثمن[2] ، و ثمن الرأس من البقر ستين مثقالا و رأس الضأن بسبع مثاقيل و نصف ، و الدجاجة بستة عشر درهما وأوقية الشحم بعشرين درهما[3]، و رطل اللحم بدينارين[4] و بيعت أوقية الزيت باثني عشر درهما و هو نفس سعر أوقية السمن ، و أوقية القمح بعشر دراهم ، و ثمن الكرنب بثلاثة أثمان للمثقال و الفول بعشرين درهما و الخس بعشرين درهما و اللفت بخمسة عشر درهما و القثاء بأربعين درهما و الخيار بثلاثة أثمان الدينار و البطيخ بثلاثون درهما و الحبة الواحدة من التين و الإيجاص بدرهمين[5] .

و في أيام المجاعة التي ضربت بلاد المغرب سنة 693هـ/1293 م وصل ثمن المد الواحد من القمح عشرة دراهم ، و ستة أواقي من الدقيق بدرهم[6].

من خلال عرضنا للأسعار نلاحظ أن هناك تباين واضح و جلي بين أسعار أوقات الرخاء وأسعار أوقات الشدة ، و هو ما يمكن ملاحظته على عرض يحي بن خلدون فقد تكلم عن أسعار وقت الحصار و عن رفعه مباشرة و كيف كان هبوطا حادا للأسعار.

المكايل و الموازين :

استخدمت في التجارة المكاييل الموازين و من المكاييل الصاع المتداول في الأسواق للكيل فكان يسمى بـ"الوهراني" الذي عوض الصاع السابق المعروف بـ"التاشفيني"[7] ، كما استخدم أيضا االقفيز وهو 16 ويبة ، و كل ويبة تساوي اثنا عشر مدا قرويا و يقارب المد النبوي أي حولي 192 مدا[8] ،

---

[1] يحي ابن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 211 .

[2] نفسه ، ج1 ص 211 ، ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 222 .

[3] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 96 .

[4] التنسي : المصدر السابق ص 132 .

[5] ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 96 .

[6] ابن أبي زرع : الروض القرطاس ص 409 .

[7] العقباني : المصدر السابق ص 105.

[8] القلقشندي : المصدر السابق ،ج5 ص 114 .

و استعملت الصفحة وهي تقارب 12 مدا حفصيا ، و اثنا عشر مدا قرويا تساوي ثمانية أمداد حفصية [1] ، كما استخدم مكيال يكال به القمح يسمى البرشالة و يساوي هذا المقدار اثنا عشر رطلا و نصف [2] ، أما الموازين المستعملة فهناك الرطل و زنته ستة عشر أوقية [3] ، و كل أوقية تعادل تعادل 4.5 غ [4] ، واستخدم القنطار الذي يعادل 50.8كلغ [5] ، ومن الموازين المثقال [6] و هو يعادل يعادل 72 حبة شعير[7] ، وهناك ميزان يعرف بيسطوليس [8] ، غير أننا نجهل قيمة هذا الميزان .

أما المناطق التي لا سوق فيها و بينها و بين الأرض التي فيها سوق مسافة بعيدة فطرق التعامل فيها كان دون وزن ولا كيل و إنما يكون جزافا ، و أجاز الفقيه الوغليسي هذا التعامل انطلاقا من العرف الذي تعارف عليه أهل المنطقة شرط " إذا عرفوا في الجزاف المقادير التي تزيد الأثمان بزيادتها أو تنقص بنقصها " [9] .

الحسبة :

وهي "من أشرف الولايات في الإسلام قدرا وأعظمها في هذه الملة المحمدية مكانة وفخرا " [10]، و عرفتها كتب الأحكام السلطانية بأنها " الأمر بالمعروف إن ظهر تركه و نهي عن المنكر إن ظهر فعله و الإصلاح بين الناس " [11].

---

[1] القلقشندي : المصدر نفسه ،ج5 ص 114 .

[2] ابن خلدون : العبر ،ج7 ص 96 .

[3] القلقشندي : المصدر السابق ،ج5 ص 114 .

[4] خالد بلعربي : المرجع السابق ص 35 .

[5] الحسن الوزان : المصدر السابق ، ج1 ص 24 ، خالد بعربي : المرجع السابق ص 35 .

[6] الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2 ص 28 .

[7] خالد بلعربي : المرجع السابق ص 35 .

[8] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 325 .

[9] الونشريسي : المعيار ، ج5 ص ص 89 ، 91 .

[10] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج5 ص 176 .

[11] الماوردي : كتاب الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ، تح سمير مصطفى رباب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2001 ص 260 ، ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، نقل و تصحيح روين ليوى ، مطبعة دار الفنون ، كيمبرج ، 1937 ص 07 ، الونشريسي : كتاب الولايات و المناصب الحكومية الإسلامية و الخطط الشرعية ، نشر و تعليق محمد الأمين بلغيث ، مطبعة لافوميك ص 28 .

و عرف المحتسب بصاحب السوق لأن أكثر نظره كان يتم في الأسواق من غش و خديعة وتفقد المكايل و الموازين [1] ، وبقدر ما تعددت الأنشطة التجارية بأسواق بلاد المغرب خلال هذه الفترة، تباينت معه أشكال التزييف و تعددت معه طرق الغش و التدليس التي سعى المحتسب لمحاربتها "كتلقي السلع بظاهر البلد أو ببعض الأخصاص فيشتريها المتلقي بما يطلبه من الاسترخاص، وليس له بها شرعا دون غيره من المسلمين اختصاص ، أو كبيع الحاضر للبادي لإضاعة رزق الحاضر من البدوي" [2]. والنجش وهو أن البعض كان يعطي للبائع في السلعة أكثر من ثمنها وليس في نيته شراؤها للإيقاع بغيره[3]، والتلاعب في الموازين والمكاييل تطفيفا بها ونقصا من معتادها كأن يجعل بعضهم " الجص في قاع المكيال ويكون له ميزانان للدراهم يأخذ بميزان ويعطي بآخر، وصنجتان يبيع بواحدة ويشتري بأخرى " [4] ، والأشد من ذلك هو ما عرفته النقود من تدليس و كان له أثر على حركة الأسواق فتضخمت أسعار السلع والكراء و ذلك أن " فساد سكة المسلمين وغش دراهمهم قد عَمَّ وقوعه بهذه البلاد المغربية بأسرها، ولم يقع لمادة ذلك حسم ولا إزالة حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم بغلاء الأسعار في كل شيء ، لطي العدد في المبيعات بالزيوف عن قيم العدل حتى في الأكرية والاستيجار "[5].

كما تعرضت المواد الغذائية لأنواع الغش ومن ذلك " عدم غربلة القمح والشعير وجميع القطاني مما يمكن فيها من الغَلَث، لأن بقاءها من الغش الذي يزداد للبائع في كمية المبيع "[6] ، أما التين الأخضر فكان يباع إما بالعَدِّ، وإما أن يقوم الباعة بـ" تعبئة التين والعنب في القراطل والسلال فأعلاه خير من أسفله ووسطه، ولكنه قريب من المناسبة بعضه من بعض وأهل الأسواق يعرفون ذلك " [7].

ومن أوجه الغش الشائعة يومئذ أيضا " خلط العصير بالماء وخلط اللحم السمين بالمهزول ونفخ اللحم وخلط الألبان والزبد وخلط الجيد بالرديء من السلع ، كما في الند والزعفران والأبزار

---

[1] الونشريسي : المصدر نفسه ، ص 28 ، المعيار ، ج10 ، ص 77.

[2] العقباني : المصدر السابق ، ص 88 .

[3] نفسه، ص 95.

[4] نفسه ص 101.

[5] نفسه ص 105

[6] العقباني : المصدر نفسه ، ص 107.

[7] نفسه ، ص 110. البرزلي: المصدر السابق ، ج3، ص 184.

والتوابل والمسك وغيره من الطيوب، والغش في وزن الخبز وفي طبخه وجودة دقيقه، وأول ما يبدأ الغش في الأرحاء عند طحن القمح، كما كانوا يقومون بنقش الثمَرة وتغميمها قبل استحكام نضجها لتعجيل طيبها بذلك "[1] .

في حين استغل بعض التجار ظروف الجفاف والمجاعات في بعض السنوات، فاحتكروا السلع بغية الرفع من أسعارها [2]، وخلال ظروف المطر يتحايلون على الممونين والمستهلكين للتلاعب بالثمن، مما دفع بعض الفقهاء إلى الإفتاء بالتسعير خلال هذه المرحلة ففي نظرهم " يتعين أن يكون التسعير على أهل الأسواق في هذا الزمان متفقا عليه، وتفقدهم في كل لحظة فضلا عن كل يوم لازم بما دانوا به من جميع المحظورات في البيع والابتياع ، ومن أخبث شرورهم وأشنع مرتكبات محذورهم أن الجالب إذا أدركه سبب تعذر، ولو من وابل مطر أو شدة وحل، فإنهم يعدون ذلك عذرا لخلاء السوق من المطعومات وغيرها إظهارا منهم لفراغ ما بأيديهم من ذلك، لتعذر جلب الجالبين ومخازنهم به ملأى، وما ذلك إلا من ترصدهم الحطيطة في السعر لا من إخلاء الأسواق، فإذا حط لهم منه أوقية أخرجوا مختزنهم وباعوا منه الكثير مبادرة على إتيان المجلوب فيرخص ما بأيديهم "[3] .

و كانت أسواق الأرياف تتبع أسواق المدن في أسعارها ،و هو ما أجازه بعض العلماء دون البعض الآخر [4]، و كانت تسمية المحتسب في الأرياف تعرف بالأمناء (جمع أمين) و إن كان هناك إختلاف في التسمية فإن المهام لا تختلف [5].

ولم تكن مهمة المحتسب هذه دون أن تخلف صدام بين البائع و المشتري و يحدث هذا خاصة إذا ظهرت بعض العيوب في السلعة ، و تكلم الونشريسي عن العيوب في السلع التجارية سواء عيوب العبيد أو عيوب الدواب أو عيوب الدور و العروض [6] .

و مادام هناك عيوب وجدت مشاكل حول على من تكون أجرة نقل المردود بعيب فإذا كان البائع مدلسا فعليه النقل و إن لم يعلم البائع بذلك فعلى المشتري النقل و على البائع الرد [1].

---

[1] العقباني: المصدر نفسه ، ص ص 109، 121.

[2] نفسه ، ص 130.

[3] نفسه ، ص 135 .

[4] الونشريسي : المعيار ، ج6 ص 409 .

[5] بوبة مجاني : دراسات إسماعيلية ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2002 ،2003 ص 67،66 .

[6] الونشريسي : المعيار ،ج6 ص ص 51،48 .

إذا كان هذا حال التجارة الداخلية فإن بلاد المغرب عرفت التجارة الخارجية و التي تنوعت فيها السلع المتاجر بها وكذا المناطق التي عرفت هذا النوع من التجارة ومن المناطق التي اعتبرت سوقا خارجية ذكر الحسن الوزان هنين و قال " تأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن شراعية من البندقية تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان ... فطلب منهم أهل تلمسان أن يأتوا إلى هنين ... كنت مع أحد كتاب ملك تلمسان جاء لاستلام ضرائب من سفينة جنوية حملت من البضائع ما يمون تلمسان لمدة خمس سنوات ، و بلغت قيمة الرسوم التي قبضها الملك خمسة عشر ألف مثقال ذهبا مسكوكا أرانيها الكاتب "[2]، كما كان بمستغانم ميناء تجاري صغير تقصده السفن الأوربية غير أنهم لا يحققون الكثير من الربح نتيجة للفقر المدقع الذين كان عليه أهلها [3] ، و كان أهل المدية من التجار الأثرياء واشتهروا بتجارتهم مع نوميديا [4]، في حين اشتهر تجار جبل زاتمة ببيعهم الشعير و الماعز و العسل و الشمع إلى تجار أوربا [5]، و تعامل سكان جبل بني بوسعيد مع التجار الأوربيين و باعوا لهم الشمع و الجلود [6]، ويعتبر سكان القل من التجار " كانت تجارتهم رابحة لأنهم يجنون من جبالهم الكثير من الشمع ، ويمتلكون كمية عظيمة من الجلود يبادلون بها البضائع التي يحملها أهل جنوة إلى مينائهم " [7] ، و لم يختلف حال أهل سكيكدة عن أهل القل إذ كانوا يتعاملون تجاريا مع التجار الجنويين فيبيعون لهم القمح مقابل الأقمشة [8].

كما اشتهر سكان فكيك بتجارتهم مع بلاد السودان [9]، و اشتغل أهل ميزاب في التجارة وذلك " بما حباهم به الله من ذكاء في التجارة ، و مهارة في المعاملات مع أهل السودان ، ذلك ما أهلهم للقيام بدور الوساطة بين تجارة مملكة بجاية و الجزائر من جهة ، و تجار السودان من جهة أخرى ، و تتبوأ المزاب مكانة هامة إذ أن موقعها جعل منها ممرا للقوافل التجارية في الاتجاهين ،

---

[1] نفسه ،ج6 ص 57.

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 16،15.

[3] نفسه ص 32 .

[4] نفسه ص41

[5] مارمول كربخال : المصدر السابق ،ج2 ص360 .

[6] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 45.

[7] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 54 ، مارمول كربخال : المصدر السابق ، ج3 ص06.

[8] الحسن الوزان : المصدر نفسه ،ج2 ص 55 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 07.

[9] الحسن الوزان : المصدر نفسه ، ج2ص 132 .مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 162 .

فيقف بها أصحاب البضائع و يؤدون المكوس الجمركية عما تحمله جمالهم " [1] ، و اشتغل أهل تيكورارين بالتجارة الخارجية وهو ما جعل منهم أغنياء ، فكانوا ينقلون سلعهم إلى بلاد السودان ، كما كانت بلادهم محطة للقوافل التجارية القادمة من بلاد البربر و ينتظرون تجار بلاد السودان ليدخلوا معهم إليها [2].

مداخيل التجارة :

اختلفت المداخيل التجارية من منطقة إلى أخرى فكانت مداخيل البطحاء تقدر بعشرين ألف مثقال في السنة [3] ، في حين كانت مداخيل المعسكر ألف بيسطلوليس في السنة [4]، و بلغ خراج ميلة ميلة زهاء أربعة آلاف دينار في العام [5].

من خلال دراستنا للتجارة يمكن القول أنها كانت متنوعة بتنوع أقاليم المغرب الأوسط ، كما أنها شملت تقريبا كل البلاد ، و حال التجارة في أرياف المغرب الأوسط لم يختلف عن غيرها من أقطار المغرب و كل العالم الإسلامي من حيث انتشار عملات مغشوشة وهو ما نبهت إليه كل كتب الحسبة ، ككتاب العقباني و الذي يعتبر معاصرا لفترة الدراسة ، كما وجد أيضا الغش و التدليس في السلع و هو ما خلّف الكثير من الصراعات بين البائع و المشتري و أدت إلى تدخل القاضي للحكم في هذه النزاعات و قبله تدخل المحتسب لمحاربة مثل هذه التصرفات من البائع .

الفصل الرابع :

مساهمة الريف في الحياة الثقافية :

---

[1] مارمول كربخال : المصدر نفسه ، ج3 ص 164 .

[2] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 133 ، مارمول كربخال : المصدر نفسه ،ج3 ص 163 .

[3] الحسن الوزان :المصدر نفسه ،ج2 ص 28 .

[4] مارمول كربخال :المصدر السابق ، ج2 ص 325 .

[5] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص 60 .

تعتبر فترة الدراسة (القرن 7-10هـ / 13-16م) من الفترات التي عرفت هزات سياسية عديدة بسبب الصراع الزياني المريني و الزياني الحفصي و كذا الثورات التي شهدها المغرب الأوسط على الحكم الزياني وما خلفته هذه الأحداث من نتائج سلبية على الأرياف ، لكن ما يمكن قوله هو أن الحياة الثقافية والتقدم الفكري لم يتأثر تأثرا بالغا بهذا الوضع ، بدليل استمرار الأنشطة الفكرية والتعليم الديني وحتى التنافس بين المتنافسين سياسيا وعسكريا حول خدمة الجانب العلمي والفكري .

إذ عمد المرينيون إلى بناء المساجد كمسجد العباد ثم بناء مدرسة بالقرب منه[1]، وكذا تمجيد العلماء من الطرفين المتصارعين (الزيانيين و المرينيين)، فمثلا لما وقع المغرب الأوسط عدا تلمسان المحاصرة تحت حكم بني مرين (735-749هـ/1335-1348م) تبوأ ابنا الإمام أبو زيد و أبو موسى مكانة مرموقة ولما عادت البلاد إلى حكم بني عبد الواد أوصى الحاكم المريني بني عبد الواد خيرا بالفقيهين وهو ما كان لهما فنالا شرفا كبيرا توج ببناء مدرسة لهما [2] .

ومن أسباب عدم التأثر البالغ أيضا محاولة علماء المغرب مواجهة تلك الأزمات والوقوف في وجهها وذلك بتوظيف طاقاتهم العلمية لأجل فهم الأزمة تمهيدا لرفعها أو على الأقل التخفيف من وقعها [3]، ومن ذلك محاولة درء بعض التصورات التي علقت بالتفكير ومحاولة تفسيرها تفسيرا غيبيا إذ فُسر حدوث الطاعون ب " فإذا ظهرت الخوارج واشتدت الفتنة فحق ظهور الغلاء لأنه ملازم لها ، وإذا كان الغلاء وطال و اشتدت أسبابه لزم عنه الوباء ، وهو علم صحيح وقانون مطرد لا يحتاج إلى تعديل ولا نظر في النجوم " [4] ، و حاول بعض العلماء تفسير هذا الوباء تفسيرا علميا إذ أورد ابن هيدور نظرة هؤلاء العلماء بنوع من التهكم بقوله " يزعمون أن تغير الهواء يكون من تغيير الفصول ، ويكون سبب فساده أيضا الأبخرة المتعفنة الصاعدة من الأرض، وذلك أنها ترتفع أبخرة فاسدة متعفنة من السباخ و من البطايح المتغير الهواء و الأوخام و التربة الراكدة في الهواء ، و أقذار الناس وفضلاتهم ، وجيف القتلى في الملاحم الوخيمة والدواب التي طالها الموتان ، ونحو ذلك من ما يحدث البخارات

---

[1] إبراهيم حركات :الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب ، مقال في مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة ص 185-186.

[2] جورج مارسي :المرجع السابق ص 52.

[3] عبد المجيد الصغير : الفرج بعد الشدة ، مقال في الفكر العلمي في المغرب العصر الوسيط المتأخر، تنسيق بناصر البعزاتي ط1 ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء المغرب ، 2003 ص 70.

[4] ابن هيدور : المصدر السابق ص 4.

المتعفنة فيتغير الهواء عنها ويتعفن ، ويحدث عنها الوباء " [1]، و على العموم فإن الوضع السياسي كان مثبطا أمام التحصيل العلمي لكن نقول ببعض التحفظ استطاع العلماء تجاوز الوضع و سعوا إلى البحث عن سبل تطويره على حسب ما هو متوفر ومحاولة إضافة بعض الإبداعات الشخصية .

كان التعليم منتشرا في كل أرياف المغرب الأوسط تقريبا وتكون البداية بتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ثم في المرحلة الثانية يدرس النحو واللغة والأدب والفقه ، ومن أراد مواصلة التحصيل العلمي ينتقل إلى دراسة العلوم الدينية كالقراءات و التفسير والتوحيد و العلوم العقلية والاجتماعية [2]، ويرجع التدرج في التعليم كون الكثير من الريفيين كانوا يعيشون الجهل ، فسكان جبال قسنطينة لا يوجد بينهم من يعرف القراءة و إذا أراد إنسان" قراءة رسالة فعليه البحث عمن يقرؤها له على بعد اثني عشر ميلا أو خمسة عشر ميلا " [3]، و ما يفهم من هذا الكلام أن حتى من كان يقرأ ويكتب كان مجهولا و ليس معروفا عند العامة ربما لأنها لم تكن في نظرهم لها أهمية ،كما أن مسافة اثني عشر أو خمسة عشر ميل دليل على المشقة في العثور عن الذي يعرف القراءة و الكتابة.

المبحث الأول : المؤسسات التعليمية في الريف :

تعتبر المؤسسات التعليمية هي عصب الحياة العلمية إذ بتعدد هذه المؤسسات يمكن إيجاد مناخ خصب لنمو نهضة علمية ، و بانعدامها أو إزالتها يضعف التحصيل العلمي ، ففي الريف المغربي تعددت المؤسسات العلمية ومن أبرزها :

1/ الربط و الزوايا :

قبل الحديث عن الزوايا يمكن أولا أن نشير إلى أن الرباط في بلاد المغرب كان له ظهور قبل ظهور الزوايا ويعتبر رباط المنستير أول رباط نشأ في بلاد المغرب [4] ، و كان لنظام الربط تأثير ثقافي وعلمي وفكري وسياسي في بداية عهد المرابطين الذي انتسبوا إلى الرباط.

والرباط مهمته "احتباس النفس في الجهاد و الحراسة وعند المتصوفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة " [1]، فمهمة الرباط كانت حماية الثغور و التعبد .

---

[1] ابن هيدور : المصدر نفسه ص 2،3 .

[2] عبد الحميد حاجيات :الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان ، مقال في مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة ص 138 ، علي الإدريسي :المرجع السابق ص21.

[3] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص104.

[4] البكري ، المصدر السابق ص 36.

و حلت الزوايا محل الرباط ولا يمكن بأي حال من الأحوال إعطاء تاريخ دقيق لظهور الزوايا في بلاد المغرب ، لكن يمكن القول إن أواخر عصر الموحدين شهد بداية أفول دور الربط وذلك بسبب تقهقر قوى الإسلام في الأندلس ، ومن ثم بدأ يحل محلها نظام الزوايا الذي هو نوع من الحصانة للنفس للتشبث بالعقيدة بعد الفشل في الحفاظ على الأرض[2].

و كانت الزاوية في بداية ظهورها تحمل معنى الربط على حسب ابن مرزوق " وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الربط و الخوانق ،و الخانقات علم على الربط و هو لفظ أعجمي " [3] ، ثم يقول "و الظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين ، و أما الربط على ما هو المصطلح عليه في المشرق فلم أر في المغرب على سبيلها و نمطها إلا رباط سيدي أبي محمد صالح و الزواية المنسوبة لسيدنا أبي زكرياء يحي بن عمر " [4].

ما يمكن ملاحظته هنا أن الربط و الزاوية يتشابهان إلى حد كبير و الفرق بينهما أن الربط ظهر استعماله في القرون الأولى للتواجد الإسلامي حتى عهد الموحدين في حين ظهر مصطلح الزاوية أواخر عصر الموحدين و في بلاد المغرب مصطلح الزاوية أكثر انتشارا من مصطلح الربط الذي كان انتشاره في المشرق أكثر ، غير أنه في منتصف القرن الخامس الهجري نال مصطلح الرباط مكانة كبيرة عند المغاربة و من ثم أخذت الدولة المرابطية تسميتها من الرباط الذي أنشأه عبد الله بن ياسين .

واستمدت الزوايا تمويلها من وقف الأوقاف على الزوايا ، و هي ظاهرة منتشرة ومست الزوايا الموجودة في أرياف المغرب الأوسط و التابعة للحفصيين ومن ذلك ما أصدره لزاوية قجال الأمير أبي يحي زكريا [5] لكن لماذا كانت باسم الأمير ولم تكن باسم السلطان الحفصي الحاكم حينها –وهو حسب المصادر أبي عمرو عثمان الذي حكم من سنة 839 هـ/ 1435م إلى أن توفي سنة 893 هـ/ 1487م [6] ، فذلك بديهي بحكم أن زاوية قجال هي زاوية ريفية تقرب من قسنطينة وهو ما يجعل من أمراء هذه الأخيرة– والأمير أبو يحي واحد منهم حسبما يبدو– أكثر اطلاعا على أوضاعها

---

[1] ابن مرزوق : المسند الحسن ص 411 .

[2] علي الإدريسي : المرجع السابق ص18.

[3] ابن مرزوق :المسند الحسن ص 411.

[4] نفسه ص 413.

[5] أنظر المخطوطة في الملحق رقم

[6]– ابن أبي دينار القيرواني : المصدر السابق ص 141

من السلطان الحفصي في تونس، وقد حكم أبو يحي زكريا ثلاث سنوات ونصف وتوفي سنة 899 هـ / 1493م، بوباء الطاعون الذي فتك بالبلاد ، ونجهل كما قال برونشفيك ما جرى في عهد هذا السلطان وكل ما وصل إلينا من أخبار يتمثل في قيامه بترميم جزئي لزاويتي وليين من الأولياء الصالحين لعلهما محرز بن خلف وأحمد بن عروس[1].

يضاف إلى هذا أن زاوية قجال كانت تحظى باهتمام السلطة الحفصية، و أكدت الحوادث التاريخية فيما بعد على هذه الأهمية[2] ، فهي كانت قرب سطيف التي كانت منتجعا صيفيا لعرب الذواودة ، كما كانت تقيم بالقرب منها قبيلة بني يوسف البربرية التي سمي على اسمها الجبل المعروف حاليا بجبل يوسف [3]، وإضافة إلى ذلك كانت قجال تقع في الطريق الرابط بين سطيف والأوراس حيث تجمّع أقوى القبائل والبوابة الرئيسية لإقليم الزاب، وكل هذه العوامل جعلتها محل استقطاب من السلطة والجماعات القبلية والعلماء .

و تمتعت الزاوية منذ فترة مبكرة بظهائر أميرية تحمي أوقافها وتصونها حيث يعود تاريخ أوقاف الزاوية إلى القرن الخامس الهجري، وهو ما تؤكده وثيقة وقفية في الزاوية تعود لسنة 1233 هـ/ 1817م مما جاء فيها " ...حامله السيد محمد الصحراوي بيده أراضي قطعت له من أمراء القرن الخامس تمليكا وحبست عليهم حبسا على أعقابهم وأعقاب أعقابهم ..."[4]

---

[1] - Robert Brunshvig : Un calife hafside méconnu,revue tunisienne 1930 , p 38-40.

[2] يوضّح مخطوط "عنوان الأخبار فيما مر على بجاية" للشيخ أبي علي المريني والذي ترجمه فيرو أن منطقة قجال قد جرت فيها سنة 915 هـ / 1509 م معركة بين الأمير أبو فارس بن السلطان عبد العزيز الذي نصب محلته بها وبين عدد من القبائل العربية مثل دريد التي انضوت تحت سلطة أبي بكر أخ السلطان عبد العزيز وقام هؤلاء بمهاجمة محلة أبي فارس لكن هذا الأخير قاوم ببسالة وأجبرهم على الانسحاب بإلحاق خسائر كبيرة في بني عياد والمسايد ومن كان إلى جانبهم وبعد انتصاره في قجال توجه أبو فارس إلى قسنطينة ، أنظر :

Feraud : Conquête de Bougie par les Espagnoles d'après un manuscrit arabe , revue africaine ,vol 12 (1868) OPU Alger 1985 ,p 251.

ومن المعروف أيضا أن العالم المتصوف عبد الرحمن الأخضري قد توفي سنة 953 هـ / 1546 م بقجال التي كان يزورها كل فصل صيف ، أنظر: عمار طالبي : عبد الرحمن الأخضري حياته وأعماله ، مجلة العلوم الإسلامية السنة الثانية ، ع 2 ، رمضان 1407 / ماي 1987 م ص 147.

[3]Cherbonneau : La Faresiade ou le commencement de la dynastie des Beni hafss : quatrieme extrait, traduit en français et accompagnée de notes , Journal asiatique 1852, p 239

[4]Louis Massignon : Opcit , p83.

ونظرا لهذه المكانة المعتبرة للأولياء والصلحاء سعت السلطة الحاكمة إلى التقرب من هؤلاء والاعتراف بدورهم الاجتماعي والتربوي من خلال الزوايا التي أقاموها ونشأت علاقة مصلحية بين السلطة الحاكمة والأولياء تمثلت في ضمان الأولى أي السلطة الحاكمة لأمن وسلامة وحصانة مؤسسة الزاوية عبر حماية أوقافها من كل معتد، وقيام الثانية أي فئة الأولياء والصلحاء بتوفير السند الشرعي لحكم السلاطين عبر التأثير في الناس بشكل يجعلهم ينقادون للحاكم ويحذّرهم من كل فتنة قد تزعزع أركان الدولة وتفرّق جماعة المسلمين.

ووجد الطرفان في هذا الميثاق خدمة لمصالحهما، فالسلطة الحفصية وجدت نفسها وخصوصا ابتداء من القرن 8 هـ / 14 م في مواجهة تنامي سلطة القبائل التي بدأت تشكّل مشيخات وإمارات هامة أهمها مشيخة الذواودة ، كما أن كثرة الاضطرابات في أقاليم الدولة جعل السلطة المركزية تحاول التحالف مع طرف مؤثر وفعال في المجتمع ولم تجد أفضل من الصلحاء والأولياء للقيام بهذا الدور [1] .

ومن جهتهم فإن الصلحاء والأولياء كانوا بحاجة لسيف يحمي سلطتهم ونفوذهم الديني ومنافعهم الدنيوية المتمثلة في أوقاف الزوايا وما تدره عليهم من خيرات ولم يكن أمامهم أقوى من سيف السلطان .[2]

ومن الزوايا الموجودة زاوية توجد بظاهر مدينة تلمسان في سند الجبل وتعرف بالعباد وهو مكان مدفن الصالحين وأهل الخير وبه الكثير من المزارات ، ومن أشهر هذه المزارات قبر الشيخ أبو مدين وعلى هذا القبر رباط مليح مقصود [3] ، و تكلم البلوي عن زيارته لقبر أبي مدين " ثم زرت قبر ولي الله تعالى أبي مدين مرة أولى وثانية ، وأقمت بالمحلة أياما ثمانية "[4] ، ما يمكن أن استخلصه من كلام البلوي أن هذه الزاوية كان بها مكان للمبيت والأكل وهو ما تؤكده المدة الزمنية التي قضاها في هذه الزاوية .

و عن أسباب بناء هذه الزاوية في هذا المكان فتعددت الآراء حولها ، أجملها ابن قنفد بقول مما جاء فيه أن أبا مدين شعيب ارتحل وهو شيخ كبير من بجاية قاصدا بلاد المغرب حتى وصل إلى هذه

---

[1] نيللي سلامة العامري : الولاية والمجتمع : مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي ، دار الفارابي . بيروت ، ط 1، 2001 ص 260.

[2] لطفي عيسى : أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ ، دار سراس للنشر، تونس 1993 ص 46

[3] العبدري : المصدر السابق ص 48،49.

[4] البلوي : المصدر السابق ص 151.

المنطقة فسأل عنها فقالوا له يقال لها العباد فقال مليح للرقاد ، في حين قال بعضهم " لا بأس بالنوم في هذا المكان " وهناك من قال أنه توفي ب " يسر"وهو واد قريب من تلمسان وحمل إلى العباد، و أقيمت الزاوية على ضريح هذا الولي الصالح [1]، و وضع هذا الرباط في مكان متميز ومحاط بكروم وأنواع من الثمار ، ثم عمر و أصبح قرية بها حمامات نظيفة [2]، ما يمكن استخلاصه أن هذه الزاوية بنيت بعد وفاة بومدين شعيب و يرجع سبب بنائها إلى المكانة التي كان يتبؤها عند سكان بلاد المغرب فإكراما له بنها أهل تلك المنطقة .

ومن الزوايا زاوية الشيخ إبراهيم التازي و نسبت إليه لأنه هو من أقامها في وهران ، وأقام بها مكانا لترديد الأذكار وعمل على تبيان معالم الإسلام الحقة ، وترتيب الأحكام الشرعية والتنبيه إلى الآداب الدينية والدنيوية ، ونقل أهلها من البداوة إلى الحضارة وبذلك بدأت وهران تتحول من بادية إلى حاضرة نتيجة عظمة العمارة فيها ، وكانت هذه الزاوية مقصدا للزوار من الشرق والغرب ، ومن الأمور التي درست في هذه الزاوية قراءة كتاب الشيخ سيدي أحمد الهواري وتقرأ بلفظه ويقوم الشيخ بتفسيرها ،و أثناء ذلك يقومون بالدعاء للشيخ ويطلبون بركته (نعني الشيخ محمد الهواري) وذلك عملا بالأحاديث المرغبة في شكر من أسدى لك معروفا وخيرا ، ومن الأحاديث الحاثة على ذلك ما رواه النعمان بن بشير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم يشكر الله ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، والتحدث بنعم الله شكرها وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب ، وما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة قال لعبد من عباده كان اصطنع إليه عبد من عباده معروفا وهل شكرته فيقول أي ربي علمت أن ذلك منك فشكرتك عليه فيقول تعالى لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يديه [3].

و وجدت زاوية أخرى تعرف بزاوية منصور بن عمر الديلمي و من مهام هذه الزاوية بالإضافة إلى التعليم تأمين المسافرين على أموالهم و أنفسهم [4] ، و إن كانت المعلومات عن هذه الزاوية قليلة

---

[1] ابن قنفد القسنطيني : أنس الفقير ، ص 147.

[2] العبدري :المصدر السابق ، ص 48-49.

[3] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ، ص 152 ، و قد بحثت عن هذين الحديثين في مسانيد الحديث المعروفة غير أني لم أعثر عليها .

[4] ابن مريم : المصدر السابق ص 235 .

فيمكن أن نستنتج أنها نسبت إلى شخصية منصور بن عمر الديلمي و كانت مهمتها لا تختلف عن مهام الزوايا الأخرى غير أنها استأثرت بتأمين المسافرين على أموالهم و أنفسهم و ما يفهم من هذا أنها وجدت زمن انعدام الأمن و أنها كانت قبلة لعابري السبيل .

و كانت في بجاية زاوية أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي وكانت هذه الزواية مكانا للمذاكرة و المحاورة و أيضا لطلب بركات الشيخ وكانوا يخدمون أنفسهم بأنفسهم في هذه الزاوية [1] ، و إذا تأملنا فيما قيل عن هذه الزاوية وجدنا تنفرد بخاصية خدمة الواردين إليها أنفسهم بأنفسهم على عكس الزوايا الأخرى التي كان فيها مجموعة من الأفراد مهمتهم خدمة رواد الزاوية .

ومن الزوايا زاوية بجبال الشلف أقامها الشيخ أبو مسعود ابن عريف ومن الذين قصدوا هذه الزاوية يعقوب بن عمران البويوسفي (630-717 هـ /1232-1317م) والذي أقام هو أيضا واحدة في موضع "تليك " الذي يبعد عن قسنطينة بمرحلتين و بعد وفاة مؤسسها آلت مسؤولية الزاوية إلى ابنه يوسف بن يعقوب و كانت هذه الزاوية منارة للعلم ومقصدا لطلابه من شتى الأقطار [2] ، يمكن الوقوف عند ملاحظتين مهمتين الأولى هي أن يعقوب بن عمران البويوسفي بعد زيارته للزاوية جبال الشلف اقتنع بضرورة إقامة زاوية في قسنطينة فأقامها ، أما الثانية فهي أن خدمة الزاوية قد تكون في الأسرة المؤسسة تتوارثها أب عن جد .

وهناك زواية معروفة باسم الشيخ أبو الهادي مصباح الصنهاجي و التي ذكرها ابن قنفد دون ذكر معلومات سوى أن صاحب هذه الزاوية مدفون بها [3] ، فالزوايا كانت بمثابة مقابر قد يدفن بها مؤسسها و يقام بها ضريح له .

ومن الزوايا زاوية سيدي محمد بن عبد الجبار بن ميمون بن هارون المسعودي الفجيجي التي بنها في موطنه بحدوش من تاسالة [4] .

و زواية سيدي محمد بن أبي عبد الله محمد التميمي ومكان تواجدها طريق العباد بتلمسان وبها يوجد قبر صاحبها [5] .

---

[1] الغبريني :المصدر السابق ص 82،81.

[2] ابن قنفد: أنس الفقير ، ص ص 84،78.

[3] ابن قنفد : المصدر نفسه ص94 .

[4] ابن مريم : المصدر السابق ص 287.

[5] نفسه ص228.

ووجدت في أرياف المغرب الأوسط زاوية سيدي يحي بن أبي السادات موقعها في بني راشد بتلمسان وكانت هذه الزاوية مؤسسة تعليمية اقتصادية إذ كانت بها أراضي زراعية و مطامير لتخزين الحبوب [1].

و توجد زواية بقجال بضواحي سطيف والتي كانت تابعة لأسرة أبي عبد الله محمد بن أبي علاء إدريس بن أبي عبد الله محمد بن مسعود [2].

إذا أردنا إعطاء نظرة سريعة عن مهام الزوايا في هذه الفترة نجد بالإضافة إلى وظيفة التعليم التي هي ربما الوظيفة الأساسية لهذه المؤسسة ، وإذ يحاول ألفرد بل أن يجسد فكرة وهي أن الزاوية في هذه الفترة كانت تبحث عن دور موازي أو بديل للدور الذي يلعبه المسجد أو المدرسة وذلك بما تقدمه من تعليم الدين و التصوف [3] ، وأصبحت تشبه المدرسة أيضا في إيواء الطلبة " فبصفتها محل إقامة ودراسة في نفس الوقت فهي تشبه بشكل ملموس " المدرسة " " [4] و هناك وظائف أخرى منها إيواء و إطعام عابري السبيل والمسافرين وهو ما يفهم من قول ابن مرزوق " والزوايا عندنا .....و إطعام المحتاج من القاصدين " [5]، وما يفهم ضمنيا في قول البلوي " ثم زرت قبر ولي الله تعالى أبي مدين مرة مرة أولى وثانية ، وأقمت بالمحلة أياما ثمانية " [6] فالإقامة يصاحبها إطعام كما هو معروف و الإقامة قد قد تكون أيضا لطلبة العلم فهي وظيفة اجتماعية تعليمية ، ولها وظيفة سياسية فكانت تتمتع بمقتضى العرف بحق اللجوء حتى ضد السلطة [7]، ويذكر ابن قنفد بعض ما قام به شيوخ الزوايا مثل يوسف بن بن يعقوب البويسفي الذي توسط لدى الخليفة الحفصي أبو العباس في شخص مسجون بغرض فك أسره ورفض السلطان في البداية إطلاق سراحه غير أن الشيخ غضب و هجر مجلس السلطان فأمر السلطان بإطلاق المسجون و تودد للشيخ [8] ، وكذا محاولة الشيخ أبو هادى مصباح الصنهاجي أن

---

[1] نفسه ص 306.

[2] وثيقة مخطوطة بالزاوية .

[3] ألفرد بل :الفرق الإسلامية من الفتح حتى اليوم ، تر عبد الرحمن بدوي ، ط3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981 ص405.

[4] روبار برنشفيك :المرجع السابق ، ج2 ص 375.

[5] محمد بن مرزوق : المسند الحسن ص 413.

[6] البلوي : المصدر السابق ص 151 .

[7] روبار برنشفيك : المرجع السابق ص 354.

[8] ابن قنفد : انس الفقير ص 83.

يقف في وجه السلطان أبو الحسن المريني لما أرد غزو قسنطينة غير أن السلطان المريني رفض تلبية الطلب وتعامل بلطف كبير مع الشيخ [1].

و لم تتمتع الزاوية بهذه المكانة مع السلطة الحاكمة فقط بل وحتى مع قطاع الطرق إذ "لا ينبغي أن يتخذ زاوية و لا يتعرض لتأمين الناس إلا من كان محفوظا لا يقدر أحد أن يتعدى عليه و على حرمه و أدنى الأمور أن يكون الوجع عنه في طرف ثوبه يعني الظالمين والمرتدين و المعتدين على من يتعلق به و إلا كان غارا بالناس " [2]، يفهم من كلام ابن مريم أنه من لم تكن له سلطة روحية يستطيع يستطيع بها درء الأذى عن الناس فعليه أن لا يغرر بالناس ويقيم زواية قد يتخذها البعض ملاذا من أي شر قد يصيبه .

كما كانت للزاوية وظيفة اقتصادية تتمثل في خدمة الأراضي المحبسة على الزوايا و الأرض المجاورة فكانت لزاوية الشيخ سيدي يحي بن أبي السادات أرض تحرث و تحصد بالتويزة و توضع الغلات في المطامير المخصصة لذلك [3].

ما يمكن استخلاصه من حديثنا عن الزوايا المتواجدة في أرياف المغرب الأوسط انتشارها تقريبا في كل المناطق شرقا و غربا ، كما أن وظائف هذه الزوايا متعددة فزيادة عن الوظيفة الرئيسية المتمثلة في التعليم كانت لها وظائف سياسية و وظائف اقتصادية ، كما أن الزاوية كانت لها مكانة عالية عند السلطة و حتى عند قطاع الطرق الذين لا يعترفون بالسلطة نفسها و ربما اكتسبت هذه المكانة بفضل الأعمال الجبارة التي كانت تقوم بها هذا من جهة ، ومن جهة ثانية مكانة أصحابها وأخلاقهم والأعمال التي قاموا بها هي ما فرض على السلطة و المجتمع احترام هذه السلطة الروحية وتقديسها.

2/**المساجد** :

كان هناك حافز لبناء المساجد انطلاقا من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " من بنى مسجدا لله بنا الله له بيتا في الجنة " [4]، و اعتبر الفقهاء أنه من الواجب بناء المساجد في المناطق

---

[1] نفسه ص 92 .

[2] ابن مريم : المصدر السابق ص 235.

[3] نفسه ص306.

[4] البخاري : المصدر السابق ، ج1 ص 172 .

التي تفتقر إليها ويجب إجبار من يرفض البناء بقبول ذلك ولو قهرا [1]، والمساجد هي مراكز للدعوة والتعليم إضافة للصلاة ، ففي رحابها يجتمع لحلقات الذكر و العلم [2].

وتعتبر الأحباس وما تدره من مداخيل المصدر الرئيس لتمويل الحياة الدينية وكانت هذه الأحباس سلطانية وخاصة ويرجع السبب في التحبيس إلى محاولة إبعاد الحياة الدينية ومؤسستها عن الأزمات التي يمكن أن تعصف بالمجتمع [3].

و تولد إجماع في المجتمع على ضرورة تعهد المساجد واستصلاحها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وإذا لم تتمكن بعض المساجد ممن عجزت أوقافها عن إصلاحها يسلف لها من مساجد أخرى، كما أن المساجد لا تهدم ولا تنقل إلى مكان آخر إلا للضرورة القصوى كأن ينقطع العمران عنها ، كما أن العقارات المحبسة عليها لا تباع ولا تشترى ولا تعوض إلا إذا انقطعت منفعتها أصلا [4]، حيث سئل الفقيه ابن سراج عن قرية خلت من السكان ولم يبق فيها إلا منزلين ، و بني مسجد آخر وسط القرية الجديدة وحبست له أحباس المسجد القديم فأجاب بأنه إذا كان المسجد القديم يخاف عليه من أن يلجئ إليه أهل الشر والفساد هدم ويستعان بنقضه في مسجد آخر ، وإن كان لا يخاف عليه من ذلك فيبنى ما تهدم منه من أوقافه التي نقلت إلى المسجد الجديد [5]، و استعملت أموال الأحباس أيضا في صرف رواتب الأئمة والمؤذنين والوقادين والحزابين [6] كما خصصت أيضا لمعلمي القرآن [7] ، وما كان عليه أئمة المساجد أنهم يكسون كل عام وتجرى عليهم الصدقات وينعم عليهم [8] .

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج1 ص139.

[2] إسماعيل الخطيب :المختار في تعظيم المنة و المعيار في بدع العبادات و العادات و الطرقية ،مطبوعات جمعية البعث الاسلامي ، تطوان ،1996 ص 43.

[3] محمد فتحة :النوازل الفقهه والمجتمع ص 112.

[4] الونشريسي : المعيار ، ج7 ص 56 .محمد حجي : المرجع السابق ص 93.

[5] الونشريسي : المصدر نفسه ص 154.

[6] الونشريسي : المصدر نفسه ص ص5 – 85-170- 383 .

[7] نفسه ، ص 156 .

[8] النميري : المصدر السابق ص 332.

و من المساجد المتواجدة و التي ذكرتها المصادر جامع بلدة مليانة وهو حسب العبدري " جامع مليح عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب " هذا المسجد بهذا الجمال يخفي الأخلاق المتردية لسكان هذه المنطقة [1] ، فهذا الكلام الذي أورده العبدري يجب التعامل معه بنوع من الحذر كونه متناقضا نوعا ما فأهل المنطقة أخلاقهم متردية و بنو مسجدا جميلا فهذا ربما لا يصح ، و إن كان العبدري معروف بنظرته النقدية و العدائية لأهل المغرب فربما يمكن إدراج هذا الوصف تحت هذه النظرة .

و في بسكرة يوجد مسجد كبير كانت تقام به صلاة الجماعة و صلى بهذا المسجد الخليفة المريني أبو عنان وصفه الحاج النميري " مسجـــد معمور "[2].

ومن المساجد المسجد الموجود في تاونت وهي من عمل تلمسان بناه الزاهد أبو عبد الله محمد بن حسان التاونتي المعروف بابن الميلي ،على دار أبيه ورحل إلى تلمسان ثم إلى المشرق [3] .

كما يوجد مسجد العباد والذي بني أمام ضريح الشيخ أبو مدين شعيب و اخذ اسمه شيده السلطان المريني أبو الحسن سنة (739هـ/1339م) وكان بناؤه بطلب من الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق [4] وشارك في بناءه أيضا محمد بن مرزوق [5]، وهو ما كان سببا في أن أن يعطينا وصفا دقيقا للمسجد و المواد المستعملة في بنائه [6]، في حين قدم الأثري رشيد بورويبة وصفا أثريا دقيقا للمسجد فذكر لوحات المسجد ومحرابه وسقفه و أبوابه و الكتابات الموجودة على جدرانه و الأقواس التي به وحتى ميضاء المسجد وحمامه [7].

---

[1] العبدري : المصدر السابق ص 78،79.

[2] النميري : المصدر السابق ص 437،438.

[3] التادلي : المصدر السابق ص 303.

[4] أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق هو عم مؤلف كتاب المسند و هو من العلماء الأجلاء الصالحين ، ابن مرزوق : المسند ص 403 .

[5] نفسه ،ص 403 ، التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 90 ، التنبكتي : تطريز الديباج ، ج2 ص 111.

[6] ابن مرزوق : المصدر نفسه ص 403، 404.

[7] رشيد بورويبة :جولة عبر مساجد تلمسان : مقال في مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة ص ص 178،181.

ومن المساجد المسجد الذي بناه سيدي محمد بن عبد الجبار بن ميمون بن هارون المسعودي الفجيجي في بلدته بحدوش من تاسالة و أقام على هذا المسجد بيتا للفقراء و كل من قصد هذا المسجد أنفق عليه من ماله الخاص [1].

المسجد الأعظم بتاكرارت شيد هذا المسجد في عهد يوسف بن تاشفين سنة 473هـ-1080م ، و أضيف لهذا المسجد جزءا في عهد يغمراسن تمثل في الجزء الشمالي من بيت الصلاة والقبة و الصحن و المئذنة [2].

و هناك مسجد سيدي أبو الحسن بني 669هـ/1296م وله مداخيل عشرون دكان تابعة له يشتغل بها صاغة من اليهود و بعض تجار الأسلحة [3].

ويوجد بمستغانم مسجد في غاية الحسن [4]، غير أننا نجهل اسمه أو من بناه و في أي فترة بني لكن ما هو مؤكد أنه كان موجودا على عهد الحسن الوزان .

و على كل فإن المهمة الرئيسية للمسجد هي الصلاة و تعليم أمور الدين للكبار لكن هناك من اتخذ من المسجد مكانا لتعليم الصغار و هو ما أثار حفيظة الفقهاء و دفعهم إلى إنكار هذا الفعل لما له من ضرر على المسلمين أثناء الصلاة وما قد يقوم به الصغار من نجاسة داخل المسجد تؤثر على صحة الصلاة ، وعلى آباء الصبيان البحث عن مكان آخر لتعليم أبنائهم [5] .

ما يمكن استخلاصه من الحديث عن المساجد أنه لا يمكن تصور جهة من جهات المغرب الأوسط تخلو من مسجد ، و قد تتعدد المساجد في منطقة واحدة ، و هو ما يفهم من الأسئلة التي تتحدث عن مسجد قديم و مسجد جديد ، كما كان للمساجد أحباس تكون رسمية أو تكون من الأشخاص الذين وهبوها للمساجد ، و كانت عينية أو عبارة عن أراضي ، أما مواطن صرفها فكان في ترميم المساجد و صيانتها و الحفاظ عليها ، وكذا في صرف مرتبات عمال المسجد من إمام ومؤذن و قيم و بواب .

المدارس :

---

[1] ابن مريم : المصدر السابق ص 287.

[2] عبد العزيز فيلالي: تلمسان ج1 ص146.

[3] جورج مارسي : المرجع السابق ص 48.

[4] الحسن الوزان : المصدر السابق ،ج2 ص32.

[5] الونشريسي : المعيار ، ج7 ص 37

كانت المدارس مثلها مثل المساجد لها أحباس و اختلفت أحباس المدارس بين تحبيس الملوك المؤسسين لهذه المدارس وبين تحبيس الخواص ، وينص المحبس في بعض الأحيان على ما يصرف لكل واحد من فقيه وإمام وأستاذ وطلبة ومؤذنين وخدام المدرسة وأحيانا لا ينص على ذلك [1] .

ومن المدارس المتواجدة في تلمسان مدرسة الفقيهين أبو زيد وأخوه أبو موسى التي بناها لهما السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول(707-718هـ /1307-1318م) و عملا فيها مدرسين للعلوم وتسمى مدرسة ابنا الإمام[2] ، وتقع هذه المدرسة بناحية باب كشوطة [3].

و مدرسة الولي حسن أبركان [4] ، و لا توجد لدينا معلومات عن هذه المدرسة غير أنها نسبت إلى الولي الصالح الحسن أبركان ، و هذا يجعلنا نستنتج أنه هو من بناها أو قام طلبته بعد وفاته ببنائها و نسبوها إليه .

و توجد بجبال بجاية مدرسة كانت متخصصة في تدريس اللغة العربية وأصولها ومن المدرسين في هذه المدرسة عبد العالي بن فراج ومن الذين دَرَسوا في هذه المدرسة الفقيه إبراهيم بن فائد بن موسى بن هلال الزواوي [5].

ومن المدارس المدرسة اليعقوبية بنها السلطان أبو حمو موسى الثاني والتي بنيت للإمام الشريف التلمساني بعد أن ربطت بين هذا الفقيه الجليل وهذا السلطان علاقة متينة كللت بهذا البناء وتصدى الشريف التلمساني للتدريس فيها و اعتنى بها عناية بالغة إلى درجة أن أولاده لم يروه فيها ستة أشهر لأنه يقوم صبحا و يأتي ليلا وهم نائمون ، كما أنه لم يكن يأخذ منها مرتبا وإنما ينفق على عياله من مال أبيه [6] ، وكانت هذه المدرسة من المدارس المتخصصة إذ تخصصت في تدريس التفسير والفقه والحديث في الشتاء ، وتدريس الأصول والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة في الصيف ، كما خصص فيها يوم الخميس والجمعة لتدريس التصوف وتصحيح تآليفه [7].

---

[1] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج7 ص 365 ، 366 ، محمد حجي :المرجع السابق ص 79.

[2] التنبكتي ،كفاية المحتاج، ج1 ص 187 ، عبد الحميد حاجيات : الحياة الفكرية بتلمسان الزيانية ص 138.

[3] يحي بن خلدون : المصدر السابق ،ج1 ص 130.

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 107 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص 253.

[5] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 45.

[6] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج2 ص ص 89-97.

[7] نفسه ، ج1 ، ص 124.

وهناك مدرسة مازونة التي أقامها الشيخ محمد بن الشريف البولداوي [1] ، و هذه المدرسة قبلة لطلبة العلم من كل أقطار المغرب وكانت بها إقامة للطلبة غير المقيمين بهذه المنطقة ،ويرجع الفضل في بروزها للساحة إلى الجالية الأندلسية التي قدمت إلى هذه المنطقة بعد سقوط غرناطة [2]، وكذا توقف الصراع بين قبيلة مغراوة وبني عبد الواد وقيام الأخيرين بإقطاع أراضي مغراوة للقبائل العربية وهو ما أدى إلى انتشار الثقافة و حلول اللغة العربية محل اللهجة الأمازيغية ،ومن الأمور المعروفة في تسير هذه المدرسة أن يختار العالم المسؤول عن المدرسة قبل وفاته أحد طلبته لتسير شؤونها وهو ما كان له نتيجة سلبية [3] وهي بناء مدرسة مازونة الجديدة والتي أراد صاحبها أن يبنيها إزاء المدرسة العتيقة بعد أن رفض العالم المسؤول عن المدرسة تسليم تسيرها إليه فأعلن الانفصال عنه وبناها على أنقاض مباني مهدمة تابعة للمدرسة القديمة أو محبسة لمسجد مازونة و كان البناء بدعم من القبائل العربية ، وخلف بناء هذه المدرسة الكثير من المعارضين الذي استفتوا الفقهاء من أجل هدمها [4].

كما بنى أبو الحسن المريني (731-752/1330-1351) سنة 747هـ/1347م مدرسة بالعباد بالقرب من مسجد العباد وتعتبر من المؤسسات العلمية المعروفة وزادت شهرتها لكونها تقع بالقرب من ضريح أبو مدين شعيب ومجاورة لمسجده [5]، كان بنائها بعد ثماني سنوات من بناء المسجد المسجد و رعاها أبو الحسن بنفسه فأغدق عليها العطايا ، و أتبع لها أراضي فلاحية و بساتين و أرحية وحمامات تستعمل عائداتها لصيانة المدرسة ولصرف رواتب عمالها ، أما الطلبة فكان يحصل كل واحد منهم على قفيز من القمح كل شهر [6].

---

[1] محمد الأمين بلغيث :مدرسة مازونة الفقهية خلال القرن التاسع الهجري /الخامس عشر لميلادي وآثارها (قراءة تاريخية)، مقال في دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي ، دار التنوير للنشر والتوزيع ، 2006 ص 119

[2] نفسه ص119 ،مختار حساني : تاريخ الدولة الزيانية ،الأحوال الاقتصادية و الثقافية ، ج2 ، منشورات الحضارة ،الجزائر ،2009 ص 278.

[3] مختار حساني : المصدر نفسه ص 278.

[4] الونشريسي : المعيار ، ج7 ، 243.

[5] مختار حساني : المرجع السابق ص276.

[6] جورج مارسي :المرجع السابق ص 79.

مدرسة سيدي الحلوي أسست سنة 754هـ/1345 و بنيت هذه المدرسة على ضريح أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي خارج باب كشوطة [1].

كما وجدت في نقاوس مدرسة كانت مقصدا للعديد من الطلاب كون أهل نقاوس تكفلوا بالطلاب من حيث اللباس و الإقامة و النفقة [2].

ولم تكن وظيفة المدرسة وظيفة تعليمة فقط وإنما كان لها أيضا وظيفة الإيواء للطلبة الذين يسكنون المناطق البعيدة عنها [3].

و هناك مجموعة من الشروط يجب أن تتوفر في من تؤويه المدارس وردت في المعيار : " وإنما يسكن المدرسة من بلغ العشرين سنة فما فوقها ، وأخذ في قراءة العلم ودرسه بقدر وسعه ، ويحضر قراءة الحزب صبحا ومغربا ، ويحضر مجلس مقرئيها ملازما لذلك ، إلا لضرورة من مرض و شبهه من الأعذار المبيحة لتخلفه ، فإذا سكن فيها عشرة أعوام ولم تظهر نجابته أخرج منها جبرا ، لأنه يعطل الحبس ، ولا يختزن بالمدرسة من سكنها إلا قدر عولته على ما جرت به العادة في الأحباس " [4]، من هذه النص يمكن أن نستنتج مجموعة من التنظيمات وهي :

سن الطلبة المقيمين في المدرس لا يقل عن عشرين سنة.

لا يسكن المدرسة إلا من سبق له أن اشتغل بالعلم .

حضور قراءة الحزب صبحا ومغربا.

وجوب حضور كل الدروس التي تلقى في المدرس إلا لعذر مقبول.

مدة السكن في المدرسة عشرة سنوات كحد أقصى .

لا يختزن الطالب بها إلا لقدر الحاجة و حسب العادة.

ومن هذا النص يمكن أيضا استخلاص بعض الدلالات حول ما كان في المدارس منها أن الطالب يكون حافظا للقرآن الكريم، وعلى الطالب أيضا أداء الصلاة في أوقاها.

---

[1] يحي بن خلدون :المصدر السابق ، ج1 ص 128.

[2] الحسن الوزان :المصدر السابق ،ج2 ص53 .

[3] محمد القبلي : مرجعيات حوول المجتمع و الثقافة بالمغرب الوسيط ، ط1 ،دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء ، المغرب ، 1987 ص67.

[4] الونشريسي : المعيار : ج 7 ص 7 ، ص 262.

و كانت المدارس في بلاد المغرب تبنى وتمول وتنظم من قبل السلاطين على عكس بلاد المشرق التي ظهر بها هذا النوع إضافة إلى مدراس حرة يرجع الفضل في بنائها إلى العلماء والخواص ومدارس أخرى شبه رسمية أقامها وحبس عليها بعض الأمراء أو الوزراء [1].

ما يمكن استخلاصه من خلال عرض المدارس في المغرب الأوسط هو أنه أغلب المدارس المذكورة هي مدارس متواجدة في المدن و حتى لا يكون هذا تناقضا مع صلب الموضوع ارتأينا تبرير هذا الأمر الذي يرجع إلى سببين حسب استخلاصنا السبب الأول المصادر و المراجع المتاحة لنا لم تتحدث عن المدارس الموجودة في الأرياف ليس لانعدامها ولكن للأسباب المعروفة وهي أنها ألفت التأريخ للمدن دون الإشارة للأرياف خاصة في الجانب الثقافي و قد اعتمدنا في استخلاصنا هذا على وجود مدرسة في جبال بجاية و نقاوس ، أما السبب الثاني فكون المدارس المتواجدة في المدن لم تكن حكرا على أبناء المدينة التي توجد بها بل كانت قبلة لكل الطلبة المقبلين عليها بما في ذلك الريفيين وهو ما دفع إلى نبوغ العديد من العلماء الريفيين الذين سنذكرهم أثناء الحديث عن العلوم التي نبغوا فيها .

ما يمكن استخلاصه أيضا أن المدرسة كانت عبارة عن مسجد أيضا إذ ورد كما أسلفنا في المعيار أثناء حديثه عن أحباس المدارس لفظ " ما يؤخذ كل واحد من أهل المدرسة من فقيه و إمام وأستاذ و طلبة و مؤذنين و خدام مدرسة " [2] ، فلفظ إمام و مؤذنين دليل على أن المدرسة عبارة عن مسجد أو على وجود مساجد تابعة تبعية مباشرة للمدارس .

ما يمكن استنتاجه أيضا أن المدارس كانت محل إقامة للطلبة الذين يسكنون بعيدا عن المدرسة واشترطت مجموعة من الشروط الواجب أن تتوفر في المقيم في المدرسة ، و كان للمدارس نظام داخلي دقيق على الطلبة احترامه .

المبحث الثاني :

التعليم و الحركة العلمية في الأرياف :

1-التعليم :

[1] محمد القبلي : المرجع السابق ص 75 .

[2] الونشريسي : المعيار ،ج7 ص 363-365

هناك مجموعة من الشروط الواجب توفرها في العالم الحق منها أنه يشكل الواضح ويوضح المشكل لسعة علمه وتحقيقه ويحضر إليه ويسمع فوائده ، وأن يكون صاحبه متصفا بالخشية له " لطائف الأحوال وصحائح الأقوال والأفعال باطنه حقائق التوحيد وظاهره زهد وتجريد وكلامه هداية لكل مريد" ، وأن يكون كثير الخوف وشديد الحزن كثير الذكر مع التواضع وحسن الخلق ورقة القلب ويكون دائم الابتسامة في وجه من يلقاه [1] ، ومن الشروط أن يكون محيطا بمعرفة أصول ذلك العلم، وأن يكون قادرا على التعبير عن ذلك العلم ويكون عارفا بما يلزم عنه ، ويكون قادرا على رفع الإشكالات الواردة عليه [2]، هذه شروط العالم أما الشروط الواجب أن تتوفر في معلم القرآن فهي أن يكون عارفا بمخارج الحروف وأحكام الترتيل من إظهار وإدغام وإهمال وإعجام وتفخيم وترقيق وغنة وغير ذلك من الأحكام فإن جهلها فلا حذقة له و إن أخذها فإنما يأخذها بغير حق [3].

و أما الصفات التي يجب توفرها في المعلم فنذكر منها " ينبغي أن يكون المعلم مهيبا في غير عنف ، لا يكون عبوسا مغضبا ولا مبسوطا ، مترفقا بالصبيان دون لين" [4]، وأضاف المغراوي أن يكون المعلم متزوجا فلا تعليم للأعزب إلا إذا عرف عنه العفاف المطلق[5] ، وينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم [6].

وكانت هناك شركة للمعلمين و اعتبر الفقهاء المالكية الشركة في التعليم من الأمور الجائزة وإن كان بعض المعلمين أجود من الآخر والسبب في تجويزها أنه قد يمرض الأول فيقوم مقامه الثاني ، ومن شروط جوازها الاستواء في العلم ، وألا يكون للأعلم فضل في الكسب [7] ، و كانت طريقة التعليم تختلف من معلم إلى آخر " فلكل إمام من الأئمة المشاهير إصلاح في التعليم يختص به شأنه شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحد عند جميعهم " [8].

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 206 ،التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص 252.

[2] التنبكتي ، كفاية المحتاج ،ج2 ص 258 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ،ج2 ص 311.

[3] المغراوي : جامع جوامع الاختصار و التبيان فيما يعرض للمعلمين و آباء الصبيان ، تح و تعليق أحمد جلول بدوي و رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ص 24 .

[4] الونشريسي المعيار، ج8 ص 250 ، المغراوي : المصدر نفسه ص 35.

[5] المغراوي : المصدر نفسه ص 35

[6] الونشريسي ، المعيار ،ج8 ص 250.

[7] المغراوي : المصدر السابق ص 48.

[8] ابن خلدون:المقدمة ص 302.

ما يمكن ملاحظته هنا هو أنه هناك فرق بين العالم و المعلم فكل عالم معلم لكن ليس كل معلم عالم و يجب أن تتوفر شروط في العالم حتى يعتبر عالما و هذه الشروط ليست مشروطة على المعلم ، في حين الشروط الواجب توفرها في المعلم هي شروط بسيطة مقارنة بشروط العالم واختلفت طرق التعليم من معلم إلى آخر على حسب الطريقة المتبعة لأن لكل معلم طريقته و أيضا لكل واحد فهمه و تحليله ، كما وجدت حتى الشركة بين المعلمين و ربما يرجع السبب في إيجاد هذه الشركات إلى كثرة المتعلمين ومن ثم يصعب على معلم واحد تعليم هذا العدد فيلجأ إلى الشركة .

و استعمل المعلمون الضرب لتقويم الصبيان و لكن يكون بشروط و في أماكن معروفة " فلا يجعل شيئا من ضربه لقبضه ويريح قلبه من غيظه ، فإن فعل فإنما ضرب أولاد المسلمين وليس من العدل ، وصفة ضربه ما لا يؤلم ولا يتعدى إلى التأثير المستبشع أو الموهن المضر ، ولا يولّي الصبيان الضرب لما عُلم بينهم من الحمية ، إلا من يعلم منه عدم التجاوز فيسعه التخلف من العذر ، ولا يضربه على رأسه و وجهه ، إذ هو غرر يصيب الدماغ أو يضر بالعين أو يؤثر أثرا قبيحا ، والضرب في ساق الرِجل آمن وأحمد للسلامة ، فلا يضرب إلا بالدرة ، ويتجنب الضرب بالعصا واللوح "[1]،في حين زاد المغرواي في مناطق المنهي عنها في الضرب الظهر والبطن واعتبر أن من يفعل ذلك فلا دين له ولا ملة، وأعظم من ذلك أن يعصر أنثييه أو يضربه على مجمع عروق الذكورية فيفسد منه النسل ، وأن لا يحبسهم عن قضاء حاجة الإنسان ، والضرب يكون على حسب اجتهاد المعلم[2]، أما درجة الضرب فنقل المغرواي عن الفقيه القابسي أن يضربهم على كل شيء ثلاثة أسواط تحت القدم ، وقال أشهب أن يضربهم على الهروب من المسجد عشرا وعلى السب سبعا وعلى الحفظ ثلاثا ، وأن يكون ضرب إيلام دون أن يؤثر في العضو [3].

ما يمكن قوله عن تأديب الصبيان أن المعلمين استعملوا الضرب ، لكن الضرب لم يكن ضرب انتقام و إنما ضرب تأديب و لذا وجب ضرب المتعلمين في أماكن معلومة دون الضرب في الأماكن الحساسة ، و يستعمل في الضرب الدرة و لا يستعمل فيه ما يترك أثرا بالغا على الجسم ، والمكان المتفق عليه الضرب أسفل رجل الصبي .

[1] الونشريسي ، المعيار ،ج8 ص 250.

[2] المغراوي : المصدر السابق ص 40 .

[3] نفسه ص 40.

و كان المعلمون يأخذون أجرة على تعليمهم للصبيان تكون مبنية على الاتفاق و اختلف في الأجرة هل تكون بالشهر تسمى مشاهرة أو بالسنة وتسمى مساهنة أو تكون بالاتفاق على تعليم مقدار معين من القرآن كالربع أو النصف أو الثلث ويسمى هذا النوع بالمقاطعة [1]، فبالنسبة لأجرة تعليم القرآن الكريم نص مذهب الإمام مالك على أن الصغير إذا انتهى إلى حد الكتابة في اللوح بالقلم وقبل أن يتلقى ما يلقى فللمعلم ثمانية دراهم ، وإذا وصل إلى سورة مريم فله اثنا عشر دينارا ، وإذا ختم القرآن فله ستة عشر دينارا ، وهناك من المالكية (سحنون وعيسى بن مسكين) من قال أن أجرة تعليم القرآن (الحذقة) ، ليست مقدرة ولا معلومة ولكن تعطى على حسب الحال والمصلحة ، وترجع إلى العرف والعادة والمروءة ومن امتنع عن دفع الحذقة قضي عليه بالسجن ، و وقع اختلاف بين فقهاء المالكية حول أماكن الحذقة من القرآن الكريم فابن عرفة اعتبر الفاتحة حذقة في حين القابسي لم يعتبرها حذقة [2]، وكانت الحذقة تعطى عن الصبي المُجيد للحفظ والذي لا يخطئ كثيرا ويستطيع الاستمرار في القراءة فإن كانت قراءته غير مستمرة فلا حذقة له لأنه ليس بحافظ [3].

ومن الأمور التي سئل عنها الفقهاء لمن تكون الحذقة إذا غير الصبي المعلم مثلا إذا خرج صبي وقد حفظ جزء من القرآن ومضى إلى معلم آخر لم تكون الحذقة ، فهنا إذا كان مضى وله جل القرآن ثلاثة أرباعه فأكثر فوجبت الحذقة للمعلم الأول ، ومن ثم فالحذقة عند الانتقال من معلم إلى آخر تكون على حسب الحفظ [4] ، و كان يتكرم على المعلم في الأعياد والمولد وعاشوراء [5]،وعلق الونشريسي في المعيار عن إجابة الفقيه أبو الطيب عما يأخذه المعلم زيادة عن أجره الذي يأخذه فأجاب لا بأس بالأخذ في عاشوراء وأعياد المسلمين بقوله " يظهر من هذا الكلام القضاء بالشمع للمعلمين على آباء الصبيان في ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم لأنه فاش معتاد ببلاد المغرب الأوسط والأقصى ، ولانتزاع في انتصاب المعلمين لأجله ولا سيما وأنه موسم عظيم عند أهل ملة الإسلام " [6].

---

[1] المغراوي : المصدر نفسه ، ص 31.

[2] نفسه ، ص 17، 18.

[3] نفسه ، ص 21.

[4] نفسه ، ص ص 21،25.

[5] الونشريسي المعيار ،ج8 ص 243 .

[6] الونشريسي : المصدر نفسه ،ج8 ص 254،255.

وفي المقابل صدرت فتاوى مفادها تحريم إعطاء الهدايا للمعلمين في الأعياد غير الإسلامية مثل عيد النيروز وعيد الفطيرة (عيد الفصح) ، فلا يجوز قبول هدايا اليهود والنصارى في أعيادهم للمسلمين [1].

وكان بعض الفلاحين يقومون بالتطوع لحرث الأرض المحبسة على المدرسة أو المسجد ويعصرون زيتها وكرومها ويمدون الإمام بمنتجها في موسم الجني [2]، و اشترط المعلمون السكنى من أموال الأحباس وطالبوا أيضا بالزيادة في أجورهم [3] ، و حكم أجرة الإثابة على القرآن الكريم من الأمور المختلف فيها على ثلاثة أقوال فمالك جوزها وأبو حنيفة منعها ورأي ثالث جوز الإثابة دون الإجارة ، ودليل أبو حنيفة قوله تعالى " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا " [4] وقوله صلى الله عليه وسلم " بلغوا عني ولو أية من كتاب الله " [5] ، ولم يقل خذ ما عليه أجرا ، وما روي عن عبادة بن الصامت قال كنت أعلم القرآن من أهل الصفة (مكان بالقرب من المسجد النبوي) ، فأعطاني قوسا أجاهد بها فسألت الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لي : أتريد أن يطوقك الله تعالى بطوق من النار بما قبله " أما دليل مالك قوله عليه الصلاة والسلام " خير ما اتخذتم عليه أجرا كتاب الله " وما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يعطي الإجارة لمعلم بنيه ، أما القول الذي يقول بالإثابة دون الإجارة فدليله قوله عليه السلام " أفضل ما أكرم عليه الرجل كتاب الله "[6] والقرآن أعظم من أن تدخل عليه عليه إجارة [7] ، وانطلاقا مما سبق مارس بعض المعلمون التعليم مجانا دون أجرة مثل الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يسول نزيل تلمسان [8].

ما يمكن استنتاجـــه من حديثـــنا عن أجرة المعلم ، أن مصـــــادر الحصــــول على الأجــــر متعـــــــددة فيمكن أن تكون من الآباء أو من الأحباس ، و أسالت أجرة معلمي

---

[1] المغراوي : المصدر السابق ص 37.
[2] الونشريسي : المعيار ، ج7 ص 112.
[3] نفسه ص ص42،101
[4] سورة الشورى الآية 22 .
[5] البخاري : صحيح البخاري ، ج3 ص 1257 .
[6] هذه الأحاديث أوردها المغراوي غير أني لم أعثر عليهما في كتب الحديث .
[7] المغراوي : المصدر السابق ص 27،28.
[8] التادلي : المصدر السابق 238.

القرآن الحبر الكثير بين من اعتبره جائز للمعـــلم ،و بين من اعتبره لا يجوز ، و حتى الذين قالوا بالجواز اختلفوا في قيمة الأجرة كم تكون وما الموضع الذي يصله المتعلـــم حتى يأخذ المعلم أجرة على ذلك ، كما اختلف أيضا في الأجرة هل تكون شهرية أم تكون سنوية أم تكون لقاء قيمة ما حفظه المتعلم .

لم يكـــن التعليم حكـــرا على فئة دون الأخـــرى وإنما كان متاحا للجميع ، وكـــان يتم فردي ويكون جماعيا أيضا [1]، فكان للشيخ الفقيه محمـــد بن عمر الهواري مجلســا للعلم بنواحي وهران وكان يحضر هذا المجلس الأغنياء وأرباب الدنيــــا فيقوم الشيخ بدعائهـــم إلى الله بتخويفهم وتذكيرهم بآيات الرجاء وحسن الظن بالله ، وإذا حضر مجلسه التجار قام بتذكيرهم بطريق الشكر وحببهم إلى إخراج الزكاة وأنها مطهرة للمال ثم يحضهم عـــلى ترك معاملة من غلب عليه الحرام ويبصرهم بفائدة طلب الحلال ، فينصرف أهل مجلسه و نالوا من الخيرات ونهلوا من العلم ، كما كان مجلسه مكانا للمناظرات العلمية والمحاضرات الأدبية والمذاكرات الصوفية ، إذ كانت تتعرض لطلبة العلم مسائل فقهية يعجزون عن إيجاد حلول لها فيقومون بعرضها على مجلس الشيخ محمد بن عمر الهواري فيجد لها أجوبة شافية [2] .

كما حبذ العلماء التعليم للذكور والإناث على السواء واعتبر تعليم الأنثى ما تصلي به والذكر وغيرها من العلوم النافعة فرض كفاية ، وفي المقابل حثوا أيضا على منعها من تعلم الرسائل والشعر والخط لما قد تستعين به في فساد [3]، لكن الضرورة دفعت التفريق في التعليم بين الإناث والذكور خاصة إذا بلغوا الحلم [4].

من الأمور التي يمكن استخلاصها هنا أن التعليم كان متاحا لكل فئات المجتمع من أغنياء وفقراء وتجار و كان الهدف من تعلمهم معرفة أصول دينهم ، بينما هناك فرقة خاصة (الطلبة) جعلت من طلب العلم همها الوحيد ومن ثم فهم ملازمون لحلقات العلم لا يبرحونها ، والتعليم لم يكن حكرا على الذكور فقط بل حتى الإناث استفادن من التعليم لكن يكون تعليمهن مع منعهن من الاختلاط

---

[1] محمد بن يوسف السنوسي: نصرة الفقير ص 418.

[2] ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ص 56.

[3] المغراوي : المصدر السابق ص 34.

[4] نفسه ص 43.

بالذكور لما قد يسببه هذا الاختلاط من فواحش بفعل الاحتكاك ، و تعليم الإناث يجب أن يكون مركزا على أمور الدين لأن تعلم غيره من الشعر و الخط قد يدفعهن إلى استعماله في الفساد .

و من الأمور الواجب على المعلم أن يراعيها في تعليم الصبيان أن ينظر في ألواحهم وإصلاح ما فيها من خطأ ، وشرطه عدم النظر خطأ لا يجوز ، كما يجب عليه أن يعلمهم إعراب القرآن ويلزمه ذلك ، وعليه تعليمهم الشكل والهجاء والخط الحسن وحسن القراءة بالترتيب ،كما عليه تعليمهم أحكام الوضوء ، و سنن وفرائض الصلاة وصلاة الجنازة ودعائها وصلاة الاستسقاء والخسوف [1] .

وزاد المغراوي تعليمهم أسماء الشهور العربية والعجمية وتلقينهم القرآن من سبح إلى الناس ، وتلقينهم الشاهدتين وأسماء الله الحسنى [2] .

كما على المعلم أن يعلم الصبيان مكارم الأخلاق فينهاهم عن الكذب والسب والهروب من المسجد واليمين بالطلاق والحرام وعلى المعاملة بالربا ، وأن يمدح لهم السخاء والشجاعة و الكرم ويذم لهم الشح والطمع والجبن ، وأن يتولى بنفسه الحكم بينهم ، وأن لا يفضل بعضهم على بعض في تعليمهم ولا في جلوسهم [3] .

أما أيام التعليم فهي سائر أيام الأسبوع عدا مساء الخميس ويوم الجمعة ، والأوقات تكون من صلاة الصبح إلى الضحى ومن الظهر إلى العصر ، وزاد أهل الأرياف قراءة القرآن بالليل [4] ، وكانت بعض المراكز العلمية تشرع في التدريس من الفجر إلى العشاء و لا يستطيع المتعلم فيها قطع فترة الدرس وحتى لتناول الغداء بل يتناول وجبة واحدة هي وجبة العشاء ، وكان وقت العصر يخصص عادة لمطالعة بعض الكتب التي يوزعها عليه المعلم [5]، ولا يجوز للمعلم أن يتخلف عن أوقات الدرس لحضور جنازة أو عيادة مريض ، ويجوز له إعطاء الراحة للتلاميذ ففي عيد الفطر تكون الراحة يومين أو ثلاثة وفي عيد الأضحى تمتد إلى خمسة [6] .

---

[1] الونشريسي : المعيار ، ج8 ص 243،244 ، المغراوي : المصدر نفسه ص 47.

[2] المغراوي : المصدر نفسه ص47.

[3] المغراوي : المصدر نفسه ص 39.

[4] نفسه ص 51.

[5] الحسن السايح : الحضارة المغربية البداية و الاستمرار ط2 ،منشورات عكاظ الرباط 2004 ص 10.

[6] المغراوي : المصدر السابق ص 51

ما يمكن ملاحظته على أساليب التعليم هو استعمال التدرج في التعليم فيبدأ التعليم بتعلم الكتابة و تصويب الأخطاء ثم يأتي التدرج في التعليم إلى الأعلى فالأعلى ، وكان التعليم في سائر أيام الأسبوع عدا الجمعة لقداستها الدينية ، كما يستفيد الطلبة من العطل في الأعياد الدينية و تختلف عدد الأيام من عيد الفطر إلى عيد الأضحى و هنا يمكن القول أن نظام التدريس كان نظاما دقيقا ومنظما يتماشى و طبيعة المجتمع .

2-الحركة العلمية :

للحركة العلمية عوامل تتحكم فيها بما يخدمها أو ما يثبطها ، فإذا كانت هذه العوامل من صلب العلم فهي خادمة لها ، و إن كانت تتعارض و تتضارب و العلم تكون من مثبطاتها ، وسنحاول هنا الحديث عن العوامل التي أدت إلى ازدهار الحياة العلمية في المغرب الأوسط و هي تشمل أريافه و مدنه ، ثم نحاول الحديث عن العوامل التي كانت عائقا أمام التحصيل العلمي .

2-1عوامل ازدهار الحركة العلمية:

بعد الإصلاح الديني الذي حاول الموحدون تطبيقه في المغرب الإسلامي ظهرت نتائج ساهمت في تطور الحركة العلمية ، إذ ذاعت كتب الغزالي في كل أقطار المغرب وأقبل الناس على دراستها ، كما وصل إلى بلاد المغرب كتب غيره من الأشاعرة كأبي بكر الباقلاني [1] وهكذا انتقلت بلاد المغرب من طور منابذة العقل والرأي إلى طور أكثر توازنا واعتدالا [2] .

ومن عوامل ازدهار الحركة العلمية تشجيع السلاطين للعلم والعلماء وتوفير المناخ المناسب للتحصيل العلمي ، إذ واظب بعض السلاطين على عقد مجالس للعلم في قصورهم وشيدوا المدارس لذلك "و إلحاق خزائن الكتب ببعضها و الانفاق على العلماء والطلبة... وبعض سلاطين و أمراء هذه الفترة كانوا على جانب من الثقافة ويعقدون المجالس العلمية للمذاكرة والمناظرة كما أن جميع

---

[1] القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، سكن بغداد و توفي بها سنة 403هـ ، أنظر ابن خلكان : وفايات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تح إحسان عباس ، ط1، ج4 ،دار صادر ، بيروت ، 1971 ص 269 .

[2] عبد الحميد حاجيات :الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان ص 139 ، عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص15.

هؤلاء يقدرون رجال الفكر ويرفعون مكانتهم "[1] و سنحاول أن نفصل في هذا الأمر أثناء حديثنا عن العلماء و السلطان.

ومن العوامل المساعدة نزوح الكثير من العلماء من الأندلس والذين كان لهم دور فعال في إذكاء المناظرات الفكرية [2].

يمكن القول بأن العوامل التي ذكرناها تعتبر أهم العوامل التي ساعدت على نمو و ازدهار الحياة الثقافية غير أن هناك عوامل أخرى ساهمت و لو بالقليل في هذا الرقي منها الرغبة الجامحة التي وجدت عند طلبة العلم ، يضاف إلى ذلك سهر العلماء و المعلمين على تلقين ما تعلموه و من ثم وجب بذل جهد كبير يعود بالفائدة على الحركة الفكرية .

عوائق أمام التحصيل العلمي :

واجه المتعلمون في الأرياف الكثير من العوائق سواء في المدارس أو المساجد أو الزوايا سنحاول أن نذكرها :

اشتكت الأرياف من قلة المتفقهين القادرين إرشاد الناس في عباداتهم وتعليمهم، وظهرت مشكلة التعاقد مع إمام أو معلم صبيان لفترة طويلة إذ في كثير من الأحيان يغادر المعلم قبل إتمام فترة العقد [3].

كما تحدث ابن الخطيب عن بعض العوائق أمام التحصيل العلمي كنبذ بعض العلوم كالعلوم الفلسفية ومحاربة الفقهاء والسلاطين لهذه العلوم ونكبة من نبه في هذه العلوم [4]، وفي نفس فترة نبذ هذه العلوم انتشر ما اصطلح عليه بالتصوف الشعبي بسب اتساع رقعة الفقر و الأوبئة وانعدام الأمن، فأصبح معتنقوا هذا التصوف يعتبرون أنفسهم ممتلكين للحقيقة بمجرد أنهم أنصتوا لدرس في الفقه أو موعظة تدعوا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحت هذا الستار انتشرت الممارسات الصوفية

---

[1] محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ،1996 ص193،194.

[2] سعيد البوسكلاوي :الجدل الكلامي في عصر ابن خلدون ، مقال في كتاب الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون،تنسيق بناصر البعزاتي ، ط1 ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 2007 ص129، عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص 15 .

[3] محمد فتحة ، المرجع السابق النوازل ص113.

[4] ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح محمد عبد الله عنان ، ج1 ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1973 ص 172.

الساذجة من ادعاءات البركة و التأثير في مجرى الأحداث وادعاء النسب الشريف ، و كذا أفول التصوف الفلسفي المتنور غير المتزمت الذي رفض من قبل فقهاء السنة المتشددين الذي ظلوا على احتكاك مباشر مع عامة المسلمين الذين كانوا بعيدين في الغالب عن الفكر الفلسفي وبهذا اشتغل الفقهاء والعامة في حل المسائل المرتبطة بالعبادات والمعاملات ، ويعتقدون أن من خرج عن هذا الباب لا جدوى منه بل وجب محاربته [1].

ومن العوائق أيضا انعدام الاجتهاد خارج مذهب الإمام مالك إلا نادرا ، إذ ذكر التنبكتي أن الشيخ قاسم بن سعيد بن محمد العقباني كانت له اجتهادات خارج مذهب الإمام مالك وهو ما أدى إلى حدوث العديد من النزاعات مع معاصريه الرافضين إلى مثل هذه الاجتهادات ، ومن المعارضين له نذكر الإمام ابن مرزوق [2] ، و كان التعليم تحت هذا الإطار " ففي مستوى توجه البرامج كانت المواد المدرسة في هذا العصر تتسم بطابع ديني شرعي قبل كل شيء وكان الفقه حسب المذهب المالكي هو السائد و تقريبا لم يكن يوجد مكان للمذاهب الأخرى " [3].

ومما كان حجر عثرة أمام التحصيل العلمي إعطاء مكانة لبعض العلوم العقلية لكن مضمون هذه العلوم كان فقيرا وكان موجها لأغراض عملية ، وطريقة التدريس تقوم على الحفظ والتكرار بعيدا عن تحفيز الطلاب لإعمال العقل [4].

ومما لعب دورا في توقيف عجلة التطور العلمي خلط البعض بين العلوم الدينية وبين علم التنجيم ، فابن البناء يجيب عن الأسئلة التي تكون حول رؤية الهلال وأوقات الصلاة وتحديد القبلة بجانب اهتمامه بالتنجيم الذي يتحدث فيه عن قوى الطبيعة والظواهر و ذلك باستعمال لغة من

---

[1] بناصر البعزاتي :مشاكل العلم بالغرب الإسلامي مقال في الفكر العلمي في المغرب في العصر الوسيط المتأخر ، تنسيق بناصر البعزاتي ط1 ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2003 ص 42،43.

[2] التنبكتي :كفاية المحتاج ، ج2 ص 12.

[3] mohamed benchekroun :la vie intellectuelle sou les mérinides et les wattasides , imprimerie mohammed 5 , fès-rabat ,1974 ,p 67.

[4] بناصر البعزاتي : مشاكل العلم بالغرب الإسلامي ص 56.

بقايا الفلسفات القديمة التي لا علاقة لها بالواقع ، فحاول الربط بين حمل النساء وعدمه و المواليد وأقدار الناس مع تقابلات معينة لبعض الأجرام السماوية [1].

ومن المشاكل التي واجهت التعليم أيضا التعدي على أموال الأحباس ، فبعد أن كانت السلطة هي المعتنية بأموال الأحباس والموفرة لها تحولت في كثير من المرات إلى التعدي على هذه الأموال خاصة في أوقات الأزمات والجوائح والاضطرابات السياسية ، و يكون التعدي في الظاهر على أنه دين لكن في الغالب لا يرد ، كما أن الثوار على الدولة كانوا أيضا يتعدون على الأحباس [2].

من الأسباب التي أدت إلى فساد العلم حسب ما نقله لنا التنبكتي و ابن مريم عن الفقيه محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني كثرة التآليف وبناء المدارس وذلك أن " التأليف ألغى رحلة العلم والتي هي أصله وقد كان الرجل ينفق فيها مالا كثيرا وقد لا يحصل إلا على النزر القليل لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه ثم يشتري أكبر ديوان بأبخس الأثمان ولا يستفيد منه إلا قليلا ، فلم يزل هذا الأمر حتى تغير الحال فأصبح الأمر ما يسخر منه الساحر ، وأما البناء فلأنه يجلب الطلبة فيقبلون على أهل الرئاسة والإقراء منهم أو ممن يرضي لنفسه دخوله في حكمهم ، ويصرفهم عن أهل العلم الحقيقيين الذين يدعون إلى ذلك وإذا دعوا لم يجيبوا " [3].

ومن العوائق التي كانت أمام التحصيل العلمي عدم الاستقرار الذي أشرنا إليه سابقا ، فقد تنامت الأحقاد بين المجموعات الثقافية وهو ما كان حجر عثرة أمام الحوار الهادف والبناء فاتخذت المناقشات الفكرية طابعا عنيفا [4].

كما كان للخطر الأجنبي و الخطر الداخلي (الثورات والفتن) دور في تراجع المستوى الثقافي ، أمام هذه الأزمات اضطر الطلبة وأساتذتهم إلى المشاركة في حركة الجهاد لفترات طويلة من السنة وهو ما أثر سلبا على المردود الفكري لهم ، و تولد عن هذه الأزمات شعور بالخوف على الذات وهو ما تجلى في البحث عن تقديس تراث السلف وتحريم الخروج عنه و إعلان غلق باب الاجتهاد ، وذلك

---

[1] المرجع نفسه ص 56.

[2] محمد فتحة : النوازل الفقهية و المجتمع ص 120

[3] التنبكتي : نيل الابتهاج : ج2 ص68-69 ، ابن مريم : المصدر السابق ص 216.

[4] بناصر البعزاتي :مشاكل العلم بالغرب الإسلامي ص 42.

ما يظهر جليا في ضخامة الأعمال الهادفة إلى جمع تراث السلف وذكر تراجم الرجال وعرض مناقبهم [1].

ومن العوائق أمام التحصيل العلمي أيضا الخراب الذي شهده المشرق الإسلامي بسب التتار الذين تفننوا في إحراق الكتب وإزهاق أرواح العلماء و الفقهاء ، وكما هو معروف فالنشاط الفكري والعلمي في المغرب الإسلامي كان على علاقة دائمة بما هو في المشرق بسب رحلات الحج والرحلات العلمية إلى بلاد الشام والعراق ومن ثم تأثر المغرب تأثرا بالغا بما حدث في المشرق [2].

المبحث الثالث :

أنواع العلوم :

اختلفت العلوم التي ظهرت في المغرب الأوسط بين علوم نقلية تتناول العلوم التي تتعلق بالشرع وعلوم عقلية اعتمدت على العقل وما ارتبط به أو ما يصطلح عليه في عصرنا اليوم بالعلوم الدقيقة .

1–العلوم النقلية :

سعى المسلمون إلى فهم روح الإسلام وتعاليمه فعكفوا على دراسة القرآن الكريم و السنة النبوية وعن هذين المصدرين انبثقت العلوم النقلية [3] ، والتي منها :

التوحيد :

علم التوحيد والذي قال عنه التنبكتي على لسان محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي " ليس علم من علوم الظاهر يورث معرفته تعالى ومراقبته غير التوحيد و به يفتح فهم كل العلوم وبقدر معرفته يزيد خوفه تعالى " [4] ، ومن الذين درسوا علم التوحيد الفقيه محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي التلمساني [5] الذي ينتسب إلى قبيلة من قبائل الغرب الحسني نسبة إلى الحسن بن علي من جهة أم أبيه ، أخذ العلم عن أبيه وعن نصر الزواوي والحسن أبركان [6] وله رسالة في العقيدة تحت عنوان : "نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير " هذه الرسالة نشرها وحققها

---

[1] عبد المجيد الصغير : المرجع السابق ص67،68.

[2] عبد المجيد الصغير : المرجع نفسه ، ص66.

[3] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ،ج2 ص 435.

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 206 .

[5] نفسه ،ج2 ص 206.

[6] نفسه ،ج2 ص ص 205، 211 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص 251،260.

جمال الدين بوقلي حسن ضمن كتاب سماه الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد[1]، توفي في الثامن عشر من جمادى الآخرة عام 895هـ/ 1489م [2] .

ومن أشهر علماء التوحيد أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي المنجلاتي الذي كانت له معرفة بالفقه وأصوله وله مشاركة في علم العقائد درس بزواوة و بجاية ورحل إلى إفريقية ثم رجع إلى بجاية وهو أحد المفتين و المشاورين في وقته وكان منقبضا على الناس منقطعا عنهم توفي يوم السبت الحادي عشر جمادى الأولى عام 690/ 1291هـ[3]، و يفهم من له مشاركة في علم العقائد أنه برع في هذا العلم و تضلع فيه .

و برع الفقيه الشريف التلمساني محمد بن أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجه من جهة الحسن ، يعرف بالعلوني نسبة إلى قرية من قرى تلمسان تسمى العلونين ، ونسبه إلى علي بن أبي طالب ثابت ولا ينكره إلا جاهل بالأنساب ، ولد بها سنة 710هـ /1310م قرأ القرآن على أبي زيد بن يعقوب وأخذ العلوم الأخرى عن ابنا الإمام وعمران المشدالي وابن النجار و الشيخ الإبلي وغيرهم ، وله العديد من المؤلفات منها كتاب في القضاء والقدر ، توفي سنة 791هـ/1388م [4] .

و نبغ في علم التوحيد أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي وهو من أعظم العلماء الورعين وكان من العلماء الذين يدعون إلى إظهار نعم الله فمن كان من الذين وسع الله عليه فعليه " أحسن لباس جنسه أو وسطه " ومن مؤلفاته العقيدة المنظومة اللامية المشهورة توفي سنة 848هـ/ 1444م [5].

ومن الذين أتقنوا هذا العلم أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني و هو من العلماء الأجلاء بدأ حياته في الحياكة و النسيج ثم انتقل إلى تعلم العلم فبرع فيه و ألف العديد من المؤلفات منها في العقيدة بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب ، توفي في سنة 899هـ / 1493م [6].

---

[1] جمال الدين بوقلي حسن :الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 ص 387 .

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص ص 211،205 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص 260،251.

[3] الغبريني : المصدر السابق ص 123 .

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص ص 77،69 ، التنبكتي : تطريز الديباج ،ج2 ص ص 99،87 .

[5] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ، ص134.

[6] نفسه ، ج1 ، ص 137،136 ، ابن مريم : المصدر السابق ،ص ص 41،38.

و برز أيضا أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المشهور بابن زاغو المغراوي التلمساني من العلماء الأفاضل الولي الصالح العلامة المحقق القدوة الناسك العابد المصنف أخذ العلم عن أبو عثمان سعيد العقباني وعن أبي يحي الشريف ، وأخذ عنه يحي بن يدير و ابن زكرياء المازوني والحافظ التنسي وابن زكري والحسن القلصادي ، ألف كتاب شرح إحياء علوم الدين ومختصره ، توفي يوم الجمعة 14 ربيع الأول 845هـ /1441م بسبب الوباء وعمره 63سنة [1] ، و هذا الكتاب في العقيدة و التوحيد.

علوم القرآن والتفسير:

كما سبقت الإشارة فالمؤسسات التعليمية الموجودة في المغرب كلها كانت تبدأ بتعليم وتحفيظ المتعلمين القرآن الكريم وسمي هذا العلم بعلم القراءات ثم الانتقال إلى تفسيره ، و دلنا ابن خلدون على سبيلين أساسيين للتفسير وهما:

"التفسير النقلي المسند إلى الآثار المنقولة عن السلف " وتتم بمعرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآيات ولا يتم ذلك إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين " [2]، ويمكن أن نصطلح على هذا النوع بالتفسير المنقول أو المأثور [3].

تفسير الرأي والاجتهاد ويحتاج صاحبه إلى معرفة " اللغة والإعراب و البلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد و الأساليب " [4] .

ورغم ظهور اتجاهين في التفسير فإن الاتجاه الثاني قلما ينفرد و ينفصل عن النوع الثاني [5] ، وما وما يمكن قوله عن علم القراءات أنه " الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة "[6] .

ومن العلماء الذين اشتهروا بهذا العلم :

محمد بن محمد بن مسعود الباهلي الجياني ثم البجائي المعروف بابن المفسر الإمام المفسر المصنف الأوحد نادرة العصر يكنى أبا عبد الله توفي سنة 743هـ /1342م[1] ، و يفهم من هذه الكنية (المفسر) تضلعه في هذا العلم .

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1، ص 54،53، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 123 .

[2] ابن خلدون : المقدمة ص 308 .

[3] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ، ج2 ص437.

[4] ابن خلدون : المقدمة ص308.

[5] نفسه ص308.

[6] الحسن السايح :المرجع السابق ص 8.

ونبغ في هذا العلم أيضا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافري القلعي المعروف بابن الخراط وهو أحد الثقات الصلحاء الرواة قرأ بقلعة بني حماد ولقي بها مشايخ منهم أبو الحسن علي بن محمد بن عثمان التميمي و الأستاذ أبو الحسن علي بن شكر بن عمر القلعي ، انتقل إلى بجاية واستوطن بها ودرس بها وجلس للأستاذية وانتفع الناس به وكان معروفا بالصلاح ،" وكان حسن التلاوة صادق القراءة كان إذا أحيا ليلة سبع و عشرين يرغب الناس في القيام خلفه لصدق قراءته "[2]. و هذه الجملة دليل على معرفته لأحكام الترتيل و صدق القراءة دليل على فهم المعاني .

ومن الذين برعوا في التفسير عمر بن محمد بن مخلوف من أهل دلس يكنى أبا علي أخذ القراءات عن أبي زكريا الجعيدي ، و سكن بجاية وعمل بها على تدريس القرآن الكريم ، توفي رحمه الله سنة 626 هـ[3] /1228م ، و ما يفهم من تدريس القرآن الكريم أي تعليمه و تحفيظه و شرح معانيه.

ومن علماء هذا العلم أبو العباس أحمد النقاوسي فقيها حافظا مجيدا سديد النقل شديد النقد رحل من بلدته إلى تلمسان يعتبر من أوحد أعلامها ومدرسيها أديبا نحويا بيانيا حكيما منطقيا عرف بإحاطته بالتفسير والحديث [4] ، فكلمة إحاطة بالتفسير تحمل دليل على معرفته الكبيرة بهذا العلم .

و نبغ فيه أيضا أحمد بن محمد بن عبد الرحمن مشهور بين زاغو ألف مقدمة في تفسير الفاتحة و التذليل عليه في ختم التفسير، وهو أعلم الناس في وقته بالتفسير وأفصحهم يضرب به المثل في الزهد والعبادة مقبل على الآخرة معرض عن الدنيا يقرأ القرآن ويلازم درس العلم [5].

---

[1] ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تح محمد الأحمدي أبو النور ، مج 2 ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ص 226.

[2] الغبريني : المصدر السابق ص 65.

[3] ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ،تح عبد السلام الهراس ، ج3 ،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، 1995 ص 164

[4] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج1 ص 35 ، التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ج1 ص91.

[5] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 54 التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 123.

و هناك حسين بن علي بن محمد المسيلي الفقيه العالم العابد المحصل الإمام المجتهد يسمى أبا حامد الصغير جمع بين العلم والعمل والورع وعلم الظاهر وعلم الباطن له العديد من المصنفات منها في التفسير كتاب التفكير فيما يشتمل عليه السور والآيات من المبادئ في الغايات[1].

ومن المفسرين عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي وبه عرف الجزائري من الأولياء المعرضين عن الدنيا ومن خيار الصالحين ، ولد سنة 785هـ 1383م / أو 786هـ /1384م عمل في الوعظ ، خرج من جهة الجزائر متوجها نحو بجاية ودخلها سنة 802هـ/ 1399م ، وبها التقى بمجموعة من العلماء منهم الحافظ علي بن عثمان المكلاتي والفقيه الولي سليمان بن الحسن وعلي بن موسى و الإمام النقاوسي فأخذ عنهم ، ومنها توجه إلى تونس ودخلها سنة 809هـ / 1406م وأخذ بها عن أصحاب بن عرفة كعيسى الغبريني والبرزلي ، و خلف العديد من المصنفات نذكر منها تفسيره المسمى الجواهر الحسان، توفي 875هـ /1470م [2] .

ومن الذين برعوا في هذا العلم محمد بن يوسف بن عمر السنوسي له مؤلفات عديدة في التفسير و القراءات وغيرها من العلوم منها شرحه الكبير المسمى المقرب المستوفى ألفه وهو ابن تسعة عشر فتعجب منه شيخه الحسن أبركان وأمر بإخفائه حتى يأخذ ستة وثلاثين لئلا تأخذه العين ، ومختصر في القراءات السبع وغيرها [3].

و قد أتقن محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني هذا العلم و هو من العلماء الأجلاء ، اشتهر بقيامه على يهود توات وألزمهم الذل وقتلهم كما ذكرنا أثناء حديثنا عن اليهود ، ومن مؤلفاته في التفسير ، البدر المنير في علوم التفسير ،و تفسير الفاتحة في ورقة [4] .

كما نبغ في هذا العلم أحمد بن محمد الزواوي عرف بشيخ قراء المغرب أخذ العلم عن شيوخ فاس ، وأخذ عن أبي عبد الله محمد بن رشيد وكان إماما في القراءات و أوتي " مزمارا من مزامير آل داود وكان يصلي بالسلطان التراويح " [5] ، و رغم أننا لا نعلم إن ترك مؤلفات في التفسير إلا أننا

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص 119، التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص167،168.
[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص ص 200-202 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص ص 281 -286.
[3] التنبكتي :كفاية المحتاج ، ج2 ص ص 205- 211 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ، ص ص 251-260.
[4] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج2ص ص218 – 220 ،ابن مريم : المصدر السابق ،ص ص 253-255.
[5] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 87.

من خلال هذه الإشارات استطعنا استنتاج تضلعه في هذا العلم ، فمثلا السلطان يختار الأصلح والأنسب ليصلي به التراويح .

ومن الذين برزوا في هذا العلم محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني أبو الفضل ، عرف بالحفيد وهو فقيه زاهد صالح مفسر آية في التحقيق ولد ليلة الإثنين 14 ربيع الأول سنة 766هـ /1364م ، مطلع على المنقول في الفنون ، أخذ العلم عن أبيه وعمه وخاله الكفيف ابن مرزوق و الإمام سعيد العقباني والعلامة عبد الله بن الشريف التلمساني والولي ابن إسحاق المصمودي والقاضي عمر القلشاني والثعالبي و العلامة نصر الزواوي و الحسن أبركان و غيرهم توفي رحمه الله يوم الخميس 14 شعبان 842هـ /1439م[1] ، ويفهم من آية في التفسير أنه عالم بالتفسير و أحواله .

علم الحديث :

الحديث هو ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو كما عرفه ابن حجر " والحديث ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم "[2]، و اشتمل الحديث على علوم كثيرة حسب ابن خلدون منها ما ينظر في الناسخ والمنسوخ وهو "من أهم علوم الحديث و أصعبها"، ومن علوم الحديث " النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط " ، وكذا علم معرفة رواة الحديث من حيث الجرح والعفة وكذا مراتب هؤلاء الرواة من الصحابة و التابعين وهكذا [3] ، أما الأسلوب المتبع في تدريس الحديث فكان يقوم على النقل الغزير و دراسة رواية العلماء و أنسابهم مع ضبط المتن لغويا و فقهيا [4].

ومن العلماء الذين اشتهروا بتضلعهم في هذا العلم :

عيسى أبو الروح بن مسعود بن منصور بن يحى بن يونس بن يوينو بن عبد الله بن أبي حاج المنكلاتي الحميري الزواوي المالكي كان فقيها عالما متفقها في العلوم ، تفقه بزواوة على يد أبي يوسف يعقوب الزواوي وله تصانيف عديدة ، إذ شرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا سماه " إكمال الإكمال " جمع فيه أقوال المازري ، والقاضي عياض والنووي وأتى فيه بفوائد جليلة من كلام

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ، ص ص 137- 146 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ،ص ص170-182،

[2] ابن حجر العسقلاني :نزهة النظر شرح نخبة الفكر ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،ص 23.

[3] ابن خلدون : المقدمة ، ص309 .

[4] الحسن السايح :المرجع السابق ، ص10.

ابن عبد البر والباجي وغيرهما ، كان مولده سنة 664 هـ /1265م ، توفي سنة 743هـ /1342م بالقاهرة [1].

و نبغ في الحديث أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي من سكان قلعة بني حماد ، كان جده ميمون قاضيا بها قرأ ببجاية ولقي بها العديد من الفقهاء والمشايخ منهم الشيخ أبو الحسن الحرالي والفقيه أبو الحسن بن أبي نصر والفقيه أبو بكر ابن محرز والفقيه أبو المطرف ابن عميرة وأبو زيد ابن الساطح وغيرهم ،كان يلقي درسا يحضره العديد من الطلبة ينتاول فيه التفسير والحديث ، توفي رحمه الله سنة 673 /1274م ببجاية [2] ، يفهم من يلقي درسا في الحديث أنه متضلع في هذا العلم فدرس الحديث يكون بذكر الحديث و شرحه على أقل شيء .

ومن الذين برعــوا في علم الحــديث محمد بن علي بن حمادو بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي يكنى أبا عبد الله ، أصله من قرية حمزة من حوز قلعة بني حماد وسكن بجاية كان نحويا وفقيها محدثا توفي سنة 628هـ/ 1230م [3]، فالوصف الأخير الذي وصف به دليل على إتقانه لعلم الحديث .

ومن علـــماء الحديث أحمد النقاوسي أبو العباس فقيها حافظا مجيدا سديد النقل شديد النقد كان محيطا بالحديث [4]، فكلمة محيطا بالحديث معناها ملما به .

و نبغ في هذا العلم عمر ابن موسى المشدالي ولد بمشدالة سنة 670هـ / 1271م فر من بجاية بعد حصارها ، راسله صاحب تلمسان أبي تاشفين وقربه وأحسن إليه فكان عالما مفتيا ومدرسا بتلمسان ، ومن العلوم التي درسها الحديث توفي رحمه الله سنة 745هـ / 1344م [5] ، لا ندري هل له مؤلفات في الحديث غير أن تدريسه له دليل على إتقانه له.

---

[1] ابن فرحون المالكي: المصدر السابق ، ج2 ص ص 72 -73.

[2] الغبريني : المصدر السابق ص 33-36.

[3] ابن الآبار : المصدر السابق ، ج2 ص 166

[4] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج1 ص 35 ،التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص91.

[5] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص ص 291،293 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 396

و برز في علم الحديث محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني أبو الفضل ، ألف العديد من المؤلفات منها رجزان في عــلوم الحديث، جمع فيهمــا ألفيتي العراقي وابن ليون في 1700 بيت [1] .

ومن علماء الحديث محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي و يعرف بالتلمساني كان فقيها ومحدثا ومفسرا وأديبا سُئل أبي داود لما خرج من تلمسان عن علمائها فقال "العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي ، والرياسة مع ابن زكري " ،أخذ العلم عن ابن مرزوق والشيخ قاسم العقباني وابنا الإمام وإبراهيم التازي وغيرهم و أخذ عنه العلم ابن صعد والخطيب ابن مرزوق السبط وابن العباس الصغير و بلقاسم الزواوي وغيرهم و نقل التنبكتي عن أبو عبد الله بن العباس قوله:" حضرت يوما إقراءه تفسيرا و حديثا و فقها و عربية و غيرها " ،توفي في جمادى الاولى 869هـ /1464م [2] يفهم من هذا القول أنه من علماء الحديث .

ومن المحدثين أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني جد الحفيد الإمام ابن مرزوق لأمه ، من الفقهاء والمحدثين نشأ بأحواز تلمسان وأخذ عن ابني الإمام استعمله أبو الحسن المريني على الزكاة وسماع الشكاة ثم تولى القضاء في زمن أبي عنان [3] ، و كلمة من المحدثين ترشدنا إلى معرفته بهذا العلم .

علم الفقه :

هو " معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر و الندب والكراهة و الإباحة وهي متلقاة من السنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه " [4]، وهو يتناول مجمل حياة الإنسان السياسية الاجتماعية والاقتصادية والشخصية والدينية ويضع القواعد التي تنظمها [5] ، و عرفت الأمة الإسلامية أربعة مذاهب فقهية كبرى الحنفي المالكي الشافعي والحنبلي [6]، أما بلاد المغرب فاتبعت في أغلب فتراتها مذهب الإمام مالك إذا

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص ص 137، 146 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص170،182.

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص 215،216 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ،ج2 ص 261.

[3] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 103، 104

[4] ابن خلدون : المقدمة ص 312

[5] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ، ج2 ص 445.

[6] ابن خلدون : المقدمة ص ص 313،315

استثنينا فترة السيطرة الفاطمية و فترة الدولة الموحدية التي عرفت انتشار المذهب التومرتي . أما فترة الدراسة فإن المذهب المالكي كان مسيطرا على كل أقطار المغرب ، أما أسباب انتشار مذهب الإمام مالك في بلاد المغرب فقد بينها الكثير منهم ابن خلدون في مقدمته [1] .

و برز العديد من المغاربة في الفقه و ألفوا الكثير من المؤلفات نذكر منهم :

عيسى أبو الروح بن مسعود بن منصور بن يحى بن يونس بن يوينو بن عبد الله بن أبي حاج المنكلاتي الحميري الزواوي المالكي كان فقيها عالما متفقها في العلوم تفقه بزواوة على أبي يوسف يعقوب الزواوي وله تصانيف عديدة ، إذ شرح مختصر أبي عمرو بن الحاجب في الفقه ، فوصل فيه " إلى كتاب الصيد " في سبع مجلدات واختصر جامع ابن يونس ، وشرح المدونة وصنف في الوثائق والمناسك [2].

ومن الفقهاء محمد بن أحمد بن بكر بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري ويكنى أبا عبد الله ألف كتابا يشتمل أزيد من مائة مسألة فقهية ضمنها كل أصل من الرأي والمباحثة توفي رحمه الله ذي الحجة من عام 758هـ/1356م [3].غير أننا لم نعرف عنوان هذا الكتاب .

ومن الذين برزوا في هذا العلم محمد بن محمد بن حسن اليحصبي البروني التلمساني استقر بالجزائر وهو فقيه من فقهاء المذهب موصوف بالعلم والإتقان من الذين تعلم عليهم ابنا الإمام أبو زيد ، وأخوه أبي موسى وعن أبي عبد الله الآبلي والفقيه عمران المشذالي وغيرهم و انفرد بمعرفة مختصر ابن الحاجب الفقهي وله شرح قارب الإكمال و كان على قيد الحياة في الوقت الذي كتب فيه ابن فرحون كتابه[4] و ما يمكن فهم من العبارة الأخيرة أن شرحه يمكن أن يكون قد أكمله كما يمكن أنه لم يكمله لأن ابن فرحون تحدث عنه و هو من الأحياء ، غير أننا لا نملك الإجابة اليقين هل أكمل هذا الشرح أم لا لأن الذين جاؤوا بعد ابن فرحون لم يتحدثوا عنه .

ومن من برع في هذا العلم أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي من قلعة بني حماد أدركه الغبريني يدرس بالجامع الأعظم ببجاية ، وكان حافظا للخلاف العالي والمذهب

---

[1] نفسه ص 315.

[2] ابن فرحون : المصدر السابق ، ج 2 ص 72 ،73.

[3] نفسه ص 265.

[4] ابن فرحون : المصدر نفسه ،ج2 ص 323

المالكي حسن النظر والتوجيه أخذ العلم ببجاية ولقي العديد من الفقهاء منهم أبو زكرياء اللقنتي وأبو زيد اليزناسني وأبو العباس الملياني وغيرهم ، ومن الأسباب التي ساعدته على التوفيق أنه أُخذ أسيرا فوافق البعض من الفقهاء في الأسر فتعلم عنهم وبعد فك أسرهم واصل التعلم عنهم فوصل إلى ما وصل إليه ، ومن تلاميذه الغبريني صاحب كتاب عنوان الدراية الذي قال " قرأت عليه وسمعت وأخذت عنه وهو أول من بدأت القراءة عليه وكان يبدأ في مجلسه بالرقائق وبعد ذلك بقراءة الفقه والحديث والرواية وكان محبا للعلم " توفي رحمه الله 669هـ / 1270م[1] ، فهو متمكن من الفقه مادام من الذين يدرسونه .

ومن الفقهاء أبو عبد الله محمد بن عمر بن صمغان من قلعة بني حماد كان جنديا و رأى في منامه رؤيا قيل له فيها يا محمد ليس الجندية من شأنك ، فَترك الجندية واشتغل بقراءة العلم فاجتهد وحصّل ، ثم رحل إلى بجاية وأخذ بها عن أبي محمد عبد الحق الإشبيلي و "كان له علم بالحديث والفقه "وكان نائبا عن القاضي أبي عبد الله الأصولي في الأنكحة في مدة ولايته ببجاية وكان يقرأ عليه السيد أبو الحسن بن عبد المؤمن الموطأ و له مجلس علم بداره يجتمع له فيه خواص الطلبة وكان له جلال [2] ، من خلال هذا العرض نستنتج أنه من المتفقهين في الدين فلا يكون قاضيا و نائبا لقاضي للأنكحة إلا من كان فقيها عارفا بكل الأمور الفقهية المتعلقة بالزواج و الطلاق و الخلع وما يدخل تحتها من أمور .

ومن الذين برزوا في الفقه أبو علي عمر بن عزون السلمي من الذين رحلوا إلى بلاد المشرق ثم عاد ودخل بجاية وكان من المفتين بها ولم يقتصر على الفتوى والفقه بل كان له حانوت يجلس فيه بسوق قيسارية ببجاية[3] ، فتصديه للفتوى ببجاية دليل على معرفته لعلم الفقه وتضلعه فيه .

و برع في هذا العلم محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني ويعرف بالندرومي يكنى أبا عبد الله سمع من أبيه وتفقه عنه وعن أبي علي بن الجهار النحوي ، وله عدة تآليف منها كتاب الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه واقتضبه من الكتاب الكبير ، وكتاب الجامع بين المنتقى والاستذكار في عشرين سفرا يشتمل على نحو ثلاثة ألاف ورقة ، وكتاب إرشاد المسترشد وبغية المريد المستبصر المجتهد

---

[1] الغبريني : المصدر السابق ص 33،32

[2] الغبريني : المصدر نفسه ص 99.

[3] نفسه ص 116 .

والفيصل الجازم في فضيلة العلم والعالم ، توفي بتلمسان سنة 625 هـ /1227م[1] ، و هي كتب في مجملها كتب فقهية .

ومن الفقهاء أحمد بن الحسنين علي بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني المشهور بابن الخطيب وبابن قنفد المصنف ولد عام 740هـ / 1339م ، سافر إلى عدة بلدان منها المغرب الأقصى وتجول بها و التقى بعلمائها الأجلاء و الصلحاء فيها ، ألف الكثير من الكتب نذكر منها شرح الرسالة في أربعة أسفار و شرح تلخيص ابن البنا وشرح ألفية ابن مالك ، توفي عام 810هـ /1407م [2]،وكلها كتب فقهية .

و من الذين اشتهروا بهذا العلم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الأستاذ الندرومي رحل للقاهرة وتصدر بها للإقراء اختصر شرح الجمل لشيخه ابن مرزوق الحفيد و كفاية العمل ومختصر شرح ابن مرزوق ، كان حيا بعد 830 هـ /1426م [3]، و هي كتب فقهية .

ومن الفقهاء أحمد بن يونس بن سعيد القسنطيني تفقه على البرزلي وابن غلام الله القسنطيني و ألف رسالة في ترجيح ذكر السيادة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجوبة عن أسئلة من صنعاء ،نقل عنه في باب الحج من شرح المختصر ، توفي في شوال سنة 878هـ /1376م [4].

ومن الذين اشتهروا بالفقه أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي الفقيه العلامة حامل لواء مذهب الإمام مالك على رأس المائة التاسعة أخذ العلم على الإمام قاسم العقباني و ولده أبي سالم العقباني ، ومحمد بن أحمد بن قاسم العقباني ، والإمام محمد بن العباس وأبي عبد الله الجلاب ، والخطيب الصالح بن مرزوق وغيرهم ، ودرس على يده مجموعة من الفقهاء منهم أبي عباد بن مليح اللمطي والأستاذ أبي زكرياء السوسي و عبد السميع المصمودي ، درّس المدونة ولزم دروس الفقه كان فصيحا حتى قيل عنه "لو حضر سيبويه لأخذ النحو من فيه " قام بجمع فتاوى علماء فاس

---

[1] ابن الآبار : المصدر السابق ، ج2 ص 165- 166

[2] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج1 ص 45-46 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 110.

[3] عبد الحميد حاجيات : تطور مدينة ندرومة في عهد بني زيان مقال منشور في تاريخ ندرومة ونواحيها أعلام أقطاب وشخصيات ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، الجزائر ص 100.

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص 62.

والأندلس في كتابه المعيار ، وأما فتاوى إفريقية وتلمسان فأخذها من نوازل البرزلي والمازوني ، توفي سنة 914 هـ /1508م ، وناهز من العمر ثمانين سنة [1].

و برز في هذا العلم إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام المطماطي التنسي انتهت إليه رياسة التدريس والفتوى في المغرب كله ، كانت ترد إليه الفتوى من كل أقطار المغرب من مؤلفاته شرح التلقين في عشرة أسفار كان موطنه تنس عرض عليه السلطان في الكثير من المرات الإقامة في تلمسان فامتنع ، واستقر فيها بغرض التدريس فكان له طلبة من الشرق والغرب [2] ، و يفهم من انتهت إليه رياسة التدريس و الفتوى أنه كان إمام زمانه في هذا العلم ، و لم يكن معروف في المغرب الأوسط فقط بل في كل أقطار المغرب ، و لذا كانت ترد عليه الأسئلة من هناك وهذا دليل على معرفته الواسعة بهذا العلم .

ومن الذين برعوا في هذا العلم إبراهيم بن فائد بن موسى بن هلال الزواوي القسنطيني شارح متن خليل ولد سنة 769هـ / 1367م أخذ الفقه عن مجموعة من العلماء منهم أبو عبد الله القلشاني وأبي الحسن علي بن عثمان ، استقر بقسنطينة وله مؤلفات منها تسهل السبيل ومختصر خليل وشرح ألفية بن مالك ، وفيض النيل توفي رحمه الله سنة 857هـ / 1453م [3] ، و هي مؤلفات في الفقه .

ومن الفقهاء بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشدالي البجائي أخذ عن أحمد بن عيسى وعبد الرحمن الوغليسي وكان من حفاظ المذهب المالكي وهو في بجاية كالبرزلي في تونس ، انتفع به خلق كثير كولده الإمام العلامة أبي عبد الله ، و هو مكمل حاشية الونوغي وأبو زيد الثعالبي وغيرهما[4].

ومن الذين برعوا في علم الفقه سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي يعرف بالفقيه الإمام الصدر العالم من صدور الإسلام في وقته ، علما ، ودينا أخذ العلم عن عمه إبراهيم وأبي عبد

---

[1] التنبكتي : المصدر نفسه ،ج1 ص 70 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص 144

[2] التنبكتي كفاية المحتاج ،ج1 ص 81 .

[3] التنبكتي : المصدر نفسه ،ج1 ص 101.

[4] نفسه 114 التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1ص 163.

الله المشدالي وكان من أئمة الفقه والفرائض ، شرح المدونة تولى القضاء ثم تركه ولازم التدريس والإفتاء إلى أن توفي رحمه الله سنة 887هـ /1482م [1].

ومن الذي برزوا في هذا العلم عبد الله محمد بن أحمد ، الشريف التلمساني ، له عدة فتاوى في المعيار [2].

ومن الفقهاء الإمام أبو زيد ابن الإمام عبد الرحمن وهو الشيخ الراسخ في العلم من قرية برشك من أعمال تلمسان و غادر نحو تونس بعد قتل والده وأخذ منها العلم الوفير ورجع إلى الجزائر واشتغل في التعليم ، ثم انتقل إلى مليانة ومنها إلى تلمسان ،وله مجموعة من المصنفات منها شرح على بن الحاجب الفرعي وأخذ عنه مجموعة من العلماء منهم الشريف التلمساني والإبلي والمقري والخطيب بن مرزوق وسعيد العقباني وغيرهم[3].

ومن الذين برعوا في الفقه عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي خلف العديد من المصنفات نذكر منها ، كتاب روضة الأنوار ونزهة الأخيار في الفقه ، وكتاب قدر المدونة ، وكتاب الأنوار المضيئة وغيرها [4].

ومن الفقهاء علي بن موسى بن علي بن هارون وبه عرف ، المطغري –مطغرة منطقة بضواحي تلمسان – من الفقهاء الأجلاء أخذ العلم عن ابن غازي ولازمه مدة عشرين سنة، قيل عنه أنه خزانة العلم وأنه أفقه من الونشريسي ، توفي رحمه الله عن عمر يناهز ثمانين سنة 951 هـ /1544 م [5]، ما يمكن أن نفهمه من أنه أفقه من الونشريسي اطلاعه على هذا العلم ، و مقارنته بالونشريسي ثم تفضيله عليه دليل على علم الثاني و شهرته و أن الأول يضاهيه و أعلم منه غير أنه أقل منه شهرة.

ومن الذين برعوا في هذا العلم قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني العلامة القدوة، تعلم على يد والده أبي عثمان و ولي قضاء تلمسان في صغره ،كما اشتغل في التعليم وتدريس العلوم ومن العلوم التي كان يدرسها الرسالة لأبي زيد ومختصر ، خليل توفي في ذي القعدة عام 845هـ / 1441م ، ودفن قرب الشيخ ابن مرزوق ، و أخذ عنه ابنه أبو قاسم وحفيده محمد بن أحمد بن

---

[1] التنبكتي :كفاية المحتاج ، ج1ص 142،141.

[2] نفسه ، ص 171 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 244،243.

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص 188،187 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص 267،266 .

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج،ج1 ص ص 202،200 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص ص 281 ،286

[5] التنبكتي :كفاية المحتاج ،ج1 ص 287

قاسم وابن مرزوق [1]، من خلال تدريسه للرسالة ومختصر خليل نستنتج أنه من الفقهاء المشهود لهم بتضلعهم في الفقه .

و يعتبر محمد بن عبد الله بن عبد النور الندرومي من الفقهاء الأجلاء تفقه على يد ابنا الإمام، وكان من الذين عمروا مجلس أبا الحسن المريني بعد أن استشار في ذلك ابنا الإمام و ولي قضاء العسكر عند أبو الحسن توفي 749هـ / 1348م [2].

ومن الفقهاء محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي عرف بابن العباس التلمساني إمام فقيه وهو من أئمة تلمسان أخذ العلم عن أبي الفضل ، والإمام ابن مرزوق وقاسم العقباني وغيرهما وأخذ عنه المازوني وابن زكري والسنوسي والتنسي والونشريسي وابن صعد وغيرهم ، من مؤلفاته شرح لامية ابن مالك وشرح العروة الوثقى و كتب في تنزيه الأنبياء من فرية الإلقاء ، توفي بالطاعون ثمان عشر ذي الحجة سنة 871هـ /1466م [3] .

كما برز في الفقه محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي ، كان فقيها،له جوابا مطولا عن مسألة يهود توات [4] ، و هو من الفقهاء المعروفين بتفقههم الكبير و لذلك راسله محمد بن عبد الكريم المغيلي ليأخذ رأيه في قضية يهود توات .

وممن برع في هذا العلم محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني من العلماء الأجلاء ومن مؤلفاته مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، وله أيضا مغني النبيل في شرح مختصر خليل ، تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين [5].

ومن الفقهاء منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي أبو علي من الفقهاء المحصلين للعلم رحل إلى المشرق وبها حصّل العلم ، ومن الذين لقيهم بالمشرق العز بن عبد السلام ، وهو من أهل الشورى والفتوى ،كان من المعلمين ويستعمل مع طلبته طريقة السؤال والجواب و من العلوم التي كان يدرسها مذهب الإمام مالك و ويجيب على النوازل ، ومن مؤلفاته شرح الرسالة ولم يكمله ، توفي سنة

---

[1] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج2 ص 12 ، 13 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص 14،11 .

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1ص 47 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1ص 59.

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص 188.

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص 216،215 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ، ج1ص 261.

[5] التنبكتي ،كفاية المحتاج ،ج1 ص ص218 ، 220.

731هـ / 1330م عن عمر يناهز المائة سنة [1] ، و عاب العبدري عن هذا العالم جهله بالرواية حيث قال عنه " فمررنا على قرية ملالة وهي بالقرب من بجاية فرأيت بها الفقيه أبا علي منصور بن محمد الزواوي المشدالي ....قرأ الأصول والفروع دراسة وتفقها وله منها حظ وافر ولكنه غير معتن بالرواية و لا له حظ فيها وقد حدثني انه حضر وفاة أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل السلمي بالزعقة من رملة الشام وسألته عن التاريخ وكان غرضي فلم يحفظه شهرا ولا عاما وهذا نهاية ما يكون من الإغفال وحسبنا الله في كل حال" [2]، هذا ربما يتنافى و الفطنة التي قد يكون عليها عالم ذائع الصيت و العبدري اعترف بعلمه فربما تكون قضية عدم حفظه الشهر و لا العام لا أساس لها من الصحة .

ومن الذين برعوا في هذا العلم موسى بن عيسى بن يحي المازوني المغيلي الفقيه الجليل والد صاحب النوازل كان قاضيا بمازونة ، ألف كتابا في الفقه سماه الرقائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق [3] .

كما برز في الفقه أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني من مؤلفاته مسائل في القضاء والفتوى وله فتاوى في المعيار [4] .

ومن الفقهاء عبد العزيز بن مخلوف العيسى الفقيه الجليل عرف ب " خزانة المذهب " ولد يوم الثلاثاء 13 جمادى الثانية سنة 602هـ /1205م وقد اشتغل بقضاء الأنكحة ببجاية ، ثم بقضاء بسكرة وقسنطينة والجزائر [5] ، و ما ورد في المتن دليل على تفقهه الكبير خزانة المذهب و توليه توليه للقضاء .

ومن الذين اشتهروا بالفقه عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني عرف بالوزان من عباد الله الصالحين ، وهو من الذين يرجحهم أبو زكرياء الزواوي على كل علماء عصره وقد قيل أنه كان من الذين يُقرئ الجن ، قرأ على اليستيني ، وقرأ عليه عبد الكريم الفكون و أبي الطيب البسكري ويحي بن سليمان ، ومن مؤلفاته ، كتــاب الطوالع والمواقف سماه البضاعة المزجاة في غاية التحقيق

---

[1] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج1 ص ص 254،256 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ، ج1ص ص 306،308.

[2] العبدري :المصدر السابق ص 561.

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 250 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ، ج1 ص 301.

[4] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 136-137.

[5] نفسه ص 296.

والإيضاح لتلك الأغراض ، تعليق على قول خليـل في نية الحالف ، وفتاوى في الفقه ، توفي 960هـ/1552م [1].

و هناك محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني الشيخ الفقيه الزاهد ولي الله رحل من تلمسان إلى فاس وسبب رحيله أنه كان شابا مليح الصورة مرت به مرة امرأة جميلة فجعل يسترق النظر إلى محاسنها فقالت له اتق الله يا أبا الفتوح " يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُدُورْ " [2]، فانتفع بكلامها وزهد في الدنيا وارتحل إلى فاس ، هو أول من أدخل إلى فاس مختصر خليل سنة 805هـ / 1402م، و أخذ العلم بها عن شيخ الجماعة موسى بن عيسى بن علال المصمومدي ، وكان يضيق صدره من مخالطة أهل النميمة وأهل القول الذي لا فائدة فيه ويتمنى أن يجد من يعينه على الخير وفعله فدلوه على عبد الله بن حمد وكان من صلحاء مكناس فصاحبه [3].

ومن الفقهاء محمد بن عمر الهواري كان إماما يجوب الأقطار تعلم بفاس وبجاية واخذ بها العلم عن أحمد بن إدريس و عبد الرحمن الوغليسي وكان يثني على أهل بجاية كثيرا لمحبتهم للفقراء والغرباء ، ومن المناطق التي نزل بها وهران وبها ألف كتابه السهو ، وقد عيب على هذا الكتاب أنه لم يراع قواعد اللغة فرد على من عاب عليه ذلك بقوله " أما سهوي فهو أن الفقراء إنما ينظرون فيه إلى المعنى " ، و نال هذا الكتاب درجة كبيرة من التقدير حتى قال عنه الفقيه أبا الحسن التالوتي " لكل من قرأ السهو واعتنى به أن لا يجوع ولا يعرى ولا يعطش و أنه ضامنه في الدنيا و الآخرة " ، توفي بوهران سنة 843هـ /1493م [4] .

ومن الفقهاء الأجلاء يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى المازوني قاضي مازونة أخذ العلم عن ابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وبن زاغو ألف نوازله المشهورة المفيدة في فتاوى المتأخرين من أهل تونس وبجاية وتلمسان والجزائر وغيرهم ، والتي استمد منها الونشريسي مادته في نوازله توفي بتلمسان سنة 883هـ /1429م [5].

أصول الفقه :

---

[1] نفسه ص 345.

[2] سورة غافر الآية19.

[3] التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ج2 ص 170.

[4] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج2 ، ص 193،194.

[5] نفسه ص 340.

اعتبر ابن خلدون أن الجدل و الخلافيات من أصول الفقه وعرفه ب " النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام و التكاليف و أصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة المبينة له " [1]

و اشتهر علماء عدة أتقنوا هذا العلم وتضلعوا فيه منهم :

أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوي المنجلاتي له معرفة بالفقه وأصوله وله مشاركة في علم العقائد قرأ ببجاية ورحل إلى إفريقية ثم رجع إلى بجاية وكان أحد المفتين و المشاورين في وقته[2] وصفه التنبكتي بقوله من " العلماء المتبحرين في علم الأصول والفروع"[3].

ومن علماء الأصول إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل وهران نسبة إلى قبيلة اللنة البربرية يعرف بالإمام أبو سالم وأبو إسحاق ، وهو ناظم بليغ زاهد ولي صالح ، إمام في علوم القرآن حافظ للحديث بصير بالفقه وأصوله ذا معرفة تامة بأصول الدين كان حسن الخلق جميل العشرة اشتهر ذكره في الأفاق وفضله وعلمه وحتى إذا بالغ أحد في وصف رجل قال " انه سيدي إبراهيم التازي " وإذا امتلأ أحد غيظا قال " لو كنت في منزلة إبراهيم التازي ما صبرت لهذا " ، لصبره على إذاية الخلق والمكاره واصطناع المعروف لهم والمدارة ،وقد أخذ عنه العلم جماعة من الفقهاء كالحافظ التنسي والإمام السنوسي توفي سنة 866هـ / 1461م [4]، و يفهم من بصير بالفقه و أصوله معرفته و إتقانه لهذا العلم .

ومن الذين تضلعوا في هذا العلم حسين بن علي بن محمد المسيلي له العديد من المصنفات منها التذكرة في أصول الدين ، والنبراس في الرد على منكري القياس [5].

ومن الذين أتقنوا هذا العلم أبو زيد ابن الإمام عبد الرحمن بن محمد و من المصنفات التي ألفها في أصول الفقه شرح على بن الحاجب في الفروع [1] .

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ص 317.

[2] الغبريني : المصدر السابق ص 123

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج، ج2 ص 33.

[4] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج1 ص ص 104،106.

[5] نفسه ص 119، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص167،168.

ومن الأصوليين قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني له كتاب المختصر في أصول الدين[2].

ومن الذين برعوا في هذا العلم الشريف التلمساني له العديد من المؤلفات منها كتاب في الأصول سماه مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول [3] .

وممن تضلع في هذا العلم منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي أبو علي من العلوم التي كان يدرسها الأصول [4] ، فتدريسه لهذا العلم كان بعد أن اتقنه و لا يمكن لمن لا يتقن علما أن يدرسه .

ومن الذين أتقنوا هذا العلم كذلك أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني وهو من العلماء الأجلاء قيل عنه " الحافظ المتفنن الإمام الأصولي الفروعي المفسر الأبرع المؤلف الناظم الناثر " [5]، فكلام الإمام الأصولي دليل على تضلعه في هذا العلم .

وهناك محمد بن إبراهيم اشتهر بالأصولي من ضواحي بجاية كان جلدا صلبا قوي الجأش لا تأخذه في الله لومة لائم عالما بالفقه و الجدل ، توفي ذبيحا في بجاية 612هـ /1215م [6].

علم التصوف :

اعتبر ابن خلدون هذا العلم من العلوم الشرعية الحديثة في ملة الإسلام وأنه لم يكن لها أصل على زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا زمن الصحابة والتابعين و تابعي التابعين ،دون أن يعطينا تاريخا دقيقا لظهور هذا العلم أما تعريفه " العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه و الانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة "[7] .

ظهر التصوف في القرن الثالث للهجرة و اختلف في أصل التسمية بين من قال أنه مشتق من الصفاء و الصوفانة وصوفة أو صوفة القفا وقيل من لبس الصوف ، فالصفاء لصفاء قلوبهم ، وأما من

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج، ج1 ، ص 187،188 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ص 266،267.

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج، ج2 ص 12، 13 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ، ص ص11،14 .

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص ص 69،77 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج2 ص ص 87،99 .

[4] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج2ص ص 254،256 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ،ج2 ص ص 306،308.

[5] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 136،137.

[6] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج2 ، ص 26.

[7] ابن خلدون : المقدمة ص 328.

الصوفانة وهي بقلة فلاجتزائهم بأكلها عن الطعام ، أما صوفة فهي قبلة كانت تجيز على الحجاج أما من صوفة القفا فلانعزالهم للعبادة والطاعات أما من لبس الصوف فيقال تصوف إذا لبس الصوف لكنهم لم يختصوا بلبس الصوف .[1]

ومن أشهر المتصوفة :

حسين بن علي بن محمد المسيلي الفقيه العالم العابد المحصل إمام التصوف السني جمع بين العلم والعمل والورع وعلم الظاهر وعلم الباطن ، له العديد من المصنفات منها في التصوف كتاب التفكير فيما يشتمل عليه السور والآيات من المبادئ في الغايات[2] .

ومن المتصوفة أبو زكريا يحي بن زكريا بن محجوبة القرشي السطيفي كان من المتعبدين الزهاد الأولياء رحل إلى المشرق ولقي مشايخ واقتصر على أبي الحسن الحرالي واستفاد منه ، في علم الظاهر والباطن ، كان صاحب كرامات وكان مستجاب الدعوة وله تأليف في شرح أسماء الله الحسنى ، توفي رحمه الله في ذي القعدة سنة 677 هـ1278م[3] ، و يفهم من له كرامات أنه من المتصوفة .

ومن علماء التصوف أبو إسحاق إبراهيم بن ميمون بن بهلول الزواوي كان منقطعا عن الدنيا متعبدا متزهدا كف بصره في آخر حياته توفي في شعبان سنة 686هـ / 1287م[4].

ومن الذين انتهجوا هذا النهج محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني ويعرف بالندرومي له مؤلفات منها في التصوف كتاب إرشاد المسترشد وبغية المريد المستبصر المجتهد والفيصل الجازم في فضيلة العلم والعالم ، توفي بتلمسان سنة 625 /1226م هـ[5] .

ومن الذين تضلعوا في التصوف أحمد بن الحسين علي بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني المشهور بابن قنفد ولد عام 740هـ / 1339م ، سافر إلى عدة بلدان منها المغرب الأقصى وتجول بها لاقيا الصالحين والعلماء الأجلاء ألف الكثير من الكتب نذكر منها في التصوف ، وسيلة الإسلام

---

[1] الباديسي : المصدر السابق ص 37 .

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 119 التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص167،168.

[3] الغبريني : المصدر السابق ص ص 51،49

[4] الغبريني : المصدر نفسه ص 94

[5] ابن الآبار : المصدر السابق ، ج2 ص 165، 166

بالنبي عليه السلام ، أنس الفقير في عز الحقير وغيرها من المؤلفات ، توفي عام 810هـ /1407م[1].

و هناك محمد بن محمد بن علي الزواوي البجائي ، عرف بالفراوصني وهو من المتصوفة أخذ العلم عن الفقيه عبد الرحمن بن أحمد اليحمدي الزواوي والفقيه أحمد بن موسى بن عزيز الزواوي والقاضي أبي القاسم بن سراج الغرناطي ومحمد بن مرزوق الكفيف و الفقيه أبي زيد القسنطيني ، الذي أخذ علم التصوف عن أبي العباس أحمد بن إبراهيم الزواوي وأبي عثمان سعيد الصفروي التونسي[2].

ومن المتصوفة العالم الكبير أبو العيش الخزرجي كان من كبار الصلحاء والعلماء ، تخلى عن الدنيا وأقبل على الآخرة ومن ذلك أنه تخلى عن الكتابة للأمراء و أجاب داعي الحق له مؤلفات عدة منها " شرح أسماء الله الحسنى " وهو كتاب في التصوف[3] .

وممن برعوا في علم التصوف محمد بن أحمد بن بكر بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري ويكنى أبا عبد الله ، وهو من الذين يتكلمون في طريق الصوفية كلام أرباب المقال ويعتني بالتدوين ومما دونه في التصوف " إقامة المريد " ، " رحلة المتبتل " ، " الحقائق والرقائق"، مات في ذي الحجة من عام 758هـ /1356م [4].

علوم اللغة :

نقصد بها علوم النحو والصرف والنثر والشعر وكل ما يتعلق بهذه العلوم .

ومن الذين اشتهروا بهذه العلوم نذكر :

محمد بن أحمد بن بكر بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري ويكنى أبا عبد الله كان قائما على العربية [5] ، و ما يفهم من قائما على العربية أي بتدارسها و تعليمها والبحث في معانيها .

ومن اللغويون أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي كان بارعا في النحو واللغة و الأدب وكان يلقي درسا يحضره العديد من الطلبة ،له كتاب سماه "الموضح في علم

---

[1] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج1 ص 46،45 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 110.

[2] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ، ص 197

[3] ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ،ص 184.

[4] ابن فرحون : المصدر السابق ج2 ،ص264،265.

[5] ابن فرحون : المصدر نفسه ، ج2 ص 265.

النحو" وله "حدق العيون في تنقيح القانون " وله " نشر الخفي في مشكلات أبي علي " هو على الإيضاح وكان يؤثر هذا الكتاب على غيره من الكتب [1].

ومن الذين برعوا في هذا العلم أبو عبد الله محمد بن يحي بن عبد السلام أصله من دلس سكن بجاية لقي بها العديد من المشائخ وبرع في الأدب[2] ، غير أننا لا نعلم إن كانت له مؤلفات .

و هناك اللغوي يوسف بن أحمد بن عياد التميمي من أهل مليانة يكنى أبى الحكم ويغلب عليه الأدب والشعر دخل بلاد الأندلس وسكن بدانية وكان كثير الارتياد على بلنسية توفي بدانية ليلة عاشوراء سنة 621هـ / 1224م [3] لا نعرف له مؤلفات و لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أسماء لمؤلفاته إن وجدت.

ومن الذين تضلعوا في هذا العلم محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني سمع من أبيه وتفقه عنه وعن أبي علي بن الجهار النحوي و أخذ عنهما العربية وله عدة تآليف منها كتاب الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه اقتضبه من الكتاب الكبير [4] ، و يفهم من الشطر الثاني من عنوان الكتاب أنه من النحويين .

كما برع أيضا أبو العباس أحمد النقاوسي كان أديب نحوي بياني [5] ، غير أننا لا نملك أي معلومات إن كانت له مؤلفات أم لا ، لكن ما يفهم من أديبا نحويا بيانيا دليل قاطع على تضلعه تضلعا تاما في كل علوم اللغة من نحو و صرف و بلاغة و بيان .

و هناك اللغوي أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي الفقيه العلامة كان فصيحا حتى قيل عنه "لو حضر سيبويه لأخذ النحو من فيه " [6] هذا القول الأخير دليل على على تضلعه في علوم اللغة .

كما برز محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني الحفيد ، متضلع في النحو والبيان أخذ العلم عن أبيه وعمه وخاله الكفيف

---

[1] الغبريني : المصدر السابق ص ص33 ، 36.

[2] الغبريني : المصدر نفسه ص 166.

[3] ابن الآبار : المصدر السابق ، ج1 ص 227.

[4] نفسه ج2 ص 165، 166

[5] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج1 ص 35 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص91.

[6] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج1 ص 70 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 144،145 .

ابن مرزوق و الإمام سعيد العقباني والعلامة عبد الله بن الشريف التلمساني والولي بن إسحاق المصمودي والقاضي عمر القلشاني والثعالبي و العلامة نصر الزواوي و الحسن أبركان و غيرهم ، وألف العديد من المؤلفات منها شروحه الثلاثة عن البردة ، أكبرها سماه صدق المودة ، و الأصغر سماه الاستعاب لما فيها من البيان والإعراب ، كما شرح الخزرجية وله كتاب سماه المفاتيح القرطاسية على الشقراطسية ، وغيرها كثير من المؤلفات توفي يوم الخميس 14 شعبان 842هـ /1438م [1].

علم التاريخ :

هو الذي " يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرهم و الملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في أحوال الدين والدنيا " [2] .

ومن الذين اشتهروا بتضلعهم في هذا العلم يحي بن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ومن الميزات التي تميز بها كتابه:" دقة الوصف و براعة التصوير وسعة الخيال والتوفيق في اختيار المفردات " [3] و يعتبر يحي بن خلدون مؤرخ الدولة الزيانية و هو مصدر أساسي لدراسة الدولة الزيانية و الفترة التي عايشتها و كل من يريد التأريخ لهذه المرحلة فعليه اعتماد هذا المصدر .

و هناك المؤرخ أبو عبد الله محمد بن علي ابن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي وله تآليف عديدة منها في التاريخ كتاب سماه " النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية " [4] غير غير أن هذا المصنف هو في خانة المصادر المفقودة .

ومن الذين برعوا في علم التاريخ عيسى أبو الروح بن مسعود بن منصور كان مولده سنة 664هـ /1265 م ، ألف تاريخا في عشر مجلدات بيض منه نصفه و ذكر فيه من أول بدء الدنيا وقصص الأنبياء و أخبار الأمم من آدم إلى زمانه ، توفي 743هـ /1343م بالقاهرة [5] غير أننا

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص ص 137، 146 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص170،182.

[2] ابن خلدون : المقدمة ص 6.

[3] يحي بن خلدون : المصدر السابق ، ج1 ص 62.

[4] ابن الآبار : المصدر السابق ، ج2 ص 166 ، الغبريني : المصدر السابق ص 102.

[5] ابن فرحون : المصدر السابق ،ج2 ص 72 ،73.

نجهل عنوان هذا الكتاب و يفهم من بيض نصفه أي أنه أتم النصف و بقي النصف الآخر ، غير أن هذا المصنف هو في خانة المفقودات .

ومن المؤرخين المعروفين أحمد بن الحسنين علي بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني المشهور بابن قنفد ألف الكثير من الكتب منها في التاريخ تحفة الوارد في اختصاص الشرف من جهة الوالد وأنس الفقير في عز الحقير – وإن كان هذا الكتاب في التصوف فقد وردت فيه مادة تاريخية خصبة ومن ثم يمكن اعتماده في التاريخ – [1] وله كتاب الوفايات [2]و له أيضا كتاب سماه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية[3] ، و تقريبا كل المصادر التي خلفها موجودة ، و بذلك يمكن القول أن ابن قنفد من أهم مؤرخي فترة الدراسة .

و هناك المؤرخ محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني ومن مؤلفاته المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن الذي ألفه في السلطان المريني أبي الحسن [4] و تناول فيه الأحداث التي شهدتها فترة حكم هذا السلطان المريني .

كما خلف كتاب المناقب المرزوقية وهو كتاب تناول فيه سيرة جده و أبيه وسيرته وكل من عرفوهم ومن عاصرهم من الملوك [5]، و إن كان هذا الكتاب ومن عنوانه يفهم أنه كتاب منقبي فيمكن فيمكن تصنيفه أيضا في الكتب التاريخية لأنه يتضمن الكثير من المعلومات التاريخية ، و كذا يتحدث عن سير أسرته و أهم أعمالهم و بذلك فهو تأريخ لأسرة المرازقة .

و من الذين برعوا فيه محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي ، والذي ألف العديد من المؤلفات منها نظم الدرر والعقيان في دولة بني زيان[6] ، و يصنف هذا الكتاب في خانة الكتب التي تعنى بالتأريخ للدول بل لأسرة بعينها و هي أسرة بني زيان و التكلم عن أهم سلاطينها و الأحداث التي عايشوها .

---

[1] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج1 ، ص 46،45 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 110.

[2] أنظر : ابن قنفد القسنطيني :الوفايات ، معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين و الفقهاء والمؤلفين ، تح عادل نويهض ط4 ، دار الآفاق الجديدة 1983 .

[3] انظر ابن قنفد :الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية .

[4] ابن مرزوق : المسند الحسن ، الونشريسي : المعيار ، ج7 ، ص 236.

[5] انظر : ابن مرزوق التلمساني : المناقب المرزوقية .

[6] التنسي : المصدر السابق ، التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 216،215 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ، ج2 ، ص 261 .

ومن الذين تضلعوا في هذا العلم محمد بن أبي الفضل بن سعيد بن صعد عرف بالتلمساني من العلماء الأجلاء أخذ العلم عن الحافظ التنسي و الإمام السنوسي ألف كتاب النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مناقب ، وكتاب روضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين وهم الهواري وإبراهيم التازي والحسن أبركان وأحمد بن الحسن الغماري ، توفي بمصر في رجب 901هـ / 1495م [1] ، تعتبر مؤلفات ابن صعد من التي طبعت بالطابع المنقبي و التي تتناول سير بعض الصلحاء الذين اختارهم للتعريف بهم ، غير أنها تحوي على مادة تاريخية غزيرة .

ومن الذين برعوا في هذا العلم محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي التلمساني عرف بالمقري ، " عالما بالأخبار والتاريخ " ، أخذ العلم عن ابنا الإمام والأبلي وعمران المشدالي وإبراهيم السلوى ، أخذه أبو عنان من تلمسان إلى فاس وولي قضائها ،و أخذ عنه العديد من العلماء نذكر منهم الإمام الشاطبي و ابن الخطيب السلماني وعبد الرحمن بن خلدون وأبي محمد بن جزئ والقيجاطي ابن علاق ، ألف ابن مرزوق جزء من ترجمته في كتاب سماه النور البدري في تعريف الفقيه المقري توفي 758هـ /1356م [2]، غير أننا نجهل إن كان هذا الرجل قد ترك مؤلفا أم لا، إلا أننا تكلمنا عنه على أساس أنه مؤرخ انطلاقا من الإشارة التي أشار إليها التنبكتي بقوله عالما بالأخبار و التاريخ فهذه الإشارة تحمل بين طياتها تضلعه في هذا العلم و تمكنه منه .

وإذا أردنا في الأخير أن نقوم بوضع منهاج لتدريس العلوم النقلية ، نجد أن هناك مجموعة من الكتب الواجب تدريسها في شتى العلوم والميادين منها : الأربعون النووية و الأنوار لإبن جزي في الحديث والصغرى للسنوسي في التوحيد وكتاب الشيخ خليل في الفقه ، والأرجومية في النحو وبداية الهداية للغزالي في التصوف وشرح ابن جزي للقرآن وأعمال أبي طالب المكي في القراءات السبع وغيرها من المؤلفات [3].

---

[1] أنظر ابن صعد التلمساني : المصدر السابق ، التنبكتي :نيل الابتهاج ص 263 .

[2] التنبكتي ، كفاية المحتاج ص ص 60،66.

[3] محمد أبو طالب : نوازل تربوية مقال في التاريخ و أدب النوازل دراسات تاريخية ، انجاز الجمعية المغربية للبحث ا لتاريخي ،تنسيق محمد المنصور ، محمد المغراوي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط ،ط1 ، مطبعة فضالة المحمدية ، 1995 ص94

فالكتب التي ذكرنها الآن يجب دراستها و المرور عليها ، أما باقي الكتب الأخرى التي لم نذكرها فدراستها تكون في فترة تخصص الطالب و التخصص ليس المقصود به التخصص في علم من العلوم بن الانتقال من الفترة الأولى للتحصيل العلمي إلى المرحلة الثانية من التعليم .

ما يمكن استنتاجه من خلال عرضنا للعلوم النقلية أن الكثير من العلماء ترددت أسمائهم في أكثر من تخصص ، و السبب يرجع إلى أن العالم في هذا الفترة لم يكن متخصصا و إنما كان موسوعيا يستطيع التضلع في أكثر من علم ، وهو ما يكون له أثر ايجابي على الطلبة إذ أنهم تأثروا بأساتذتهم وورثوا عنهم هذا التعدد ، فالعلماء المذكورين أخذوا العلم عن أساتذة متعددي التخصص و ورثوها للطلبة .

ما يمكن ملاحظته أيضا أن كل علم يخدم العلم الآخر ومتمم له ومن ثم عمل العلماء على تحصيل كل علم على حدا .

كما نلاحظ من هذا العرض أيضا العدد الكبير للعلماء في كل التخصصات و لكن إذا أردنا القيام بعملية إحصائية للعلماء نجد أن العلماء الذين تضلعوا في الفقه يفوقون غيرهم من العلماء ، وربما يرجع سبب كثرة الفقهاء إلى طبيعة المجتمع المغربي الذي سعى أفراده إلى البحث عن الأحكام الشرعية ، و ربما هو ما دفع إلى تأليف الكثير من المؤلفات الفقهية و خاصة النوازل الفقهية .

وما يمكن ملاحظته أيضا هو كثرة التأليف في العلوم المذكورة، ومن هنا يمكن أن نستنتج أنه لم يكن هَمُ هؤلاء العلماء في هذه الفترة التعليم و التلقين بل سعوا إلى توصيل علومهم إلى أبعد من مجالس العلم ومن ثم التعريف بأنفسهم و علومهم خارج مناطق استقرارهم ، و هنا نرى الكثير من الفقهاء وصلت سمعتهم إلى العالمية و أصبحت مجلسهم قبلة للطلبة من كل الأقطار و درست مؤلفاتهم وشرحت و اختصرت .

العلوم العقلية :

ما يمكن قوله عن العلوم العقلية أنها لا تختص بحضارة معينة ولا بجنس معين على حسب ابن خلدون " أما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة ، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ، ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة " [1] .

---

[1]ابن خلدون المقدمة ص335.

علم المنطق :

عرفه ابن خلدون على أنه " قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات أو الحجج المفيدة للتصديقات " [1] ، و كان المنطق منبوذا في بلاد المغرب إلى أن سيطر الموحدون عليه فشجعوه وأصبح من العلوم المنتشرة بكثرة والمتداولة ، و أصبح من أهم العلوم المساعدة لعلم الفقه وأصوله ، ومن العلماء الذين اشتهروا بالمنطق نذكر :

أحمد النقاوسي أبو العباس فقيها حافظا مجيدا سديد النقل شديد النقد رحل من بلدة تلمسان يعتبر من أوحد أعلامها ومدرسيها أديبا نحويا بيانيا حكيما منطقيا [2] يفهم من كلمة منطقي أنه حذق في هذا العلم و برع فيه إلى درجة أنه عرف بالمنطقي .

أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الأستاذ الندرومي وهو من علماء المنطق [3]. و يفهم من عبارة "علماء المنطق " إتقانه لهذا العلم و تضلعه فيه .

كما برع في علم المنطق عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر الفقيه الفاضل تعلم ببجاية ورحل إلى الشرق برع في علم المنطق ولم يكن في وقته أعلم منه بكشف الأسرار للخونجي في المنطق توفي في 663هـ / 1263م [4]. يفهم من العبارة الأخيرة أنه أتقن علم المنطق حتى أصبح يضرب به المثل في إتقان هذا العلم .

و كذا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي التلمساني ، كان عالما بالجدل والمنطق [5]، فكلمتا عالما بالجدل و المنطق دليل على تضلعه في هذا العلم .

ومن الذين برزوا فيه محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي عرف بابن العباس التلمساني إمام فقيه وهو أحد أئمة تلمسان أخذ العلم عن أبي الفضل ، والإمام ابن مرزوق وقاسم العقباني وغيرهما وأخذ عنه المازوني وابن زكري والسنوسي والتنسي والونشريسي وابن صعد وغيرهم ومن

---

[1] نفسه ص 343.

[2] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج1 ص 35 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص91.

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج1 ص 56 ، عبد الحميد حاجيات : تطور مدينة ندرومة ص 100.

[4] التنبكتي : المصدر نفسه ،ج1 ص 218 .

[5] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج2 ص ص 66،60.

مؤلفاته شرح جمل الخوجي و هو كتاب في المنطق ، توفي بالطاعون ثمان عشر ذي الحجة سنة 871هـ / 1466م [1].

كما برع محمد بن يوسف بن عمر السنوسي و هو من العارفين بالعديد من العلوم كالمنطق ، ألف كتاب في شرح جمل الخونجي في المنطق [2].

كما نبغ في هذا العلم محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني ومن مؤلفاته ، شرح جمل الخونجي ، ومقدمة في المنطق [3].

و برز أيضا ابن مرزوق الحفيد وهو من العلماء الأجلاء له تأليف في شرح جمل الخونجي سماه نهاية الأمل في شرح كتاب الجمل [4] ، في حين يذكر التنكتي أن اسم الشرح " نهاية العمل في شرح جمل الخونجي " [5] ، و إن كان هناك اختلاف بسيط في ذكر العنوان فإنه يفهم أن صاحب البستان حاول اختصار العنوان فقط و المقصود هو كتاب واحد .

العلوم العددية :

وهي "معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف " [6]، ويندرج تحت هذا العلم عدة فروع منها صناعة الحساب و الجبر والمقابلة و المعاملات والفرائض [7] ، و اعتبر في بلاد المغرب ابن البناء أكبر علماء العلوم العددية لذا تركزت أغلب التآليف الرياضية التي أنجزت بعده على شرح مؤلفاته وتلخيصها [8]، وكان سبب الإقبال على هذا العلم أنه يساعد على أداء بعض بعض الشعائر التعبدية فمنفعة الحساب في " العلوم الشرعية والعقلية ظاهرة لا تخفى فنصف علوم الشريعة الذي هو الفرائض هو أصله ، وعليه مدار العمل في معرفتها .....فلا يتوصل إلى أداء

---

[1] نفسه ،ج2 ص 188.

[2] نفسه ،ج2 ص ص 205، 211 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص 251،260.

[3] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج2 ص 218 ، 220.

[4] ابن مريم : المصدر السابق ص 210.

[5] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص 144.

[6] ابن خلدون : المقدمة ص337.

[7] نفسه ص ص 337،339.

[8] بناصر البعزاتي :الرياضيات زمن ابن خلدون ، مقال كتاب الأبنية الفكرية زمن ابن خلدون ، تنسيق بناصر البعزاتي ، ط1 ، مطبعة منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2007 ص 161 .

الواجب من صلاة أو زكاة أو غير ذلك إلا بمعرفة العدد "[1] و تحدث ابن خلدون عن تقاطع هذه العلوم والشرع أثناء حديثه عن فرع المعاملات و الذي اختص بالمساحات والزكاة [2]، و الفرائض الذي وهو "معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما يصح باعتبار فروضها أو مناسختها وذلك إذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فإنه حينئذ يحتاج إلى حساب يصحح الفريضة الأولى " ومن هذا فالمقصود بعلم الفرائض هو علم المواريث" [3].

ومن أشهر من اشتغل بهذا العلم :

سليمان بن يوسف بن إبراهيم الحسناوي البجائي يعرف بالفقيه الإمام الصدر العالم من صدور الإسلام في وقته علما ودينا أخذ العلم عن عمه إبراهيم وأبي عبد الله المشدالي وكان من أئمة الفقه والفرائض ، وصنف في الفرائض والحساب [4] . غير أننا نجهل عناوين مؤلفاته ، و من ثم يمكن القول أنها في خانة المفقود .

أبو الطاهر عمارة بن يحي بن عمارة الشريف الحسنى يكنى أبا الطاهر له علم وأدب وفضل ونبل قضى في بعض النواحي ببجاية ، له تأليف في علم الفرائض منظوم وتواشيحه في النهاية الحسن [5]. و تبقى عناوين هذه المؤلفات مجهولة بالنسبة لنا .

و برع أيضا أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المشهور ببن زاغو المغراوي التلمساني ألف شرح التلمسانية في الفرائض ، توفي يوم الجمعة 14 ربيع الأول 845هـ /1441م بسبب الوباء وعمره 63سنة [6].

ومن علماء الفرائض عمر بن موسى المشدالي كان عالما مفتيا ومدرسا بتلمسان درس الفرائض [7] ، فتدريسه للعلم الفرائض دليل على تضلعه في هذا العلم .

---

[1] ابن قنفد القسنطيني : حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب ، مخ الخزانة العامة الرباط ،423د ص 1.

[2] ابن خلدون : المقدمة ص339

[3] نفسه ص 317.

[4] التنبكتي :كفاية المحتاج ، ج1 ص 142،141.

[5] الغبريني : المصدر السابق ، ص 22،21

[6] التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج1 ص 54،53 ، ص 123 ، ابن مريم : المصدر السابق ، ص 41-44

[7] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص ص 293،291 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 396 .

كما نبغ في هذا العلم محمد بن يوسف بن عمر السنوسي له شرح مقدمة الجبر والمقابلة لابن الياسمين [1].

و هناك محمد بن أحمد بن أبي يحي التلمساني عرف بالحباك وكان من العلماء الصالحين وعرف أيضا بالفرضي والعددي لإتقانه لهما [2].

كما برع في هذا العلم محمد بن قاسم بن تونرت التلمساني كان عالما بالمنقول والمعقول والحساب والفرائض والأوقاف والخط والهندسة وبكل علم ، وكان إذا نظر في كتاب مرة واحدة حفظه [3] ، و يفهم من عالم بالفرائض فهمه ومعرفته و إدراكه لهذا العلم .

و تضلع في علم الفرائض أحمد بن الحسنين علي بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني له كتاب بغية الفارض في الحساب والفرائض [4].

علم الفلك :

هو العلم الذي يسميه ابن خلدون ب "علم الهيئة " ويعرفه على أنه " علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة و المتحركة و المتحيزة و يستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال و أوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية " [5] ، و اعتنى القدامى بالنجوم والكواكب و ربطوا بينها و بين معرفة علم الغيب و اصطلحوا على ذلك بعلم التنجيم ، أما المسلمون فاستجابة للتحفيز الرباني الذي قال فيه : " وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِ وَالبَحْرِ "[6] وقال أيضا " وَآيَة لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَّلِكَ تَقْدَيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ، وَ القَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ ، لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " [7] و انطلاقا من هذا حاولوا

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص ص 205، 211 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص 251،260 ، ابن مريم : المصدر السابق ص ص 237،248.

[2] التنبكتي ، نيل الابتهاج ،ج2 ص 226.

[3] نفسه ص 240.

[4] التنبكتي ،كفاية المحتاج ، ج1 ، ص 45-46 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 110.

[5] ابن خلدون : المقدمة ص 341

[6] سورة الأنعام الآية 97.

[7] سورة يس الآيات 36- 40

التفريق بين علم التنجيم وعلم الفلك و نادى أغلبهم بعدم تأثير الكواكب على الإنسان ، ومن ثم راحوا يشتغلون بعلم الفلك كعلم يمكنهم من معرفة القبلة و الأشهر و السنين ومواقيت الصلاة والحج و تحديد شهر رمضان ،[1] واستعانوا في ذلك باليونان والفرس والهنود و الكلدان و السريان و نقلوا من مصنفاتهم ومؤلفاتهم مع تصحيح و تصويب ما بها من خطأ وبذلك استطاعوا تحديد طول السنة وأطوال الليل و النهار تحديدا دقيقا ولأجل ذلك استخدموا المراصد و زودوها بآلات [2] .

ومن العلماء الذين اشتهروا بهذا العلم :

محمد بن أحمد بن أبي يحي التلمساني المشهور بالحباك وهو واضع أرجوزة في علم الإسطرلاب سماها "بغية الطلاب في علم الإسطرلاب " كما شرح تلخيص ابن البناء ، و نظم رسالة الصفار في الإسطرلاب [3] .

ومن تلامذة الحباك محمد بن يوسف السنوسي الذي كانت له عناية بالغة بهذا العلم إذ قام بشرح قصيدة الحباك في الإسطرلاب شرحا جليلا [4] . و الشرح لا يتسنى إلا لمن أتقن العلم و برع فيه فيه فالسنوسي لما أتقن علم الفلك شرح قصيد الحباك .

وذكر ابن قنفد شخص يسمى اللجائي على أنه اخترع :" إسطرلابا ملصوقا في جدار و الماء يدير شبكته على الصفيحة ، فيأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس وكم هو وكم مضى من النهار ، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل " [5].

الطب :

عرفه ابن خلدون على أنه " صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض و يصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة و بره المرض بالأدوية و الأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن " [6] ، و كان لسكان الأرياف و البوادي طب خاص " يبنونه في غالب الأمر على

---

[1] عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ،ج2 ص 275 ، بناصر البعزاتي :مشاكل العلم بالغرب الإسلامي ، ص 46،45 .

[2] عبد العزيز فيلالي : المرجع نفسه ص 275 .

[3] ابن مريم : المصدر السابق ص 219.

[4] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 215 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص259 ، ابن مريم : المصدر نفسه ص246

[5] ابن قنفد : أنس الفقير ص 111.

[6] ابن خلدون : المقدمة ، ص 345 .

تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي و عجائزه و ربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي و لا على موافقة المزاج "[1] .

ومن أشهر الأطباء :

موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي الذي يقول عنه عبد الباسط خليل " ولازمت في الطب الرئيس الفاضل الماهر الأدربيّ الأقدريّ ، موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي المتطبب المعروف بأبيه هداه الله تعالى للإسلام لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم وفي علم الوفْق والميقات وبعض العلوم القديمة ، أخذ عن أبيه وغيره ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه ، لازمتُه مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره وأجازني ، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يُداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يُمِتْه على ملّة النبي صلى الله عليه وسلم"[2] ، و أوردنا أثناء حديثنا عن النظرة إلى المرض في الفصل الذي خصصناه للحديث عن الحياة الاجتماعية أهم الأمراض التي ظهرت في فترة الدراسة و طريقة مداواة هذه الأمراض.

وفي الأخير لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقول أن العلوم النقلية كانت منفصلة انفصالا كليا عن العلوم العقلية بل كانتا متكاملتين يكمل بعضهما بعضا لذا نرى نبوغ الكثير من العلماء في العلمين فمثلا الفقيه منصور بن علي بن عبد الله الزواوي الذي له إطلاع على الأصول و المنطق وعلم الكلام والحساب والهندسة[3].

و مهما يكن فلا يمكن بأي حال من الأحوال القول أن علماء فترة الدراسة كانوا علماء متخصصين في علم واحد بل كانوا من المتضلعين في علوم عديدة ، إذ اشتهر الفقيه منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي بتعليمه للعلوم العقلية والنقلية حتى قيل عنه أنه " ملأ بجاية وأنظارها بالعلوم النظرية و الفهوم العقلية "[4].

المبحث الرابع :

العلماء والسلطان :

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ص 346 .

[2] عبد الباسط خليل : المصدر السابق ص 44 .

[3] التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج2 ص 257

[4] نفسه ص 256.

اكتسب العلماء في المجتمع مكانة و أهمية كبيرة في بلاد المغرب زمن الموحدين وذلك راجع إلى العقيدة التومرتية التي من قواعدها العلماء الذين كانوا في صدارة حزب الموحدين لكن مكانتهم فيما بعد كانت بين الأهمية والتعرض للنكبات .

حيث حاول الزيانيون و المرينيون -أثناء سيطرتهم على المغرب الأوسط - أن يزينوا بلاطهم بالعلماء قصد تأسيس مشروعية ثقافية وفكرية تحررهم من التبعية للحفصيين الذين اعتبروا أنفسهم ورثة الفكر الموحدي المشجع على العلم كما سبق .

فكان السلطان المريني أبو الحسن محبا للعلماء مغدقا عليهم يحرص على استجلابهم من سائر البلاد التابعة إلى سلطانه " فإذا سمع بمن له رسوخ في العلم أقدمه لمجالسته ومحاضرته ومشاورته ومشاركته فيما يتقلد من الأمور الشرعية "[1] ، و كان لتقرب العلماء من السلطان تأثيرات سلبية مباشرة تجلت في إقدام أهل العلم على الانغماس في حياة البذخ والترف خاصة أصحاب الخطط السلطانية الذين استفادوا من المرتبات المغرية ، وهو ما يمكن أن يفهم من كلام ابن خلدون حين قال " أن القائمين بأمور الدين من القضاء و الفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والآذان لا تعظم ثروتهم في الغالب " [2] ، فتحفظ ابن خلدون حين قال في الغالب يفيد الاستثناء .

ومن الذين تقربوا من السلطان نجد الفقيه محمد بن مرزوق التلمساني الذي جالسه السلطان المريني أبو الحسن وجعله من خاصته [3]، هذه المكانة التي تبوئها دفعت به إلى تأليف كتابه المشهور المسند الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن .

ومن فقهاء سلطان الفقيه محمد المقري التلمساني الذي قربه السلطان المريني أبو عنان ، وكان يستفتيه في العديد من القضايا منها أنه استفتاه في من لزمته يمين على نفي العلم فحلف على جهل هل يعيد يمينه [4] .

وهناك أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي من قلعة بني حماد كان مشاورا شاهدا بالديوان وانتهت الرياسة إليه وتأخر عنه راغبا في التأخر وكان يقول في مجلس التدريس :" إن

[1] ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن ص 260

[2] ابن خلدون : المقدمة ص 276.

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص ص 92،89 ، التنبكتي : تطريز الديباج ،ج2 ص ص111، 116 .

[4] الونشريسي : المعيار ، ج10 ص 310.

لي منذ انتزعت من الديوان ستة أعوام وإن من هو هناك في خطته يقدر أنه اكتسب في هذه المدة ستة ألاف دينار وإني اكتسبت فيها ستة ألاف حديث وحديث بدينار أشرف من دينار "[1].

و من الذين كانت لهم حظوة لدى السلطان أبا عبد الله محمد بن موسى اليجري هو من بني يجر من قبائل زواوة له كرامات باهرة وعجائب معدودة وأخبار تلك المنطقة قديما وحديثا وهذا ما دفع أبو عنان المريني أثناء غزوه للمغرب الأوسط إلى مراسلة هذا الولي الصالح للتبرك به فلبى هذا الولي هذه الدعوة ، وقد طلب منه أبو عنان المريني الدعاء وسأله عن أبو الحسن المريني الذي بقي في المغرب فأجابه بأنه بخير وهي من كراماته[2] .

ومن الذين تقربوا من السلطان الفقيهان أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام فبعد عودتهما من تونس قام السلطان الزياني ببناء مدرسة لهما ولما غزى أبو الحسن المريني تلمسان قربهما إليه وأكرمهما و أصبحا من ملازمي مجلسه ويتنقلون معه حيث انتقل ، وبعد موت أبو زيد صحبه أبو موسى إلى تونس [3].

و كان محمد بن عبد الله بن عبد النور الندرومي من الذين عمروا مجلس أبا الحسن المريني بعد أن استشار في ذلك ابنا الإمام و ولي قضاء العسكر عنده [4] .

كما نال أحمد بن عمران البجائي اليانوي مكانة لدى السلطان إذ أنه دخل تلمسان تاجرا ولما عرف السلطان قدره قدمه وأغدق عليه العطاء وأسقط عليه المغارم [5].

ومن الذين كانت لهم حظوة لدى السلطان الشيخ عبد الله الصفار كان هذا الشيخ يسعى لدى السلطان لقضاء حوائج الناس من غير كلل [6].

وكان للشيخ يعقوب بن عمران البويوسفي مكانة مرموقة إذ أنه لما بويع السلطان الحفصي أبو بكر بن يحي بن إبراهيم سنة 711هـ وضع هذا الشيخ يده عليه وقال له " تطول مدتك إن شاء الله

---

[1] الغبريني : المصدر السابق ص 32،33

[2] النميري : المصدر السابق ص 254،255.

[3] ابن مرزوق : المسند الحسن ص 265 ، التنبكتي ،كفاية المحتاج ،ج1ص 187 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 266،267 .

[4] ابن مرزوق : المصدر نفسه ص 267 ، التنبكتي ، كفاية المحتاج ، ج2 ، ص 47 التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ، ص 59.

[5] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص 90

[6] ابن قنفد : أنس الفقير ص 86.

و تأمن من القتل " وهو من سماه المتوكل على الله ، وكان هذا السلطان يدخل الحروب من غير حذر و يقول " سيدي يعقوب وعدني بالموت على سرير العافية " [1] .

ومن العلماء الذين خالطوا السلطان الفقيه أبو عثمان سعيد ومن الأعمال التي قام بها هذا الفقيه في خدمة السلطان أنه كان من حمل رسالة السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول إلى السلطان المريني أبوسعيد عثمان المريني فأكرمه الأخير وعظمه لمكانته العلمية [2].

وكانت لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الخياط مكانة لدى السلطان أبو يحي يغمراسن بن زيان إذ كان يدخل عليه أحيانا في اليوم الواحد سبعين مرة لأجل حاجات الناس و قيل للسلطان في ذلك فقال " دعوه هذا رحمة للناس ، فما قضى الله يقضي ، والله لا أبرمته و لا رددته " [3] .

أما أبو علي بن يوسف المعروف بأبي القاسم محمد فوصفه ابن مرزوق بأنه " سفير الملوك ولسان حضرتهم و ترجمان مساءلاتهم و أجوبتهم للواردين على مقاماتهم و إمام المتصدرين بمشورتهم " [4] .

ومن العلماء الذين نالوا حظوة لدى السلطان الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي الابلي الذي خاف من السلطان الزياني أبو حمو موسى فتوجه إلى السلطان المريني أبو الحسن الذي قدمه و أحسن له و أصبح من الملازمين له المرتحلين معه[5].

ومن العلماء الذين اشتغلوا لدى السلطان كقضاة نذكر أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني استعمل على الزكاة و سماع الشكايات ثم ولي قضاء تلمسان [6].

و اشتغل أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن عتيق الغساني -من أهل الجزائر كانت له نزاهة ووجاهة ونباهة وديانة – بالقضاء ببجاية وطالت مدته[7] .

---

[1] ابن قنفد : المصدر نفسه ص 79،78.

[2] ابن مرزوق المناقب المرزوقية ،ص178

[3] ابن مرزوق : المصدر نفسه ص 181.

[4] نفسه ص207 ، يحي بن خلدون : المصدر السابق ج1 ،ص 131.

[5] ابن مرزوق : المسند الحسن ، ص 266.

[6] نفسه ، ص 276.

[7] الغبريني : المصدر السابق ص 54

كما أن أبو محمد عبد الله بن حجاج بن يوسف من أهل الجزائر العلم عمل قاضيا على بجاية وكان يصرف مرتبه في الصدقة وصلة أهل البر والخير وكان يأكل من فوائد عقاره بالجزائر مما ورثه عن أبيه توفي 640هـ /1242م [1] .

و كان أبو الحسن علي بن عبد الله الأنصاري من أهل بونة من الذين ينوبون عن القضاة في حضرة بجاية [2].

و اشتغـــل أبو القـــاسم عبد الرحمن ابن محمد بن أبي بكر بن السطاح قاضيا للأنكحة ببجاية [3].

و كان محمد بن إبراهيم المهري من أهل بجاية، ولي قضائها ثلاث مرات صرف عن آخرها سنة 608 هـ وتوفي بها سنة 612 /1215م [4].

و آل القضاء في تلمسان إلى محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني الذي يعرف بالندرومي ، توفي بتلمسان سنة 625 هـ/ 1227م [5].

أما عبد الله بن الحجاج بن عبد الله – من أهل بجاية وأصله من أشير وسكن بجاية – فولي قضاء بجاية مدة طويلة فحمدت سيرته وكانت من صفاته العدل والنزاهة توفي رحمه الله في التاسع والعشرين لجمادى الأولى سنة 641 هـ/ 1243م [6]،

و كان أبو عبد الله محمد المسفر هو قاضي الجماعة ببجاية و هو ذائع الصيت رفيع القدر ، توفي رحمه الله سنة 744 هـ /1343م [7].

كما أن الفقيه العدل حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس القيسي أبو علي القيسي كان قاضيا على قسنطينة وتوفي وهو مزاولا لهذه المهنة سنة 787هـ /1385م [8] .

---

[1] نفسه ص 114

[2] نفسه ص 116

[3] الغبريني : المصدر نفسه ص 122.

[4] ابن الآبار : المصدر السابق ج2 ص 163 .

[5] نفسه ص 165، 166

[6] نفسه ص 308

[7] ابن قنفد : أنس الفقير ص 94.

[8] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج1 ص 121.

و اشتغل محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاتي الزواوي بقضاء بجاية وعزل وكان من العلماء الأجلاء [1].

و كان موسى بن عيسى بن يحي المازوني المغيلي الفقيه الجليل والد صاحب النوازل قاضيا بمازونة [2].

و اشتغل يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى المازوني قاضيا بها توفي سنة 883هـ بتلمسان [3].

أما عبد العزيز بن مخلوف العيسى فقد اشتغل بقضاء الأنكحة ببجاية ، ثم بقضاء بسكرة وقسنطينة والجزائر [4].

في حين كان يحي بن يدير بن عتيق التدلسي أبو زكريا قاضيا على توات توفي بقسنطينة يوم الجمعة 10صفر 877 هـ /1471 م [5].

و رغم المكانة التي حظي بها العلماء إلا أنهم في كثير من المرات رفضوا التقرب من السلطان واعتبروا ذلك من الأمور التي تشتغلهم عن طلب الآخرة ومنهم الفقيه محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي حيث كان يبغض الاجتماع بأهل الدنيا والنظر إليهم ، ويحكى عنه أنه خرج يوما إلى الصحراء فرأى فرسانا يرتدون ثيابا فاخرة فسأل عنهم فقالوا له خواص السلطان فتعوض وسلك طريقا آخر ، والتقى بهم مرة أخرى ولم يتمكن من الرجوع فوجه وجهه تلقاء الحائط وغطاه حتى جاوزوا ولم يروه ، ويروى أنه لما ختم تفسير القرآن عزم على قراءة سورة الإخلاص يوما والمعوذتين يوما فسمع أن الوزير أراد حضور الختم فقرأ السور كلها في يوم واحد ، و طلبه السلطان وألح في طلبه لإقراء التفسير فأبى وتحجج بغلبة الحياء عليه ، وكان إذا سمع بوليمة لأهل الجاه اختفى يوما أو أيام حتى تنقضي ، وكان لا يقبل عطاياهم وهداياهم ويقبل من غيرهم ، وكان يكره الكتابة للأمراء وإذا ألحوا عليه قبل الكتابة لهم حياءً ، و عاتبه في ذلك الفقيه التالوتي فقال له " كلفت به ويغلبني الحياء " فقال لاتستحي فرد عليه " إذا دخل النار أحد بالحياء

---

[1] نفسه ، ج2 ص 33.

[2] التنبكتي : المصدر نفسه، ج2ص 250 ، التنبكتي :نيل الابتهاج ، ج2 ص 301.

[3] التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج2 ص 340.

[4] نفسه ، ج1 ص 296.

[5] نفسه ، ج2 ص 339

دخلتها "[1] ، و طلب منه أن يأتي إلى السلطان ويقرأ عليه التفسير على عادة المفسرين فامتنع من ذلك ولما ألحوا عليه كتب إليه معتذرا بغلبة الحياء له وأنه لا يقدر على الكلام في حضرة السلطان فاعفي من ذلك [2].

وهناك أيضا إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام المطماطي التنسي انتهت إليه رياسة التدريس والفتوى في المغرب كله كان موطنه تنس عرض عليه السلطان في الكثير من المرات للسكنى في تلمسان فيمتنع ، و بعد أن حدثت ثورات بين مغراوة و بني عبد الواد[3] قدم إلى تلمسان وعرض عليه سلطانها الإقامة فيها و عرض عليه الدار و الإعانة فقال للسلطان ومن كان هناك " إنما أقيم في بلدكم بشرط ألا تحملوا علي شيئا من هذا و أن تتركوني لحالي " وقال لهم ابحثوا لي عن دار أشتريها بمالي [4] .

و كان أبو العباس أحمد بن مرزوق من العلماء الذين رفضوا الخدمة عند السلطان حيث راسله السلطان الزياني أبو حمو موسى يعرض عليه العمل في الخطط السلطانية فرفض ذلك رفضا مطلقا و سايرته زوجته في رفضه وقالت له أن أباها كان يعتبر من يأخذ أجرة عن الخطط فإنه يأكل السحت[5].

و أمام وجود فرقتين من العلماء فرقة خدمت السلطان و فرقة رفضت ذلك فإن مكانة العلماء لم تكن دائما جيدة عند السلاطين بل تعرضوا في كثير من المرات إلى النكبات سواء جراء الخدمة أو لتضارب المصالح أو بسبب عدم قبول الخدمة ومن أمثلة ذلك :

تعـــرض الفقيه الشـــــريف التلمســـــاني إلى السجـــن لسبب أنه اشتـــكى إلى السلطـــان المريني الغربة ، وعلم السلطـــان أن هنـــاك ودائع وأموال أودعـــها سلطـــان تلمسان عند بعض أهلهـــا وأن الشريف عـــــالم بها فامتن عليه السلطـــان أبو عنـــان برفعه على العلمـــاء وتقريبه ، فرد الفقيه الشريف " إنما عندي شهادة لا يجب علي رفعها بل سترها ، وأما تقريبك لي فقد ضرني أكثر مما نفعني ونقص علمي وديني " ، وسأل السلطان بعضهم عما يقوله الناس فيه فقيل خيرا غير

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص 208 ، التنبكتي نيل الابتهاج ،ج2 255 .

[2] التنبكتي : نيل الابتهاج ،ج2 ص 154

[3] ابن مرزوق : المناقب المرزوقية ، ص 275، التنبكتي كفاية المحتاج ، ج1 ، ص 81 .

[4] ابن مرزوق : المصدر نفسه ص275.

[5] نفسه ص 238.

أنهم سمعوا بسجنك للعالم الشريف التلمساني فلامك العامة والخاصة فأمر بإطلاق سراحه و الإحسان إليه [1].

كما تعرض الفقيه محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني المعروف بالخطيب إلى سجن و السبب أنه كان من جلساء السلطان أبو عنان الذي قام بإرساله إلى تونس في خطبة فأبى الفقيه فسجنه ثم أطلق سراحه ، كما سجنه أيضا الوزير بفاس لما مات السلطان أبو عنان و كتب الفقيه مرثية حول الوضع الذي هو فيه مما جاء فيها " أفلا يراعى لي ثمانية وأربعون منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا ؟ أفلا يراعى لي أنه ليس اليوم يوجد من يسند أحاديث الصحاح من باب إسكندرية إلى البرين والأندلس غيري ؟ ونحو من مائتين وخمسين عالما ؟ والله ما أعلمه لكن حرمني الله منه ، آثرت الهوى والدنيا فهويت ، اللهم غفرا ، أفلا يراعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاما وختم القرآن في جوف الكعبة .... لا أعلم من له هذه الوسيلة غيري .... أستغفر الله من ذنوبي ، ذنوبي أعظم وربي أرحم والسلام " [2].

كما تعرض العلماء للضرب حيث قال الفقيه الشريف التلمساني لأحدهم وقد أمر بضرب فقيه " إن كان عندك صغير فهو عند الناس كبير وإنه عالم " فنجا الفقيه من الضرب [3].

ومن الذين تعرضوا لجور السلطان الفقيه الأجل أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي الذي تعرضت داره للنهب من قبل رجال السلطان في أول محرم عام 874هـ / 1469م وهو ما أدى به إلى الفرار إلى فاس و الاستيطان بها [4].

ومن العلماء الذين وقعت لهم حوادث لدى السلطان محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي دخل فاس فخص باستقبال من علمائها لكن سرعان ما أوغروا قلب السلطان عليه بعد مناظرته لهم واتهموه بأنه طالب للحكم والملك ، و رفض المغيلي ذلك رفضا شديدا وعاد إلى توات وقد آل على نفسه أن

---

[1] التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج2 ص ص 78،71 .

[2] التنبكتي : المصدر نفسه ، ج2 ص ص 89، 92 ، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج2 ص ص102 ، 104، ابن مريم : المصدر السابق ص 187 .

[3] التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج2 ص 77.

[4] التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ص 144 .

لا يلاقي سلطانا بعد ذلك أبدا [1] ، و ألف المغيلي رسالة عنونها " فيما يجب على الأمير " تناول فيها أمور عديدة عبارة عن نصائح للسلطان [2].

[1] عبد القادر زبادية : المرجع السابق ص212

[2] محمد المغيلي : فيما يجب على الأمير ، تح محمد بن أحمد باغلي ، منشورات ثالة ، الجزائر ، 2008.

الخاتمة :

من خلال دراستنا لموضوع الحياة الريفية في المغرب الوسط يمكن الوصول إلى مجموعة من النتائج منها:

أن الوضع السياسي في أرياف المغرب الأوسط لم يكن مستقرا و ذلك نتيجة لأسباب داخلية وخارجية ، فالأسباب الداخلية تكمن في الصراع بين أبناء البيت الحاكم في الدولة الزيانية ، و ما انجر عن ذلك من حروب كبرى تعدت أسوار عاصمة الدولة و شملت تقريبا كل بلاد المغرب الأوسط ، وكانت لهذه الحروب تأثيرات مباشرة على الوضع السياسي إذ ساهمت في ظهور إمارات داخل المغرب الأوسط و التي كان لها دور في التأثير على استقرار الوضع في المنطقة ، إذ أن هذه الإمارات و جدت نفسها مضطرة للدخول في معارك كبرى من أجل المحافظة على كيانها و من ثم أثرت تأثيرا سلبيا على الوضع السياسي لبلاد المغرب .

أما بالنسبة للأسباب الخارجية فنقصد بها الحملات العسكرية التي تعرض لها المغرب الأوسط من قبل جيرانه الحفصيين و المرينيين و ما كان لهذه الحملات من دخل في رسم بعض الخطوط الكبرى للخريطة السياسية لبلاد المغرب الأوسط ، و تجلى ذلك في إما إزالة حكم بني زيان في بعض من المرات أو التدخل في تعين سلاطين و إزالة آخرين و ما يكون لهذا العمل من تأثير على الوضع الداخلي لبلاد المغرب الأوسط ، و يجب هنا الرجوع إلى تبيان أن هذه العمليات العسكرية التي كانت في الغالب على حواضر المغرب الأوسط إلا أن صدى هذه الحملات لم يتوقف على الحواضر فقط بل تعداه إلى الأرياف إذ أن الجيوش في حملاتها و سيرها كانت في المدن و الأرياف و من ثم فالأرياف تعرضت لهذه الحملات و عرفت ألا استقرار على غرار المدن .

أما ما يمكن ملاحظته على مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط هو تعدد الأجناس المكونة للبنية الاجتماعية فهناك البربر و يمثلون السكان الأصليين للبلاد ، و هناك العرب و هم الذين قدموا إليه على دفعات و أكبر هذه الدفعات دخلت أثناء الفتح الإسلامي و الهجرة الهلالية ، كما وجد الأندلسيون و الذي نزحوا إلى المغرب الأوسط خاصة بعد حروب الاسترداد و سقوط المدن الأندلس في يد المسيحيين ، كما كانت المنطقة قبلة للمسيحيين الذين دخلوها إما تجار أو جنود أو جلبوا إليه كأسرى ، كما وجد بأرياف المغرب الأوسط اليهود و الذي يعود تواجدهم فيه إلى ما قبل التواجد الإسلامي و بقوا محافظين على ديانتهم ، و ما يمكن ملاحظته عن هذا التنوع

العرقي هو وجود تعايش بين هذه الأجناس و استمرار وجود هذه الأجناس و خاصة الأقليات منها دليل على ما نقول ، خاصة إذا عرفنا أن هناك البعض منهم تبوأ مراكزا مهمة داخل الدولة الزيانية .

و كان لهذا التنوع العرقي تأثيرا على الحياة الاجتماعية ، إذ ساهمت كل هذه الأجناس في نسج الكثير من العادات و التقاليد و التي بفضلها ارتسمت معالم الشخصية المغربية ، و من خلال دراستنا للعادات و التقاليد لاحظنا تعدد العادات و التقاليد إذ هناك ما هو موغل في القدم يمتد إلى ما قبل التواجد الإسلامي و استمر في ما بعد رغم أن هناك منها ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية، و هناك عادات جلبها العرب معهم و انتشرت في أرياف المغرب الأوسط كما جلب الأندلسيون عادتهم و تقاليدهم لبلاد المغرب و مارسوها ، و بذلك يمكن القول أن العرب مارسوا العادات والتقاليد المغربية كما مارس البربر العادات العربية و نفس الملاحظة تلاحظ على الأندلسيين ، و ما نقوله عن الممارسة للعادات هو وجود تعايش و تمازج بين الأجناس ، وما يمكن ملاحظته أيضا هو أن الأسرة الريفية في المغرب الأوسط شكلت البنية الأساسية لبناء المجتمع ، و ما دامت كذلك كان الرجل يتحرى في اختيار الزوجة لأنها عماد الأسرة ، و لما كانت الأسرة لها هذه المكانة فإنها حاولت تربية أبنائها تربية صالحة لتكون دعما اقتصاديا و اجتماعيا للأسرة ، وما يمكن استنتاجه كذلك من خلال دراستنا للحياة الاجتماعية هو المكانة التي نالتها المرأة المغربية إذ أن المرأة التي هي في الأصل أم و أخت و زوجة كان لها دخل مباشر في تعين مكانتها إذ أن أخلاقها هي المتحكم في وضعها في المجتمع ، فالمرأة العالمة و الزاهدة و المتخلقة كانت تتبوأ مكانة مرموقة في المجتمع ، في حين كان ينظر للمرأة ذات الأخلاق المتدنية نظرة نقص و ازدراء من قبل المجتمع .

أما في الجانب الاقتصادي فيمكن لنا أن نقول أن الأرياف المغربية تعددت فيها الأنشطة الاقتصادية فهناك الفلاحة والصيد و الصناعة و التجارة ، و رغم وجود هذا التنوع الاقتصادي إلا أنها كانت بسيطة في غالبها و بما هو متاح فهي في الغالب لا تتعدى الإمكانات المحلية ، و ما يمكن قوله أن الفلاحة هي العصب الرئيسي لاقتصاد الريف المغربي و ذلك راجع إلى الطبيعة البدوية لأرياف المغرب الأوسط ، فتحت الفلاحة تدخل الزراعة و الرعي و نالت الأولى النصيب الأوفر من حيث الممارسة ،كون الفلاح المغربي وجد نفسه مضطرا إلى خدمة الأرض و ذلك لأن حياته اليومية تجبره على الزراعة إذ أنه عليه العمل للعيش ، و كانت أرياف المغرب الأوسط تزخر بالعديد من المحاصيل الزراعية و يرجع سبب التنوع إلى تنوع الأقاليم المناخية فوجدت محاصيل جبلية و محاصل سهلية و محاصيل صحراوية ، و حتم الاشتغال بالزراعة على الفلاح المغربي القيام ببعض الأعمال

قبل الزراعة كالاستصلاح و التسميد و السقي و هنا يجب الإشارة إلى أن ذلك كان يتم بطرق بسيطة و بما هو متاح ، أما بالنسبة للرعي فإن أرياف المغرب الأوسط كانت متنوعة من حيث الثروة الحيوانية إذ هناك المواشي و يدخل تحت هذا الصنف الغنم و الماعز و البقر و الإبل ، و هناك الدواب و يضم البغال و الحمير و الخيل ، ليس هذا فقط بل كان الاهتمام كذلك بتربية الدواجن ، و كان لتربية الحيوانات مجموعة من الفوائد غير الفوائد الظاهرة إذ استعين مثلا بالبقر في عملية الحرث و نفس الشيء بالنسبة للحمير ، في حي كان لرجيع الدواجن دور في تسميد الأرض ، أما بالنسبة للصيد فيلاحظ أنه كان منتشرا في أرياف المغرب الأوسط و يرجع السبب لممارسة هذا المهنة إلى كون الصيادين كانوا في حاجة إلى صيده بغرض التغذية ، غير أنها لم تكن الدافع الوحيد لذلك فكان بغرض المتعة كما كان أيضا بغرض محاولة القضاء على بعض الحيوانات التي قد تكون خطرا إما على المحاصيل الزراعية على غرار الخنازير و القردة أو على قطعان الماشية على غرار السباع ، أما بالنسبة للصناعة فهي لم تنل المكانة التي نالتها الفلاحة و ذلك راجع إلى طبيعة الريف فالصناعة فيه تكون أقل مكانة من الزراعة ، و لكن رغم ذلك انتشرت بعض الصناعات خاصة ما تعلق بالصناعات الزراعية كطحن القمح و الصناعة الخشبية و دباغة و صباغة الجلود فهي صناعات تعتمد على الفلاحة بشكل كبير و من ثم عرفت انتشارا واسعا في الأرياف ، أما التجارة فارتبطت في كثير من الأحيانا ارتباطا وثيقا بالفلاحة إذ بيعت في أرياف المغرب الأوسط المحاصيل الزراعية التي كانت تجود بها أراضيه ، كما بيعت في أسواقه الحيوانات التي تنتجها باديته و التي تستعمل في خدمة الفلاحة كالبغال التي تستعمل في الحرث و الحمير التي تستعمل في النقل .

أما ما يمكن استنتاجه عن الجانب الثقافي فهو أن المؤسسات الثقافية التي وجدت في بلاد المغرب متنوعة و متعددة ، فهناك الزوايا والمساجد و المدارس و كان لكل مؤسسة من المؤسسات المذكورة مهام غير التعليم إذ أنها كانت مكانا أيضا لإيواء الطلبة ، و إن كانت الزوايا و المساجد تأوي الطلبة من دون شروط فإن المدارس وضعت مجموعة من الشروط لأيواء الطلبة ، و كانت هناك طرق للتحصيل العلمي في بلاد المغرب ، إذ كان يبدأ بتعليم الصبيان الكتابة ثم مكارم الأخلاق ثم يكون التدرج إلى أن يصل إلى أعلى ما يمكن للمتعلم أن يتعلمه ، و كان المعلم يحصل على أجرة يتلقاها من آباء المتعلمين و تكون عينية أو من المحاصيل الزراعية ، و تكون على حسب الاتفاق إما بالشهر أو السنة ، و هناك من قدرها على ما يحفظه الطالب من قرآن ، فهناك من قال مجرد تعلم الولد للحروف يوجب على والده دفع أجر ، ثم يكون الدفع على حسب ما يتعلم ، و إن كان

انتشار التعليم في بلاد المغرب ناتج عن مجموعة من الأسباب ، فإن هناك أسباب أخرى وقفت حجر عثرة أمام تحصيله ، و رغم هذا فإن العلوم انتشرت و تنوعت فهناك علوم نقلية منتقاة من الشرع وعلوم عقلية كان يعتمد فيها على العقل البشري و ما يجود به ، و كان للسلطة دور متناقض بين خدمة و تثبيط الحياة العلمية و ذلك من خلال تقريبها لبعض العلماء و تبجيلهم و إكرامهم والعكس يكون بنكبة البعض الآخر و حتى ضربهم و سجنهم .

الخاتمة :

من خلال دراستنا لموضوع الحياة الريفية في المغرب الوسط يمكن الوصول إلى مجموعة من النتائج منها:

أن الوضع السياسي في أرياف المغرب الأوسط لم يكن مستقرا و ذلك نتيجة لأسباب داخلية وخارجية ، فالأسباب الداخلية تكمن في الصراع بين أبناء البيت الحاكم في الدولة الزيانية ، و ما انجر عن ذلك من حروب كبرى تعدت أسوار عاصمة الدولة و شملت تقريبا كل بلاد المغرب الأوسط ، وكانت لهذه الحروب تأثيرات مباشرة على الوضع السياسي إذ ساهمت في ظهور إمارات داخل المغرب الأوسط و التي كان لها دور في التأثير على استقرار الوضع في المنطقة ، إذ أن هذه الإمارات و جدت نفسها مضطرة للدخول في معارك كبرى من أجل المحافظة على كيانها و من ثم أثرت تأثيرا سلبيا على الوضع السياسي لبلاد المغرب .

أما بالنسبة للأسباب الخارجية فنقصد بها الحملات العسكرية التي تعرض لها المغرب الأوسط من قبل جيرانه الحفصيين و المرينيين و ما كان لهذه الحملات من دخل في رسم بعض الخطوط الكبرى للخريطة السياسية لبلاد المغرب الأوسط ، و تجلى ذلك في إما إزالة حكم بني زيان في بعض من المرات أو التدخل في تعين سلاطين و إزالة آخرين و ما يكون لهذا العمل من تأثير على الوضع الداخلي لبلاد المغرب الأوسط ، و يجب هنا الرجوع إلى تبيان أن هذه العمليات العسكرية التي كانت في الغالب على حواضر المغرب الأوسط إلا أن صدى هذه الحملات لم يتوقف على الحواضر فقط بل تعداه إلى الأرياف إذ أن الجيوش في حملاتها و سيرها كانت في المدن و الأرياف و من ثم فالأرياف تعرضت لهذه الحملات و عرفت ألا استقرار على غرار المدن .

أما ما يمكن ملاحظته على مساهمة الريف في الحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط هو تعدد الأجناس المكونة للبنية الاجتماعية فهناك البربر و يمثلون السكان الأصليين للبلاد ، و هناك العرب و هم الذين قدموا إليه على دفعات و أكبر هذه الدفعات دخلت أثناء الفتح الإسلامي و الهجرة الهلالية ، كما وجد الأندلسيون و الذي نزحوا إلى المغرب الأوسط خاصة بعد حروب الاسترداد و سقوط المدن الأندلس في يد المسيحيين ، كما كانت المنطقة قبلة للمسيحيين الذين دخلوها إما تجار أو جنود أو جلبوا إليه كأسرى ، كما وجد بأرياف المغرب الأوسط اليهود و الذي يعود تواجدهم فيه إلى ما قبل التواجد الإسلامي و بقوا محافظين على ديانتهم ، و ما يمكن ملاحظته عن هذا التنوع

العرقي هو وجود تعايش بين هذه الأجناس و استمرار وجود هذه الأجناس و خاصة الأقليات منها دليل على ما نقول ، خاصة إذا عرفنا أن هناك البعض منهم تبوأ مراكزا مهمة داخل الدولة الزيانية .

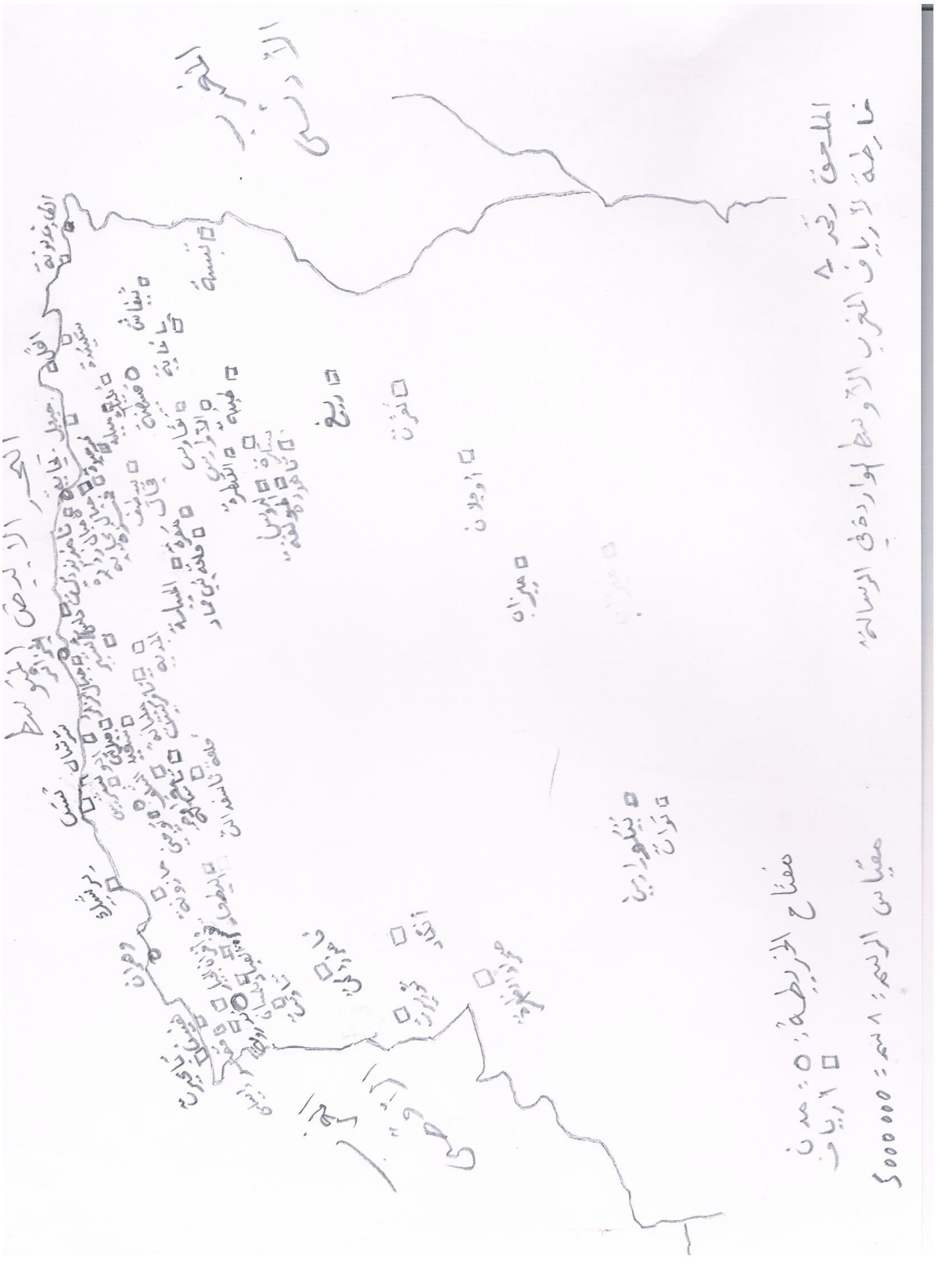
و كان لهذا التنوع العرقي تأثيرا على الحياة الاجتماعية ، إذ ساهمت كل هذه الأجناس في نسج الكثير من العادات و التقاليد و التي بفضلها ارتسمت معالم الشخصية المغربية ، و من خلال دراستنا للعادات و التقاليد لاحظنا تعدد العادات و التقاليد إذ هناك ما هو موغل في القدم يمتد إلى ما قبل التواجد الإسلامي و استمر في ما بعد رغم أن هناك منها ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية، و هناك عادات جلبها العرب معهم و انتشرت في أرياف المغرب الأوسط كما جلب الأندلسيون عادتهم و تقاليدهم لبلاد المغرب و مارسوها ، و بذلك يمكن القول أن العرب مارسوا العادات والتقاليد المغربية كما مارس البربر العادات العربية و نفس الملاحظة تلاحظ على الأندلسيين ، و ما نقوله عن الممارسة للعادات هو وجود تعايش و تمازج بين الأجناس ، وما يمكن ملاحظته أيضا هو أن الأسرة الريفية في المغرب الأوسط شكلت البنية الأساسية لبناء المجتمع ، و ما دامت كذلك كان الرجل يتحرى في اختيار الزوجة لأنها عماد الأسرة ، و لما كانت الأسرة لها هذه المكانة فإنها حاولت تربية أبنائها تربية صالحة لتكون دعما اقتصاديا و اجتماعيا للأسرة ، وما يمكن استنتاجه كذلك من خلال دراستنا للحياة الاجتماعية هو المكانة التي نالتها المرأة المغربية إذ أن المرأة التي هي في الأصل أم و أخت و زوجة كان لها دخل مباشر في تعين مكانتها إذ أن أخلاقها هي المتحكم في وضعها في المجتمع ، فالمرأة العالمة و الزاهدة و المتخلقة كانت تتبوأ مكانة مرموقة في المجتمع ، في حين كان ينظر للمرأة ذات الأخلاق المتدنية نظرة نقص و ازدراء من قبل المجتمع .

أما في الجانب الاقتصادي فيمكن لنا أن نقول أن الأرياف المغربية تعددت فيها الأنشطة الاقتصادية فهناك الفلاحة والصيد و الصناعة و التجارة ، و رغم وجود هذا التنوع الاقتصادي إلا أنها كانت بسيطة في غالبها و بما هو متاح فهي في الغالب لا تتعدى الإمكانات المحلية ، و ما يمكن قوله أن الفلاحة هي العصب الرئيسي لاقتصاد الريف المغربي و ذلك راجع إلى الطبيعة البدوية لأرياف المغرب الأوسط ، فتحت الفلاحة تدخل الزراعة و الرعي و نالت الأولى النصيب الأوفر من حيث الممارسة ،كون الفلاح المغربي وجد نفسه مضطرا إلى خدمة الأرض و ذلك لأن حياته اليومية تجبره على الزراعة إذ أنه عليه العمل للعيش ، و كانت أرياف المغرب الأوسط تزخر بالعديد من المحاصيل الزراعية و يرجع سبب التنوع إلى تنوع الأقاليم المناخية فوجدت محاصيل جبلية و محاصل سهلية و محاصيل صحراوية ، و حتم الاشتغال بالزراعة على الفلاح المغربي القيام ببعض الأعمال

قبل الزراعة كالاستصلاح و التسميد و السقي و هنا يجب الإشارة إلى أن ذلك كان يتم بطرق بسيطة و بما هو متاح ، أما بالنسبة للرعي فإن أرياف المغرب الأوسط كانت متنوعة من حيث الثروة الحيوانية إذ هناك المواشي و يدخل تحت هذا الصنف الغنم و الماعز و البقر و الإبل ، و هناك الدواب و يضم البغال و الحمير و الخيل ، ليس هذا فقط بل كان الاهتمام كذلك بتربية الدواجن ، و كان لتربية الحيوانات مجموعة من الفوائد غير الفوائد الظاهرة إذ استعين مثلا بالبقر في عملية الحرث و نفس الشيء بالنسبة للحمير ، في حي كان لرجيع الدواجن دور في تسميد الأرض ، أما بالنسبة للصيد فيلاحظ أنه كان منتشرا في أرياف المغرب الأوسط و يرجع السبب لممارسة هذا المهنة إلى كون الصيادين كانوا في حاجة إلى صيده بغرض التغذية ، غير أنها لم تكن الدافع الوحيد لذلك فكان بغرض المتعة كما كان أيضا بغرض محاولة القضاء على بعض الحيوانات التي قد تكون خطرا إما على المحاصيل الزراعية على غرار الخنازير و القردة أو على قطعان الماشية على غرار السباع ، أما بالنسبة للصناعة فهي لم تنل المكانة التي نالتها الفلاحة و ذلك راجع إلى طبيعة الريف فالصناعة فيه تكون أقل مكانة من الزراعة ، و لكن رغم ذلك انتشرت بعض الصناعات خاصة ما تعلق بالصناعات الزراعية كطحن القمح و الصناعة الخشبية و دباغة و صباغة الجلود فهي صناعات تعتمد على الفلاحة بشكل كبير و من ثم عرفت انتشارا واسعا في الأرياف ، أما التجارة فارتبطت في كثير من الأحيانا ارتباطا وثيقا بالفلاحة إذ بيعت في أرياف المغرب الأوسط المحاصيل الزراعية التي كانت تجود بها أراضيه ، كما بيعت في أسواقه الحيوانات التي تنتجها باديته و التي تستعمل في خدمة الفلاحة كالبغال التي تستعمل في الحرث و الحمير التي تستعمل في النقل .

أما ما يمكن استنتاجه عن الجانب الثقافي فهو أن المؤسسات الثقافية التي وجدت في بلاد المغرب متنوعة و متعددة ، فهناك الزوايا والمساجد و المدارس و كان لكل مؤسسة من المؤسسات المذكورة مهام غير التعليم إذ أنها كانت مكانا أيضا لإيواء الطلبة ، و إن كانت الزوايا و المساجد تأوي الطلبة من دون شروط فإن المدارس وضعت مجموعة من الشروط لأيواء الطلبة ، و كانت هناك طرق للتحصيل العلمي في بلاد المغرب ، إذ كان يبدأ بتعليم الصبيان الكتابة ثم مكارم الأخلاق ثم يكون التدرج إلى أن يصل إلى أعلى ما يمكن للمتعلم أن يتعلمه ، و كان المعلم يحصل على أجرة يتلقاها من آباء المتعلمين و تكون عينية أو من المحاصيل الزراعية ، و تكون على حسب الاتفاق إما بالشهر أو السنة ، و هناك من قدرها على ما يحفظه الطالب من قرآن ، فهناك من قال مجرد تعلم الولد للحروف يوجب على والده دفع أجر ، ثم يكون الدفع على حسب ما يتعلم ، و إن كان

انتشار التعليم في بلاد المغرب ناتج عن مجموعة من الأسباب ، فإن هناك أسباب أخرى وقفت حجر عثرة أمام تحصيله ، و رغم هذا فإن العلوم انتشرت و تنوعت فهناك علوم نقلية منتقاة من الشرع وعلوم عقلية كان يعتمد فيها على العقل البشري و ما يجود به ، و كان للسلطة دور متناقض بين خدمة و تثبيط الحياة العلمية و ذلك من خلال تقريبها لبعض العلماء و تبجيلهم و إكرامهم والعكس يكون بنكبة البعض الآخر و حتى ضربهم و سجنهم .


الملحق رقم ٨
خارطة أرياف المغرب الأوسط الواردة في الرسالة
مفتاح الخريطة: ○: مدن
☐: أرياف
مقياس الرسم: ١ سم = ٥٠٠٠٠٠٠
البحر الأبيض المتوسط
المغرب الأدنى
المغرب الأقصى

1-أبو يحي يغمراسن بن زيان 633-681هـ/1235-1282م
2-أبو سعيد عثمان الأول بن يغمراسن 681-703هـ/1282-1303م
3-أبو زيان محمد بن عثمان الأول 703-707هـ/1303-1307م
4-أبو حمو موسى بن عثمان الأول 707-718هـ/1307-1318م
5-أبو تاشفين الأول عبد الرحمن بن أبي حمو الأول 718-737هـ/1318-1337م
6-أبو سعيد عثمان الثاني 749-753هـ/1348-1352م
7-أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف 760-791هـ/1359-1389م
8-أبو تاشفين الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو الثاني 791-795هـ/1389-1392م
9-أبو ثابت يوسف بن أبي تاشفين الثاني 795-796هـ/1392-1393م
10-أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو الثاني 796-797هـ/1393-1394م
11-أبو زيان الثاني عبد الرحمن بن أبي حمو الثاني 797-801هـ/1394-1399م
12-أبو محمد عبد الله الأول بن أبي حمو الثاني 801-804هـ/1399-1402م
13-أبو عبد الله محمد الأول المعروف بابن خولة 804-813هـ/1402-1411م
14-عبد الرحمن الثالث 813-814هـ/1411-1412م
15-السعيد بن أبي حمو الثاني 814-814هـ/1412-1412م
16-أبو مالك عبد الواحد بن حمو الثاني (حكمه الأول) 814-827هـ/1412-1424م
17-أبو عبد الله محمد الثاني المعروف بابن الحمراء (حكمه الأول) 827-831هـ/1424-1428م
18-أبو مالك عبد الواحد (حكمه الثاني) 831-833هـ/1428-1430م
19-أبو عبد الله محمد الثاني (حكمه الثاني) 833-834هـ/1430-1431م
20-أبو العباس أحمد العاقل بن أبي حمو الثاني 834-866هـ/1431-1462م
21-أبو عبد الله محمد الثالث المتوكل على الله 866-873هـ/1462-1468م
22-أبو عبد الله محمد الرابع الثابتي 873-910هـ/1468-1505م
23-أبو عبد الله محمد الخامس بن محمد الثابتي 910-922هـ/1505-1516م
24-أبو حمو الثالث بن محمد الثابتي (حكمه الأول) 922-923هـ/1516-1517م
25-أبو زيان أحمد الثالث 923-924هـ/1517-1518م

26-أبو حمو الثالث (حكمه الثاني) 924-934هـ/1518-1528م

27-عبد الله بن أبي حمو الثالث بن محمد الثابتي 934-947هـ/1528-1540م

28-أبو زيان أحمد الثاني بن عبد الله الثاني (حكمه الأول)947-949هـ/1540-1542م

29-أبو عبد الله محمد بن أبي حمو 949-949هـ/1542-1542م

30-أبو زيان أحمد الثاني بن عبد الله الثاني (حكمه الثاني)949-957هـ/1542-1550م

31-الحسن بن عبد الله الثاني الزياني 957-962هـ/1550-1554م

ملحق رقم 2 : سلاطين بنو زيان .

عنوان الرسالة : إخبار بوصول مبعوث نصري إلى تلمسان.

المقام الذي ألبس الأيام شارة زينتها و جمالها بدولته ، و أعز الإيمان و أذل الكفر بصولة سلطانه وسلطان صولته ، مقام مولانا السلطان الأعلى الأسنى أمير المسلمين أبو عبد الله (السلطان محمد الفقيه 671-701هـ/1272-1301م) بن مولانا الأعلى أمير المسلمين ابن نصر ، أدام الله أيامه لعلو يزداده ، و نصر عزيز يزداده ، و نصر عزيز يتصل به من السماء إمداده ، و سعد يأتيه بمناوي أمره العلي في ربقة الدول و الخضوع يقتاده مملوك طاعته الموالي من شكر أياديه السالفة و الخالفة ما تتضوع الأفاق بنشره و إذاعته ، و مقبل يده الكريمة التي تقبيلها رأس ماله و أنفس بضاعته ، محمد بن عبيد الله الخطاب ، سلام كريم مبارك عميم يخصكم و رحمة الله و بركاته .

و بعد حمد الله الذي له الأمر كله و الصلاة على سيدنا محمد رسوله الذي فاض على الأمة نور هداه و امتد عليهم ظله و على آله و أصحابه أولي الشرف الذي تداني مرتبته و لا يسامى محله ، والدعاء لمقامكم الكريم بنصر ينهل حسامه من دم أعدائه و يعله .

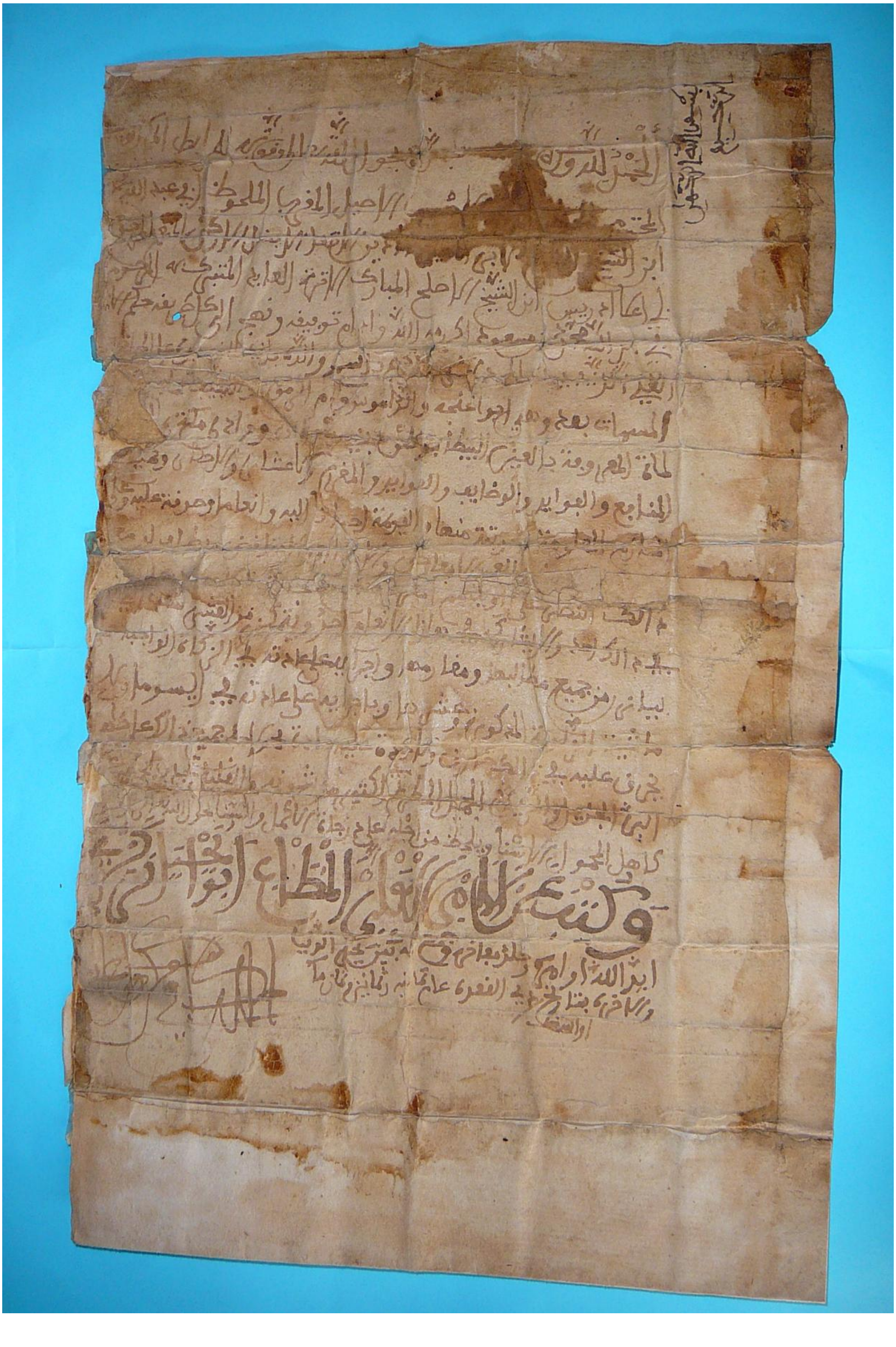
فكتبته -كتب الله لكم سعدا يغادر غادركم لحينه مصروعا و يصير إليها من تدبيره الميمون كفيلا بموافقتها — من تلمسان حرسها الله و إن المملوك أصدر خدمته هذه إلى البسائط الأشراف مقررا ما هو عليه من التخدم في حالي سرانه و ضرانه ، و الشكر لإحسانكم الذي ملكه فلا يزال من أرقائه ، و الإنجذاب إلى جانبكم المنيع المريع الرهين لمن انجذب بإسمائه و إرقائه ، و منطويا إلى التشيع لسلطانكم و تقديمه على كل ذي سلطان بعقيدة ثبتت بالأدلة ، وصحت بالبرهان المطلق المفيد للوجود و العلة ، و كيف لا و قد ظهر فضلكم للعيان و بهر عالم الإنسان ، و غمر جميعهم ما أمر الله من العدل و الإحسان ، فمن قاس غيره به فكما يشبه بالياقوت حب الرمان ، هيهات أعوز الشبه ، و استحق من رامه أن ينسب إليه الأفن و السفه ، أين من الشمس الدبالة ؟ أم أين من بغداد تبالة ؟ هذه هانت على الوالي و تلك هامة بها الخلافة على مر الليالي ، أبى الله إلا أن يكون لهم الفضل و الإفضال و الشرف المتصل الإسناد إذا أخل بالإسناد الإنقطاع و الإعضال كل يقصر على نداكم و يتأخر على مداكم ، و يشهد بأن الوصف المعتبر في الإمامة ما عداكم ، و المملوك وإن طوّل استدلاله و ضرب أمثاله على عقيدته يستدل ، ومن مآثر جلالكم مادة برهانه التي منها يستمل ، فإن أطنب فمجال القول متسع يحتمل من القول ضروبا ، و إن اختصر فقديما جرى :" ليس الرأي عن انتشاق " مثلا مضروبا .

ووصل في هذه الأيام الفارطة من المقام الأعلى – أيده الله – رسوله و خاصته القائد الأجل الحسيب الأسنى أبو عبد الله بن يراطن – وصل الله عزته – حميدا قصده ، قريبا بالكف المفداة عهده ، فوصف من أنباء المقام الكريم و يسر مرامه و نصر أعلامه ما ملأ فؤاد المستدل سرورا ، و أفرج منه كربه مذموما مدحورا و أضاء جوانبه فحيثما التفت رأى نورا و هو المسؤول (سبحانه) أن يزيد أمركم علوا و ظهورا ، و يجعل عنايته الواقية على سلطانكم العلي نشورا ، و يسقي مضارب ظباته من دماء عداته شرابا طهورا ، يروي الشفار ، و يرحض من أرجاسهم الديار التي تعود كما كانت نقية ، وتحصل فيها الهيئة التي تسمى طهارة شرعية إن شاء الله ، و ما أخر خدمة بابكم الكريم بالمخاطبة إلى الآن إلا أسباب تعوق عن الواجب ، و تصد عن سلوك السنن اللاحب و الله تعالى يديم لمقامكم الكريم نصر اللواء و قهر الأعداء و يعرفه في كل مرام يرومه يمن الإعادة و الإبداء ، و السلام الكريم يخصه كثيرا و رحمة الله (تعالى) و بركاته .

كتب في عقب شوال من سنة ثمان و سبعين و ستمائة .

الملحق رقم 03 : يؤكد العلاقة الحسنة بين الزيانيين و إمارة بني الأحمر

انظر :أبو بكر بن الخطاب : المصدر السابق ، ص 160-161 .



النص الكامل للظهير:

بسم الله الرحمن الرحيم

كمل بحمد الله تعالى وقوته للمرابط المكرم المحترم [الجليل]و الأحسب الأصيل المقرب الملحوظ أبي عبد الله محمد بن الشيخ الأقدس الأكمل الأفضل الأزكى المنعم المرحوم أبي علاء إدريس بن الشيخ الأصلح المبارك الأتقى العابد المتبرك به المرحوم أبي عبد الله محمد بن مسعود أكرمه الله وأدام توفيقه ونهج إلى كل طريقه حكم ... الغني الذي بيده [بلاد] ... باسم والده [جميع الأملاك الموقوفة] المسمات بعد وهي : بوغنجة والداموس من الجرموع والبسيط [المحاذي لها] المعروفة بالعين البيضا بوطن بني .... ووادي مكة التمتع بجميع المنافع والفوائد والوظائف والعوائد والمغرم والأعشار والأحكار وجميع المغارم المعلومة الحديثة منها والقديمة إحسانا إليه وإنعاما وصدقة عليه وعلى جميع ذريته في التمتع بها ....له مع ذلك ولا يشاركه في هذا الإنعام أحد من العشر ...ليأزر من جميع مطالبها ومغارمها وإجرائه على عادته في الزكاة الواجبة على الماشية والزكوة المذكورة وعشرها بإجرائه على عادته في ... ولا يخرق عليه في ذلك خارق ولا .... عليه .... محمولا في جميع ذلك على كاهل البر الجزيل و.... الجميل [المطرد] في الكثير من شؤونه والقليل ... على كاهل المحمول الأسنا ويلحظ من أجله على درجات الأكمل والسنا بحول الله تعالى وقسمته .

كتب عن إذن الأمير العلي المطاع أبو يحي زكريا أيد الله أوامره و خلد مفاخره و جمع له بين الدنيا والآخرة بتاريخ ذي القعدة عام ثمانية و ثمانين و ثمانمائة

الملحق رقم 04 نص الوثيقة المخطوطة مكتوب

العلم	ما يتطلبه نظريا	المصدر
المنطق	اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة أي معرفة الأشياء التي هي مقتضى العلم و هذا السعي من الفكر	ابن خلدون : المقدمة ص 343
العلوم العددية	يبنى على الكم المنفصل أي هو العدد و ما يؤخذ له من الخواص و العوارض اللاحقة	نفسه ص 338
علم الفلك	حركات الكواكب الثابتة و المتحركة و المتحيزة مع تعين أشكال هذه الحركات و أوضاعها و كيفياتها و أشكالها	نفسه ص 344
علم الطب	معرفة ما يخص كل عضو من أعضاء البدن و أسباب كل تلك الأمراض التي تنشأ عنها و ما لكل مرض من أدوية	نفسه ص 345

الملحق رقم 05

العلوم النقلية و ما تتطلبه نظريا

قائمة المصادر و المراجع :

القرآن الكريم .

1-المخطوطات :

1/ أحمد البويعقوبي (ت ق 13هـ/19م): تحفة القضاة ببعض مسائل الرعاة ، مخطوط بالخزانة العامة الرباط ، تحت رقم د 1079.

2/أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ/1626م) أجوبة في شأن القوانين العرفية ، مخ الخزانة الحسنية ، رقم 5813

3/الزبير حمادوش : سيرة العالم الشهيد عبدالحميد حمادوش، دراسة مخطوطة ،

4/أبو القاسم خلف الزهراوي (ت 403هـ/1012م):التصريف لمن عجز عن التأليف ، مخ الخزانة العامة الرباط ، رقم ج12

5/ابن قنفد : أبو العباس القسنطيني (810هـ /1407م): حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب ، مخ الخزانة العامة الرباط ،423د .

6/ ابن مرزوق أبو عبد الله محمد أحمد بن محمد الشهير بالخطيب (ت 781هـ/1379م): إسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم.2067

7/ الغمري : محمد بن محمد بن زين العابدين سبط المرصفي (ت 922هـ/ 1516م): الروضة الغناء في منافع الحناء ، مخطوط ضمن مجموع بالخزانة الحسنية تحت رقم 12131 ز

8/ ابن هيدور :علي بن الله بن محمد (ت816هـ/1413م) مقالة في الأمراض الوبائية الكائنة عن فساد الهواء و الأغذية ، مخ بمكتبة آل سعود الدار البيضاء ، المملكة المغربية ، ضمن مجموع تحت رقم 1/364 .

2-المصادر :

1/ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658هـ/1259م) التكملة لكتاب الصلة ،تح عبد السلام الهراس ،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، 1995 ،

2/ابن الأحمر : اسماعيل بن يوسف (807هـ/1404م) : روضة النسرين في دولة بني مرين ، المطبعة الملكية ،الرباط ،1962

3/ــــــــــــــــــــــــ : تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم و تحقيق و تعليق هاني سلامة ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية للنشر و التوزيع ، بور سعيد ،مصر 2001.

4/ابن الأخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشي (729هـ/1338): معالم القربة في أحكام الحسبة ، نقل و تصحيح روين ليوى ، مطبعة دار الفنون ،كيمبرج ، 1937 .

5/الإدريسي :أبو عبد الله محمد بن عبد الله (560هـ/1166م) القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، تح و تقديم اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 .

6/مالك بن أنس : أبو عبد الله الأصبحي (179هـ/795م): الموطأ ، تح محمد مصطفى الأعظمي ، ط1 ،ج4 ، مؤسسة السلطان زايد بن آل نهيان ، 2004 .

7/الباديسي :عبد الحق إسماعيل (كان حيا 722هـ/1322م) المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف ، تح سعيد أعراب ، ط2 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1993

8/البخاري :محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت 256هـ/869م) الجامع الصحيح المختصر المعروف بصحيح البخاري ، تح مصطفى ديب البغا ، ط3 ، دار ابن كثير اليمامة ، بيروت 1987

9/البرزلي : أبو القاسم أحمد البلوي التونسي (ت 841هـ/1438 م) :فتاوى البرزلي المعروف بجامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 2002

10/ابن بشكوال :أبو القاسم خلف بن عبد المالك (ت578هـ/1182م) كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس ذيل كتاب تاريخ ابن الفرضي ، تقيم و شرح صلاح الدين الهواري ط1 ، المكتبة العصرية للطباعة و النشر ، صيدا لبنان ، 2003

11/ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي (ت 756هـ/1355م) تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، المعروف بكتاب الرحلة ، دار صادر بيروت ، 1992

12/البكري :أبو عبيد الله بن العزيز القرطبي (ت487هـ/1094م) المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب وهو جزء من المسالك و الممالك ، نشره مع الترجمة الفرنسية كولين دوسلان ، مكتبة أمريكا و الشرق ، باريس 1965 .

13/ البلوي :خالد بن عيسى (كان حيا سنة 767هـ/1365م) :تاج المفرق في تحلية علماء المشرق،تح الحسن السائح .اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة الإمارات العربية المتحدة
14/ البناء :أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي بن رامي (734هـ/1333م): الإعلان بأحكام البنيان ، تح فريد بن سليمان ، تقديم عبد العزيز الدولاتي ، مركز النشر الجامعي 1999 .
15/ البيهقي :أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر (458هـ/1065م): شعب الإيمان ، تح محمد سعيد بسيوني زغلول ، ج4 ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1410 هـ.
16/التادلي : بن الزيات أبو يعقوب يوسف بن يحي (ت 617هـ/1220م): التشوف إلى رجال التصوف تح علي عمر ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2006 .
17/التنبكتي : أبو العباس أحمد بابا (ت1036هـ/1626م):كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج تح علي عمر ،ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2004
18/______________ : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،تح علي عمر ،ط1 ،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، 2004
19/التنسي :محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت899هـ /1493م) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ،تح و تعليق محمود بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب و المكتبة الوطنية الجزائرية ، الجزائر ، 1985.
20/ الجزنائي : علي بن محمد السيد الشريف (ت 816هـ/1415م) جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تح عبد الوهاب بن منصور ،ط2 ، الطبعة الملكية ، الرباط ، 1991
21/الجوهري :إسماعيل بن حماد (ت393هـ /1002م): الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية ،تح أحمد عبد الغفور عطار ، ط4 ، دار العلم للملايين بيروت ،1987
22/ ابن حبان : محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت 354هـ/965م) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، تح شعيب الأرنؤوط ، ط2 ،ج3 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1993
23/ابن حجر العسقلاني :أحمد بن علي (ت 852هـ/1448م)نزهة النظر شرح نخبة الفكر ،دار الكتب العلمية بيروت .

24/ أبو الحسين : أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، ج2 ، دار الفكر ، بيروت ، 1399هـ - 1979م

25/الحميري :محمد بن عبد المنعم السبتي (ت أواخر ق 9هـ/15م) الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح احسان عباس ، ط2 ، مكتبة لبنان مطبعة هيدلبارغ ، بيروت ، 1984

26/ابن حوقل : النصيبي : أبو القاسم محمد (367هـ/977م) صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

27/ابن الخطاب : أبو بكر: محمد بن عبد الله بن داود (ت 786هـ /1384م):فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب ، دراسة و تحقيق و نشر أحمد عزاوي في كتاب المغرب و الأندلس في القرن السابع /13م ، ط1 ، مطبعة ربانيت ، الرباط ، 2008 .

28/ ابن الخطيب : لسان الدين : (ت 776هـ/1374م) الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح محمد عبد الله عنان ، ج1 ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ،1973

29/_______________ : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق و تقديم السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1989.

30/ابن خلدون : عبد الرحمن أبو زيد (ت 808هـ /1405م): العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ط1، مطبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2007 .

31/_______ : المقدمة ،المطبعة البهية المصرية ،

32/ ابن خلدون :أبو زكريا يحي :(ت 780هـ/1378م) بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، ج1 ، تقديم و تح و تعليق عبد الحميد حاجيات ،المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980،

33/_______________ : بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ، مج2 ، طبع بمطبعة فونطانة ، الجزائر ، 1910 .

34/ابن خلكان : أبو العباس أحمد (ت 681هـ/1282م) وفايات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تح إحسان عباس ، ط1، ج4 ،دار صادر ، بيروت ، 1971 .

35/خليل : عبد الباسط (ت قبل 920هـ/1514) : الروض الباسم في حوادث العمر و التراجم ، نشره روبار برنشفيك ، مكتبة لاروز ، باريس ، 1936 .

36/أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت 275هـ/888م) : سنن أبي داود ،، دار الكتاب العربي بيروت .
37/الدباغ : أبو عبد الرحمن بن محمد الأسدي (ت 696هـ/1296م) معالم الإيمان ، ج4 ،المطبعة الرسمية العربية ، تونس ، 1320 هـ
38/ابن أبي دينار: أبو عبد الله الرعيني القيرواني (ت 1110هـ/1699م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة النهضة ، تونس 1350 هـ/ 1922 م
39/ابن رزين التجيني : علي بن محمد (ت بعد 640هـ /1242م): فن الطبخ في الأندلس و المغرب في بداية عصر بني مرين ، تقديم و تح محمد بن شقرون ،مطبعة الرسالة ، الرباط ،1981 ،
40/الرصاع : محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري التونسي (ت894هـ-1491م): شرح حدود ابن عرفة ، المطبعة التونسية
41/ابن أبي زرع : علي بن عبد الله الفاسي (726م/1326م) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، 1972 .
42/________________: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط ، 1972
43/الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (كان حيا 894هـ/1488م) تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، تح و تقديم محمد ماضور ، ط2 ، المكتبة العتيقة ، تونس ، 1966 .
44/أبو حمو : موسى بن زيان العبد الوادي (ت 791هـ/1389م) : واسطة السلوك في سياسة الملوك ، تقديم : عبد الرحمن عون، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ط1 ، 1990
45/ابن أبي زيد القيرواني : أبي محمد عبد الله(ت 386هـ/996م): الرسالة ، نشر مع الترجمة الفرنسية ليون بارشي ، المكتبة العربية الفرنسية ، مكتبة الشعب العسكرية ، ط5 ، الجزائر ، 1968
46/ابن سعيد المغربي(685هـ/1386م) : كتاب الجغرافيا ، تح إسماعيل العربي ، ط2 ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982.
47/السقطي : أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي (عاش في أواخر القرن 6 هـ وأوائل القرن 7هـ / 12م -13م) :في آداب الحسبة ، المطبعة الدولية باريس ، 1931

48/ السنوسي : محمد بن يوسف (ت895هـ/1498م) : نصرة الفقير في الرد عن أبي الحسن الصغير تح و نشر جمال الدين بوقلي حسن ضمن كتاب الإمام ابن يوسف السنوسي و علم التوحيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985.
49/ــــــــــــــ : رسالة في الطب ، تح خالد زهري ،ط1 ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، 2002.
50/ ابن سيده : أبو الحسن علي بن اسماعيل : المخصص ، تح خليل إبراهم جفال ، ط1 ، ج3 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1417هـ 1996م ،
51/ الشراط : أبو عبد الله محمد بن عيشون (كان حيا سنة 700هـ /1300م): الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس ، دراسة وتح زهراء النظام ، ط1 ،منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1997.
52/ابن الشماع : أبو عبد الله محمد بن أحمد (833هـ /1430م)الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح و تقديم الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ، 1984 .
53/ابن صعد : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري التلمساني (901هـ/1495م): روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين ، مراجعة و تح يحي بوعزيز ، ط1 ، منشورات ANEP، و المطبعة الحديثة IMAG للفنون المطبعية ، الجزائر ،2004
54/ الطبراني : سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم (360هـ /970م):المعجم الكبير ، تح حمدي بن عبد المجيد السلفي ، ط2 ، ج 17 ، مكتبة العلوم و الحكم ، الموصل العراق ، 1984 ،
55/العبدري : أبي عبد الله محمد بن محمد (ت بعد 700هـ/1300م): الرحلة ،تح علي إبراهيم كردي ، تقديم شاكر الفحام ، ط1 ، دار سعد الدين للطباعة و النشر و التوزيع ، دمشق ، 1999
56/ابن عبدون الإشبيلي:(عاش في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي):رسالة في القضاء و الحسبة ،نشر ليفي بروفنسال ، الجريدة الأسيوية أفريل جوان 1934.
57/ابن عذارى : أبو العباس أحمد المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، قسم الموحدين ،تح محمد إبراهيم الكتاني و آخرون ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1985 ،

58/ابن عربي محي الدين : محمد بن علي بن محمد (ت 638هـ /1240م):الفتوحات المكية ،ج2 ، دار صادر،بيروت ،
59/العقباني:أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمسانى (ت871هـ /1466م) : تحفة الناظر و غنية الذاكر في حفظ الشعائر و تغير المناكر ،تح علي الشنوفي Extrait **du** Bulletin d'Etudes Orientales de l'institut FRANÇAIS DE DAMAS TOME .XI X, 1967
60/ بن عمر يحي (ت ق 3هـ /9م) :أحكام السوق بقلم محمود مكي ،فصلة من صحيفة المعهد المصري ،الشركة التونسية للنشر و التوزيع ، القاهرة .
61/ العمري : شهاب الدين ابن فضل الله (ت 749هـ/1348م)،و صف إفريقيا و الأندلس ، تح حسن حسني عبد الوهاب ، مطبعة النهضة ، تونس .
62/ابن العوام الإشبيلي : أبو زكريا يحي بن محمد بن محمد بن أحمد(ت580هـ/1185م) :كتاب الفلاحة ،نشر و ترجمة خوسي أونطونيو بانكيري ، ج1 ، مدريد ، 1802 ،
63/القاضي عياض موسى بن عمرو اليحصبي (ت 544هـ/1149م): مذاهب الحكام في نوازل الأحكام ، تح محمد بن شريفة ، ط1 ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 .
64/الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت بعد 704هـ /1304م) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، ط1 ، دار البصائر للتوزيع و النشر ، الجزائر ، 2007 .
65/ابن فرحون : برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد (ت 799هـ/1396م) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تح محمد الأحمدي أبو النور ، مج 2 ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .
66/الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم مجد الدين الشرازي (ت817هـ/1415م): القاموس المحيط ، دار الجيل بيروت .
67/القلصادي :أبو الحسن علي بن محمد البسطي (ت 891هـ /1486م)تمهيد الطالب ومنتهى الراغب المعروف بالرحلة ،تح محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية ، تونس ، 1978
68/ القلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت 821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناع الانشا ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1340 هـ ، 1922 م .

69/أبو العباس أحمد بن الحسين ابن قنفد القسنطيني (ت 810هـ /1407) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تقيم و تحقيق محمد الشادلي النيفر ، عبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1968.
70/ـــــــــــــــــ :الوفايات ، معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين و الفقهاء والمؤلفين ، تح عادل نويهض ط4 ، دار الآفاق الجديدة ، 1983 .
71/ـــــــــــــــــ : انس الفقير و عز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين و أصحابه رضي الله عنه تح أبي سهل نجاح عوض صيام ، تقديم علي جمعة ، ط1 ، دار المقطم للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 2002.
72/مارمول كربخال (ت977هـ/1570م): كتاب إفريقيا ، تر محمد حجي و آخرون ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1984 .
73/ابن ماجة : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت273هـ/866م) سنن بن ماجة ، تح محمد فؤاد عبد الباقي ، ج2 ، دار الفكر بيروت ،
74/أبو زكريا المازوني : محمد بن أبي عمران المغيلي (ت 833هـ/1478م): الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، تح حساني مختار ،ج2 نشر مخبر المخطوطات كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية جامعة الجزائر ،2004 .
75/الماوردي : أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ/1058م): كتاب الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ، تح سمير مصطفى رباب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2001.
76/مؤلف مجهول (عاش في القرن 7هـ/13م): مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، تح و دراسة محمد عيسى صالحية ،إحسان صدقي العمد ، ط1 ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 1984 .
77/مؤلف مجهول : (ق 6هـ/ 12م) : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1985
78/ مؤلف مجهول (ق8هـ/14م) زهر البستان في دولة بني زيان ، تقديم محمد بن أحمد باغي ، ط1 ، شركة الأصالةللنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2011

79/المجيلدي : أحمد سعيد (ت 1094هـ/1683م): التيسير في أحكام التسعير ، تقديم و تحقيق موسى لقبال ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ،
80/ المراكشي عبد الواحد محي الدين بن علي (ت 647هـ/1249م: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح سعيد العريان ، القاهرة ،1963م،
81/______________ : وثائق المرابطين والموحدين ، تح حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 ، 1997 ،
82/ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد الخطيب التلمساني (ت781هـ/1379م) : المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة و تعليق ، ماريا خيسوس بيغيرا ،تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر .1981
83/______________ : المناقب المرزوقية ،دراسة و تح سلوى الزاهري ، ط1ن منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 2008 ،
84/ابن مريم : أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المليتي المديوني التلمساني (كان حيا 1014هـ/1605م): البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان نشر محمد بن أبي شنب ، قدم له عبر الرحمن طالب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 .
85/ المغيلي : محمد بن عبد الكريم (ت909هـ /1503م) : فيما يجب على الأمير ، تح محمد بن أحمد باغلي ، منشورات ثالة ، الجزائر ، .2008
86/المقري: أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1041م/1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح إحسان عباس ، ، دار صادر، بيروت ، 1388هـ
87/______________: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ج5 ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، 1978 ،
88/ ابن منظور :أبو عبد الله محمد الإفريقي المصري (ت 711هـ /1311م) : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت 1990 .
89/ النميري: إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم المعروف بابن الحاج (ت786هـ/1367م) : فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و بلاد الزاب تح محمد بن شقرون ،ط1 دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 .

90/الونشريسي :أبو العباس أحمد بن يحي (ت 914هـ/ 1508 م) : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ،خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ،الرباط ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981.

91/ــــــــــــــــــ : كتاب الولايات و المناصب الحكومية الإسلامية و الخطط الشرعية ، نشر و تعليق محمد الأمين بلغيث ، مطبعة لافوميك .

3-المراجع :

1/استيتو محمد : الفقر و الفقراء في مغرب القرنين 16و17 ، مؤسسة النخلة للكتاب ، وجدة المغرب ،2004

2/ الأعرج عبد العزيز محمود : مدينة المنصورة المرينية بتلمسان ،ط1 ، دار الشرق ، القاهرة ، 2006

3/برنشفيك روبار : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م ، تر حمادي الساحلي ، ط1 ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988 .

4/البستاني بطرس : محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1977

5/بعيزيق صالح : بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية ، منشورات كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية بتونس ، جامعة تونس ، 2006

6/بغلي وهيبة :الأحذية التقليدية الجزائرية تر أحمد لمين مراجعة إنعام بيوض ،المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الانسان و التاريخ ، CNRPAH، الجزائر 2008

7/ بل ألفرد :الفرق الإسلامية من الفتح حتى اليوم ، تر عبد الرحمن بدوي ، ط3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981

8/بلحاج نادية :التطبيب و السحر في المغرب ، ط1 ، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الرباط 1986.

9/بوتشيش إبراهيم القادري :تاريخ الغرب الاسلامي قراءات جديدة في بغض قضايا المجتمع و الحضارة ،ط 1 ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، 1994.

10/ــــــــــــــــــ : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين ،ط1 ،دار الطليعة، بيروت 1998 .

11/ــــــــــــــــ : إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي و تاريخه الاقتصادي و الاجتماعي ،ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 2002 ،

12/بوقلي حسن جمال الدين :الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر .1985

13/ بولقطيب الحسين :جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،2002

14/البياض عبد الهادي : الكوارث الطبيعية و أثرها في سلوك و ذهنيات الإنسان في المغرب و الأندلس (ق 6-8هـ/12-14م) ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 2008 .

15/ تيتاو حميد : الحرب و المجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ،مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود ، الدار البيضاء ، منشورات عكاظ ،2010 .

16/الجنحاني الحبيب : المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية و الاجتماعية (3-4هـ /9-10م) ، الدار التونسية للنشر تونس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1978 ،

17ــــــــــــــــ: المجتمع العربي الإسلامي ، الحياة الاقتصادية و الإجتماعية ، سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، العدد 139 ، مطابع السياسة ، الكويت ، 2005

18/جوليان شارل أندري : تاريخ إفريقيا الشمالية ، تع محمد مزالي ، بشير بن سلامة ، تونس .1969

19/ حجي محمد : نظرات في النوازل الفقهية ،ط1 ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999

20/ حساني مختار : تاريخ الدولة الزيانية ،الأحوال الاقتصادية و الثقافية ، ج2 ، منشورات الحضارة ،الجزائر ،2009.

21/الحسن إحسان محمد : العائلة والقرابة و الزواج ، دراسة تحليلية في تغير نظم العائلة و القرابة والزواج في المجتمع العربي ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1981 .

22/حسن محمد : المدينة و البادية بإفريقية في العهد الحفصي ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة تونس الأولى ، تونس ، 1999 ،

23/حقي محمد : الموقف من المرض في المغرب و الأندلس في العصر الوسيط ، مطبعة مانبال بني ملال ، المملكة المغربية ، 2007،

24/ـــــــ : الموقف من الموت في المغرب و الأندلس في العصر الوسيط ، مطبعة مانبال بني ملال ، المملكة المغربية ، 2007،

25/بن حمادة سعيد : الماء و الانسان في الأندلس خلال القرنين 7-8هـ /13-14م إسهام في دراسة المجال و المجتمع و الذهنيات ، ط1 ، دار الطليعة بيروت ، 2007 .

26/ الخطيب إسماعيل :المختار في تعظيم المنة و المعيار في بدع العبادات و العادات و الطرقية ،مطبوعات جمعية البعث الاسلامي ، تطوان ،1996

27/ الخطيب محمد : المجتمع البدوي ،ط1 ،دار علاء الدين للنشر و التوزيع و الترجمة ،دمشق . 2008

28/رزوق محمد : دراسات في تاريخ المغرب ، ط1 ، إفريقيا الشرق ، 1991 .

29/السايح الحسن : الحضارة المغربية البداية و الاستمرار ط2 ،منشورات عكاظ الرباط 2004 ،

30/سويسي محمد : نماذج من التراث العلمي العربي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، 2001

31/الشاهري مزاحم علاوي : الأوضاع الاقتصادية في المغرب في عهد المرينيين (668-759هـ/1269-1358م) ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2001

32/أبو ضيف مصطفى : القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1981.

33/العامري نيللي سلامة : الولاية والمجتمع : مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي ، ط1 ، دار الفارابي . بيروت ، 2001

34/بن عبد الله عبد العزيز :العلوم الكونية والتجريبية في المغرب (كيف تطورت خلال ألف عام)ط1 ، دار المعرفة ، الرباط ، 2000 .

35/عيسى لطفي : أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ ، دار سراس للنشر، تونس 1993.

36/فتحة محمد : النوازل الفقهية والمجتمع ،أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6هـ/9هـ 12-15م ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، 1999

37/الفضيلي إدريس : الدرر البهية والجواهر النبوية ، مراجعة ومقابلة أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي ، ج 2 ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب .

38/الفوال صلاح مصطفى :البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية ،دار الفكر العربي ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، القاهرة .
39/فيلالي عبد العزيز : تلمسان في العهد الزياني ، ،دار موفم للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2004
40/ القبلي محمد : مرجعيات حوول المجتمع و الثقافة بالمغرب الوسيط ، ط1 ،دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء ، المغرب ، 1987
41/ كلنير إرنست : السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية ، ضمن كتاب جماعي بعنوان : الأنثروبولوجيا والتاريخ ، حالة المغرب العربي . ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط1، 1988
42/ موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول القرن 8-11م (2-5 هـ) تر و تعليق إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984
43/ مارسي جورج : المدن الفن الشهيرة تلمسان تر سعيد دحماني ، مطبعة موقان ، البليدة ،2004 .
44/مجاني بوبة : دراسات إسماعيلية ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2002 ،2003 ،
45/مزين محمد : فاس و باديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي ، ط1 ، ج2 ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1986 .
46/إبراهيم مصطفى و آخرون : المعجم الوسيط ، تح مجمع اللغة العربية ، ج2 ، دار الدعوة للنشر ،
47/المطوي محمد العروسي : السلطنة الحفصية تاريخها السياسي و دورها في المغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ،
48/مقر محمد : اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي ، ط1 ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، المغرب ، دار أبي الرقراق للطباعة و النشر ، الرباط ، 2006 .
49/المنوني محمد : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ،1996
50/موسى عز الدين أحمد : النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ط1 ، دار الشروق ، بيروت ، 1403هـ - 1983 م

51/الناصري أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي: الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ، تح و تعليق جعفر الناصري و الناصري ، دار الكتاب الدار البيضاء ، المغرب ، 1954
52/نشاط مصطفى : جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالعصر الوسيط ، منشورات الزمن ، 2006
53/نكادي يوسف : الزراعة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ،ط1 ، مطبعة الجسور وجدة ، المغرب ، 2007 .

4-المقالات :

1/ الإدريسي علي : جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون :مقال في الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون ،تنسيق بناصر البعزاتي ، ط1،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 2007
2/ استيتو محمد :أقوات التغذية في تاريخ المغرب الحديث ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول التغذية و الأزمة في تاريخ المغرب ، العدد 17 ، السنة السادسة ، 1999 ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1999
3/ أسكان الحسين: تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط ، مجلة أمل ، عدد خاص تاريخ الري في الجنوب المغربي أغادير 27 28 أكتوبر 2000 ، العدد 24 السنة الثامنة ، مطبعة النجاح الجدية الدار البيضاء 2001 .
4/البزاز محمد الأمين :حول المجاعات و الأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط ، مقال في مجلة كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط ، جامعة محمد الخامس ، العدد 18 ، 1993 ، ط1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1994
5/ بلعربي خالد: الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ، مقال في مجلة كان التاريخية ، السنة الثالثة ، العدد السادس ، ديسمبر 2009 .
6/بلغيث محمد الأمين :مدرسة مازونة الفقهية خلال القرن التاسع الهجري /الخامس عشر لميلادي وآثارها (قراءة تاريخية)، مقال في دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي ، دار التنوير للنشر والتوزيع ، 2006 .
7/ بلهواري فاطمة: النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري –العشر الميلادي ، مقال منشور في دورية كان التاريخية ،السنة الثالثة ، العدد الثامن ، جوان 2010

8/بوتشيش إبراهيم القادري و عبد الهادي البياض : التربة آفاتها ، و تقنيات علاجها و تدابير استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية الأندلسية ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، تحت إشراف حسن حافظي العلوي ، منشورات عكاظ ، 2011 ،

9/بورويبة رشيد :جولة عبر مساجد تلمسان : مقال في مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة.

10/بوزيان الدراجي : بنو هلال و أحلافهم (المنشأ و الهجرة و الاستقرار) ، مقال في دولة بني مزني ببسكرة 1279-1402م المجلة الخلدونية ، العدد 09 جانفي 2011 ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة .

11/البوسكلاوي سعيد :الجدل الكلامي في عصر ابن خلدون ، مقال في الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون ،تنسيق بناصر البعزاتي ، ط1 ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 2007 .

12/البعزاتي بناصر :مشاكل العلم بالغرب الإسلامي مقال في الفكر العلمي في المغرب في العصر الوسيط المتأخر ، تنسيق بناصر البعزاتي ط1 ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2003 .

13/ ———— :الرياضيات زمن ابن خلدون ، مقال كتاب الأبنية الفكرية زمن ابن خلدون ، تنسيق بناصر البعزاتي ، ط1 ، مطبعة منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2007 .

14/الجراري عباس : الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية ، مقال في كتاب العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007

15/حاجيات عبد الحميد :الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان ، مقال في مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة.

16———— : تطور مدينة ندرومة في عهد بني زيان مقال منشور في تاريخ ندرومة ونواحيها أعلام أقطاب وشخصيات ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، الجزائر

17/ حدادي أحمد : نماذج من عادات المغرب الشرقي وتقاليده ،مقال العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007

18/ حركات إبراهيم :الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب ، مقال في مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة.
19/ ———— : العلاقات بين بني مرين و بني عبد الواد و انعكاساتها ، مقال منشور في كتاب وجدة حاضرة الألفية أعمال الذكرى الألفية لتأسيس حاضرة وجدة (994- 1994) ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، ط1 ، الرباط ، .2003
20/ حسن محمد : أصناف الإنتاج الزراعي بإفريقية من القرن 6هـ/12م إلى القرن 9هـ /15م ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، تحت إشراف حسن حافظي العلوي ، منشورات عكاظ ، 2011
21/ بن حمادة سعيد : التراث الفلاحي الإسلامي بالمغرب و الأندلس خلال العصر الوسيط مقوماته ومراحل تطوره ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، جمع و إشراف حسن حافظي علوي ، منشورات عكاظ ، 2011 .
22/بن الخوجة محمد الحبيب : الهجرة الأندلسية إلى افريقية في القرن 7 هـ / 13م ، الكراسات التونسية ، العدد 69-70 ، السنة 1970 .
23/زبادية عبد القادر :التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي بعض أثاره و أعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان ، مجلة الأصالة العدد 26 السنة الرابعة ، رجب شعبان 1395 ، جويلية أوت 1975 ،مطبعة البعث ،قسنطينة.
24/سعد سامي سلطان : الجاليات الايطالية التجارية في بلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، مقال في مجلة سيرتا ، السنة السادسة ، العدد 10 ، رمضان 1408 ، أفريل 1988 ،دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة
25/ السقا سميرة : دولة بني مزني ببسكرة من خلال كتاب العبر لابن خلدون ، مقال في دولة بني مزني ببسكرة 1279-1402م المجلة الخلدونية ، العدد 09 جانفي 2011 ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة الجزائر .
26/عبد العال عبد المنعم الشامي :جغرافية المدن عند العرب ، مقال منشور في مجلة عالم الفكر ، تصدر عن وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، المجلد 9 ، العدد.1 ، 1971
27/بن شريفة محمد :من تاريخ العادات المغربية الأعياد نموذجا ، مقال في كتاب العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007

28/الصاوي كرم كمال الدين : العمائم والشاشية و أغطية الرؤوس في مصر و المغرب في العصر الاسلامي (دراسة وثائقية) ،مقال في كتاب ندوة البردي و المخطوطات العربية في إفريقيا ، مطبوعات معهد البحوث و الدراسات الإفريقية ، القاهرة 2005

29/الصغير عبد المجيد : الفرج بعد الشدة ، مقال في الفكر العلمي في المغرب العصر الوسيط المتأخر، تنسيق بناصر البعزاتي ط1 ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء المغرب ، 2003 .

30/أبو طالب محمد : نوازل تربوية مقال في التاريخ و أدب النوازل دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر ، انجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، تنسيق محمد المنصور ، محمد المغراوي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط ، ط1 ، مطبعة فضالة المحمدية ، 1995 ،

31/طالبي عمار : عبد الرحمن الأخضري حياته وأعماله ، مجلة العلوم الإسلامية السنة الثانية ، ع 2 ، رمضان 1407 / ماي 1987 م ،

32/ الطاهري أحمد : بلاد الريف المصطلح و العمران من خلال المصادر العربية ، مقال في كتاب التمدن و التعمير في جبال الريف بالمغرب ، ط1 ، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف ، مطبعة الخليج العربي ، تطوان ، المغرب ، 2002 ،

33/الطويل محمد حجاج : التجارة الداخلية و أثرها على ضعف الدولة الموحدية ، مقال في أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع و الدولة عبر تاريخ المغرب ،المنعقدة في جامعة عين الشق بالدار البيضاء من 21إلى 23 فبراير 1989، القسم الثاني ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1989.

34/ـــــــــــــ: الري والزراعة المسقية في الجنوب ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول تاريخ الري في الجنوب المغربي ، أغادير 27 28 أكتوبر 2000 ، العدد 24 السنة الثامنة ، مطبعة النجاح الجدية الدار البيضاء 2001 .

35/عبيد أحمد : التاريخ الجزائري –تقيم و نقد – حالة الجزائر العثمانية ، مقال في مجلة إنسانيات ، العدد 47-48 ، 2010 ، مركز البحث في الإنثربولجية الاجتماعية و الثقافية ، وهران

36/العلج أحمد الطيب : من طور البداية إلى حصن الرجولة ، مقال في كتاب العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ، مقال في العادات والتقاليد في المجتمع المغربي ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 2007 .

37/العلوي عبد العزيز : صناعة النسيج في المغرب الوسيط (الإنتاج و المبادلات) ، مقال في مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية بفاس ، عدد 02 خاص دراسات في تاريخ المغرب ، السنة 1985.

38/العويض سيدي محمد : الزيتون و الزيت في المغرب القديم مقال في مجلة أمل ، العدد 17 ، عدد خاص حول التغذية و الأزمة في تاريخ المغرب ، السنة السادسة ، 1999 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999

39/عيشان المصطفى : مياه الري بين السلطة الدينية والسلطة السياسية أو إعداد التراب الوطني ودرس التاريخ ،مجلة أمل ، العدد24 السنة الثامنة ، عدد خاص حول تاريخ الري في الجنوب المغربي ، ندوة الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي أغادير 27-28 أكتوبر 2000 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2001 .

40/غراب سعيد : كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية مثال نوازل البرزلي ، حوليات الجامعة التونسية ، عدد 16 ، تونس 1978 .

41/محمد فتحة : ملاحظات حول علاقة المدينة بالبادية بالمغرب خلال نهاية العصر الوسيط ، مقال في كتاب المدينة في تاريخ المغرب العربي ، أشغال الندوة المنظمة من 24-26 نوفمبر 1988 ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية 2 ابن مسيك ، الدار البيضاء ، مطابع سالا ، المغرب 1990

42/فقادي الحسين : من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط ، مقال في مجلة أمل عدد خاص حول الأطعمة و الأشربة في تاريخ المغاربة ،العدد 16 ،السنة السادسة ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب 1999 .

43/القرقوطي محمد الهادي : كتاب العبر و أهميته في دراسة تاريخ المغرب الاقتصادي زمن المرينيين ، مقال منشور في مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، 2007 ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، لبيبا ، 2007 ،

44/لطيف محماد : بنية الأسرة البدوية وخصائصها في المغرب الأقصى خلال القرنين 8-9هـ/14-15م مقال في، كتاب الأسرة البدوية في تاريخ المغرب، تنسيق الباضوية بلكامل و أخريات ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة المملكة المغربية ، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ،ط1 ، 2006

45/مزين محمد : الموت في مغرب القرن العاشر ، من خلال كتاب الجواهر للزياتي ،تاريخ وأدب النوازل دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر ، انجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط جامعة محمد الخامس ، ط1 ، مطبعة فضالة المحمدية ،1995،
46/بن ميلاد آمنة : نحو قراءة جديدة لتاريخ النساء المغربيات بدويات القرون الوسطى ، مقال في المرأة المغاربية الواقع و الرؤى المستقبلية ، حولية البيئة الإفريقية لدراسة البنية و التهيئة الترابية ، العدد 2 ، 1994 ، مطبعة ا داكار ، 1994
47/نشاط مصطفى : التغذية و الأزمة في العصر المريني ، مقال في مجلة أمل عدد حول التغذية و الأزمة في تاريخ المغرب ، العدد 17 ، السنة السادسة ، 1999، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999
48/———— :الطفل و الطفولة بالمغرب الوسيط ،نماذج من العصر المريني ، مقال في كتاب الأسرة البدوية في تاريخ المغرب، تنسيق الباضوية بلكامل و أخريات ،كلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة المملكة المغربية ، ط1 ،منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ،ط1 ، 2006 .
49/نكادي يوسف : خصوصيات و تحولات المجال الريفي في بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري ، مقال في المجال البدوي المغربي ، الخصوصيات و التحولات ، تنسيق حليمة بنكرعي و آخرون ، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية سلسلة ندوات و منظرات رقم 3 ،ط 1 ، مطبعة مكتبة دار السلام ، الرباط ، 2007 .
50/———— : أساليب الزراعة و الغراسة و التناوب بين الاستغلال و الاستراحة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، مقال في كتاب الفلاحة و التقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، تحت إشراف حسن حافظي العلوي ، منشورات عكاظ ، 2011 .
51/الهلالي محمد ياسر : نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرن 8-9هـ /14-15م مساهمة في تاريخ الذهنيات ، مقال في مجلة أمل ، عدد حول حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب ، عدد مزدوج 14/13 ، السنة الخامسة 1998 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،1998 .
52/———— : أثر القحط و المجاعات و الأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط ، مقال في كتاب المجاعات و الأوبئة في تاريخ المغرب ، تنسيق

بوبكر بوهادي ، بوجمعة رويان ، كلية الآداب و العلوم الانسانية الجديدة ، بالتنسيق مع الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2002

53/—————: لمحة عن العقوبات العرفية للصوصية في المجال القروي المغربي خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، مقال في كتاب الأعراف بالبادية المغربية ، تنسيق البضاوية بلكامل و أخريات ،منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ، ط1 ،طبع دار السلام للطباعة والنشر و التوزيع ، الرباط ، 2004.

5-الرسائل الجامعية

1/أحمتي عبد العالي : التغذية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط قضايا و نماذج ، رسالة لنيل شهادة دكتوراه بكلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس ، 2001 -2002

2/الأعرجي نضال مؤيد مال الله عزيز : الدولة المرينية السلطان يوسف بن يعقوب المريني " 685-706 هـ /1286 -1306م دراسة سياسية و حضارية ، رسالة ماجستير مقدمة لكلية التربية لجامعة الموصل ، 2004 .

3/الطويل محمد حجاج : الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ،رسالة ماجستير مرقونة بكلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ، 1988.

4/حافظي علوي لحسن : واحات بلاد المغرب من القرن 4هـ-8هـ/10-14م ، رسالة دكتورة بجامعة محمد الخامس كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، أكدال الرباط ، السنة الجامعية 2004-2005 .

5/أبو المعاطي يحي : الملكيات الزراعية و اثرها في المغرب و الأندلس (238-488هـ /852-195 دراسة تاريخية مقارنة ، ج2 رسالة دكتورا بقسم التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية كلية دار العلوم جامعة القاهرة، 2000 .

6-المراجع الأجنبية :

1/ mohamed benchekroun :la vie intellectuelle sou les mérinides et les wattasides , imprimerie mohammed 5 , fès-rabat ,1974 .

2/ Robert Brunshvig : Un calife hafside méconnu,revue tunisienne 1930

3./ Cherbonneau : La Faresiade ou le commencement de la dynastie des Beni hafss : quatrieme extrait, traduit en français et accompagnée de notes , Journal asiatique 1852,

4/ATALLAH DHINA : les états de l'occident musulman aux 13 ,14 ,15 siècles , institutions gouvernementales et administratives ,office des publications Universitaires , Alger

5/Feraud : Conquête de Bougie par les Espagnoles d'après un manuscrit arabe , revue africaine ,vol 12 (1868) OPU Alger 1985.

6/Louis Massignon, Les Sept Dormants d'Éphèse (Ahl al-Kahf) en Islam et en Chrétienté,revue des études islamiques, Paul Geuthner, Paris, 1955

7/MAS LATRIE : t'raités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyan-age , PARIS

فهرس الأعلام :

فهرس الأماكن :

فهرس القبائل :

فهرس الموضوعات :